حاضر الثقافة في مصر

في ضوء علميْ اللغويات والمصريات



بيومي قنديل

الطبعَة الرابعة

مزيدة ومنقحة

الكتاب : حاضر الثقافة فى مصر
الناشر : المؤلف
تصميم الغلاف : المؤلف
الطبعة : الرابعة
رقم الإيداع : ٨٦٦٠ / ٢٠٠٨
رقم الإيداع الدولى : ISBN 977175651-6
المطبعة : بريما جرافيك للطباعة و التوريدات - ٠٢/ ٢٦٣٧٢١٢٠

لقد هزمناهم و أنسيناهم عبادة آلهتهم

شاعر يوناني قديم

محتويات

الكتاب : حاضر الثقافة فى مصر
الناشر : المؤلف
تصميم الغلاف : المؤلف
الطبعة : الرابعة
رقم الإيداع : ٨٦٦٠ / ٢٠٠٨
رقم الإيداع الدولى : ISBN 977175651-6
المطبعة : بريما جرافيك للطباعة و التوريدات - ٢٦٣٧٢١٢٠ /٠٢

تقديم

نظرت فرأيت، و لما رأيت رصدت، و لما رصدت استنتجت، و لما استنتجت خرجت أدعو بدعوتي، هذه التي غدت وجهتي التي رسيت عليها في نهاية المطاف.

و لم يكن بوسعي أن أنظر فأرى، لولا أنني كنت قد تحررت عقلياً من الخراريف التي تجرعتها في دور التعليم في بلادي.

و لم يكن في طوعي أن أرصد دون أن أتجاوز العوائق التي وضعتها أمام ضميري الحي، قواعد الأخلاق الدينية السائدة.

و كان متعذِّراً، دون استنادٍ إلى منهجٍ علمي صارم تقوده المعلومات الموضوعية الموثقة، أن أستنتج أي نتائج حتمية و أن أتمسَّك بها، مثلما أفعل الآن، مهما مسَّت عواطفي أو عصفت ببديهياتي أو أطاحت بمسلَّماتي.

و كان من رابع المستحيلات أن أخرج بدعوتي التي أدعو بها في الوقت الحاضر دون أن أمتلك قدراً من الجراءة التي وطَّنتني عليها معرفتي. فالجراءة بنت المعرفة و الخوف ابن شرعي للجهالة.

و باختصار لم يكن في استطاعتي أن أقول شيئاً جديداً و رزيناً و عاصفاً، معاً على مثل هذا النحو، أو على الأقل هكذا أتصوَّر، قبل أن أقرر الإقامة الدائمة في قارتي التي اكتشفتها، دون عونٍ من أحد، و بعد رحلة طويلة، كنت خلالها أجدِّف بيدٍ واحدة، إذ كانت الأخرى مشغولة بضمان قوتي، وسط مجتمع صار أشبه بالغابة االبشرية، و الأدق "جنينة حيوان بشرية"Human Zoo وأقصد بتلك القارة: ثقافة الأميين المصريين أي الثقافة القومية المصرية التي يحملها الأميون المصريون بصفة رئيسية.

دنشواي بين ثقافتين:

في البدايات الأولى، نظرت و قرأت بل و درست خلال النسق التعليمي في مصر، ما كتبه "أحمد شوقي" أمير الشعراء (العرب بطبيعة الحال) عن حادثة "دنشواي":

يا "دنشواي" على رباك سلام،

ذهبت بأُنس ربوعك الإيام

شهداء حكمك في البلاد تفرقوا،

هيهات للشمل الشتيت نظامُ.

كيف الأرامل فيك بعد رجالها،

و بأي حالٍ أصبح الأيتامُ...إلخ

و ما كتبه "حافظ إبراهيم" الملقب بشاعر النيل، عن نفس الموضوع:

أيها القائمون بالأمر فينا

هل نسيتم ولاءنا و الودادا

خفضوا جيشكم و ناموا هنيئاً

و ابتغوا صيدكم و جوبوا البلادا،

و إذا أعوزتكم ذات طوقٍ فصيدوا العبادا...إلخ

بل و ما كتبه "صلاح عبد الصبور" الذي يعده نقادٌ كثيرون في مصر و أحياناً فيما يُسمى بـ "العالم العربي"، أحد كبار الشعراء الرواد المجددين المجيدين:

و ثوى في جبين الأرض الضياء،

و مشى الحزن في الأكواخ،

تنينٌ له ألف ذراع،

في كل دهليزٍ ذراع...الخ

و ما كتبه و الأولى ما أنتجه الأميون المصريون أي من أدعوهم بالمصريين-المصريين أي المصريين الحقيقيين عن نفس الموضوع:

يوم شنق زهران كانت صعبة وقفاته،

أمه عليه بتنوح فوق السطوح و اخواته،

و ابوه كما السبـــع يوم الشنق لم فاته...إلخ

و لست غافلاً عن أن الموازنة هنا بين أفراد كلٍ بمفرده و بين جماعة. و لست جاهلاً أن من "سمع عن" الحادث ليس كمن "عاشه". و لست مهملاً الفرق بين المعزِّين و بين أصحاب المأتم، أي أبناء القرية الواقعة في زمام "منوف". و لكن كل ذلك لا يخدش، من قريبٍ أو من بعيد، الحقيقة الناصعة التي ينساها و يتناساها "المتعلمون المصريون" باستمرار: الصورة التي رسمها ـ

و/ الشعر رسم بالكلمات/ كما علّمنا "أرسطوطاليس" - الأميون المصريون، باللغة المصري الحديثة أو "اللمح"، حسب تسميتي الخاصة، أروع، بما لا يُقاس، مما سطَّره "المتعلمون المصريون" باللغة العربية الوافدة إلى مصر و وادي النيل من غرب آسيا، تلك اللغة التي حازت أفعل التفضيل: الفصحى، دون سندٍ من منطق أو مسوِّغ من واقع. فالناطقون الأفراد بهذه اللغة أو تلك، هم الذين نستطيع، في بعض الأحيان، أن نصفهم بهذه الدرجة أو تلك من الفصاحة، دون اللغة التي ينطقون بها على إطلاقها، أياً كانت. فـ"ونستون تشرشل" لا يملك فصاحة "وليم شكسبير" لمجرد أن كليهما تحدث أو كتب بنفس اللغة: الإنجليزية. و نفس الأمر ينطبق إذا تطرقنا للغة الألمانية على "أدولف هتلر" و"هينريش هايني" و إذا رجعنا إلى اللغة العربية على "سحبان" و أي فرد من قبيلته: "وائل" التي عُرف عنها هذا المثل: "أفصح من سحبان وائل".

بل و لا أبالغ إذا قلت أن ما كتبه "المتعلمون المصريون" عن مأساة "دنشواي" لا يرقى إلى العتبات الأولى لما صاغه أولئك "المنبوذون" المصريون الذين لا يزالون يحملون قدراً زاد أو قل من رجس جدودهم الفراعنة، أولئك الذين يسميهم "المتعلمون المصريون"، إذا قرروا، في بعض الأحيان، إسباغ كرمهم عليهم: "البسطاء"، أو "الجهلاء" إذا ارتأوا، و هذا ما يحدث في أغلب الأحيان، حجْب ما منحوا من كرم. و دع عنك استهداف الإعلام الزائف المفروض في أرض "إيزيس" لهم في الأعمال التي يزعم أصحابها، هم و البلاط العسكري الحاكم، أنها "فنية" من أفلام و مسلسلات و تمثيليات("الصعايدة وصلوا" نموذج)...إلخ

و أظن أن المرء ليس بحاجة ماسة إلي التعمق في مناهج نقد الشعر، قبل أن يسلِّم بأن "شوقي" ألقى بالمسؤولية، في الشطر الأول من البيت الأول عن فعل بشري محدد على "القدر" أو "الأيام". و ليس معنى ذلك أنني أري أي ضرورة لأن يعلِّق الشاعر هنا بالمسؤولية في رقبة الإنجليز. فهذه ليست في الغالب، هماً من هموم الشعر، لكن العكس ليس هو الآخر صحيحاً، أي أن تقرير الوجه الآخر للأمر خاطئ بنفس الدرجة أو درجة مقاربة. و يستطيع المرء أن يتساءل طويلاً عن مدى أهمية "الربى" و "السلام" بل و عن الروح الغنائية التي يحفُّها الطرب من كل جانب في موقف يتوقع فيه السامع المهموم قدراً من الأسى و قدرين من الحزن.

أما "حافظ إبراهيم" فكان مناسباتياً هنا. و هبط شعره الراقي الذي نعرفه عنه أحياناً ليست قليلة إلى مستوى النظم الذي يوازي "الزجل" الذي لا يهتم إلاَّ بتلبيس المعاني الصريحة - و دع

عنك حظها من الرجاحة - في موازير الوزن و قواعد الروي و القافية. و لقد فقد كاتب القصيدة التي لا أستطيع وصفها إلاً بالركاكة، المفروضة من جانب النسق التعليمي الزائف على كافة تلاميذ مصر، حساسية الشاعر تماماً عندما عيَّن المسؤولين عن ذلك الفعل، بل و وجه إليهم خطابه: / أيها القائمون بالأمر فينا/

فإذا جئنا إلى "عبد الصبور" فإننا نفاجأ بمفردة "التنين" التي و إن كانت تشير إلى أسطورة جنوب-شرق أسيوية، بصفة رئيسية، رائعة، إلاَّ أنها أجنبية، و ليس على استدعاء أساطير الأجانب أي مأخذ من جانبي، شرط امتلاك المستدعي للقدرة على استيعابها و دمجها في نسقه هو الخاص، ولكن يبدو أن أجنبيتها هذه أعجزت "عبد الصبور" أي مستدعيها نفسه إلى بنية العقل و الوجدان المصريين، عن توظيفها في قصيدته. فـ "التنين" قد يكون مرعباً برؤوسه المتعددة و جرمه الضخم ولا بشريته...إلخ أما الحزن فقد يكون شديد الوطأة و قد يكون قاهراً و قد يكون فاتاً في العضد مشيعاً للعجز، ولكنه على وجه التحديد ليس مرعباً. و ما كان ينبغي أن يغيب عن شاعر في قامة "عبد الصبور" ذلك الفرق بين الرعب والحزن. فالرعب ينبثق باستمرار رداً عل عنصر مفاجئ مجهول، أما الحزن فيترقرق بصفة شبه دائمة استجابة لعنصر معلوم غير مفاجئ، هو في حالتنا هذه: حادث "شنق زهران"، الذي كان قد مر عليه وقت طويل بالنسبة للمبدع المصري- المصري الذي لم يترك إمضاءه على عمله الفذ، و وقتٍ أطول بالنسبة لنا نحن الذين نضم الشاعر الحديث "عبد الصبور".

و يقف عجز هذا الشاعر المعاصر عن توظيف ما هو أجنبي في قصيدته بمثابة السر وراء استشعار المتأمل لفعل "مشى" في عبارة "مشى التنين" أمام هبوط تعبيري understatement واضح. على أن مفردة "التنين" ليست هي المفردة الوحيدة الأجنبية فـ"الأكواخ" كذلك. والقصيدة كلها، في الحقيقة، مكتوبة بلغة مجهولة تمام الجهل بالنسبة لوجدان أكرر وجدان المصريين.

على الجانب الآخر نجد في موال المصريين-المصريين "جدور" عميقة تربط "زهران" بطلنا بأرضه "دنشواي": أمه و أبوه و اخواته. و نقابل كلماتٍ بسيطة بلا تزويق و لا تلوين، بلا استعارات خلابة و لا تشبيهات تجمع متنافرات شديدة التباعد. و مع ذلك فهي لغة مفعمة بالشعر على نحوٍ معجز، إذ يتعذَّر - إن لم نقل يستحيل - علينا أن نترجمها إلى لغة بديلة أخرى دون أن تفقد

نصف ما تحمل على الأقل، ليس من معاني و حسب، بل و من ارتباطات و إيحاءاتٍ و ظلال. وانظر معي ـ قارئي الكريم ـ على سبيل المثال، إلى حرفيْ "الحاء" المسبوقين بصائتين طويلين في كلمتيْ "بتنوح" و "السطوح"، و كم يشبهان سكينين حاميين يلقيان و الأولى ينزان في الفؤاد جروحاً طويلة الأثر و افتقاداً مبرِّحاً و لوعة شجية. و تطلَّع معي، إلى ذلك "الأب" الذي يشبهه الشاعر العبقري المجهول بـ "السبع"، بما لهذا "الحيوان الممجد على لسان المصريين-المصريين" من ارتباطات تدور حول "العزة و الأنفة و الرفعة" ـ و ليس الأسد الذي يُعد رمزاً قومياً عند العرب ـ و كيف وقف عاجزاً كل العجز عن أن يفعل شيئاً يحول دون ما تفرضه قوة قاهرة على فلذة كبده، سوى أن يتابع ما يدور. أليس يرجِّع هذا السطر الأصداء التي كان السطر الأول قد ألقاها في وجداننا حول "صعوبة" الموقف؟

و لكن ما هي تلك القوة القاهرة؟ يهمل الشاعر الأمي الساكن في أميته و نتيجة مباشرة لها أي بسبب "تلوثه" بأعظم حضارة، على وجه الترجيح، عرفها شمال شرق أفريقيا وجنوب أوروبا، أو الشرق الأوسط القديم، و بتعبيري الأثير "أفريقيا المتوسطية"L'Afrique Mediterranée ، كل ذكر لتلك القوة، سواء بشكلٍ صريح أو ضمني، و ذلك على النقيض من صاحب "القائمون بالأمر فينا"، فيرتفع شعره إلى ذرى تجاوز أعناق السماء، فلقد أدى ذلك الإهمال "الحسيس"sensible بتلك القوة أن تبدأ من المادي و تمضي إلى الميتافزيقي ذاته، أي أن "زهران" الإنسان يقف هنا ليس في مواجهة الإنجليز و حسب، بل القدر نفسه، تماماً كما وقف الإنسان في التراجيديات اليونانية القديمة. فلقد كان "زهران" إنساناً عادياً في ضمير الشاعر المصري-الأمي المجهول، كما كان بطلاً كذلك أي أكبر من البشر، و مثل هذا الإنسان الأكبر من البشر لا يرضى له شاعرنا المصري-المصري أن يوضع في مواجهة الإنجليز-البشر و حسب، و إلاَّ فإنه يكون عندئذٍ قد اجترح بطولته و انتقص نبالته و خدش عظمته.

شعر شعبي أم شعر مصري:

قد يكون نقدي موفقاً و قد لا يكون، فلست ناقداً و لا أطمح أن أكون. لكن الحقيقة تظل قائمة، في ظني، أو على الأقل هذا ما يبدو لي: ليس لـ "المتعلمين المصريين" أي حق فيما يستشعرونه من استعلاء أمام شعر الأميين المصريين أي المصريين-المصريين، و هو استعلاء لا يكتفي بأن يجري على ألسنتهم بين الحين و الآخر دعوات من قبيل التطوير، بل و يجعل شريحة من كبار "المتعلمين

المصريين" و أقصد هنا "الأكاديميين" من مدرسي "الأدب الشعبي" في مصر يطلقون على مثل هذا الشعر الخالص المصرية مصطلح "الأدب الشعبي"، و هو الأمر الذي يفترض ـ و هذا ما ينسونه أو يتناسونه ـ أن يكون الأدب الرسمي الأرقى شعراً مصرياً أيضاً. و هذا ليس صحيحاً. و إيضاحاً للأمر أسوق هذا المثال: الشعر الهندي الموازي لشعرنا هذا في ولاية "أوتار براديش" شعر شعبي. لماذا؟ لأن الشعر الرسمي في نفس الولاية ناطق أيضاً باللغة الهندية، و ليس بالإيرانية أو المغولية أو غيرهما من لغات أجنبية بالنسبة للهنود، بل و ليس ناطقاً حتى بالسنسيكريتية القديمة المقدسة التي كانت لغة قومية/ رسمية في الهند في أزمنةٍ سابقة و لم تعد كذلك مع هنديتها غير المنكورة.

و معنى القول أن الفرق بين ما هو شعبي و ما هو رسمي في الهند هو فرق في المستوى الذي يستخدم عنده الشعراء الشعبيون نفس اللغة الهندية. و نفس الأمر ينطبق على كافة الدول-القومية État-nations في كافة أنحاء العالم أي تلك التي تتخذ لغتها القومية/ الأم لغة رسمية لها. أما في مصر فالأمر مختلف، و هو أشبه بالأمر في فنلندا إبان السيادة الثقافية للسويد، و هي السيادة التي أسفرت، ضمن ما أسفرت عنه ـ عن جعل اللغة السويدية لغة رسمية للفنلنديين، و هو ما يشبه إلى حدٍ ليس بالقليل، الوضع في بنجلاديش قبل الإستقلال في مطلع السبعينات، إبان السيادة الثقافية الباكستانية و في قلبها اللغة "الأوردية". فالشعر الفنلندي كان يُوصف ـ بالخطأ ـ بأنه شعر شعبي. و لكن ذلك لم يكن صحيحاً و ظل الأمر كذلك حتى نجح الفنلنديون تحت قيادة مثقفيهم بطبيعة الحال في تصعيد لغتهم "العامية" أي الفنلندية التي كانت تحمله إلى مستوى اللغة الرسمية للبلاد. و في هذا الإطار جمع الشعراء ذلك الشعر الذي ُوصف يوماً بأنه "شعبي" كي ينسجوه في ملحمة "كاليفالا" الرائعة كي يصبح شعراً رسمياً و غدت هذه الملحمة، هي الأخرى فنلندية رسمية. وعلى نفس النول أو المنوال ـ كيلا يغضب "المتعلمون المصريون" ـ سوف يظل من الخطأ وصف شعرنا المصري بأنه شعبي طالما ظلت اللغة الرسمية للبلاد لغة أخرى بخلاف "اللغة المصري الحديثة"(=اللمح) حسب تسميتي. و مرادي في هذه النقطة لا يعدو الدعوة إلى تدريس هذا الشعر الخالص المصرية لكافة تلاميذ مصر من المالح حتى الشلالات، عوضاً عن الإكتفاء بدرسه في مدرجات قسم يسمى قسم "الأدب الشعبي" في كلية الآداب بجامعة "القاهرة" والأصح "الكاهرا"، إلى جانب أقسام اللغات الأجنبية كالأسباني و الياباني و الصيني الخ، وبعبارة أخرى: ينبغي أن يعمل التعليم المصري ـ لو كان له وجود ـ على تسييد روح مصر في واديها، بدلاً من

حبسها بين أربعة جدران، و هو الحبس الذي يُساهم، دون جدال، في محو الشخصية القومية للمصريين المعاصرين.

ابن عروس مصرياً:

و نفس الأمر يسير على شعر "ابن عروس" الذي تقطع {لغته المصري الحديثة "اللمح"} بنسبته إلى الناطقين بهذه اللغة دون من بنوا له و الأدق لسمِّيه ضريحاً في بلادهم. و انصت معي - قارئي الكريم - إلى سطرين اثنين من شعر هذا الشاعر المصري الأصيل:

من قدِّم السبت يلقا الحد قدامه،

من خدم الناسِ صارو الناسِ خُدَّامه!

مدح و ردح:

و قارن بين هذا الشعر الذي قد يرميه هذا الناقد أو ذاك بأنه: مباشر، و بين ما جاء في ديوان الشعر العربي الذي ينقسم أو يكاد إلى نصفين: المدح و الردح أو الهجو/ الهجاء، لمن يشاء، مما تغرضه الثقافة المسيِّدة قسراً في أرض "إيزيس" خلال النسق التعليمي في مصر على تلاميذنا من قبيل:

وجهك يا عمرو فيه طول/ وفي وجوه الكلاب طولُ. أو: "قولا لـ "دبسٍ" شر من يطأ التراب و يلمس/ إن كان أنفك هكذا فالفيل عندك أفطسُ، أو: "كأنك شمس و الملوك كواكب/ إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكبُ"، أو، "ما شئت لا ما شاءت الأقدار، فاحكم فأنت الواحد القهار"[4]، الخ و في نهاية المطاف الوقاحة و النفاق. فالثقافة في نهاية الأمر سلوك.

و لسوف أتجاوز هنا صمت أولئك "الأكاديميين المصريين" عن العدوان الذي يتعرض له الإنجاز المصري في مجال ما يُسمونه بـ "الشعر الشعبي" كلما اضطر خدم و حشم البلاط العسكري الحاكم، من بين "المتعلمين المصريين" إلى الإتكاء على هذه "التيمة" أو تلك من "تيمات" ذلك "الأدب الشعبي"(استبدال كلمة "رجلي" في موال: "إتدلع يا رشيدي على وش الماية/ سيب رجلي و امسك إيدي على وش الماية" نموذجاً) و هو عدوان طال حتى نشيد "سيد درويش" الخالد الذكر بإقحام عبارة "وي ناصر يا بلادي" في آخر النشيد خلال مصر الناصرية. و لسوف أكتفي بوصف موقف أولئك "السادة الأفاضل" بالصمت بدلاً من الترحيب الذي، أرى فيه، كلما

حدث، نتيجة مباشرة لتبني "الثقافة السامية" بوجهها العربي المتدني بمراحل واسعة من ثقافة قطاعات أخرى من الساميين و مراحل أوسع كثيرة من ثقافة المصريين-المصريين. و أرجو أن يتوفر عندي وقت للعودة إلى نفس هذا الموضوع في وقت لاحق و مكانٍ أرحب.

نموذج من شعر الحب:

و إليك سيدي مثالٌ آخر في شعر الحب من ديوان الشعر المصري-المصري، سوف أتركه دون تعليق:

عجبي على بنت دبَّلتني بدِّي أقابلها،
مكحَّلة العين لكين الكحل سابلها،
مطرَّزة التوب من ديلها لقابلها،
و نهود البنت يا ناس شايلين التوب،
زغبَّرة في السن داخلة على بلاغ يادوب،
من شافها مرة يدوب يا ناس يا ناس جسمه دوب،
يا بخت مين احتضى في العمر مرة و قابلها،
ترد فيه الروح كنه "طيبة" و زايرها!

لغتان و ثقافتان:

غير أن كل ذلك يفترض التسليم بأن في مصر لغتين و ثقافتين و ليس لغة واحدة و ثقافة واحدة. و ليس هناك من يستطيع نفي موقف الأكاديميين الذين عادوا من عواصم غربية عديدة بشهاداتٍ في هذا التخصص بدءاً بـ د. "ع. يونس" و هو الموقف الذي يقوم على الإستعلاء في الوقت الذي يقبل فيه هؤلاء الأكاديميون وصف الخبراء - و لا أقول العلماء - الأمريكان، بصفة عامة للغة التي تحمل مثل هذا الشعر خاصة و الأدب بصفة عامة، بأنها "عامية"، أي ركيكة. وليس "لغة العموم"، كما يزعم بعض الأدعياء، و دليلي في هذه النقطة أن مقابلها هو "فُصحى" بأفعل التفضيل المشهورة. و هو قبول يوازي تسليمهم في وقتٍ سابق، لوصف الخبراء البريطان، بصفة عامة، لنفس هذه اللغة بأنها "لهجة"، و القبول و التسليم هنا تامين، حيث أن هؤلاء الأكاديميين لم يسلكوا يوماً إلاَّ بناء عليها. و هذا واضح سافر في استخدامهم للغة الوافدة من

غرب آسيا في أواسط القرن السابع من العصر المعروف(=م.ع.م.) - و دع عنك استخدامهم أحياناً للغات الأوروبية بمبررات أقوى - في كافة البحوث و الدراسات و الأوراق بل و الشروحات التي يدبجونها بشأن ذلك الأدب المصري الكامل المصرية، و إن لم يفز منهم بهذه الصفة، كما فاز بها الأدب الموازي الذي أنتجه الفنلنديون في بلادهم، بعد أن تحرروا من "فصحاهم" الأجنبية، على سبيل المثال.

لغتان تساويان ثقافتان، سواء في مصر أو أي بقعة أخرى من بقاع العالم. و بخصوص مصر نجد أن اللغة الأولى هي اللغة العربية "الفصحى" الوافدة و الرسمية و المضطهدة(بكسر الهاء) و اللغة الثانية هي اللغة القومية Muttersprache التي يُعلمنا الفرع النفسي من اللغويات Pycholiguistics أنها اللغة التي "يكتسبها" الطفل خلال طفولته، أي قبل أن يُكمل الخامسة من عمره على وجه التقريب. و ذلك نظير كافة اللغات التي قد "يتعلَّمها" في أوقاتٍ لاحقة من عمره فكل هذه اللغات تُعد بالنسبة إليه لغاتٍ أجنبية. و في هذا الصدد يقول بعض الأقوام أننا لو كنا نتكلم "الفصحى" أمام أطفالنا لنطقوا هم أيضاً بها، و لكن مثل هذا القول هو قول وعظي، لا يعني العلماء في كثير و لا قليل. و لكنه يشي، مع دلك، بدرجة مخيفة من اللامنطق، إذ يوهمنا أن بوسع "الكبار" أن يعمدوا إلى النطق بأي لغة خلاف لغتهم الأم أمام أطفالهم!

تصارع أم تعايش:

و اللغتان العربية-السامية و المصرية-الحامية تصطرعان، مثلما تصطرع الثقافتان اللتان تحملانها: الثقافة العربية-السامية و الثقافة المصرية-الأفريقية. و لا تتعايشان، مثلما يدعي قطاعٌ لا يستهان بحجمه من "المتعلمين المصريين"، و يطمئنون إلى إدعائهم. فكل ثقافة من هاتين الثقافتين تقدم وجهة نظر مستقلة عن الأخرى و مغايرة عن بنت عمها للعالم و الإنسان و المرأة و المجتمع و الوطن إلخ. و الثقافة العربية-السامية و في قلبها اللغة العربية تشن الهجوم في حين لا تملك الثقافة القومية المصرية و في قلبها {اللغة المصري الحديثة "اللمح"} سوى المقاومة أي أنها هبطت إلى مستوى الدفاع عن نفسها في أرضها التاريخية!

و لننصت إلى نماذج محدودة لضيق المساحة التي يتيحها هذا التقديم من الأمثال و الأولى من الحكم المصرية التي تنهض بمقاومة الثقافة العربية-السامية الوافدة من غرب آسيا:

العرب جرب

ظلم الغز و لا عدل العرب

الوضوع الفلاحين و الضراط ع "الهوارة"(=قبيلة عربية وافدة)

كناس الدنيا زبال الأخرة

نوم الظالم عبادة

العمل عبادة

يشخ على كعبه و يقول دا قضا ربه

لو لا يغفر جنته تُصفر

الطاعون جالكو السنة دي؟ قالو: جالنا مرتين الطاعون و العرب.

راكب سرجين وقّاع و راجل مرتين كداب(سوداني)

ربنا عرفوه بالعقل.

و بطبيعة الحال ليست هذه هي الأمثال الأشد مقاومة للثقافة العربية-السامية. فالأمثال الأخرى، و كما لا يجهل كثيرون أفصح و أوضح و "أنقح". و لكنني أحمل، مثل يفعل سائرالكتاب في منطقتنا، عن اضطرار بطبيعة الحال، رقيبي داخلي. أضف إلى ذلك أن الأمثال ليست الشكل الوحيد الذي يحمل ثقافة المصريين-المصريين أي المصريين-الأميين، و كما سبق لي القول، بل و لا الشكل الأهم. فهناك المواويل و الواوات و المربعات و الحواديت و "القوافي" و العديد و "النميم" و النكت إلخ، و بعبارة أخرى منظومة متكاملة لـ "ثقافة قومية".

الأميون المصريون و فاشيتهم:

و أذكر في هذا الصدد أنني التقيت في سنة 1984 ، و خلال مؤتمر صحفيي دول عدم الانحيازالذي انعقد في "بيونج يانج"، عاصمة كوريا الشمالية، بعدد كبير من صحفيي القارتين الأفريقية و الأسيوية و ربما الأمريكية اللاتينية، إن لم تكن الذاكرة قد خانتني، لكنني لن أنسى انطباع أولئك الصحفيين عن النكت التي أنتجها المصريون-المصريون أي المصريون-الأميون، ووجهوها في سبيل مقاومة الدكتاتورية-العسكرية، و خصوصاً نكتة المواطن الصالح الذي توجه إلى صندوق الإقتراع للإدلاء بصوته في أحد الاستفتاءات التي تخيِّر المواطنين بين "نعم" و "لا"، وهي النكتة التي تجري على هذا النحو:

"واحد ابن بلد حب يروح يستفتي. الموظف ناوله البطاقة و هي ع الوش اللي مكتوب عليه: نعم.

صاحبنا ابن البلد قلب البطاقة ع الوش التاني قام لقا مكتوب عليه: نعمين!"

و الحقيقة أن رد فعل زملائنا من صحفيي القارات الثلاث الذين توجهوا إلى "بيونج-يانج" هو الذي أيقظني على أن تلك النكتة العابرة تمثّل أبرع نقد، استطاع أي شعب من شعوب المعمورة في نطاق معلوماتي أن يوجهه - خلال هذا الأسلوب الساخر الذي يرصد الحقيقة عارية، و يُضيف إليها نزف الألم - إلى نموذج الاستفتاء الذي يلجأ إليه عسكريون-دكتاتوريون و أصوليون-دكتاتوريون في كثير من أرجاء العالم. و غني عن الذكر أن لغة النكتة حاسمة في نسبتها إلى المصريين-المصريين أي المصريين-الأميين حتى و لو رواها عنهم "متعلمون مصريون" في أوقاتٍ لاحقة.

وضع شاذ:

تقف الثقافة القومية المصرية، كما سبق لي القول، في وضع الدفاع في أرضها التاريخية في الشرق الأوسط الحديث، حسب التسمية السائدة حالياً لمنطقتنا، و بعبارة أخرى يقف "المصريون الأميون" في حالة مقاومة، وحدهم و دون متعلميهم. و هذا وضع شاذ بالغ الشذوذ لا يُعرف له نظير في العالم أجمع شرقيه و غربيه، شماليه و جنوبيه. والأنكت أن "المتعلمين المصريين" لا يعوون مجرد الوعي بوجود ثقافتين في مصر فضلاً عن وجود صراعٍ بينهما.

و لكن لماذا أنتصر، على هذا النحو، للثقافة المصرية، و في قلبها بطبيعة الحال "اللمح"، حتى إذا سلّم "المتعلمون المصريون" للحظة واحدة، بما أقول من صراعٍ حاد بينها و بين الثقافة الأخرى و في قلبها اللغة الأخرى؟

جوابي هو أنتصر لها لسببين:

الأول: أنها الثقافة التي تنحدر إليّ من جدودي المصريين القدماء، و لا أقول الفراعنة وحسب، أولئك الذين بنوا إحدى أعظم حضارات، إن لم أقل أعظم حضارة في العصرين الحجري الحديث Neolithique و البرونزي في الشرق الأوسط القديم و الأدق في شمال شرق أفريقيا و جنوب أوروبا، و بتعبيري الأثير "أفريقيا المتوسطية" و ذلك عن طريق التواتر، أي ثقافتي القومية، بمعنى

الثقافة التي أتقنها تمام الإتقان، دون أدنى معاناة، و ذلك خلال "الاكتساب" و تلمس شغاف وجداني دون قفزٍ على أي حواجز، أي دون حاجةٍ مني إلى تعلُّم أبجدياتها في دور تعليم.

الثاني: أنها الثقافة الأرقى في المنطقة، بمعنى أنها أكثر إنسانية و أكثر تسامحاً و أكثر قبولاً للآخر و أكثر عقلانية و أوسع غنى بالأساطير و أفصح تعبيراً عن الثقافة العربية-السامية التي يريد الخبراء الأنجلو-أمريكيون و متدربوهم من أكاديميينا أن تسود و أن تسيطر و أن تمحو كل أثر لأي ثقافة أخرى أصلية قومية محلية autochtone في مصر كالنوبية و البجاوية و السيوية إلخ.

و معنى القول، بصريح العبارة أن خسارة الثقافة المصرية، و هذا هدف يسعى إليه أعداء تاريخيون للمنطقة في معظم الأوقات سراً و أحياناً علناً، هي خسارة للمصريين، وكذلك لكافة سكان المنطقة من جميع القوميات، بمن فيهم الساميون أنفسهم أي كلٍ من العرب و العبرانيين معاً.

إبادة ذاتية :

و إذا كان المصريون الذين كانوا، حتى يوم الأربعاء الأسود المشهور، قبل أكثر من نصف قرن، أرقي شعوب المنطقة، كما يُؤكد لنا أجانب غير مغرضين (الهنود نموذجاً) يبدون اليوم "أدنى" من العرب-الساميين أنفسهم، فذلك راجع بالتحديد، إلى أن من يُسمون أنفسهم أو يُسميهم الآخرون عرباً يبدون "تعساء" بثقافتهم العربية-السامية (خلع الخليجيات لـ "السدال" في إطار مقاومة "الأصولية الوهابية" نموذجاً). و قد نشرت جريدة "اليوم" التي تصدر في منطقة "الإحساء" الشرقية في أواسط السبعينات من القرن الماضي قصيدة تدعو المرأة هناك إلى خلعه بدأها الشاعر الذي كان يستشرف وقت ذاك الأفق الآتي بهذا السطر: لا تخافي مزقيه.) في حين أن "المصريين-الساميين" أي "المصريين-المتعلمين" يبدون "سعداء" بتبنيهم للثقافة العربية-السامية، مع أنها مفروضة عليهم من جانب "الخبراء" الأمريكيين بصفة خاصة و الغربيين بصفة عامة عبر نسقين يُمليهما على المنطقة هؤلاء "الخبراء" و هما التعليم و الإعلام(إعتزاز و افتخار و ابتهاج المرأة المصرية-العربية/ السامية أي "المصريات-المتعلمات" بلبس الحجاب فالخمار فالنقاب فالسدال. هجوم تحالف العسكروت-الكهنوت الحاكم في مصر، تحت رعاية الولايات المتحدة على "الفراعنة و نصب "الموالد"و زيارة القبور، و التبرك بالأضرحة إلخ. نماذج)، و هو الأمر الذي يرقى في رأينا إلى اتخاذ قرارٍ بالإبادة-الذاتية Self-genocide و لا نبالغ إلاَّ قليلاً للغاية إذا وصَّفناها بـ "المحرقة-الذاتية" Self-holocaust.

ضرورة القومية :

لست أكشف سراً إذا قلت أن جزءاً من موقفي هذا من قوميني المصرية جاء على سبيل "الانعكاس" للقوميات العديدة التي اتصلت بأبنائها على نحو أو آخر.

زرت ألمانيا "الغربية" في سنة 1982 و كانت العاصمة الألمانية العريقة "برلين" كما نعرف جميعاً خاضعة وقت ذاك لاحتلال رباعي: الإتحاد السوفييتي(الراحل) و الولايات المتحدة و بريطانيا وفرنسا. و أمام متحف الآثار المصرية في مدينة "ميونخ" و قفت أتبادل الحديث مع الحارس العجوز. و كم كانت سعادته عندما بدأت حديثي معه باللغة الألمانية. ولكن هذه السعادة انقلبت إلى غضب قاتم عندما حوَّدت على اللغة الانجليزية كي أستخدم مصطلحاً في علم المصريات. أخذ خطوتين إلى الوراء كي يلقي عليَّ محاضرة باللغة الألمانية عن وطنه ألمانيا "المحتلة" بدأها هكذا:

ـ ألمانيا دولة عظمى و ينبغي على جميع زائريها أن يتقنوا اللغة الألمانية، لغة "جوته" و"شيللر" و "بريخت" و هاينى"...

و عقب المحاضرة التي سمَّعني (=أسمعني) إياها هذا الحارس الألماني المجيد أخذت أتأمل موقف المصريين المعاصرين من مصريتهم و لغتهم "اللمح"، تلك التي لا يُدركون أصلاً أن لها وجوداً. و إذا أشار شخصٌ ما إليها، إندفعوا لمن لدغه دكر عقرب يافع، كي يرددوا أفكاراً بالية، شديدة الخطأ بالغة الضرر معاً. و فوق ذلك ليست أفكارهم الخاصة، بل الأفكار الذي فُرضت عليهم فرضاً خلال النسقين الزائفين في مصر: "التعليم" أو ما يبدو أنه كذلك و "الإعلام" المتوحش، الذي بلغت ساعات إرساله المسموع و المرئي خلال العهد الناصري، ما وضع مصر في مرتبة الدولة الثانية على نطاق العالم بعد الإتحاد السوفييتي(الراحل) الذي كان يضم 15 قومية/ لغة مختلفة!

و الغريب في الأمر أنهم يرددون تلك الأفكار و كأنها أفكارهم هم التي أنتجوها وتشكل جزءاً لا يتجزَّأ من كرامتهم الشخصية التي ينبغي أن يدافعوا عنها حتى الموت والاستشهاد، موت مخ نخيهم و استشهادهم بطبيعة الحال.

و يومها تذكرت موقف أستاذنا "بيتر فولف" الذي كان يُدرِّس لنا اللغة الألمانية في أواخر الستينات في "أسوان" عندما مرت على لساني أثناء الدرس عبارة "ألمانيا الشرقية"، وكيف انفجر

داخله بركان ثائر، بذل قصارى جهده كي يسيطر عليه بأسنانه المجزوزة وقبضتيه اللتين أخذتا ترتجفان على جانبي أذنيه، و كأن ثعبان كوبرا قد عضه، و هو يشرح:

- لا يوجد شيئ إسمه "ألمانيا الشرقية"، بل يُوجد شرق ألمانيا و هو "بولندا".

و ذات يوم و خلال زيارتي التي أشرت إليها قبل قليل لألمانيا، سألت عن الطريق لأحد الألمان باللغة الفرنسية في مدينة "هانوفر". فما كان منه إلا أن رد باللغة الفرنسية ذاتها:

Ah! Vous parlez le français que je ne l'aime pas de tout!

و اكتفى بذلك. و لم يرد على سؤالي، أي أنه أفهمني أنه يعرف الفرنسية، لغة الفرنسيين الذين يحتلون عاصمة بلاده العريقة "برلين" في إطار الإحتلال الرباعي لها. لكنه لن يستخدمها حتى في الرد على سؤالٍ من عابر طريق.

و قد يقول قائل أنهم الألمان الذي انبثقت بينهم "النازية". و لكنه الاعتزاز القومي، وهو الأمر الذي يُعد بمثابة الخبز الروحي الذي يقتات عليه كل البشر في كافة البلدان التي زرتها من كوريا شرقاً إلى "ويلز" غرباً. و إن كنت أنسى فلن أنسى موقف صديقي المستشرق السويدي "إنجفار ريدبيرج" الذي ذكرت أمامه خلال زيارته لمصر في شتاء 2001دولة "فنلندا"، فإذا به يصحح لي معلوماتي - بهدوء بالغ - بأن ما أشير إليه باسم دولة فنلندا ليس سوى مقاطعة "متمردة" من السويد.

و بطبيعة الحال لأستاذي الألماني و صديقي السويدي آراؤهما. و لكنني أود هنا أن أشير إلى إعتزازهما القومي. فلكل قومية أساطيرها، التي تتفق أو تختلف عن الواقع إلى هذا الحد أو ذاك، لكنها في الحالتين تشكِّل جزءاً لا يتجزَّأ من تاريخها الخاص، فيما عدا قومية واحدة، مع أنها أقدم قومية عرفها التاريخ.

دفاعاً عن اللغة الأم:

و نعرف أو ينبغي علينا، أن الضحايا الذين سقطوا خلال المظاهرات الضخمة التي نظَّمها البنغاليون يوم 21 أمشير/ فبراير سنة 1952، فيما كان يُسمى وقت ذاك بـ "باكستان الشرقية"، دفاعاً عن حقهم في استخدام لغتهم البنغالية "العامية" كلغة رسمية للبلاد أي في "باكستان" التي كانت قائمة وقت ذاك، إلى جانب اللغة الرسمية "الفصحى": الأوردية، كانوا بمثابة المبشرين بفجر الاستقلال الذي تحقق لهم في سنة 1972، تحت اسم "بنجلاديش" أي بلاد البنغاليين. و على

أي حال تلك هي الذكرى العطرة التي يحتفل بها أبناء "بنجلاديش" بصفة سنوية الآن أمام النصب الذي أقاموه تخليداً للضحايا العزاز، وفضلاً عن ذلك هو اليوم الذي ارتأت الأمم المتحدة أن تفرده للاحتفال العالمي باللغات القومية.

قل هي القومية :

و لقد شاهدت، مثلما شاهد كثيرون منا عبر شاشات التليفزيون صورة تلك السيدة الكورية الجنوبية العجوزة (=العجوز) تندفع نحو ضابط كوري جنوبي شاب يرتدي الزي الرسمي ومدجج بالسلاح خلال المظاهرات التي بلغ قوامها 200 ألف نفس، تلك التي حاصرت مبنى المحكمة التي مثل أمامها الجنرالان اللذان قادا انقلاباً عسكرياً وحشياً في "سول" في بداية تسعينات القرن العشرين: "بارك-تشونج-هي" Park Chung Hee، و"تشون-دوو-هوان" Chun Doo Hwan، و كيف رفعت ذراعها الأيمن(و ليس اليمنى) و صفعته على وجهه، ليس بأصابعها و ليس بيدها بل بكامل ذراعها. و كيف تجمَّدت اللحظة التالية مباشرة كي تشهد الضابط الكوري الشاب، و قد سقطت رأسه على صدره كي يتلقي الصفعة التالية، هذه المرة بظهر يد ذراع السيدة العجوزة نفسها. غير أن السؤال الذي لم يسأله أحد من "المتعلمين المصريين" من زملائي الذين كانوا يقفون بجواري يتطلَّعون إلى نفس المشهد بل و تعذَّر عليهم أن يستوعبوه عندما وجد من يسأله هو:

- لماذا جاء رد فعل هذا الضابط الكوري المفتول العضلات، المدجج بالسلاح و ربما المسنود أيضاً بالتعليمات على هذا النحو، مع أنه كان يستطيع لو سمح له ضميره الوطني، أن يصرع بحركة واحدة، تلك السيدة العجوزة التي صفعته؟

و بالتالي فإن مثل هذا الجواب لم يكن و لا يُمكن أن يكون جوابهم و لا تفسيرهم بحالٍ من الأحوال لما حدث:

- قل هي القومية الكورية العميقة، التي وضعت في ذراع هذه السيدة العجوزة كل ما تستطيع حمله من القوة التي يملكها الكوريون جميعاً، بما فيها قوة هذا الضابط نفسه، بصفته إبناً باراً لكوريا المقدسة، يستحق شخصه من كل الكوريين لموقفه هذا كل إكبار و كل إجلال، فلقد أدرك في لمح البصر أن هذه السيدة تضربه ليس لأنها تكرهه، بل لأنها تحبه، كما تعاقب أي أم كورية إبنها عندما تضبطه في موقفٍ لا يليق بأي كوري أن يضع نفسه فيه: أن يقف حارساً لعدو الكوريين، حتى و لو

كان من أبناء جلدتهم، و بعبارة أخرى يحاول صد غضب الكوريين المتفجر ضد هذا العدو. فمثل هذا الضابط لم يتعرَّض يوماً، و لا يُمكن أن يكون قد تعرَّض حتى في أشد الكوابيس إزعاجاً لمن يوسوس في أذنيه بأن البوذي الياباني ـ مثلاً ـ أقرب إليه من الكوري المسيحي، مثلما يتعرض المصري في ظل الثقافة السائدة في الوطن الوحيد الذي لم يعُد، دون كل الأوطان، مقدَّساً، و ذلك بعد غروب شمس الفراعنة العظام. و لعلنا نعرف أو ينبغي علينا أن الإيطاليين يقولون عن وطنهم Italia Sacra والفرنسيين France Sacrée و الأسبان España Sagrada و أعرف عن الروس أنهم يقولون عن بلادهم "تسفتايا راسيا " أي "روسيا المقدسة"...إلخ.

و في "روسيا المقدسة" هذه مثل كافة الأوطان فيما عدا وطن، لم يُوقف انحدار صخرة الانهيار التي اندفعت من قمة جبل غير منظور، تساعدها الرياح الغربية، عقب رحيل الإتحاد السوفييتي، سواها: القومية الروسية. و أختار عفو الخاطر موقف البرلمان الروسي أو "الدوما" من مشروع القانون المسمى بقانون "حرية الأديان" الذي رفعه إليه الرئيس السابق "بوريس يلتسين"، و هو القانون الذي كان ليسمح لو مر بحرية الكنيسة الأمريكية: كنيسة السينتولوجي Church of Scientology في التبشير في الأراضي الروسية. و هنا انتفضت الكنيسة الروسية القومية "الأرثوذوكسية" ضد المشروع، و إلى جانبها "الدوما"، الذي انتهى بعد جدل ساخن إلى رفضه، وحظر أي تبشير في "روسيا المقدسة" إلاَّ تحت إشراف الكنيسة الروسية. و على أي حال صادفت هذه الكنيسة الأمريكية المشبوهة نفس المصير بالتقريب في بلدان أوروبية أخرى بعضها حليف وثيق للولايات المتحدة بينها ألمانيا بل و بريطانيا ذاتها.

و لعلنا نذكر قائد قوات "الكومنتانج" الجنرال "تشانج-هسو-ليانج" أو "زهانج شيلوانج" كما كان يُعرف في الصين الأم، الذي اختطف "تشانج-كاي-شيك" رئيسه ورئيس الصين في سنة 1936 كي يُجبره على وقف الحرب التي يخوضها ضد الشيوعيين والانضمام إليهم عوضاً عن محاربتهم في تصديهم للغزاة اليابانيين، مع أن "شويلياخ" لم يكن شيوعياً و لا متعاطفاً مع الشيوعيين بل يقود قوات حكومة الحزب الوطني الحاكم: "الكومنتانج" ضدهم.

مجتمع قبل- قومي:

وقعت عيناي خلال إقامتي في أواسط السبعينات في عاصمة خليجية للعمل على6 فرداً من البوليس الديني، و هم يُعطون سيدة شابة "طريحة" ساخنة بعد أن فرشوها على أسفلت الشارع، إذ

وقفوا كل ثلاثة على جانب و نزلوا يرصون ضرباتهم بالعصي الخيرزان التي لا يقل طولها عن مترين، و يُمسك كلٌ منهم عصاه بيديه الإثنين كفلاح يعزق أرضاً. و كانت ضرباتهم تنزل ضربة في ريح ضربة، كي تمزّق ثوبها فجلدها فلحمها، بدقة لا يملكها بعض من يُمسكون بالقلم، و رهافة لا نقابلها إلاَّ في الأعمال الفنية الراقية. و السؤال الذي طرأ على ذهني وقتها:

- لماذا جاء رد فعل الرجال من مواطني و الأولى من رعايا تلك البلاد على ذلك النحو: مضوا في طريقهم بعد أن شمَّروا أذيال جلابيبهم كيلا تعوصها الدماء التي نتجت عن العقاب الذي نزل في ساعته بسيدة ترتدي "السدال"، دون الإكتفاء بـ "الحجاب" أو "الخمار" أو "النقاب". و كل جريمتها أن "سنيحاً" من كعبها الذي تخضبه الحناء كان يظهر - و ياللهول - للأجانب، كلما مدت قدمها أثناء سيرها في الطريق العام!

و كان أن تساءلت في ذلك الوقت مرة أخرى:

- هل يستطيع هذا المشهد أن يتكرر حتى الآن - و رغم كل ما حدث في أرض "إيزيس" - في أي بقعة في مصر ضد أي سيدة مصرية أو غير مصرية مهما كانت جريمتها؟

و عودٌ على بدء رأيت في تلك البلاد، السواقين(=السائقين) و هم "بيدوسو بنزين" حتى يلحقوا قطة يتصادف عبورها للطريق كي يسووها بالأرض، و هم يتضاحكون ويتعابثون ويشاركهم الركاب من مواطنيهم صخبهم عند سماعهم و الأدق تخيُّلهم سماع صوت إنفجار جسم القطة تحت عجلات السيارة. و عندما أعلنت استيائي ذات مرة متسائلاً:

- دا موش حرام؟

رد أحدهم رداً ساحقاً ماحقاً لا يستطيع أي "متعلم مصري" عادي أن يرى له أي دفع:

- ما في نص!

و تطلَّعوا نحوي جميعاً كمن يتحدث الهيروغليفية. و حقيقة الأمر أنني كنت أفعل ذلك بمعنى من المعاني، و إلاّ فما هو التفسير الذي يهدينا إلى السبب الذي يجعل السوَّاقين المصريين يحرصون كل الحرص، و على النقيض من أولئك "البُعدا" على ألاَّ يدوسوا القطط في طريقهم. وقد يغامرون بإحداث إنقلابٍ لسيارتهم عندما يفرملون فجأة عوضاً عن إلحاق كل ذلك الألم بحيوان بريء أليف يعبر الطريق أمام سياراتهم.

تراني هل أبالغ إذا قلت أن السر وراء سلوك المصريين-المصريين أي المصريين الأميين أو الورثة الحقيقيين للمصريين القدماء على هذا النحو هو أنهم قدسوا يوماً ما "المرأة" وكذلك "القطة"، باعتبارهما تجسيداً رمزياً لإلاهتهم العظمى "إيزيس" و كذلك الإلاهة "باست"؟ و أن هذا التقديس، و لو أنه انتهى عقلياً في مصر، إلاَّ أنه لا يزال يُفعم وجدان هؤلاء المصريين-المصريين أو المصريين الذين طالتهم و قل "عاصتهم" ـ كي يبتهج "المتعلمون المصريون" ـ و لا تزال "تعوصهم" ثقافة/ حضارة الفراعنة، و تتناسب زيادة ونقصان هذا التقديس عند المصريين المعاصرين مع مدى تغلغل ثقافة غرب آسيا في أعماقهم. و هذا القول الذي أُرسله الآن يقوم على أن الثقافة، مرة أخرى، سلوك في نهاية المطاف.

دون أبطالٍ قوميين:

و رصدت أن الأمة المصرية تقف، و الحال هكذا، دون أبطال قوميين، سواء على مستوى التاريخ أو الأساطير. و بطبيعة الحال لست أجهل وجود فرعون مصر بطل و شهيد حرب التحرير من "الهكسوس" أو "الحكام الأجانب": "سقن-ن-رع" في العصور القديمة و لا بطل "بشمور" بشمال الدلتا: "مينا ابن بقيرة" في العصور الوسيطة الذي قاد ثورة طويلة الأمد ضد الاحتلال العربي لمصر، و لا "أدهم الشرقاوي" بطل المقاومة ضد الإنجليز. و لكن هؤلاء و أمثالهم، ممن لا يتسع المجال لذكرهم جميعاً، لا يُشكِّلون بصورتهم الراهنة عند "المتعلمين المصريين" أكثر من مشاريع موؤودة لأبطال قوميين من وزن "جان دارك" الفرنسية، بطل تحرير فرنسا من الإحتلال الإنجليزي و "أنا" النرويجية بطل إلحاق الهزيمة بالغزاة السويديين، تلك التي توصف بـ "السيدة المسترجلة" و بقليل من التجاوز "السيدة-الرجل" La Femme virile de Norderhov و"جويوم دي أورانج" الأيرلندي بطل المقاومة الباسلة ضد الإنجليز أو "إسكندربيه" بطل المقاومة البطولية للألبان ضد الأتراك أو "الجريرو ديل أنتيفاس" El guerro del Antifaz بطل سلسلة قصص الأطفال الأسبان الذي قاوم الإحتلال العربي لشبه جزيرة أيبريا أو حتى "موسى" عند بني إسرائيل، و هو بطل قومي-ديني، كما هو جلي للعيان، أو "يوسف" البطل القومي-العلماني المعاصر الذي يحج الإسرائيليون إلى ضريحه في "تل هاي" اليوم. و واضح أو أرجو أن يكون واضحاً أنني لا أقارن بين أبطالنا و بين أبطالهم، بل بين إهمالنا لأبطالنا و احتفالهم بأبطالهم.

و لقد طرحت في أكثر من منتدى ثقافي في مصر على "متعلمين مصريين" كبار هذا السؤال:

- مين هو "سقن-ن-رع"؟

فلم يكن هناك من يرد، و عوضاً عن ذلك كانوا يستطلعون رأي أصدقائهم في السماء الزرقاء!

و لست بغافلٍ عن النقد الذي يوجهه عديدون لمفهوم "البطولة" ذاته: "لا تُعد البطولة النموذج الأمثل لتأكيد القيم الثقافية لأي جماعة من الجماعات. و إذا احتاج شعب ما إلى "بطلٍ قومي" من هذا النوع فإن معنى ذلك أن هذا الشعب يجد نفسه في وضعٍ حرج، دون أن يمتلك على المستوى الجمعي بأكمله، القوة الروحية التي تمكنه من تجاوز وضعه ذاك". و"تُعد البطولة بمثابة عدوانٍ سافر على القيم الديمقراطية" و قول "هيجل" في هذا الصدد: "سحقاً لشعبٍ يحتاج إلى بطل". غير أن كل هذا النقد الذي لا أنكر وجاهته، لا يفرض من وجهة نظري سوى إعادة تعريف مفهوم "البطولة" فضلاً عن شروطها.

و إلى جانب افتقار المصريين المعاصرين إلى أبطال قوميين و الأدق افتقارهم إلى الاحتفال بأبطالهم القوميين، تراهم يفتقرون كذلك إلى ملاحم قومية مثل "الفردوس المفقود" عند الانجليز و "الشاهنامة" عند الإيرانيين و "مدار الدنيا" Heimskringla عند أبناء "النرويج".

و على نحو ما يفتقر المصريون المعاصرون تحت قيادة "متعلميهم" إلى أبطالٍ قوميين فإنهم يفتقرون بالمثل إلى رموز قومية عديدة . فالمصريون المعاصرون لا يعرفون لهم طائراً قومياً و لا زهرة قومية و لا حيواناً قومياً، ولا رقصة قومية/ جماعية(كالدبكة الشامية) و لا مشروباً قومياً (كالساكي عند اليابانيين)، و هو الأمر الذي تعرفه لنفسها سائر القوميات، في شتى ربوع المعمورة، مع أنها أحدث كثيراً من القومية المصرية، أي أنهم يفتقرون، على النقيض من تلك القوميات إلى تلك الخيوط غير المنظورة التي تشد وحدتهم الداخلية. و لعل ذلك هو السبب الأعمق في إنتاج مصر المعاصرة لأكبر عدد من "أفضل" الأصوليين الإسلاميين، أي الأعلى قدرة على نفي ذواتهم القومية، و ليس هناك، في نطاق علمي من يستطيع بين أشد المتشددين من الأصوليين الإسلاميين في مشارق الأرض و مغاربها أن يفوه بمثل ما صدر عن السيد "م.عاكف" المرشد العام للإخوان المسلمين في مصر أي أن "يُطزز" في وطنه "مصر" وفي شعبه "المصريين"، مثلما حدث في الربع الثاني من سنة 2006. و على هذا النحو نجد أن مصر أصبحت تنتج "أحسن" المتخلفين أي أشدهم تخلفاً (أصوليين، عملاء، ضباط تعذيب، منافقين إلخ) و الوجه الآخر لذلك هو إنتاجها لأسوأ "التقدميين" أي أقلهم تقدماً، من كافة الأطياف(ماركسيين، علمانيين، دعاة حقوق إنسانية

و حقوق نسوية إلخ) و المعروف تاريخياً أن انحسار المد القومي يُؤدي إلى رجحان كفة المتخلفين على كفة المتقدمين، و العكس أيضاً صحيح.

مرجعية ثقافية مختلفة:

و ليس تحت يدي تفسير أعمق يقف وراء رقي الأجيال الأقدم من "الأزهريين" بصفة عامة، وهو الرقي الذي يتبدى في درجة نسبية من العقلانية و الإنسانية و الرحمة والتيسير على البشر سوى وجود مرجعية ثقافية أخرى، خلاف المرجعية الثقافية العربية-السامية، انحدرت إليهم من "أميتهم" أي ثقافتهم القومية المصرية التي وصلت إليهم خلال التواتر(د.ع.بيومي نموذجاً). ولعلنا نلاحظ مدى تخلُّف الأجيال الأحدث من خريجي الأزهر، الذين يُقصرون مرجعيتهم على الثقافة العربية-السامية، و هو التخلف الذي ينعكس تزمتاً و تشدداً و تعصباً، و في عبارة واحدة عداءاً (=عداءً) أكثر حدة تجاه الثقافة القومية للمصريين-المصريين، أحفاد الفراعنة العظام الذين "سجد العالم المأهول في العصور القديمة، و بالتحديد خلال الأسرة الثامنة عشرة من المملكة الحديثة عند أقدامهم"، حسب عالم المصريات الكبير "دونالد ريدفورد".

لـ"نيبال" زهرة قومية:

و لقد أسعدني و أتعسني في وقت واحد أن أعرف من أحد الأصدقاء الأمريكيين، في الآونة الأخيرة و بالتحديد في شتاء 2002 أن "النيباليين" التي تقع بلادهم بين عملاقين ضخمين هما الصين و الهند يعرفون لهم طائراً قومياً هو "الطاووس" و زهرة قومية هي الـ"رودوديندرون" Rhododendron. و ترجع سعادتي إلى أنني كنت أسير في الطريق الصحيح عندما نقَّبت في محاضرتي أمام جمعية "تحوتي" للدراسات المصرية بقصر الثقافة بالإسكندرية يوم 29أبيب/ يوليو سنة 1999التي حملت عنوان "الجمل رمز قومي للمصريين المعاصرين" وانتهيت فيها، و كانت بـ "اللمح" إلى أن الجمل هو ذلك الحيوان القومي بالنسبة لنا، نظير "الأسد" عند العرب. أما حزني فأعتقد أن أسبابه صارت واضحة الآن بها لا يحتاج إلى التكرار.

مين هو الأمي و مين هو المتعلم؟

و في هذا المجال أذكر أن د."ف. العرارجي" رئيس تلك الجمعية سألتني خلال المحاضرة أي منذ أكثر 18 سنة:

- مين هم الأميين و مين هم المتعلمين؟

و نست أذكر بالتحديد نص ردي على سيادتها. و لكنه لم يخرج في ظني عن:

- الفرق بين الأميين و المتعلمين موش بس بين ناس ما اتعلموش القراية و الكتابة وناس تعلموهم هم الاتنين: القراية و الكتابة في دور تعليم. فداخل كل "متعلم مصري" مننا أمي، اللي هو اللاوعي بتاعه، اللي للساه مصري و داخل كل أمي متعلم اللي هو عقله اللي اتلقنه خلال الإعلام و مواعظ و خطب المعابد، الموسوية المسيحية و المحمدية. و بالتالي فكل نقد من ناحيتي لـ "متعلمين المصريين" هو في حقيقته نقد لنوع "التعليم" اللي استراتيجيات أجنبية مغرضة بتفرضه فرض في مصر. و إذا كانت الإستراتيجيات دي قدرت تخسّرنا "عقلنا" فهي للساع بتحاول تخسرنا "وجداننا" و أعظم حاجة في الوجدان دا هو "اللغة المصري الحديثة"(=اللمح). فدي اللي تقدر توصّلنا من يمة بماضينا الروعة، بكل تأكيد و من يمة تانية بمستقبلنا الأروع، بالتمنّي، في ضي: حضارة إنسانية واحدة و ثقافات متعددة. و في طوعنا أن نصوغ الأمر على النحو التالي:

إذا كان "الأمي" أعرج، أي فاقد لرجلٍ واحدة، فإن "التعليم" في مصر يُحوِّله إلى "كسيح" أي يُفقده الرجل الأخرى.

أسئلة بسيطة:

و بالتالي استنتجت أنه لكل ذلك لم يسأل أي "متعلم مصري" سؤالاً بسيطاً من هذا النوع:

- لماذا لم يُطالب المصريون المعاصرون بعودة رفات العبدة المصرية - و دع عنك أقوال الكتبة الكذبة - "ماريا القبطية" من "البقيع" في "أثريب"(=المدينة المنورة) كي نعيد دفنها في جنازة مهيبة بعد أن يُصلي وراء جثمانها الطاهر حشد من المصريين المؤمنين، و ليس رجلاً واحداً، مثل الخليفة الثالث "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه، كما حدث في دفنها الأول، فيما نعرف من "ابن عبد الحكم" ص 45أي أن نعيد تسليم رفاتها لتراب وطنها، بجلال و إجلال لم تحظى(=تحظ) بهما هدية حاكم مصر البيزنطي-المسيحي التي بعث بها إلى شبه جزيرة العرب. و يكون دفنها تحت قبة ضريح، أسوة بباقي أمهات المؤمنين - طالما كانت زوجة للرسول حسب الكتبة السابق وصفهم - في قريتها التي لا تزال تحمل إسمها العريق على لسان المصريين-المصريين أي المصريين-الأميين: "حفن" على الضفة الشرقية لنيل "ملوي" بمحافظة "المنيا"، فيما يُسميها أنصاف المصريين أو

المصريين-الساميين أي "المتعلمين المصريين" بـ"الشيخ عبادة"، سيراً على نهج الساميين عرباً وعبرانيين في نسبة المكان إلى الشخص لا العكس؟

ـ كيف نُطلق إسم الخليفة العباسي "المأمون" ـ غفر الله له ـ الذي قدم إلى مصر على رأس جيش قوامه مائة ألف عسكري خلال القرن العاشر من عصرنا المعروف(م.ع.م.) فيما نعرف من شيخ المؤرخين العرب "المقريزي" كي يُنزل بأمر الله قدر الإبادة البشرية على "البشارمة"(=البشموريين) سكان شمال الدلتا بعدما فشل قواده، و خاصة التركي "الأفشين"، الذين أرسلهم سيادته لإنفاذ هذا الأمر ذاته، على شارعٍ يمتد من ميدان "العباسية" كي يصب في ميدان "روكسي" بقلب "مصر الجديدة"؟ و إلى متى نظل نجهل اسم و سيرة "مينا ابن بقيرة" أحد أعظم أبطال المقاومة المصرية ضد الإحتلال العربي لمصر، كي نردد خراريف "التعليم" الزائف في مصر حول ترحيب المصريين، دون سائر البشر، بجميع غزاتهم و محتليهم و مستوطني بلادهم وخصوصاً العرب منهم؟

ـ كيف نتجاهل المصير الذي آلت إليه "طبقة الصنَّاع" الذين رحَّلهم الغازي الأسيوي "سليم" الأول في إطارٍ يوازي اليوم نزع سلاح الدول التي تحيق بها الهزيمة، و هل ذابوا فيما حولهم من سكان دون أن يتركوا وراءهم أثراً، أم قتلهم آسروهم بعدما أنجزوا المهام الموكولة إليهم، فيما تقول إحدى الروايات؟ و إذا صحت هذه الرواية، فهل تستطيع، بحد ذاتها إسدال ستار نهائي على القضية، أم يتعيَّن علينا تحويل الإعتمادات التي نكاد أن ننفرد بين كافة الأمم برصدها، للاحتفالات المخزية بذكرى غزو الأجانب لبلادنا، سواء قدموا من غرب أسيا أو جنوب أوروبا، إلى بند إعادة رفات أبناء هذه الطبقة، فرداً فرداً، و دون استثناء، إلى مسقط رأسهم، كما تفعل إسرائيل مع رفات قتلاها، بمن فيهم من حوكموا و أعدموا في بلادٍ أجنبية بتهمة التجسس؟

ـ لماذا لم يخطر على بال أي "متعلم مصري" أن يُطالب أياً من المستعمرين الذين "نهبوا" مصر و "أذلوا" شعبها بالاعتذار، مثلما استمر المتعلمون الهنود ـ دون تحفظ ـ يُطالبون بريطانيا و يلحون في طلبهم، حتى حصلوا على مثل ذلك الاعتذار لبلادهم من الملكة "إليزابث" الثانية ملكة بريطانيا خلال العقد الأخير من القرن العشرين؟ أم أن "المتعلمين المصريين" ينتظرون رحيل أحدث استعمار حتى يُطالبوا كل مستعمري مصر دفعة واحدة بدل المطالبة القطاعي؟ أم أنهم يرون أن هذا عمل تافه، طالما لا ينبع من الغريزة و لا يصب فيها، لا يُفكر فيه سوى هنودٍ لا يملكون سوى

سادس أكبر إقتصادٍ على نطاق العالم، و لا يستوردون من العالم الخارجي حبة قمح واحدة - وبطبيعة الحال و لا حبة رز واحدة - لإطعام أكثر من مليار نفس، هم سكان شبه القارة الهندية بل يُصدِّرون فائضهم من القمح الذي أصبح سلعة استراتيجية إلى الخارج، و يرفضون بشموخ قومي لا تُخطئه عين و لا تصم نفسها عنه أذن، أي مساعدات خارجية يُلوِّح بها الأجانب وقتما تواجه الهند أي كارثة من الكوارث مثل كارثة "بهوبال" المشهورة؟

- لماذا لم يتبنى (=يتبن) الأزهر الذي يعيش بصفة أساسية، على عرق المصريين المنتجين، أي دافعي مختلف أشكال و أنواع و ألوان الضرائب التي لا يدخَّر جهداً في اختراعها بصفة تكاد أن تكون يومية، وزراء البلاط العسكري الحاكم - و دع عنك المائتي مليون دولار التي تخصصها الولايات المتحدة سنوياً، مما يسميه الإعلام الغربي و وراءه الإعلام الزائف في بلادنا بـ "معونة أمريكية" لمصر - الصيغة و الأدق القراءة الشافعية للديانة المحمدية، مثلما تتبنى مدرسة "قم" الصيغة (=القراءة) الشيعية و الأدق الإثنى عشرية لنفس الديانة؟ و هل يكفي أن نترك نحن المصريين المعاصرين، أمر التراث الشافعي الذي ينطوي على صيغة مصرية تقوم أكثر على حس العدالة و التسامح و التواؤم مع مقتضيات الحال في أيدي "أكاديميين" ناقصي الكفاءة مهزوزي الهوية من أمثال "ح.ن. أبو زيد"، ممن يتصدون للكتابة عن "قاضي الشريعة" في الوقت الذي لا يُلمون فيه بالمعلومات الأولية عنه من ناحية و خصومهم الشخصيين (ع.شاهين نموذجاً)من ناحية أخرى؟ و في نفس الوقت نترك "أزهرنا" أي الذي يعيش على عرقنا، نحن المصريين المعاصرين، ينحدر إلى النطق بلسان الوهابية الصحرواية الغازية؟

- لماذا لم تحتج مصر، فور إبرام معاهدة السلام مع إسرائيل عند حكومة "تل أبيب" لسماحها بتدريس نصوص "التوراة"، بصرف النظر عن تقديس أتباع الديانتين الموسوية والمسيحية لها أو قول أتباع الديانة الثالثة: المحمدية بأنها "محرَّفة" - و هذا هو الأنكى - قصد الانتقاص من أقدار أنبياء بني إسرائيل، في معاهد تتلقى دعماً مالياً حكومياً، مع أن هذه النصوص تقول، و قولها لا يأتيه الباطل بطبيعة الحال، عند المؤمنين منهم أن إلاههم "يهوه" أعطى مصر إرثاً لهم، أي أنها تتنافى مع الحدود الدولية المنصوص عليها في المعاهدة التي أرست السلام بين البلدين؟ و مثل هذا الاحتجاج لا يزيد، و إن قل بكل تأكيد، عن احتجاج الكوريين و الصينيين، على سبيل المثال، على الكتب

المدرسية أي الأدنى درجة أو درجتين عن المقدسة، في اليابان إذا غفلت عن ذكر الفظائع التي ارتكبتها العسكرية اليابانية في جنوب شرق آسيا خلال الحرب العالمية الثانية؟

ـ لماذا لم يخطر على دماغ أي "متعلم مصري" بدءاً من حملة شهادة محو الأمية حتى شهادةDSC أن يتساءل عن السبب/ الأسباب التي أدت بكافة الديانات و الفلسفات والاختراعات و التكنولوجيات التي دخلت مصر إلى إلحاق ضرر/ أضرارٍ فادحة بها، فيما أفادت هي نفسها، كافة الدول/ القومية التي وصلت إليها. و لنا أن نقارن بيننا و بين تركيا، على سبيل المثال، دون الحصر. فبينما صارت تركيا إمبراطورية وأقصد بطبيعة الحال ما يُعرف تاريخياً بالإمبراطورية البيزنظية أو الرومانية الشرقية في ظل الديانة المسيحية، تدفع لها الجزية كل الأقطار الداخلة في نطاقها، بما فيها مصر، ثم أصبحت مرة أخرى إمبراطورية هي المعروفة باسم "العثمانية" عقب دخولها رحاب الديانة المحمدية ترفع إليها نفس الأقطار، على وجه التقريب، الجزية و بالتالي استمر الأتراك أسياداً داخل بلادهم و خارجها في ظل الديانتين، فإننا نتلفت إلى أصحاب أعظم وأقدم دولة/ قومية عرفها العالم القديم و أطولها استمراراً وأغناها ترفيداً لمجرى الحضارة الإنسانية، كي لا نجد في مآقينا دموعاً تكفي لرثاء الذي ظلوا عبيداً يؤدون الجزية للأجانب في ظل الديانتين، بدءاً من الرومان في عاصمتهم الإمبراطورية "روما،" مروراً بالبدو الرحل بعد صفعهم لقفاهم، بل و أدنى مستوى من بعض العبيد، منذ فقدانهم لدولتهم القومية تحت ظل الفراعنة العظام، رغم كل شيء. وينطبق نفس الأمر على الفلسفات(الماركسية نموذجاً) و الاختراعات (الكهرباء نموذجاً) والتكنولوجيات (الفضائيات نموذجاً)

ـ لماذا عجز "المتعلمون المصريون" عن توجيه نقد موضوعي، يبدأ برصد المعطيات وتمحيص المعلومات و رؤية الأبعاد المحددة للحضارة المصرية القديمة، نقد موضوعي كان ليستطيع أن يكشف عن السبب/ الأسباب التي أدت إلى هزيمة المصريين هزيمة مضلَّعة أي على كافة المستويات أمام الأقل منهم حضارة، و إن كانوا أعلى منهم تسليحاً و دربة و اعتزازاً بدياناتهم و عاداتهم ورموزهم و جدودهم و في كلمة واحدة بأنفسهم، و هو الأمر لم يحدث لليونانيين الأحرارعلى سبيل المثال أمام حجافل العبيد من الفرس؟ و لماذا اكتفى "المتعلمون المصريون" بكافة أطيافهم، إذا كان المقام مقام نقد لماضيهم، برجم جدودهم المصريين القدماء، ممثلين في رمزهم الفرعون، بخراريف و أكاذيب و ادعاءات "بني اسرائيل"؟ وبعبارة أخرى لماذا ينتصر "المتعلمون المصريون"

بصفة تكاد أن تكون دائمة لأعدائهم التاريخيين ضد أنفسهم؟ و إلى متى سيستمر تغلغل الدونية القومية في أعماق هؤلاء "المتعلمين المصريين" أمام القسم الأشد تخلُّفاً من الساميين أنفسهم، و كل ما ينتمي إليهم بدءاً من لغتهم؟ و مثل هذا النقد هو وحده الكفيل بتجاوز تلك الهزيمة المضلعة التي لا تزال آخذة في التغلغل في عقولنا و وجداننا.

وبطبيعة الحال تستطيع مثل هذه الأسئلة أن تنتج أسئلة أخرى تمتد إلى ما لا نهاية، إذ أنها تتأسس على سؤال محوري: هل يحق لنا نحن المصريين المعاصرين أن يكون لنا رأيٌ، في السياسات التي تتبناها مؤسستا العسكروت و الكهنوت، في بلادنا، أي الأكاديميات العسكرية، بكافة أشكالها، و كذلك معاهد و جامعات الأزهر (و سائر المؤسسات الدينية الأخرى) بكافة درجاتها، بما في ذلك المناهج التعليمية التي تدرِّسها لتلاميذها و طلابها؟

جوابي:

- بل يجب أن يكون رأينا هو الرأي الأخير، الذي لا مُعقِّب عليه، طالما كنا نموِّل، من عرقنا، نحن دافعي الضرائب، كافة أنشطة هاتين المؤسستين اللتين يتعين أن نراقب باستمرار أداءهما في خدمة المصالح القومية لمصر.

و عدت أستنتج و أسوق استناجي على هيئة تساؤلات:

هل المصريون عرب؟

و قلت رداً على هذا التساؤل أن الثقافة السائدة في مصر، و بالتحديد تلك التي سعى الاستعمار القديم بقيادة بريطانيا إلى تسييدها في مصر و المنطقة التي تمتد من الخليج إلى المحيط، و سمَّاها (=أسماها) "العالم العربي" تتناقض مع الحقائق اللغوية و الأنثروبولوجية والجيو-سياسية والتاريخية و التفاوت الملحوظ بين درجة التطور الاقتصادي-الاجتماعي في كل بلدٍ من بلدان المنطقة، و بعبارة أخرى مع مجمل الحقائق النابعة من وجود ثقافاتٍ محلية مضطهدة(بفتح الهاء)، بينها إن لم نقل على رأسها ثقافة المصريين. و معنى القول أن الطابع الرئيسي للثقافة السائدة في مصر و ربما المنطقة بأسرها هو طابعٌ أجنبي، و ليس طابعاً طبقياً، كما يذهب الدعاة الماركسيون، أي أن الصراع الرئيسي في المنطقة قومي. و يكفي في هذا المجال أن نعيد إلى الأذهان ما كتبه المؤرخ "محمد بن أحمد ابن إياس" في بدائع الزهور في وقائع الدهور" ج 5 ص 207 عن الخليفة العثماني السلطان سليم سنة 1517 م.ع.م:

"خرج بن عثمان من مصر و صحبته ألف جمل محملة ما بين ذهبٍ و فضة، هذا خارجاً عما غنمه من التحف و السلاح و الصيني و النحاس المكفَّت و الخيول و البغال و الحمير وغير ذلك حتى نقل منها الرخام الفاخر و أخذ منها من كل شيءٍ أحسنه، ما فرح به آباؤه و لا أجداده من قبله أبداً و كذلك ما غنمه وزراؤه من الأموال الجزيلة و كذلك عسكره، فإنه غنم من النهب ما لا يُحصى .."

و بطبيعة الحال هذا لا ينفي وجود طابعٍ طبقي لهذه الثقافة، و لكن الخلاف هنا هو حول ما إذا كان ذلك الطابع الطبقي ثانوي أم رئيسي.

و قدَّرت أن العرب هم أشقاء العبرانيين على المستوى المعرفي و الثقافي و اللغوي والديني فهؤلاء و أولئك ساميون، و هم يُشكِّلون الجزء الأكبر من سكان آسيا الغربية.

أما لماذا قرر الاستعمار القديم أن يمشي بخط حدود الثقافات القومية بشكلٍ يتناقض مع مجمل الحقائق الأساسية في المنطقة كي يضع المصريين مع العرب أي مع غزاتهم و محتليهم ومستوطني بلادهم الذين فرضوا عليهم الجزية و الخراج و كافة ألوان التسخير و العبودية والإذلال، و لا يزالون يفرضون عليهم، إذا سافروا إلى بلادهم للعمل و الإنتاج ما يُسمى بنظام "الكفالة"، و هو نظام يُعد، في جوهره، استمراراً للعبودية القديمة في ظروف جديدة، فهذا ما لم يكشف عنه الاستعمار القديم، و بالتالي تركه لقدراتنا على الاستنتاج تماماً مثلما ضن بالكشف عن هدفه من وراء سائر الحدود التي خلَّفها وراءه. و لكننا نستطيع أن نرى أن هذه الحدود التي رسمها لا تزال تلقى بثمار يانعة، ليس في حجر بريطانيا بصفة خاصة، بل و في حجر الغرب بصفة عامة.

بريطانيا و تعريب مصر:

نستطيع، بقدرٍ بسيطٍ من سعة الخيال أن نقول أن ذلك يسير على أيضاً على خطة الاستعمار القديم في تعريب مصر، أي نزع "أرض إيزيس" (=كيميت) من شمال شرق أفريقيا و جنوب أوروبا و في عبارة أخرى: "أفريقيا المتوسطية" و ضمها إلى غرب آسيا، وبالتحديد حشرها في قلب شبه جزيرة العرب/ العصو-وسيطية، و هذا ما يُعد في نظري الغزو العربي الثاني و الأخير لمصر. وهو السر في سعي الاستعمار القديم الدؤوب في سبيل هذا الهدف الاستراتيجي الذي يرى "المتعلمون المصريون" خيراً سابغاً في نفيه أحياناً أو تبنيه في غالب الأحيان كهدفٍ منشودٍ لهم، هم أيضاً. و هو الأمر الذي أعجز عن مشاركتهم في رؤيته أو حتى فهمه.

و في هذا الصدد يجدر بنا أن نُعيد إلى الأذهان ما ذكره المؤرخ "عبد الرحمن الرافعي" في كتابه "مصر بين ثورة 1919 و ثورة 1952" سلسلة دراسات قومية العدد 7 مطابع الشروق ص 53عند الإشارة إلى توقيع بروتوكول تأسيس جامعة الدول العربية يوم 7بابة/ أكتوبر 1944 بمدينة الاسكندرية:

"و كان إنشاء هذه الجامعة(...) بإيعازٍ من بريطانيا"

و هنا يحق لنا ـ أليس كذلك ـ أن نسأل هذا السؤال:

إلى أي حد ذهب استبسال الاستعمار البريطاني في سبيل نشر الدعوة إلى القومية العربية في مصر؟ و هل دفع الرشاوى في سبيل ذلك؟

الجواب بالفم المليان: نعم.

و لننصت إلى ما كتبه أحد أكبر، إن لم نقل أكبر دعاة القومية العربية في صيغتها الناصرية، و ارتباطاته الأمريكية مشهورة، أي شاهد من أهلها هو "م.ح.هيكل" في كتابه "الاتصالات السرية بين العرب و إسرائيل" و نقلاً من جانبه عن أوراق وزارة الخارجية البريطانية:

"...و رد وزير الخارجية البريطاني السير "إدوارد جراي" على ذلك ببرقية منه إلى المعتمد البريطاني في مصر السير "هنري ماكماهون"، و هو المسؤول عن المكتب العربي (للمخابرات البريطانية) جاء فيها:

"تستطيع أن تقدِّم أي تأكيداتٍ لعزيز المصري باسم الحكومة البريطانية بأن الحركة العربية يجب تشجيعها بكل وسيلة ممكنة. و يُمكن لعزيز المصري أن يبدأ في تنظيم القوة التي يريدها و تستطيع أن تضع تحت تصرفه 2000 جنيهاً استرليني إذا كنت ترى ذلك مفيداً. ولك أن تطلب منه أن يظل على اتصالٍ بمكتب القاهرة(للمخابرات البريطانية) وبالمعتمد البريطاني و أن تتعهد له بأننا على استعداد لأن نساعد الحركة القومية العربية بمقدار ما يبدو من تأثيرها" جريدة "العربي" العدد 153 يوم 18أمشير/ مارس 1996

و إذا رجعنا إلى سؤالنا حول هدف الاستعمار القديم فإن أصحابه كانوا يضعون في رؤوسهم هدفاً محدداً على أساس أن سلوكهم كان منطقياً صادراً عن عقلٍ منظم لا ينقصه التخطيط البعيد المدى و لا التفاني في خدمة مصالحهم القومية العليا. و أعتقد أننا لسنا بحاجة إلى أن نُعيد و نزيد في

هذه البديهية: كانت مصلحة مصر تتماس أحياناً مع مصلحة بريطانيا(ضد النازي و مع الزراعة المصرية مثلاً) لكن المصلحتين كانتا متعارضتين بصورة رئيسية.

و جواباً على ذلك السؤال نستطيع أن نقول، بعد النتائج التي نلمسها لمس اليد و نراها رأي العين، التي أسفرت عنها تلك الدرجة العالية من النجاح الذي أرجو أن يكون مؤقتاً، تلك التي حققها الاستعمار القديم في هذا السبيل، أن الهدف الرئيسي كان محو القومية المصرية عن طريق فصل المصريين المعاصرين عن جذورهم في أرضهم التاريخية. أما إذا تساءل أحد عن السبب الذي يدفعني إلى القول بدرجة عالية من النجاح للاستعمار القديم، فجوابي هو: لولا تلك الدرجة من النجاح ما كانت مصر التي ضمت أقدم دولة قومية بنت أقدم إمبراطورية في التاريخ امتدت في القرن الخامس عشر قبل عصرنا المعروف(=ق.ع.م) من قرن أفريقيا حتى الشواطئ الشرقية لنهر الفرات، و أطول الإمبراطوريات القديمة في منطقتنا استمراراً قد عانت كل ذلك التراجع خلال الآونة الأخيرة، و بالتحديد منذ يوم الأربعاء الأسود،23يوليو/ أبيب 1952 و هو التراجع الذي أدى إلى حدوث فراغٍ في منطقة الشرق الأوسط الحديث، و هو فراغٌ لم تترد إسرائيل لحظة واحدة في التقدم لملئه.

و تصف "كارين فارينجتون" في "أطلس تاريخي للإمبراطوريات"

"Historical Atlas of Empires From 4000BC to the the 21th Century",Karen Farrington,Mercury Books,London.2003

هذا الإستمرار الذي بلغ ثلاثة آلاف سنة على الأقل من نحو 3000ق.م. حتى 30ق.م.بأنه "استمرار لا نظير له" و بعبارتها هي:

"This continuity is unparalleled"p 16.

و غني عن الذكر أن مصر استمرت، بعد غروب استقلالها السياسي إمبراطورية، كذلك، حتى داخل الإمبراطوريات التي دانت لها بالولاء من الرومانية إلى الأموية إلى العباسية إلى العثمانية إلى البريطانية على التوالي.

لغة مستحيلة:

و لما كانت اللغة هي أهم سمة من سمات الثقافة القومية، فلقد تأسس على فرض الدعوة إلى القومية العربية على المصريين المعاصرين فرض اللغة العربية التي اكتسبت كما سبق لنا القول صفة

"الفصحى" عليهم بصفتها لغتهم القومية. و كان ذلك متمشياً مع المنطق المغلوط، طالما لم يعد المصريون مصريين بل عرباً، و طالما يصف الخطاب الرسمي العرب بأنهم "أشقاء"-blood brothers في عبارة حاسمة، و يصف بعض المصريين أنفسهم بأنهم "إخوة" في العبارة المناسباتية المشهورة "الإخوة الأقباط أي المصريين المسيحيين" ـ وفق المظنون ـ في عبارة مترددة، فالأخ قد لا يكون شقيقاً، فلقد تأسس على ذلك أن تكون لغتهم القومية ليست مصرية بل عربية. و الأغرب أن هذه اللغة العربية "الفصحى" لم تعُد لغة قومية حتى للعرب المعاصرين أنفسهم في شبه جزيرتهم، تماماً مثلما لم تعُد اللاتينية كذلك بالنسبة لأحفاد اللاتين/ الرومان في شبه جزيرتهم الإيطالية، وعاصمتهم "روما". و ليس أدل على ذلك من استقدام هؤلاء العرب الأقحاح لـ "أجانب"، وبتعبيرهم هم "أجناب" من مصر كي يعلموها لأبنائهم. فاللغة القومية هي ما "نكتسبه" عن طريق تقليدنا لمربياتنا دون أن نلتزم ، بصورة واعية، بأي قاعدة نحوية"، كما علَّمنا قبل سبعة قرون، صاحب "الكوميديا الإلهية" في دراسته الموجزة و القيمة "عن فصاحة العامية" De Vulgari eloquentia

أما في مصر فهذه اللغة العربية "الفصحى" التي يصل عدد قواعد نحوها و صرفها وإملائها نحو ما يزيد على 12 ألف قاعدة رياضية، مقابل ألف واحد للغة الإنجليزية، حسب د. "عبد الوهاب مسعود" أي نسبة 12: 1 ليست صعبة التعلم على كل مصري و حسب، بل و أكاد أقول أنها "مستحيلة" أكرر "مستحيلة". و أدلتي في هذا الشأن لا تُعد و لا تُحصى، ليس أولها "الأخطاء" الفادحة التي يقع فيها ـ و أرجو ألاَّ يندهش أحد ـ المصححون أنفسهم، بل عجز د. "ن.ف.واصل" مفتي الديار المصرية السابق، و هو الرجل الفاضل الذي قضى عمره كله في درسها في الأزهر، عن قراءتها بصورة صحيحة من ورقة في يده في حفل أقيم بمناسبة رؤية هلال شهر رمضان. و قد كتب د. "مصطفى عبد الواحد" من جامعة "أم القرى" ـ أحد أسماء "مكة" ـ مقالاً حاداً ينتقد فيه سيادة المفتي المصري في صحيفة "الأخبار" المصرية يوم 3 أمشير/ فبراير 1997 بعنوان "الصمت أولى يا فضيلة المفتي" جاء فيه ضمن ما جاء:

"... و إليك نماذج من هذا اللحن الصادر عن دار الإفتاء: إسم "إن" منصوب دائماً، لكن فضيلة المفتي جعله مرفوعاً عدة مرات، فقال مثلاً: إن سعادتنا بضم "التاء" و الصواب فتحها. وخبر "كان" منصوبٌ دائماً لكن فضيلة المفتي جعله مرفوعاً، و الفعل منصوب بعد "أن" المصدرية

لكن الشيخ "ن.ف.واصل" جعله مرفوعاً عدة مرات، فقال مثلاً أن نعمرها بضم "الراء" ثم كرر هذا اللحن..."

و إذا نسب شخص ما، مثلما فعل دكتور جامعة "أم القرى"، الذي عرفته كاتباً على هذا النحو و لم أسمعه و لا مرة متحدثاً بهذه اللغة العربية "الفصحى"، ذلك العجز إلى أسباب ذاتية خاصة بفضيلة المفتي المصري السابق ـ و هذا ما أتحفَّظ إزاءه ـ دون الأسباب الموضوعية الكامنة في صلب اللغة ذاتها، فإنني أعيد إلى ذهنه و ذهن القارئ الكريم التعليق الذي نشرته بـ "اللمح" ـ كما سيتضح حالاً للقارئ الكريم ـ في جريدة "أخبار الأدب" العدد 37بؤونة/ يوليو 2000 تعليقاً على نص التوصيات التي خرجت عن الدورة السادسة والستين للمجمع اللغوي"، و هو النص الذي لا أزال أحتفظ به تحت يدي حتى الآن:

"باب النجار مخلَّع"

{" وقفت حيران و جايز أوي حيرتي دي تستمر وياي الأسبوع الجاي بطوله قدام نص التوصيات اللي صدرت عن "مؤتمر المجمع اللغوي في دورته السادسة و الستين"، وخرجت ممهورة بإمضة أستاذ دكتور جليل هو "شوقي ضيف" لعدد م الوزرا على راسهم وزير التعليم العالي، ع شان يحطوها محط التنفيذ.

و حيرتي راجعة في حقيقتها لسبب متحدد: النص كشف عن عجز واضح في الالتزام باللي المجمع نفسه طالب غيره بالالتزام به: الصحة اللغوية و نتيجة لديق المساحة ح اكتفي بتصنيف أغلاط النص تحت اربع عناوين لأربع مجالات و ح اضرب أمثلة محدودة على كل واحد:

(1) رسم الأسامي الأجنبي:

النص طالب الحكومات العربية بـ "إصدار تشريع يحَرِّم كتابة الأسماء الأجنبية بحروف عربية (بند 1) بس النص كتب و ع شان أكون سادق أكتر اضطر يكتب تلات أسامي م النوع دا بالحروف دي، و دا خلال صفحتين اتنين يا دوب، و هي: "تليفزيون" (يوناني-لاتيني) و"تكنولوجيا" (يوناني) و "إلكترونيات" (لاتيني-شمالي).

(2) النحـــــو:

النص طالب بـ"إستحداث لجنة للغة و الإعلام لمتابعة ما يُذاع من البرامج والمسلسلات و النشرات و تسجيل أخطائها و تصحيحها و التعليق عليها حفاظاً على الفصحى"(بند رقم 10). بس النص ما نسي ش يرتكب ذات نفس "الأغلاط" دي. فالنص بيقول بالحرف الواحد:

" و يُلحق بها(يعني باللجنة بتاع الترجمة) معهد لتدريب طبقة من المترجمين "يُختاروا" من أقسام اللغات الأجنبية "المتفوقون" ...(بند رقم 5).

و صحة الكلمة الأولانية هي "يُختارون" ع شان الفعل المبني للمجهول دا ما سبق هوش لا أداة جزم و لا نصب. و صحة الكلمة التانية هي "المتفوقين" باعتبارها صفة لكلمة "المترجمين" و الصفة أظن للساع بتتبع الموصوف في حالات الإعراب الرفع والنصب و الجر اللي لغويين عرب بيسموه الخفض.

(3) الأسلـــــوب:

النص اللي طالع يدافع باستئساد عن الفصاحة ما غفل ش عن ارتكاب أغلاط نزلت به، لدرجة تحزّن م الركاكة فـ"الدورات" ما بتتهيَّأش. لاكن بـ"تتنظم"، و معاهد التدريب ما بيلتحق ش بها "طبقات" لاكن مجموعات و الأفصح "أطقم" م المترجمين، والحكومات ما بـ"تصدرش" تشريعات، لاكن بتستصدرها من مجالس نيابية. و دا هو المعنى المقصود، يعني اللي السياق بيحتّمه، موش المكتوب اللي بيشكّل إدانة للحكومات دي بـ"دمج السلطات". ومافي ش "كليات علمية" ع شان كل الكليات كدا، يعني بتتبع منهج علمي في درس الظاهرة ولاّ الموضوع اللي بتخضعه لتخصصها حتى و لو كان التاريخ و لاّ النقد الأدبي. و باين كاتب التوصيات كان يقصد "الكليات العملية" بس التعبير الصح ما سعف هوش.

(4) الموضـــــوع:

النص وقع في أغلاط موضوعية، أخطرها في تصوري لما قال:

" حتى يتخّلص شباب الأمة من التبعية العلمية كما تخلَّصت من التبعية السياسية"(بند رقم4)

و بخصوص التبعية السياسية اللي النص بيقول عليها اللي قاله، أعترف ـ من غير أسف ـ إن معلومات المجمع المتوقر سابقة معلوماتي بسنة ضووي ع الأقل، فأنا لغاية دا الوقت، ما اعرف ش إمتى بالتحديد، اتخلّصنا ـ اسم اللاه علينا ـ م التبعية السياسية دي. لاكن اللي يهمنا أكتر هو تعبير "التبعية العلمية". فالأصح إن التلميذ المصري لما يعرف نظرية النسبية العامة، مثل ن لـ "ألبرت أينشتاين" ما بيبقاش تابع لا لـ "أينشتاين" و لا لـ "النمسا" و لا لـ "ألمانيا" و لا للولايات المتحدة و لا حتى للغرب. ليه؟ ع شان يعرف يعني يتحرر. فالمعرفة حرية. والعلم ما لهوش وطن. يعني نظرية "أينشتاين": الطاقة= الكتلة × مربع سرعة الضو" ما خدمت ش الولايات المتحدة على إيدين "أوبنهايمر"، وزرجنت ما رضيت ش تخدم عدوتها روسيا، اللي كانت تاني دولة طوّالي بعد الولايات المتحدة تصنع القنبلة الذرية. و دي كانت واحدة م التطبيقات العملية لنظريات العالم الفيزيائي العظيم. و كذلك الأمر وي الإنجليز والصينيين و الهنود إلخ. و الغلطة دي كانت تستوجب سحب أعلى شهادة حاصل عليها كاتب التوصيات و أظنها ما تزيدش عن محو الأمية.

<u>نتيجة حتمي:</u>

التوصيات دي بتقدم دليل جديد و ساطع على صحة فرضيتي "اللغة المصري الحديثة" اللي الثقافة السايدة في مصر بتوصمها بـ "العامية" هي في حقيقة الأمر: اللغة القومية للمصريين المعاصرين، بمعنى لغتهم الأم Muttersprache، يعني اللي ما بيغلطوش فيها أبدن، لا في نحوها و لا صرفها و لا نطقها، وبيتكلموها لبلب من غير ما "يتعلّموها". وآن الأوان للاعتراف بوجود الشمس الساطعة في العلالي. و دا هو التحرر- التحرر"}

و بطبيعة الحال لزم المجمع المتوقر، إزاء هذا التعليق العلني صمتاً مطبقاً و لا يزال يلزمه حتى كتابة هذه السطور.

هــراء مبرمج:

إلاّ أنني صادفت خلال محاضرة دعاني بعد نشري للتعليق لإلقائها قصر ثقافة طنطا، بين "المتعلمين المصريين" من يصرخ:

ـ يعني عايز تقول إن الدكتور "شوقي ضيف" ما بيعرف ش عربي؟

و خلال برنامج بالقناة الفضائية المصرية المسماة بـ "الثقافية" اعترض السيد العائد من ألمانيا بشهادة الدكتوراة في اللغة العربية، بشدة، على وصفي لهذه اللغة "الفُصحى" بأنها تصل في الصعوبة حداً يستحيل معه على أي من كان أن يتقنها مهما أنفق من عمر و جهد.

و على هذا النحو أجمع السيدان على إهمال الحجج العلمية التي يسوقها الحر الفقير لصالح ترديد و الأدق "ترتيل" الأهازيج الشائعة على الألسنة التي تنطق بها يملأ و يترعم عقولهم بصفتهم "متعلمين مصريين" من هراء مبرمج.

***

و الآن هل عندنا مشكلة لغوية أم أن الأمر يسير على خير ما يُرام؟

و إذا اتفقنا على أن عندنا مشكلة من هذا النوع، فما هو جوهرها؟

و هل يكون من باب العبث أو المزاح أن نقرر أن اللغة المفروضة على المصريين المعاصرين من جانب الخبراء الأمريكيين الذين يضعون الكتاب المدرسي لتلاميذ مصر:

(1) لغة أجنبية يحتاج الطفل المصري أن "يتعلَّم" كافة مهاراتها الأربعة: الفهم و النطق وبطبيعة الحال الكتابة و القراءة في دور تعليم مختلفة.

(2) لغة بالغة الصعوبة لا يستطيع أحد، مهما أنفق من سنوات عمره أن يقول بالفم المليان أنه يستطيع التعبير عن نفسه خلالها، دون أن يقع في الخطأ تلو الخطأ، سواء أكان هذا التعبير شفاهة أو حتى كتابة.

مصريون مسلمون أم مسلمون يعيشون في مصر:

و أعود كي أتساءل:

هل سكان مصر مسلمون أم يدينون و الأدق يدين معظمهم بالديانة المحمدية أي الإسلام؟

و هذا هو السؤال يقتضي طرح سؤالٍ آخر قبله: هل الإنتماء الديني جزء من الانتماء الثقافي أم العكس؟

تقول الموسوعة البريطانية في تعريفها لـ "الثقافة" بالحرف الواحد:

"نستطيع أن نعرِّف "الثقافة" بأنها السلوك الإنساني، أي السلوك الذي ينفرد به الإنسان العاقل Homo Sapiens دون غيره من الكائنات الحية، بالإضافة للأدوات المادية التي يستخدمها حيث تُشكِّل هذه الأدوات جزءاً لا يتجزَّأ من هذا السلوك. و "الثقافة" تتكون بشكلٍ محدد من

اللغة والأفكار و المعتقدات و العادات و الشرائع و الأعراف و المؤسسات و التكنيكات و الأعمال الفنية و الشعائر و الطقوس و الأعياد والإحتفالات... إلخ Britannica,V.17,p.874

و معنى القول أن "الثقافة" تشمل الديانة و ليس العكس. و إذا ما استعرضنا كافة علماء البشريات أو الأنثروبولوجيا من التطوريين الكبار في القرن التاسع عشر، قرن الأنوار والتنوير، مثل "إدوارد بيرنت تايلور" و "لويس هنري مورجان" إلى أصحاب مدرسة الإنتشار مثل "فريدز جرابنر" و "إليوت سميث" فإننا لا نعثر، و لو بالصدفة، على من يقول منهم بأن الديانة تشمل "الثقافة". و أعتقد أنه ما من أحد نسب حتى تاريخه أي دولة أوروبية أو أمريكية في إطار الخطاب العام إلى ديانتها على هذا النحو: فرنسا المسيحية أو الكاثولوكية، الولايات المتحدة المسيحية أو البروتستانتينية، و ذلك في نطاق علمي بطبيعة الحال.

هذه هي خبرة البشرية في "الغرب". أما في الشرق فيكفي أن نُعيد إلى الأذهان في هذا التقديم السريع، كتاب "الديانة في الثقافة اليابانية"

Religion in Japanese Culture,edited by Noriyshi Tamaru&David Reid,Kodansha International,Tokyo,New York,1996.

ففي ص 14 من الكتاب نقرأ:

"تعدد و تراكب الظواهر الدينية في اليابان يرتبط بميلٍ استيعابي في الثقافة اليابانية"

و معنى القول، كما هو واضح، أن الثقافة اليابانية أكبر و أشمل من كافة الظواهر الدينية. فالأكبر هو القادر على استيعاب الأصغر و ليس العكس. و تأسيساً على ذلك لم يسمع أحد قولاً مثل هذا القول: اليابان البوذية أو اليابان الشنتوية!

أسوق هذا الحديث كي أنتهي إلى طرح هذا السؤال:

لماذا يصر الخبراء الأمريكيون على رأس الخبراء الغربيين في الخطاب العام على نسبة مصر إلى "ديانتها" ـ بقوسين عريضين ـ على هذا النحو:

Egypt as a moslem country is so and so .. "...

و السر وراء القوسين اللذين حرصت على وضعهما حول "ديانتها" راجع، إلى أن المصريين المعاصرين لا يدينون جميعاً بالديانة المحمدية(=الإسلام)

كما أَلّف البريطانيون لحن منظمة "الجامعة العربية" التي تضم دولاً موصوفة كلها في الخطاب الغربي بصفة عامة بأنها دول "عربية" أَلّف الخبراء الأمريكيون و وزَّعوا لحن منظمة "المؤتمر الإسلامي" التي تضم دولاً موصوفة في الخطاب الغربي بصفة عامة و الأمريكي بصفة خاصة، بأنها "دولٌ إسلامية". و السؤال هنا بالتالي هو: لماذا ينسب هؤلاء الخبراء الغربيون هويتنا القومية، ودون سائر الهويات القومية في الغرب و الشرق على حدٍ سواء، إلى الديانة عوضاً عن الثقافة و في قلبها اللغة؟

كما ترك لنا الاستعمار القديم بقيادة بريطانيا حرية تخمين هدفه من تعريب مصر، ترك لنا الاستعمار الجديد بزعامة الولايات المتحدة نفس الدرجة من الحرية في تخمين هدفه من "أسلمة" مصر. و أعتقد، و لو أنني أرجو أن أكون مخطئاً، أن نقل انتماءنا من القومي {المصري بطبيعة الحال} إلى الديني، أي من إنتماء نسبي مفتوح لانتماء مطلق مقفول، لا يرمي إلى أي هدفٍ أهم في ضوء وجهة النظر الاستراتيجية الأمريكية من تمزيق وحدتنا كمصريين، فلقد ظلت مصر طوال تاريخها وحتى "ثورة يوليو الأمريكية"، حسب التعبير البارع لـ"جلال كشك"، بصرف النظر عمن يكون هو، "بودقة صهَّارة"، و بتعبير آخر، "وطن كل من يأوي إليها" سيان أكان أرمليا أو كريتلياً، يونانياً أو إيطالياً أو عبرانياً. لكن مع الانتماء الديني سوف نبدأ بحكم كونه مطلقاً مغلقاً من فورنا في الانقسام إلى مسلمين و مسيحيين وموسويين و بهائيين، ثم إلى سنة و شيعة، أرثوذكس وكاثوليك و بروتستانت ثم إلى شوافع و أحناف ثم إلى إثني-عشريين ...إلخ. و معنى القول أن تحويل إنتمائنا من القومي إلى الديني و الأدق الطائفي هو أول طلقة يُطلقها الأمريكيون و من ورائهم الغربيون، في حرب طائفية تبدأ كيلا تنتهي وسط أكثر أمم الأرض تجانساً و انفتاحاً وتسامحاً، و أقدم أمة متحدة أي تتكلم لغة واحدة، أسست لنفسها أول دولة/ أمة في تاريخ بني الإنسان و أطول أمم المعمورة استمراراً بهذه الصفة ذاتها، و أقصد هنا بطبيعة الحال،الأمة المصرية.

و بناء عليه فإذا كانت بريطانيا قد هدفت إلى تذويب مصر في الخارج، أي فيما يُسمى بـ"العالم العربي"، فإن الولايات المتحدة تهدف إلى تمزيق المصريين في الداخل على أسس طائفية أي دينية ثم مذهبية ثم مذهبية فرعية. و واضح لكل من يستطيع أن يفتح عينيه و يرى أن كلا الهدفين يتكاملان و لا يتعارضان حيث أنهما يستهدفان خطراً واحداً على المصالح الغربية في المنطقة: القومية المصرية التي تحمل في رحمها المحكوم عليه بالعقم دولة عظمى إقليمية على الأقل، في وزن تركيا أو إيران.

حزمة ضوء:

و لا أريد أن أترك هذه النقطة دون حزمة الضوء التي تستطيع هذه التجربة التي ترويها - كتابة - زميلة فلسطينية في مجال العمل هي "ف.أبو خضرا"، حول دخول يهود مصريين والأدق مصريين يدينون بالديانة الموسوية بيتهم لتفتيشه عند الاجتياح الإسرائيلي لبلدها "غزة" في سنة 1956، و دخول عراقيين موسويين لبيت جارهم. و كيف لم يتورع العراقيون الموسويون(=اليهود) عن ارتكاب كافة الجرائم التي ينزلها، في العادة، الغالبون بالمغلوبين، مما كان يقف في حلقها و هي تروي ما حدث أمامي، و لكنه يُندي جفونها في نفس الوقت. في حين أن المصريين-الموسويين لم يمسوا شعرة واحدة في رأسها و لا قشة واحدة في البيت. ولقد طمأنها أحدهم و هدّأ آخر روع جدة عجوزة ضريرة همت بالوقوف عند دخولهم، وهو يقول بلغته التي لا تخطئها أذن في المنطقة التي تمتد من الخليج إلى المحيط:

- ما تخافي ش يا أمي، خلّي كي زي ما انتي!

و زاد هؤلاء المصريون الذين تصادف أن دانوا بالديانة الموسوية على ذلك بأن رسموا على باب البيت العلامة التي تُفيد خضوعه للتفتيش، و هو الأمر الذي "نسي" العراقيون اليهود أن يفعلوه على باب الجار السيئ الحظ فعرضوه لتفتيش مماثل مرة واحدة على الأقل.

هؤلاء و أولئك يدينون بنفس الديانة و لكن سلوكهم اختلف كل ذلك الاختلاف لسبب أرجو أن يكون قد صار واضحاً الآن.

إنتماءات ثانوية:

و بطبيعة الحال لا يقود هذا الحديث الذي أسوقه الآن حول الثقافة السائدة في مصر، ولا ينبغي له، إلى رفض وجود أي انتماء من تلك الانتماءات الدينية أو المذهبية. فلكل هذه الانتماءات حق الاستمرار على أرض مصر، بشرطٍ واحد: أن تظل، مثلما هو الحال في الغرب و الشرق انتماء ثانوياً، أي تالياً للانتماء الأول القومي بمعنى القومي المصري.

تدهور إلاه:

و هنا أتذكر بشيئ غير قليل من الحزن و الأسى تبني "المتعلمين المصريين" لموقف "العرب-الساميين" المتأخرين زمنياً، من حيوانٍ يتمتع بالصبر و الجلد و تحمل المشاق والجوع أقصد "الحمار"

الذي كان إلاهاً معبوداً عند الساميين الجنوبيين ثم انتقل معهم بهجرتهم إلى شمال شبه جزيرتهم، بصفته هذه، أي ظل يُعبد عند الساميين الشماليين. و يتضح ذلك من اسم الملك السادس من الأسرة الأمورية الأولى "حمورابي" الذي حكم "بابل" في الفترة من 1792 حتى 1750ق.ع.م. ويعني اسمه "الحمار أبي"{حمور=حمار بعد دخول قاعدة التمييل "=الإمالة"}. و لكن الأيام أدارت له ظهرها، و صار هدفاً للسخرية، أبرز مظاهرها الادعاء الذي انبثق في ظل الصراع بين الآلهة القديمة بغبائه. و هذا إدعاء غير صحيح. و لكن "المتعلمين المصريين" تبنُّوه دون "إحم و لا دستور" عن العرب-الساميين بعد نبذهم لآلهتهم القديمة. و لقد ألقى رئيس وزراء "مصري" سبق ممن عملوا في جناح الخدم و الحشم بالبلاط العسكري الحاكم في سبعينات القرن العشرين هو د."ع.عبد المجيد" بالمسؤولية عليه في نقص إنتاج مصر من القمح! لماذا؟ لأن الفلاحين - ولفظ عند "المتعلمين المصريين" ارتباطات تحط بالشَّأن - يزرعون من أجل غذائه مساحات شاسعة من البرسيم على حساب المساحة التي كان يتعيَّن تخصيصها لزراعة القمح. في حين يعرف المصريون-المصريون أي المصريون-الأميون لهذا الحيوان الذي استأنسه بنو الإنسان، لأسباب كانت و لا تزال قوية، فيما نظن، كي يستخدموه كوسيلة من وسائل الحمل و الجر قبل عصرنا المعروف بنحو أربعة آلاف سنة، عوضاً عن الغباء صفة الذكاء، و خصوصاً فيما يتعلق بذاكرته المكانية الحادة. و يعرف الريفيون من أمثالنا أن "الحمار" لا ينسى مكاناً زاره ولو مرة واحدة. و كان يقودنا عبر الطرق المختلفة ركوباً على ظهره، و نحن صغار لا نعرف بعد النطق بأسمائنا إلى آخر مكان ذهب إليه، بشرط واحد: ألاَّ نتدخل فيما يعنيه. كما نعرف، نحن الريفيين، أن الحمير تملك درجة عالية من الوفاء، الذي قد يفتقر إليه بعض الذين ينسبون أنفسهم، بضمير مستريح، إلى بني الإنسان، تجعلها تصوم حزناً على صاحبها المتوفي، حتى تلحق به!

أما "البرسيم" بالنسبة للحمير، فيوازي "الكافيار" بالنسبة لغالبية المصريين يسمعون عنه و قد يرونه في الأحلام أو الأفلام و لكنهم لا يذوقونه. فالفلاحون لا يفتقرون، مهما "تتركنا" إزاءهم التي صيَّرنا أنفسنا أتراكاً عليهم، ذلك القدر من الذكاء الذي يمكنهم من قصر التغذي بالبرسيم، في ظل ندرته النسبية، على حيواناتهم الحلوبة كالبقر و الجاموس، فيما لا يملكون لحميرهم سوى التقوت على النجيل بصفة خاصة و الأعشاب الشيطانية بصفة عامة.

ثقافة مخترعة للمصريين المعاصرين:

و بناء على كل ما سبق فإن القول الذي يردده "المتعلمون المصريون" و خصوصاً "الأكاديميون" منهم وراء الخبراء الأمريكيين بأن الثقافة الإسلامية هي الثقافة القومية للمصريين المعاصرين هو قول فاسد و بالتحديد غير علمي و غير دقيق و غير نزيه في آنٍ واحد. و ذلك لأنه يحذف ديانتين و الأولى شُعبتين من الديانة الإبراهيمية هما الموسوية والمسيحية اللتين يدين بهما مصريون - و لنصمت الآن عن الديانة البهائية - و في نفس الوقت يضم ثقافات متعددة أخرى، لا تشكّل الديانة المحمدية (=الإسلام)سوى جزء من ثقافتها كالثقافة الإيرانية و الأفغانية والكشميرية على سبيل المثال، في آسيا و البربرية و النيجيرية-الهاوسية على سبيل المثال في أفريقيا أي أنه مصطلح ضيق للغايةtoo exclusive من جانب و فضفاض للغاية too inclusive من جانب آخر، و فضلاً عن فساده ضار بحاضر مصر ومستقبلها و كذلك بماضيها على حدٍ سواء، وبالتالي بالمنطقة المحيطة بأسرها. أما عدم نزاهته فكامن في خدمته لأهدافٍ أجنبية معادية لمصر والمنطقة بأسرها.

عن نظرية المؤامرة:

و هنا يحق للقارئ الكريم أن يسأل: كيف أنسب للعوامل الخارجية كل هذا التأثير على العوامل الداخلية، و ألاَ يهدد ذلك بالانزلاق نحو نظرية المؤامرة؟ و السؤال بعبارة أخرى: ألا يُبدي المصريون المعاصرون معارضة من أي نوع لما يُريده أولئك الخبراء؟

ردي هنا هو ما يلي:

(1) يتناسب حجم التأثير الذي تُحدثه العوامل الخارجية في أي صيرورة بصورة عكسية مع مدى ضعف أو قوة العوامل الداخلية.

(2) يصل تأثير هذه العوامل أو تلك مداه الأعلى بتوظيفها للعوامل المناقضة كي تعمل لصالحها، و بعبارة أخرى، عندما تكون العوامل الداخلية قوية فإنها تنجح في توظيف العوامل الخارجية لصالحها، أما إذا قويت العوامل الخارجية، أمام تلك المناقضة أي الداخلية، و ذلك في حالات استثنائية، مثلما هو الحال، مع مصر منذ فجر يوم الأربعاء الأسود، و المشؤوم في آنٍ واحد، فإنها توظف العوامل الداخلية لصالحها. و معنى القول أن

هناك مؤامرة بل و مؤامرات تحدق بنا، لكنه من الخطل أن نعتمد المؤامرة نظرية تصلح لتفسير أي شيء و كل شيء. فالعامل المرجح كامن وحسب في الداخل.

فإذا ما انتقلنا من النظر إلى الواقع، فإننا نلمس أن هناك معارضة ملحوظة، و ربما بليغة أيضاً للإرادة الأمريكية. و لكن السؤال الأهم هو: إلى أين يتجه رأس سهم تلك المعارضة؟

أمركة التعليم:

تنصب المعارضة الرئيسية، إن لم نقل، كل ما يصدر عن "المتعلمين المصريين"، دون استثناء و حد، من معارضة للإرادة أو الإستراتيجية الأمريكية في مصر، على أن الخبراء الأمريكيين يسعون لـ "أمركة التعليم المصري"، و على الأقل، كان هذا عنواناً رئيسياً لتحقيق صحفي نشرته دورية أسبوعية هي "الأهرام العربي" التي تصدرها كبرى الصحف القومية و الأدق الحكومية في مصر يوم 22أبيب/ يوليو سنة 2000، و جاء هذا العنوان انعكاساً دقيقاً لجوهر الآراء التي أفصح عنها "التربويون المصريون" الذين تصادف أن كانوا يحملون شهادات الدكتوراة أو يُحِّضرون لحملها، ممن يتصلون بصورة أو بأخرى بما يُسمى "مركز تطوير المناهج" التابع لـ "وزارة التربية و التعليم" و الأدق الذي تتبعه هذه الوزارة، و استنطقهم التحقيق، و هو التحقيق الذي شكا فيه بعضهم من دفعه ثمناً غالياً لـ"معارضته"!

عقل بائس:

و هكذا نجد أنفسنا أمام عقل ميكانيكي بائس: ما دام المستعمرون أمريكان، فلن يفرضوا على مستعمريهم (بكسر الراء) سوى "الأمركة" و كفى الله "الأكاديميين" شر التفكير و أهواله و أخذه المتغيرات في الحسبان. و هنا يتعيَّن علينا أن نعود بعقلٍ مستقل، إلى التاريخ قليلاً كي نرى ما حدث من متغيرات:

ظل المستعمرون الأجانب يلجأون، في سبيل نزع مقاومة الشعوب التي يُخضعونها لسيطرتهم، إلى فرض ثقافتهم القومية بما تنطوي عليه من لغتهم و آلهتهم و دياناتهم و مختلف أنماط حياتهم على هذه الشعوب. هكذا فعل الشطر الأعظم من أكبر المستعمرين في التاريخ كالفرس و الأشوريين و اليونانيين و الرومان و الأسبان و البرتغاليين و الفرنسيين والإنجليز. غير أن المستر "جوني" فطن إلى درس ذهبي في أواخر حقبة السلام البريطاني Pax Britannica: هناك عوامل

محلية عند هذه الشعوب المقهورة، متخلِّفة عند الشعب المصري عن مرحلة استعمارية سابقة، تعمل في سبيل هذا الهدف الاستعماري ذاته، خصوصاً و أن فرض الثقافة القومية للمستعمرين لم ينجح باستمرار في تحقيق الهدف الذي ينشده. و ليس أدل على ذلك من أن ثواراً كباراً فيما يسميه الغرب بـ"العالم الثالث" درسوا في سني تكوينهم الأولى في عواصم غربية و أتقنوا لغة و ثقافة مستعمريهم("المهاتما غاندي" و "هوشي منه" نموذجان). و نلاحظ في هذا الصدد أن بريطانيا التي كانت تبذل جهوداً مكثفة في أوائل القرن العشرين لفرض اللغة الإنجليزية كلغة للتعليم في مصر، تخطط قبيل انتصافه بدأبٍ واستبسال في سبيل إنشاء ما يُسمى بـ "الجامعة العربية" في المنطقة ومصر على وجه الخصوص، أي فرض تعريب المصريين، و بعبارة أخرى انتقلت بريطانيا من فرض ثقافتها هي إلى فرض ثقافة أخرى، خلاف ثقافتها، على المصريين المعاصرين. و غني عن الذكر أن الثقافتين، البريطانية و تلك الأخرى تشتركان في أجنبيتهما عن مصر و وادي النيل، و تختلف الواحدة عن الأخرى في أن إحداهما راقية و الأخرى أدنى رقياً. و هذا هو الدرس الذهبي الذي استوعبه المستعمرون الجدد الذين أزاحوا الإنجليز كي يحلوا محلَّهم، و تبنوا تطبيقه ببراعة لا مفر من التسليم بأنها فائقة.

صحيح أن الحركة الوطنية المصرية "العرجاء" تبنت تجاه قضية التعليم باللغة الإنجليزية موقف الرفض، و هو الموقف الذي يتناقض مع موقف الحركة الوطنية (و الأدق القومية) الهندية و لكن لذلك قصة طويلة.

و في سائر الأحوال سار "الانقلاب العسكري الأمريكي"، و هذا توصيف أدق، في مصر على هدي الحركة المصرية التي وصفناها قبل قليل بصفة لا أراها تستحق أقل منها و لا أزيد، وخصوصاً بعد أن سلَّمته رقاب المصريين المعاصرين. بل و بالغ في "مقاومته" للإستعمار القديم فأصدر وزير تعليمه و تربيته "الصاغ الملهم"، هو أيضاً، و لكن بدرجة أقل إلهاماً من "البكباشي المُلهم"، "ك.حسين" قراره قبيل ستينات القرن العشرين بأن الطالب الذي يحصل على 40٪ في مادتيْ اللغتين الإنجليزية و الفرنسية ينجح فيهما و يُنقل إلى الصف الدراسي اللاحق!

معارضة لكن لذيذة:

يحدد "المعارضون" من "التربويين المصريين" هدف "الأعداء" الذي يوجهون إليه سهامهم على هذا النحو:

"الأمريكيون يسعون إلى فرض ثقافتهم الأمريكية علينا نحن "العرب-المسلمين" و هو الأمر الذي يترتب عليه أن تكون الوطنية المتوقدة في أن نعارض تلكؤ أو تردد الخبراء الأمريكيين في بث "ثقافتنا العربية-الإسلامية" في مناهجنا التعليمية"!!!

و معنى هذا القول أن هذه الشريحة من "المتعلمين المصريين" لا يفعلون بمعارضتهم تلك سوى استنهاض الخبراء الأمريكيين كي يضعوا موضع التنفيذ استراتيجيتهم التي لا تقوم على فرض الثقافة الأمريكية بصفة رئيسية على تلاميذ مصر، بل على فرض الثقافة العربية-الإسلامية عليهم. و يتبدى موقف "المتعلمين المصريين" أكثر ما يتبدى في المقالات الأسبوعية التي تكتبها ببلاغة محزنة د."ن.أ. فؤاد" في كبرى الجرائد المصرية، و هي الجريدة التي تُعد في تصوري أشد فعالية من "لاظوغلي" في خدمة الإستراتيجية الأنجلو-الأمريكية، فبينما لا تطول "الداخلية" سوى شواشي الشرود عن "القطيع"، تستطيع صحيفة كـ"الأهرام" أن تقتل براعيم أي تمرد على اللامنطق و اللاقومية في المهد. فسيادة د."ن.أ.فؤاد" تجهر بمعارضتها "الشرسة" للخبراء الأمريكيين و تنعي تدخلهم في الشؤون الداخلية لمصر بمعاونة "البنك الدولي". و لكنها تمضي فتتبنى أكرر "تتبنى" موقف د."جوديث كوكران" في كتابها "التربية في مصر"، مع أن سيادتها، وليس أي شخصٍ آخر، هي التي عرَّفتها لقارئها على هذا النحو:

"الخبيرة الأمريكية التي اشتركت مع الأجهزة الأمريكية في "تطوير" ـ و القوسان من عند د."ن.أ. فؤاد" ـ مناهج التعليم في مصر"

إذ أن د. "ن.أ. فؤاد" ترسل بالحرف الواحد عقب هذا التعريف، نقلاً عن الخبيرة الأمريكية، هذا القول "البليغ":

"كان تلاميذ الكتاتيب المتازون يستطيعون أن يُنمُّوا معرفتهم بالإسلام و أن يُصبحوا أرفع المصريين علماً" ص 8 من كتاب الخبيرة.

و تمضي د."ن.أ. فؤاد" كي تبيع لنا هذا القول الذي صدر عن خبير أمريكي ـ و انس تاء التأنيث لحظة ـ كي تبيعه لنا باعتباره "شهادة من أهلها"!!!

بل و تؤسس "الدكتورة المصرية" المعارضة على هذه الشهادة في السطر التالي مباشرة ما يلي:

"إذا فشل الفاشلين لا دخل للكتاتيب فيه فقد فشلوا في جميع الوظائف التي تقلَّدوها لأسبابٍ هابطة" (ماهي؟لا أحد يعلم)(صحيفة "الأهرام" 11مسرى/ أغسطس 1999ص30)

و قد ينبري شخص ما كي يقول: إن د."ن.أ. فؤاد" ليست "تربوية" في سائر الأحوال. ورسالتها لنيل شهادة الدكتوراة كانت عن "أم كلثوم". و هذا صحيح. و لكنه قول لا ينفي شيئاً ولا يُثبت آخر. إذ أن ذلك هو موقف "الثقافة السائدة" في مصر، تلك التي يقف منها "الأكاديميون المصريون" ضمن مختلف "المتعلمين المصريين" موقف الحراس الأوفياء، وبعبارة أدق: موقف الكهنوت السادن. و إليكم موقف د."ح.عمار" الذي يلقبه تلاميذه النجباء - و هم "أكاديميون" بطبيعة الحال بـ"شيخ التربويين" في مصر - و هو الموقف الذي أفصح عنه سيادته في مقال "بليغ" بلاغة محزنة هو الآخر نشره في جريدة "القاهرة" بعنوان: "الدور المشبوه للجامعات الأجنبية في مصر"، و خصصه "التربوي المصري" العتيد لشن هجوم حاد، قد نتفق معه و قد نختلف، ضد استخدام الجامعات الأجنبية للغاتها الأجنبية في التدريس، و هو الأمر الذي يتساءل د."ح. عمار" حوله على هذا النحو المؤثر: "هل نحن مع بدايات حدوث انقلاب للإنسلاخ من هويتنا الثقافية العربية".

و يتأسس على هذا التساؤل، بحكم طبيعة الأمور أن يكون البديل عند سيادته هو التفاني في الدعوة إلى استخدام "اللغة العربية"، على نحو ما تدعو إليه "الجامعة الأمريكية" و"الثقافة السائدة"، و كذلك د. "ن.أ. فؤاد"، فلقد وصف سيادته: "مصر"، في الفقرة التالية مباشرة بأنها:

"أم الدنيا العربية-الإسلامية منذ الفتح العربي، مروراً بقادة نهضتها الحديثة منذ "رفاعة الطهطاوي" و ما بذل من سعي و تطوير و إثراء لثقافتنا العربية. نذكر من الأعلام طه حسين وسلامة موسى و أحمد أمين و زكي نجيب محمود و نجيب محفوظ و فاروق شوشة و جابر عصفور و غيرهم و غيرهم...إلى جانب علمائها...إلخ".(صحيفة "القاهرة" العدد 289 ص 9 يوم 25 بابة/ اكتوبر 2005)

و لكن الملاحظ أن شهادة د."جوديث كوكران" الخبيرة الأمريكية، لا تتفق و حسب مع موقفيْ د."ن.أ. فؤاد" و د"ح.عمار"، في اعتماد "الثقافة العربية-الإسلامية" و في قلبها بطبيعة الحال اللغة العربية "الفصحى" كثقافة قومية للمصريين المعاصرين، بل و مع ما كتبه الخبيران الأمريكيان "لوزر جيوليك" و "جيمس بولوك" اللذان استدعهاهما العسكروت الحاكم في مصر في ستينات القرن الماضي و بالتحديد في سنة 1960 لتنظيم الإدارة المصرية في تقريرهما:

"الثقافة الإسلامية من أصلح الأسس للحكم في العصر الحديث، و ليس هذا فحسب بل إنها تقدم للشعب المصري المبادئ يمكن للمصريين أن يُقيموا عليها ديموقراطيتهم الجديدة" (نقلاً من جانبي عن د.عبد الرشيد صقر. جريدة "الوفد" عدد 53 يوم برمهات/ مارس 1985)

و لهذا السبب أو لهذه الأسباب لم يتوقف أحد من كبار أو صغار "التربويين المصريين" أمام "التطوير" الذي أدخله الخبراء الأمريكيون على الكتاب المدرسي للمرحلة الإبتدائية، خلال ولاية د. "ف. سرور"، المتخصص في القانون، لوزارة التربية و التعليم في أواسط ثمانينات القرن العشرين، بتغيير عبارة "عادل يأكل الفول" إلى "عمر يأكل الفول". و لم يفطن أحد منهم، في نطاق علمي، بطبيعة الحال، إلى أن اسم "عادل" يخاطب جميع الأطفال أو التلاميذ المصريين، بينما يُخاطب إسم "عمر" قطاعاً من هؤلاء التلاميذ و يترك قطاعاً آخر، أي ينفيه إلى كتابٍ آخر يخاطبه باسمٍ ديني بارز آخر يوازي "عمر" مثل "متى" أو "بولس"، و بعبارة أخرى يمزق الأمة المصرية أي وحدة المصريين المعاصرين إلى أمتين على الأقل. كما لم يتوقف أحد من أولئك "التربويين المصريين" أمام إلقاء الخبراء الأمريكيين ومتدربيهم trainees بكل ما يملكون من ثقل وراء "تعريب" تدريس العلوم الطبيعية في جامعات مصر، كما سبقت الإشارة.

عن النموذج الأمريكي:

و عندما يكتب د."ف.زكريا" كتاباً بعنوان "العرب و النموذج الأمريكي"، كي يرفض فيه صلاحية النموذج الأمريكي كأساسٍ يستطيع العرب أن يبنوا عليه نهضتهم في العصر الحديث، فإن سيادته يكون قد سدد سهماً بارعاً حقاً، و لكن على هدفٍ غير قائم في الواقع. لماذا؟

لأن موقف الخبراء الأمريكيين يقوم على عدم طرح النموذج الأمريكي سواء لنهضة العرب أو غير العرب، ليس لعدم صلاحيته أو صلاحيته، بل لامتلاكهم لنموذجٍ آخر أكثر فعالية في خدمة مصالحهم في منطقتنا السعيدة. و ليس أدل على ذلك من إعلان دكاترة "الجامعة الأمريكية" ـ والقوسان بهدف التحفُّظ ـ في مصر أنفسهم رفضهم القاطع للتغريب، و تأكيدهم على فشل التجارب الديمقراطية و العلمانية و بطبيعة الحال، الاشتراكية قبل و بعد "انقلاب يوليو الأمريكي"، الذي قاد و يقود مصر على المستوى الثقافي من العصور الحديثة التي شارفت حدودها هي و سائر بلدان المنطقة بأسرها، التي لم تكن قد اقتربت من تخوم هذه العصور بعد، إلى "العصور الوسيطة"، دون أن يخشوا لومة لائم أو "لفت نظر" من جانب رؤسائهم، و دون أي شعور

بالتناقض بين عملهم في مؤسسة أمريكية و "عدائهم" الذي لا فصال فيه، للتغريب، و ذلك لأن النموذج الذي يطرحه الخبراء الأمريكيون و أتباعهم هو النموذج "العربي-السامي"، و بتعبير الثقافة السائدة في مصر و المنطقة المحيطة: "العربي-الإسلامي".

و لست أريد أن أترك عند القارئ الكريم انطباعاً بأنني أعادي "الأمريكيين" أو "العرب-الساميين". فموقفي، باختصار يفرضه مثل هذا التقديم السريع، يقوم، ليس على رفض ما يُسميه دكاترة "الجامعة الأمريكية" بـ "التغريب" أي الغرب كله، على غرار ما يفعل الأصوليون الدينيون أنفسهم، بل على رفض السياسة الأمريكية و حسب و احترام الثقافة الأمريكية، و خصوصاً وجهها الديمقراطي العلماني الإنساني، و ممثلي هذا الوجه من أمثال "توم بين" و "وليم فوكنر" و"آرثر ميللر" و "روبرت فروست" و "وولت ويتمان" و"إميلي ديكنسون" و "نعوم تشومسكي" و مئات آخرين أضعهم ضمن أصدق أصدقائي. و كذلك العالم التربوي "مورين ميرفي" التي تروي في حديث لها مع مجلة "أخبار الأدب" الأسبوعية يوم 25برمهات/ مارس 2001 ما يلي:

"في ندوة بجامعة "عين شمس" كنت أتحدث عن الأدب المصري، فقام أحد الحضور وقال لي:

"يجب ألاَّ تتحدثي عن الأدب المصري و إنما عن الأدب العربي كله. و لكنني أعتقد أن أول انفجارٍ معرفي على نحوٍ عالمي لكل طلاب التاريخ و الحضارة في أمريكا هو مصر. و في متحف "المتروبوليتان" مجموعة كبيرة من الآثار المصرية. و قد استغل الكثيرون حب الأطفال للحضارة الفرعونية فقاموا بتصميم عرائس فرعونية و قوالب سكر على هيئة أهرامات، فالكنوز الفرعونية تثير خيال الأطفال في كل أنحاء العالم."

و السؤال هنا أيهم أكثر مصرية: أطفال مصر "هذه" أم أطفال "هذا" العالم؟

و معنى القول أن الفرق بيني و بين ما أسمِّيه بـ "اللوبي الأمريكي في مصر" في عبارة واحدة هو:

يسعى الحر الفقير إلى أن تصبح مصر مثل الولايات المتحدة، و غير الولايات المتحدة من دول العالم أجمع ـ باستثناء عالمنا ـ أي دولة قومية ديموقراطية علمانية منتجة و ذلك على النقيض مما يعمل "اللوبي الأمريكي" في مصر بدأبٍ لا يُحسد عليه، كي يجعل مصر كما تريد الولايات المتحدة، والأدق السياسات الأمريكية لها أن تكون: دولة غير قومية (=عربية-إسلامية) غير ديمقراطية غير علمانية غير منتجة، تعمل حكوماتها "الأمريكاوية" المتعاقبة، على قصر منتجاتها على خام البترول

والغاز الطبيعي حتى و لو أدى ذلك إلى إنهاء وجود مصر ذاتها كأكبر واحة منقولة في العالم. و لا أستطيع أن أتخيَّل لنا نحن "القوميين المصريين" نجاحاً، إلاّ إذا تمكّنا من كسب تأييد العدو الأول للإستراتيجية الأمريكية الرسمية، و هو أوسع القطاعات من الشعب الأمريكي، بتراثه الإنساني والديمقراطي و العلماني، أي النابذ للظلم الرافض للإستعباد، تماماً مثلما فعل و نجح الفيتناميون خلال النصف الثاني من القرن العشرين. على أن فشلنا في ذلك حتى الآن إنما يرجع بالدرجة الأولى إلى دور "الأصوليين الدينيين"، و أشباههم الذين يعملون بدأبٍ لا يُحمدون عليه في سبيل إبعاد هذا الهدف عن متناول أيدينا، عن طريق دفع "أصدقائنا" المحتملين بين الأمريكيين إلى الالتفاف حول قيادتهم المعادية لنا و لهم، و ذلك برفع رايات العداوة المُفرطة لما لا يتورعون عن رجمه جهراً والتمرغ في نعيمه سراً. و في خطٍ موازي(موازٍ)، و على نحو ما يلحق الأصوليون الدينيون الضرر الفادح بنا، فإنهم يُلحقون ضرراً مماثلاً بالشعب الأمريكي الذي تواجهه إدراته، والحال هكذا، برفع بيارق ضرورة الحفاظ على "الأمن القومي" فوق "الحريات المدنية" المقررة سلفاً في إطار دستور ديمقراطي علماني انساني، تأسس على أفكار التنوير التي دعا إليها آباء الثورة الأمريكية المجيدة. و أظن أن دراسة متواضعة لتاريخ الولايات المتحدة تمكن المرء من الحكم باطمئنان بأن ما يُسمى بـ "قسم الولاء" Pledge of Allegience، الصادر في سنة 1954 ، إنما جاء رداً على، لا استمراراً و لا تطويراً للدستور الأمريكي العظيم الصادر في 1778

أما إذا كنت أتفق أو أختلف كثيراً أو قليلاً مع من يرى في الولايات المتحدة: "أغنى وأقوى وأجرم دولة في العالم و التاريخ"، فإن أسبابي، في الحالتين مختلفة إلى هذا الحد أو ذاك عن الأسباب التي يسوقها "الأصوليون الدينيون" الذين يدمغونها بـ "الشيطان الرجيم". فبينما يبكي أولئك، على سبيل المثال، على "إسقاط" هذا "الشيطان" لنظام حكم "طالبان" أي تلاميذ معاهد "بيشاور" الدينية الإسلامية، و هو النظام الذي سيطر على الحكم في "كابول" لثلاث سنوات طويلة و مريرة، فإنني لا أنعي على "واشنطون" إسقاطها لهذا النظام العصو-وسيطي، بل تنظيرها و تدريبها وتمويلها و تسليحها سواء بصورة مباشرة أو عن طريق "أصدقائها" المحليين الذين تسبغ عليهم وصفها المشهور: "المعتدلين"، لهؤلاء "الصبية المتحجرين" و اتخاذها سفارة عند حركتهم "طالبان" وهي لا تزال خارج نطاق الحكم في إقليم "بيشاور" الباكستاني المتاخم لأفغانستان، في سابقة لم تتكرر في تاريخ الدبلوماسية الدولية، وتنصيبها في نهاية المطاف لهؤلاء "الصبية

المتوحشين" مطرح نظام الحكم "الأصولي الإسلامي"، هو الآخر، بقيادة "برهان الدين رباني"، و على نطاقٍ أوسع تبدأ جرائم الولايات المتحدة في رأيي من حرصها على تنصيب حكوماتٍ أقوى من شعوبها، و هو الأمر الشاذ البالغ الشذوذ، في علاقة الحكومات التاريخية مع شعوبها. و لعل شذوذه ذاك هو الذي يُفسِّر فشله الذريع في قارات كاملة، من بينها أوروبا(سقوط فاشيي "أثينا" في السبعينات نموذجاً) و أمريكا اللاتينية(سقوط ديكتاتورياتها العسكرية نماذج) و آسيا(سقوط فاشيي "سول" نموذجاً) ومع ذلك حقق نجاحاً هائلاً في حالاتٍ استثنائية على رأسها حالة مصر، و يبدو أن حجم ذلك النجاح تناسب بصورة مطردة، مع انهيار دولتها القومية.

أما موقفي من العرب فيقوم على الوقوف مع العرب ضد عروبتهم، و هذا نفس موقفي من سائر الساميين: معهم ضد ساميتهم، أي ضد شكلٍ محدد من أشكال وجودهم في سبيل هذا الوجود ذاته. و لعل هذا هو نفس الموقف الذي يتخذه أنبل أبناء أولئك الأقوام. و شرح ذلك موجود في طيات الكتاب الذي بين يديْ القارئ الكريم.

كارثة التعليم:

و هكذا انتهيت إلى هذه النتيجة: كارثة مصر في الوقت الحاضر ليست في أميتها، كما يزعم الخبراء الأمريكيون و من ورائهم في جوق مخزي(=مخزٍ) "المتعلمون المصريون" وبعبارة أخرى كارثة مصر ليست في "إتصالها" مع ثقافتها القومية، التي حملها التواتر جيلاً بعد جيل، منذ ما قبل التاريخ و حتى اليوم، بل في "تعليمها" أي في "إنقطاعها" عن هذه الثقافة القومية. و بمعنى آخر في "تعليم" أبناء مصر ثقافة عربية-سامية، و هو "تعليم" يضعه - حباً في سواد عيونهم - الخبراء الأمريكيون أنفسهم و ليس مجرد متدربيهم من "الأكاديميين" الذين يعودون إلينا سعداء، بشهادات الدكتوراة من الجامعات الأمريكية بصفة خاصة والغربية بصفة عامة.

و إيضاحاً للأمر أقول أن التلميذة المصرية التي "تتعلَّم" في مدارس مصر، سواء المدنية أو الأزهرية، و على سبيل المثال، أن شعرها "عورة"، و يلزم أن تغطيه بـ "حجاب" ثم تتوغل في هذا "التعليم" و الأدق يتوغل هذا "التعليم" في عقلها و تقتنع بأن شعرها يقوم على نفس المستوى مع "يكرم اخواتي" و يلزم أن تحجبه بـ "حجاب" فـ "نقاب" فـ "سدال" ثم تتوغل أكثر و أكثر في هذا "التعليم" و توقن أن صوتها "عورة" ثم ظلها، فإذا وقع هذا الظل، صُدفة، على أحد المُصلين، بطُلت صلاته، هل تكون بتلك الانتقالات تغادر جهلاً كان كامناً في أميتها و ترتقي إلى مراتب

أعلى من العلم خلال "تعليمها" أم أنها تفقد شيئاً فشيئاً في حقيقة الأمر درجة أو درجتين من "علمٍ" كانت قد اكتسبته من أميتها أي ثقافتها القومية التي وصلت إليها عن طريق التواتر أي شفهياً.

بنت=ولد:

و غني عن الذكر أن البنت في المجتمع المصري-المصري في الشمال و الجنوب و ما وراء الجنوب أي في سائر أرجاء "مصرودان"(=مصر+السودان)، و في عبارة أخرى في المجتمع الريفي الذي يكتسب علمه و معرفته عن العالم شفهياً، لا كتابياً، لا يزال يرى ـ رغم كل ما حدث من "تعليم" والأدق من تخريب للثقافة القومية المصرية ـ في البنت إنساناً مثلها مثل الولد سواء بسواء و أمام العمل "إيد" تماماً كشقيقها، أي أن البنت في ثقافة المصريين-المصريين أي المصريين-الأفارقة ليست موضوعاً جنسياً و حسب، كما يريد لها "التعليم" الأمريكاني و الأدق "الأمريكاوي" أي الذي يستزرعه الخبراء الأمريكيون في مصر، دون الولايات المتحدة، أن تكون. و عندما يقول الفلاح المصري-المصري أي المصري-الأمي من المالح إلى الشلال و ما وراء الشلال لخولي الأنفار:

ـ عايزين عشرين "إيد" من صبحية ربنا لجني القطن ولاّ شتل البطاطا و لاّ زرع القصب إلخ

هنا لا يقصد هذا الفلاح غير المتعلم تعليماً من ذلك النوع الأمريكاوي من التعليم أن يكون العشرون "نفر"(=نفراً) ذكوراً أو إناثاً.

صحيح هناك تخصص في العمل في ريف مصر على أساس الجنوسة gender و لكن لا يوجد هناك حاجز فاصل بين الجنسين على هذا الأساس. فالسيدة المصرية تستطيع، إلى جانب الطبيخ والخبيز، أن تحرث و أن تقصِّب و أن تبتن أي أن تقوم، إذا اقتضى الأمر، بكافة الأعمال التي يعتادها الرجال، دون أي استنكار، بل على العكس أي بدرجة عالية من الإكبار. و بالتالي فإنها تستطيع والأدق "كانت" تستطيع أن تُغني و أن ترقص و أن تفكِّر بصورة مستقلة.

مصر بين ثقافتين:

و هذا في تصوري، هو الفرق أو المسافة بين الثقافة الرعوية-البدوية، سواء أكانت عربية أم عبرانية، و بين الثقافة الزراعية-المصرية الأرقى، و بعبارة أخرى نفس المسافة بين الإرتباطات التي تحملها كلمة "حرمة" أو "إمرأة" في اللغة العربية و "جيفرت" في اللغة العبرية من ناحية و بين

كلمة "الست" في اللغة المصرية سواء القديمة أو الحديثة، من ناحية أخرى. فـ "الست" كانت في مصر إلهة معبودة و لم تنزل تماماً حتى الآن عن العرش الذي رفعتها إليه ثقافة المصريين.

و غني عن الذكر أن العبراني-السامي، الذي حسُنت ساميته يُصلي لإلهه على هذا النحو:

ـ أحمدك ربي لأنك لم تخلقني كافراً و لا إمرأة!

و لعلنا نعرف أن الجلادين في سجون العسكروت الحاكم في مصر يطلبون من ضحاياهم هذا الطلب:

ـ قول أنا مراة!

و ليس بحالٍ من الأحوال:

ـ قول أنا ست!

و السر كامن هنا في حمل الكلمة العربية لمجالها المغناطيسي: إرتباطاتها connotations في الثقافة العربية-السامية، التي تقبل المهانة والمذلة التي يريد جلادو "الانقلاب الأمريكي في مصر" فرضها على ضحاياهم. فدونية المرأة ركنٌ أساسي من أركان ثقافة الساميين، في حين أن الكلمة المصرية الموازية تأبى ذلك كل الإباء. فلقد كانت المرأة في المجتمع المصري القديم الذي تحكمه ثقافة قومية محددة: ست و ملكة و إلاهة(=إلهة) معبودة، لم تعرف، بطبيعة الحال، لا حجاباً و لا خماراً و لا نقاباً و بكل تأكيد، و لا سدالاً أو "أحزمة عفة"Chastity belts، مثل تلك الأحزمة التي استمرت أوروبا تعرفها حتى غروب العصور الوسيطة. وهذه الثقافة القومية هي التي نقول - و لسوء حظنا نكاد ننفرد بهذا القول ـ بأنها لم تنتهي(=تنته) و لا ينبغي لها، حتى اليوم. و إذا سلَّمنا، جدلاً، بصحة القول بأنها انتهت، لتعيَّن علينا أن نعيدها من الموت إلى الحياة أي نبعثها. و لعلنا نذكر، على العكس من اتجاه الثقافة السامية، تعابير مصرية أصيلة من قبيل:

ـ ستك و تاج راسك!

ـ ست الدار

ـ ست ابوها...إلخ

و هنا أتصور أن يتفتق ذهن "متعلم مصري"، غيورٍ على "عروبته"، عن هذا السؤال: وماذا عن كلمة "سيدة" العربية؟ ألا توازي "ست" المصرية؟

ردي هنا: لا وجود هناك لكلمة "سيدة" في صميم اللغة العربية، فلم ترد هذه الكلمة بمعناها الذي نعرفه لها اليوم في أي نص عربي عصو-وسيطي، سواء أكان مقدساً أو شبه مقدس أو غير مقدس، من "القرءان" إلى "الأحاديث النبوية" إلى "نهج البلاغة" إلى "الشعر الجاهلي". أما إذا كانت قد وردت فلعل نسبة ورودها كانت هزيلة إلى حدٍ مكّنها من التسرَّب من ثقوب ذاكرتي. فهذه اللغة العربية تعرف كلمات من قبيل: "إمرأة" و "أمة" و "جارية" الخ أما كلمة "سيدة" وهي مؤنث "سيد" فيذهب ظني إلى أنه توليف قياسي حديث، كأن نقول "شخصة" التي لا تعرفها اللغة العربية، حسب معلوماتي و لو أنها هي الأخرى مؤنث "شخص". و أمثال هذه الكلمات المنتحلة على اللغة العربية كثيرة بينها "حسناً" التي يحاول بها المترجمون نقل معنى كلمة: Well الإنجليزية و كلمة "العفو" التي تحاول تترجيم الرد على عبارات الشكر، و لو أنني أعجز عن فهم أي صلة لـ "العفو" سواء بالشكر أو الرد عليه.

و المعروف أن اللهجات العربية الحديثة في المشرق، تلك التي تأخذ في التحرر شيئاً فشيئاً من أطر "الثقافة العربية-السامية" - أي تغادر اعتماد علاقة الدم التي تعتمد على التسلسل الأبوي patriarchal line (شجرة الأنساب نموذجاً) إلى اعتماد علاقة الوطن - وإلى جانب ذلك تتبنى موقفاً أكثر تقدماً تجاه المرأة تحت تأثير واضح للثقافة الأرقى في المنطقة تجد نفسها و قد استعارت كلمة "ست" من "اللمح" فالغنوة السورية المشهورة تقول:

- يا "ست" أديش الساعة؟

لو حامل ساعة ما سألت ك...إلخ

و قليلون، بكل تأكيد، من "المتعلمين المصريين" الذين سيقبلون مني هذا القول: اللغة المصرية، قديمة و حديثة، و بالتالي الثقافة المصرية ليست أرقى في هذه النقطة من الثقافة العربية-السامية وحسب بل و من الثقافة الأنجلو-أمريكية التي تسعى إلى تسيُّد ثقافات العالم بصفتها الثقافة الأرقى. و كثيرون منهم سيرمونني، بشكلٍ شبه مؤكد بالشوفينية لذلك. و أستمد دليلي على رقي الثقافة المصرية هنا من أن الكلمة الموازية لكلمة "الست" المصرية في اللغة الإنجليزية تقبل مثلما تفعل مقابلها المباشر في اللغة العربية-السامية حمل الحططان من الشأن. و قاموس Collins Cobuild English Dictionary يقول أن تعبير You woman! يُمكن أن يكون جارحاً aggressive.

و هو الأمر الذي يأباه أي تعبير يستخدم كلمة "ست" المناظرة في المعنى في لسان المصريين.

و غني عن الذكر أن كلمة "امرأة" مستعارة إلى "اللمح" من اللغة العربية-السامية. وليس أدل على ذلك من "قلقها" في "اللمح" حتى هذه اللحظة. و هذا قلق راجع إلى أنها لم تضرب بجذور عميقة في تربة البنية الدلالية لـ "اللمح". فالكلمة لا تعرف لها في "اللمح" لا تذكيراً و لا تصغيراً، و هو الأمر الذي تعرفه في لغتها الأصلية و اللهجات التي تطوّرت عنها: "أمرؤ" و"مرية"(اللهجة الخليجية) على التوالي، هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى فكلمة "ست" كلمة مصرية صميمة و الأدق حامية فهي عبارة عن مؤنث كلمة "سي" 𓀀 بمعنى "رجل/ جدع" بل و تعرفها الطبقات التحتية Substrata للغات الحامية بأسرها، و هذا هو السر في وجود كلمة "سي" في لهجات المغرب، و مصر جزء منه، عرقياً و ثقافياً و لغوياً، دون لهجات المشرق: سي عبد الرحمان، سي محمد إلخ.

أما كلمة Lady في اللغة الأنجلو-أمريكية، فليست اسماً عاماً، يُوازي "ست" المصرية، الأصيلة، بل لقب أقتُصر حمله في الأصل على سيدات الطبقات المالكة أو الحاكمة (=الراقية) كالدوقة و الكونتيسة و البارونة إلخ، دون سائر النساء.

عن الكتاب الأمريكاوي:

و لقد نظرت فرأيت أن الكتاب المدرسي في مادة القراءة الذي وضعه الخبراء الأمريكيون بأيديهم، في مركز "تطوير المناهج" ـ و يالا ابتذال المصطلحات ـ دون أن يكتفوا بالإشارة لأتباعهم بوضعه، و يقبله منهم، بامتنان لا زيادة عليه "التربويون المصريون" لتلاميذ الصف الثالث الإعدادي لسنة 2001 أي للأطفال المصريين الذين يتراوح عمرهم بين 13و 14 سنة يتضمن هذا السؤال، ضمن ما يتضمن:

ـ ماهي عقوبة الكافر؟

و بطبيعة الحال لم يتوقع أي "متعلم مصري" بدءاً من حملة شهادة محو الأمية حتى شهادة الدكتوراة جواباً على هذا السؤال "الفائق العلمية" سوى أقصى العقوبات الممكنة: القتل(=الإعدام) أي Capital Punishment. و لكن هل يُدرك أيٌّ منهم أن هذا السؤال "الجوهري" الذي لا يعرفه أي منهجٍ دراسي في العالم أجمع، فيما أظن، و لا ينقص تلاميذنا في هذه المرحلة العمرية سوى طرحه عليهم، و تلقينهم الإجابة الحاسمة و الصحيحة عليه يُمكن أن يمتد

بقوته الذاتية على استقامته كي يشمل أيضاً الأموات، بمعنى أن يكون "الكافر" قد رحل عن دنيانا، مثل الفرعون العظيم "أحموسي ابن أمون" بطل تحرير مصر من احتلال الهكسوس؟ و بالتالي تسقط المتعة التي كان لواضع الكتاب الأمريكاوي لتلاميذ مصر و صبيه ناقص المصرية الذي يقبله منه دون تعليق عاتب على الأقل، أن يستشعراها نتيجة لإنزال تلك العقوبة التي تتجه البشرية خلال مسيرتها نحو المستقبل الوضاء، إلى نبذها من قاموسها، بالفرعون خالد الإسم طيب الذكر. و هل يبقى لواضع الكتاب و فارضه على العقل المصري منذ نضارته الأولى من عقوبة قُصوى لـ"ابن أمون" سوى أن يعود الهكسوس بعد طرده لهم إلى احتلال مصر؟

ثلث الأصوليين:

و الآن هل يحق لأحد أن يستغرب بعد ذلك هذه الحقيقة: خرج ثلث التنظيمات الإسلامية الراديكالية،(=الأصولية) و عددها 92 تنظيماً من مصر؟، و ذلك وفقاً لما يذكره "آر.إتش. ديكمجيان" في كتابه "تاريخ الحركات الإسلامية"، و نقلاً من جانبي عن مقال لـ"أ. المهدي" نشرته له صحيفة "الحياة" اللندنية ص 21 يوم الأربعاء 22ديسمبر/ كياك 1999.

و هل يحق لأحد أن يستعجب إذا ما اتخذ بنو إسرائيل أهرامات الجيزة الثلاثة شعاراً لإحدى محطاتهم الفضائية، طالما يتخذ "المصريون" شعاراً لهم يتوسط علمهم الرسمي، في ظل "تعليم" فاسد و "إعلام أفسد"، يصممه الأمريكيون لهم، نسر "صلاح الدين الأيوبي" الذي كتب إلى سيده الخليفة العباسي "المستنجد" في "بغداد" عقب النصر الذي أحرزه على "الفاطميين" يقول: "لقد قضيت على الدولة المصرية"؟

و بطبيعة الحال، كان الخبراء الأمريكيون، قد نجحوا في أوقاتٍ سابقة مع مطلع انقلاب يوم الأربعاء الأغبر في مصر، في "تطهير" الكتاب المدرسي لتلاميذ المرحلة الابتدائي (=الابتدائية) من قصص مثل "الإتحاد قوة" التي تحكي عن استعصاء حزمة أعواد القش، مجتمعة، على الكسر، مع قبوله من أعوادها، متى تعرَّضت له عوداً فعوداً. و "الحرية"، التي تحكي عن قطة فضَّلت الحرية على الخبز و أظنها كانت لأستاذنا "مصطفى لطفي المنفلوطي"، إن لم تخونى الذاكرة، و "الكنز" التي تقص عن رجل اقترب منه الأجل، فجمع أولاده وهمس إليهم أنه خبأ لهم كنزاً في الغيط، فأخذوا يعزقون الأرض و يقلبون الثرى مرة بعد أخرى، فلم يجدوا شيئاً، و لكن المحصول زاد في سنتها، فرسوا على أن هذه الزيادة هي الكنز المخبوء. و لست في مجال تقديم دراسة مستفيضة في

هذا الشأن، و هو الأمر الذي كان من أوجب الواجبات بالنسبة أكاديميينا و تربويينا الأفاضل، لكنهم غفلوا عنه جميعاً، و دون استثناء وذلك في نطاق علمي بطبيعة الحال، لأسبابٍ أشك كثيراً في وجاهتها.

إبادة ثقافية :

إذا قفز "متعلم مصري" إلى أنني إنما أدعو إلى نبذ التعليم و احتضان الأمية، كحل بديل لحلول عديدة لما نواجهه نحن المصريين المعاصرين، من كارثة باتت مُحدقة، فإن سيادته يكون قد جانب الصواب. فالأصح أنني أدعو مع كبار التربويين العالميين، و بينهم العالم الأمريكي "مورين ميرفي" في حديث خاص لها معي، نشرت مجلة "أخبار الأدب" جزءاً منه، و حذفت الجزء الأكبر منه لأسبابٍ تخصها، في الأسبوع الأخير من أبيب/ يوليو 1994 ، إلى أن نرسِّخ ما يعرفه الطفل أي ما "يكتسبه" عن ذويه قبل أن "نعلِّمه" ما لا يعرفه، و بعبارة أخرى ينبغي أن "نعلم" التلميذ المصري أن يكتب و أن يقرأ هذه الجملة "أنا مصري". أما إذا "علمناه"، مثلما تفعل الآن برامج محو الأمية في مصر، التي يشرف عليها الخبراء الأمريكيون، أيضاً، أن يكتب و أن يقرأ "أنا عربي"، فإننا لا نكون قد محونا أميته و حسب، بل و محونا شخصيته القومية أيضاً، و لا أعني بطبيعة الحال سوى القومية المصرية، أي أنزلنا به قدر الإبادة الثقافة Cultural genocide.

و إذا كانت تلك الإبادة تجري بأيدي "المتعلمين المصريين" بعد أن سلَّموا عقولهم مفروشة ـ كشقق حي "الزمالك" سواء بسواء ـ لكهنوت قصر همومه كلها على رجم جدودهم فراعنة مصر العظام بأحقر الصفات و أشنع الاتهامات، كي ينفردوا بين المتعلمين في أربعة أركان الدنيا بالترحيب و الانتشاء الدافقين بالاستراتيجيات الأجنبية بدءاً من تلك التي سعى و لا يزال يعمل الساميون عرباً و عبرانيين على تسييدها في مصر، فلن يكون في وسع المؤرخين أي يُشخِّصوا، في المستقبل ما حدث بصورة أسهل من قطع السكين في الزبدة للمصريين المعاصرين، تشخيصاً بعيداً عما يلي: *{أمة عريقة أبادها "متعلموها" بدءاً بكهنتها مروراً بقساوستها و شيوخها وصولاً إلى أكاديمييها، و ذلك منذ اللحظة التي انخرطوا فيها في سلك الخدم و الحشم للبلاط الحاكم اعتباراً من الأسرة البطلمية و حتى اليوم. }!*

و إيضاحاً للأمر أستعير في هذا الصدد تعبيراً على سبيل المجاز من هندسة البناء: ينبغي علينا أن نتخذ من "أميتنا" أي ما نكتسبه عن هذا الطريق غير الكتابي كـ"ميدة"groundsill نرص عليها

مدماكاً فمدماكاً كافة العلوم و المعارف التي يجب أن يتضمنها كتاب مدرسي، يضعه تربويون مصريون كاملو المصرية كي يدرسه تلاميذنا في دور التعليم في بلادنا أما "تعليم" تلاميذنا- ضحايانا عوار الشعر و عقوبة الكفار على أيدي شيوخ الإسلام الجديد من الخبراء الأمريكان وصبيانهم من "الأكاديميين" نصف المصريين و بالتحديد "المصريين-الساميين"، فإنه أمر يصل إلى حد فرض "الانقطاع" على تلاميذنا عن جذورهم أي ثقافتهم القومية المصرية-الأفريقية كي نفرض عليهم الاتصال شبه المستحيل بجذور أخرى أي بالثقافة العربية-السامية، و هي بكل تأكيد ثقافة أدنى، و بالتحديد ثقافة عصو-وسيطية، "يفلفص" أبناؤها أنفسهم في سبيل تجاوزها وينجح بعضهم في ذلك (الإشكناز الإسرائيليون نموذجاً) و يتابع بعض آخر "فلفصته"(الخليجيات التي تحاول خلع الحجاب/ الخمار/ النقاب/ السدال. و قيادة السيارات إلخ نماذج).

و تأسيساً على حملة "الإبادة الثقافية" الموجهة ضد المصريين المعاصرين بصفتهم هذه أي "مصريين بثقافتهم القومية"، فإنني لا أملك سوى أن أطلب من أبناء أمتي المصرية، نفس ما طلبه المثقفون الألمان من أبناء أمتهم في سبعينات(=سبعينيات) القرن الثامن عشر، أي خلال الفترة التي كانت فيها الأمة الألمانية في طوْر التكوُّن:

- كونوا متحدين! Seid eining

و الأولى: اتحدوا بصفتكم مصريين-أفارقة!

و ليس لي في هذا المجال أي هدفٍ أبعد من مقاومة النجاح الساحق الذي حققته وتواصل تحقيقه الولايات المتحدة التي تمكَّنت من تسليط مجموعة من الصبية أو العسكروت، منذ فجر يوم الأربعاء المهبب، أثبتت الأيام اللاحقة أنهم أشد عداء و شراسة وخطورة على أمتهم المصرية، من جحافل الفرس و العرب و الترك و التتر و المغول مجتمعين، بعد أن مكَّنتهم "واشنطون" من عقد تحالف مع الكهنوت، و ساعدتهم على فرض نسقين فعالين في "تا-ميري" هما "التعليم" و"الإعلام"، اللذان يُخرِّجان و "يُنمِّطان" أعداداً هائلة و هائلة بشكلٍ مخيف لا تحتاجهم البلاد قدر ما تحتاج إليهم بإلحاح، الاستراتيجية الأنجلو-أمريكية، من "المصريين" المعادين لمصريتهم الأصيلة، ممن يستبسلون في سبيل تبني هوية مزعومة، هي هوية أعدائهم التاريخيين، كانوا و لا

يزالون حتى هذه اللحظة، و الفاقدين لأي قدرة أو حرفة أو مهنة، أو لغة، أو قاعدة معرفية، وذلك بطبيعة الحال، وفق المعايير المقبولة عالمياً، اللهم سوى مقدرة واحدة و فريدة: تكفير الآخر.

و انطلاقاً من هذه النتائج التي توصلت إليها بشكلٍ منفرد، خرجت منفرداً كي أدعو في سنة 1990 بدعوتي هذه في كتيب صغير حمل نفس عنوان الكتاب الحالي الذي بين يدي القارئ الكريم، دون العنوان الفرعي، و هو الكتيِّب الذي دخل عليه التعديل إثر التعديل والتطوير بعد التطوير والإضافة عقب الإضافة حتى أصبح على ما هو الآن.

***

حمل الفصل الأول عنوان "إبراهيم سامياً":

و استندت فيه إلى الثقافة السائدة التي ترى أن "إبراهيم" عليه السلام هو أبو الأنبياء العبرانيين والعرب معاً. و أطلقت على "ديانة الساميين" حسب تعبير عالم البشريات "روبرتسون سميث" اسم الديانة الإبراهيمية التي انشعبت في أوقاتٍ لاحقة إلى ثلاث شعب هي الموسوية و المسيحية والمحمدية. و كان موقف هذه الشعب الثلاثة لهذه الديانة من القومية المصرية و كافة رموزها الثقافية و عاداتها و تقاليدها بدءاً من نصب الموالد والتبرك بالأسلاف و زيارة قبورالأحبة العزاز ...إلخ هو دافعي الأول إلى جمعها تحت عنوانٍ واحد.

و شال الفصل الثاني عنوان "موسى منتصراً":

و تناولت فيه شخصية "موسى" عليه السلام كما تلوح في الثقافة السائدة في مصر. وانتهيت فيه إلى أن "موسى" إنما هو رمز قومي لبني إسرائيل، و الرمز القومي هو "الشخصية التي تتجسد فيها القيم الثقافية، أياً كانت، الأكثر أهمية لأي جماعة من الجماعات البشرية"، حسب "آن إيريكسون" في كتابها "تصنيع الأبطال"La fabrique des Heroes. p.150,Paris,1998 و لما كانت الرموز القومية لا تنشأ و لا تترعرع في فراغ، وتحتاج دائماً إلى خصم مناظر، فلقد اختار بنو إسرائيل و من ورائهم كافة الساميين، على وجه الترجيح، "فرعون" عليه الحرب كي يقف رمزاً للمصريين الذين يناصبونهم عداء تاريخياً. وكل ثناء، يصب باتجاه الرمز يصب في نفس الوقت باتجاه المرموز إليه. و على نفس النول نجد أن كل هجاء يستهدف أي رمز يستهدف في نفس الوقت المرموز إليه. فكل ثناء على "موسى" عليه السلام ينتهي عند قدمي العبرانيين بصفة خاصة و الساميين بصفة

عامة. وكل هجاء يستهدف "فرعون" عليه الحرب يتدفّق حمماً في نفس الوقت على المصريين- الأفارقة. و لم يكن هماً من همومي هنا أن أبحث في مدى "تاريخية" أي شخصية سامية، طالما تربّعت على ذلك النحو على قمة الثقافة السائدة في مصر و المنطقة المحيطة.

و ظهر الفصل الثالث تحت عنوان ("الله" -لفظ الجلالة-عربياً) :

و خلصت فيه إلى أن "الله" هو لفظ الجلالة الذي تعرفه اللغة العربية "الفصحى" للإله الواحد الأحد الذي تعرفه لغاتٌ أخرى عديدة أي أنه يوازي Dios عند الأسبان و Dieu عند الفرنسيين بل و "خدا" عند الإيرانيين المعاصرين، و هم حسنو الإسلام صحيحوه. وتراهم يترجمون البسملة إلى لغتهم الإيرانية على هذا النحو:

{بنام "خدا"باخشوانده مهربان}

و لا يجرؤ أحد على التشكيك في إيمانهم بالرسالة المحمدية لاستمرارهم على هذا النحو في استخدام اسم الإلاه "الوثني" في لغتهم القومية العريقة نظير اسم الإلاه الواحد الأحد الذي بشّرت به الديانة المحمدية خلال اللغة العربية.

و أذكر أنني أبديت هذه الملاحظة لـ "متعلم مصري" كبير يسبّق باستمرار اسمه بـ د.، هو "ع. طنطاوي". وهو "يساري" مخضرم و إخصائي في الصحة النفسية و يملأ إمضاؤه الدوريات في مصر و المنطقة المحيطة:

"بكل فاعل نرفعه و كل مفعول ننصبه و كل مضافٍ نجره نساهم في ترسيخ وجود اسم إلاه العرب-الساميين في مصر، يعني بنمحي سمة من سمات الشخصية القومية للمصريين المعاصرين، و بالتالي نخطّي بهم خطوة يم العصور الوسيطة"

فما كان من سيادته إلاَّ أن رد ـ يسلم تمه ـ على رأي أبناء العمومة:

ـ "بلاش المبالغات دي اللي بتحاول تفرض تصورات ذاتية على واقع مادي جدلي تحكمه قوانين موضوعية...إلخ"

و كان ما حدث لحظتها أنني بحثت عن لسانٍ لي فلم أجد.

و حضر الفصل الرابع تحت عنوان (مصر رهن الهزيمة) :

و في هذا الفصل أشرت إلى أن مصر بدأت تـدفع الجزيـة للأجانـب بـشكلٍ منـتظم للفـرس في أعقاب الهزيمة المريرة التي حاقت بها أمام جحافل الفرس، تحت إمرة الفاتح الأسيوي "كمبيز ابـن كورش" عليه التحيات الزكيات ـ حتى يبتهج "المتعلمون المصريون" الذين يرفعون اسمه "الغالي" على أحد شوارع عاصمتهم ـ في سنة 525 ق.ع.م. لكن التغير الخطير هـو الـذي بـدأ مـع وصـول اليونانيين من جنوب أوروبا ثم العرب من غرب آسيا. فعبر اليونانيين، و خلال السيطرة الـسياسية للرومان، جاءت الشعبة الثانية للديانة الإبراهيمية: المسيحية التي يُجمع علماء المـصريات عـلى أنهـا قضت على الحضارة/ الثقافة المصرية. و لكنني رسمت حـداً فاصـلاً بـين الديانـة المـسيحية و بـين المصريين المسيحيين الذين ظلوا، رغم كل شيئ، مصريين. و في عبـارة سـير "والـس بـادج"، غـير الودودة، ربما بسبب تحيزاته المسيحية المسبقة، فيما يبدو:

"لم يستطع العقل المصري أبداً و المسيحيون المصريون أو الأقبـاط كـما يُعرفـون عـادة، و هـم الأحفـاد العرقيـون المنحـدرون مـن المـصريين القـدماء، أن يتخلـصوا مـن الخراريـف و المفـاهيم الأسطورية الغريبة التي ورثوها عن أسلافهم الوثنيين."

و يُضيف:

"تجدر الإشارة إلى أن مترجمي "العهد الجديد" إلى اللغة القبطية نقلـوا كلمـة "هـاديس" αδης اليونانية إلى ⲁⲙⲉⲛⲧ، و هو نفس الإسم الذي كان المصريون القدماء(أي الوثنيون) يُطلقونه على مثوى البشر بعد الموت"

(مقدمة ترجمته لـ "كتاب الموتى" صxviii)

و واضح أن ما يستهجنه فينا السير "بادج" هو "الإتصال" مع جذورنا، و مـا كـان ليـستملحه هو "الإنقطاع" عن هذه الجذور جملة و تفصيلاً.

وكان الفصل السادس تحت عنوان (مصر رهن الهزيمة) :

و في هذا الفصل انتهيت إلى أن الأميين في مصر أكثر "اتصالاً" من "المتعلمـين المـصريين" عـبر التواتر، الذي عمّق تأثيره "تبجيل الجيل الأصغر للأجيال الأكبر" أي تسلّم مجمل التراث المـصري من جيل أقدم لنقله لجيلٍ أحدث. فالإحترام، و هو جوهر التبجيل، شرط ضروري للتأثر و الـتعلم و السير على النهج، بإحدى إن لم نقل، أعظم حضارة عرفها الـشرق الأوسـط القـديم، و بتعبـيري

الأثير: أفريقيا المتوسطية أي الحضارة المصرية القديمة. و هذه بديهية مضطهَدة(بفتح الهاء) من جانب هؤلاء "المتعلمين المصريين" الذين يرسخ في عقلهم المزيف أنهم "أرقى" من أمييهم. و هذا أمر مفهوم و إن لم يكن مقبولاً طالما يفرض عليهم "التعليم" في مصر أن ينقطعوا عن جذورهم أي أن يجهلوها كي يحاولوا تبني جذور أعدائهم التاريخيين. و ضربت مثالاً على ذلك بالتوقيت المصري القديم: التوقيت الشمسي و الأدق النجمي الذي يرتبط بالبنية الزراعية المتقدمة لمصر و يبدأ بشهر "توت". و كان بمثابة إحدى الهدايا التي أهدتها مصر للبشرية جمعاء. و مع ذلك فهو التوقيت الذي يجاهد "التعليم" و من ورائه "الإعلام" في مصر في فرض نسيانه كي يرغم ضحاياه على تبني أحد توقيتين: الإفرنجي أو العربي - و لنصمت عما يُسمى بالتوقيت الأبوقطي الآن - و كلاهما أجنبيان عن مصر و وادي النيل، و إن امتاز الأول بأنه شمسي/ نجمي، أما الآخر فتوقيت قمري شرع أصحابه أنفسهم في التخلي عنه.

و جاء الفصل السابع تحت عنوان (اثريون و لغويون) :

و فيه عرضت لموقف شريحتين من "الأكاديميين" في مصر. و الحقيقة أننا نستطيع أن نعرِّف "الأكاديمي" عندنا بأنه ذلك الشخص الذي لا يجهل جهلاً مخجلاً الأسس الأولى لكافة العلوم والفنون و المعارف العامة التي تقع خارج نطاق تخصصه و حسب، بحيث يصعب على المرء أن يفرِّق بينه و بين أي "سبَّاك" أو "سمَّاك" محترميْن، متى خرج عن نطاق تخصصه، بل و يجهل كذلك أبجديات تخصصه ذاته أو على الأقل هذا ما لمسه "الحر الفقير" فيما يتعلق الأمر بالعلوم الإنسانية التي نتصل بدراستها بعض الاتصال. و مع ذلك يصر هذا الأكاديمي باستمرار على تسبيق اسمه بـ د.، تمهيداً للإفتاء في كافة المجالات باطمئنان راسخ إلى أن جميع مستمعيه و قارئيه، أقل علماً من سيادته. فيكون د. في النقد الأدبي و يُقدِّم كتاباً يزعم كاتبه - و هو د. أيضاً و لكن في "تقنيات التغليف" - أنه في المصريات. في حين أنه لم يكتب - و لم يترجم - كتاباً في تخصصه الأصلي أي النقد الأدبي. و بطبيعة الحال لا يملك سوى أن يكتب سيادته بضع عبارات لا تتمتع إلاَّ بالصحة النحوية و البراعة البلاغية في الموضوع الذي يتطرق إليه. و يكون سيادته د. في علم النفس ويصول و يجول في اللغويات في حين أن سيادته لا يفقه إلى البديهيات الأولى في العلمين على حدٍ سواء. ويكون سيادته جراحاً و يفتي في "اللغويات" بأن العالم أجمع انتهى من حدوتة "الفصحى" و"العامية". وبطبيعة الحال هذا ليس صحيحاً و حتى إذا كان صحيحاً فما معناه؟ هل نتناسى أي

نقفز على مشكلة عويصة لا تزال آخذة برقابنا حتى نلحق بذلك العالم الذي لا يملك وجوداً إلاّ في رأس سيادته. و يكون سيادته متخصصاً في الإقتصاد، و ينخرط في النقد الأدبي و يتزى بزي "المعارض" الأشوس، فيصدر الأحكام المجانية على الرواية في مصر منذ سنة 1988 ويوسع اهتماماته حتى تشمل مجالات أوسع فيصف "العلمانيين" في مصر بالتطرف بينما يحتفظ لـ "الأصوليين" بمكانٍ فسيح تحت مظلة حقوق الإنسان، و خصوصاً حق التعبير. أما قراره الأساسي فهو شن الحرب ، غير عابئ بلوم منصف نبيه أو مخلص نزيه، أو "زمزأة" من جانب رؤسائه في "الجامعة الأمريكية" التي يعمل بها ضد ما يُسميه بـ "التغريب".

و على هذا النحو يأتي "جهاد" "الأكاديميين" في مصر في سبيل صوغ الأفكار البالية التي تتمسك(=تستمسك) بها الثقافة السائدة و تتردد حتى على المنابر و خلال برامج الإذاعة والتليفزيون و دردشات القهاوي(=المقاهي) في ألفاظٍ جديدة، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

و أذكر في هذا الصدد أنني ألقيت محاضرة عن مقدرة و فصاحة اللغة المصري الحديثة "اللمح" دون عجزها الذي يزعمه عنها "المتعلمون المصريون" ـ و ياللعجب ـ في منتدى ثقافي بمقر حزب سياسي عروبيّ التوجُّه، يزعم الانتماء إلى اليسار. و لم أكد أفرغ حتى انبرى لي شاب يتدفق حماساً جزء كبير منه ديني، عرفت فيما بعد أنه د.في اللغة العبرية في إحدى الجامعات الاقليمية، كي يقول:

ـ الكلام دا خطير!

و كان أن رددت عليه من فوري:

ـ الكلام بيتحاكم أول ما يتحاكم من زاوية ي خطؤه ي صوابه.

و لكنه واصل حماسه المتدفق من الصالة، دون أن يبدو عليه سماع حرف واحد مني، ودون أن يفطن إلى أنه يُعبِّر عن نفسه، و لا يستطيع إلاّ أن يُعبِّر عنها، بطلاقة سوى باللغة التي يرمي الحديث عن مقدرتها و فصاحتها بالخطورة كي يقول:

ـ الكلام دا ح يأدي في نهاية المطاف لـ "هدم" اللغة الفصحى!

و هكذا عادت، في تلك الليلة، حكمة التاريخ، تلك التي أفصح عنها العالم العظيم "سيجموند فرويد" كي تُطل برأسها: "الحضارة تجاوز لقاعدة اللذة". و معنى القول أن الجريمة التي ارتكبتها "الثورة البلشفية" في روسيا بالقضاء على أرستقراطية الروس في الربع الأول من القرن العشرين، عاد "انقلاب يوليو الأمريكي"، لارتكابها ضد أرستقراطية المصريين، بتأييد متدفق من قطاعاتٍ

واسعة من شتى ألوان الطيف من "المتعلمين المصريين"، أياً كانت الأسماء والصفات السلبية التي أنزلها بهذه الأرستقراطية، التي لم نكن نملك سواها، أولئك "المتعلمون المصريون" الذي تعجز اللغة عن مدٍّي بوصفٍ يستحقونه، بدءاً بما يسمون بالماركسيين. فحجم الهرم الأكبر و الحضارة المصرية القديمة ككل، إنما يتوازى مع حجم الشبع المادي و الروحي الذي توفَّر في تلك العصور في مصر، أي مع الثروة التي استطاع المجتمع المصري الزراعي القديم أن (1) يراكمها و أن (2) يضع مقدراتها في أيدي طبقة مصرية قومية سائدة. فالجياع إلى غريزتَيْ حفظ الذات و حفظ النوع، لا يستطيعون أن يبدعوا أعمالاً تتجاوز زمنهم و مكانهم. و يحق لنا نحن المصريين أو "الجالية المصرية" في مصر ـ حالياً ـ أن نندم أشد الندم. فبعد أن قضينا أو سمحنا بالقضاء على أرستقراطيتنا التي كانت قضيتها عقلها و وجدانها، لم يتبقى(=يتبق) سوى "متعلمين" قضيتهم لا تتعدى معدتهم و "يكرم اخواتي"، يقف على رأسهم "أكاديميون" من أمثال ذلك الشاب الذي يتدفق حماساً في دفاعه عن أفكارٍ سائدة أي أنها ليست من صنع سيادته، بل يقف لها سادناً مع رهطٍ كبير من أمثاله و حسب.

و لقد وقفت في هذا الفصل على وجه الخصوص، موقف النقد أمام يقين مدرسي المصريات في جامعات مصر بأن اللغة المصرية القديمة لغة سامية، و إيمان مدرسي اللغويات في نفس الجامعات بأن اللغة التي يتحدثها المصريون اليوم "لهجة" من لهجات العربية "الفصحى" أو "عامية" لها.

و لاح الفصل الثامن تحت عنوان (بين العامية و الفصحى) :

و أفردته لمناقشة مقالين أحدهما لـ د.غير متخصص في اللغويات بل في الفلسفة و الآخر لـ د. متخصص في هذا الفرع من فروع العلوم الإنسانبة. و الغريب أن كليهما انتهيا إلى نتيجة واحدة، لم تبعد شعرة عن رواسخ الثقافة السائدة. فقال الأول أن "العامية" هي "لغة الظلام" و أكد الآخر أن ("العامية" قاصرة عن التعبير عن الأمور الثقافية و الفكرية والفلسفية). و أوضحت أن ما ترميه الثقافة السائدة بأنه "عامية" هو في حقيقة الأمر تطوُّر دخل على لغة قديمة حسب القوانين التي تحكم صيرورة اللغات البشرية جمعاء.

و قبل الفصل التاسع عنوان (نحو أبجدية جديدة) :

وفيه وجهت نقداً مفصَّلاً لطريقة كتابة "اللمح" بالحروف العربية النبطية الأصل. وهدفت من وراء هذا النقد إلى الدعوة إلى وضع أبجدية جديدة لكتابة اللغة القومية للمصريين المعاصرين، على النقيض مما هدف إليه طه حسين و عبد العزيز فهمي و عثمان صبري و سلامة موسى و غيرهم الذين سعوا إلى وضع أبجدية جديدة لكتابة اللغة العربية "الفصحى".

و أطل الفصل العاشر تحت عنوان (لويس عوض :ننقده لا نصادره) :

و في هذا الفصل دافعت دفاعاً حاراً عن حق "لويس عوض" في أن يبحث ما شاء له البحث في كتابه المُصادر ـ وقت ذاك ـ و هو "مقدمة في فقه اللغة العربية". ثم وجهَّت نقداً علمياً لغوياً بدءاً من العنوان و اختتاماً بالنتائج التي انتهى إليها، مروراً بمنهجه ذاته. و لقد رفضت منه على وجه الخصوص، أن يقبل من الثقافة السائدة القول بأن اللغة القومية للمصريين المعاصرين كانت أو أصبحت اللغة العربية.

وارتدى الفصل الحادي عشر هذا العنوان (حول اللغة المصري الحديثة) :

و فيه عرضت بتوسع أكبر، ليقين مدرسي الآثار في جامعات مصر بأن اللغة المصرية القديمة تنتمي للفرع السامي من العائلة اللغوية المعروفة باسم "الحامية-السامية" ثم لإيمان مدرسي اللغويات في نفس الجامعات بأن اللغة التي يتحدَّث بها المصريون المعاصرون "لهجة" أو "عامية" في علاقتها مع اللغة العربية-السامية. واستندت إلى أستاذنا "إبراهيم أنيس" في رفض وجود صلة بين اللاحقة "ش" و بين "شيئ" العربية في بناء "النفي" فيما سمَّاه(= أسماه) باللهجة المصرية، و هو الوهم الذي لا يزال "المتعلمون المصريون" يتمسكون به باصرار و يرددونه باستمرار، يبعثان على الحيرة حتى اليوم. و لكنني رفضت منه أن يبحث عن أصل هذا "الشين" في العبرية بعد الفشل في العثور عليه في العربية. و انتهيت إلى أن هذا الأصل موجود و حسب في المرحلة القبطية على الأقل من اللغة المصرية القديمة "اللمق".

و أخذ الفصل الثاني عشر عنوان (رداً على "جغرافية التوراة") :

و تناولت فيه ما كنت لأهتم له أو أحفل به لو لم يُقدم له أستاذ دكتور في الآثار. و الكتاب و هو "جغرافية التوراة في جزيرة الفراعنة" لم يستند إلاَّ على مراجع عربية من طراز "الطبري"

و"المسعودي" و "ابن الجوزي" عن الفراعنة أو المصريين القدماء. و هذه كتابات خطها أصحابها قبل أن تسلِّم الحضارة المصرية القديمة مفاتيح كنوزها للعلماء الغربيين بدءاً من "توماس يونج" و"جان-فرانسوا شامبيليون". لكن سيادته اعتمد عليها وحدها، وكأن العالم الخارجي غير موجود بالنسبة له، في محاولة نفي ما استقر عليه علم المصريات. واستشفع الكاتب في هذا النفي بالهدف "النبيل" الذي توخاه و أقره عليه سيادة الدكتور الأكاديمي الذي قدم للكتاب: إقناع قارئه بأن المصريين عرب ساميون. و بطبيعة الحال توقفت أمام الموضوع و كذلك أمام الهدف "النبيل" ذاك.

أما عنوان الفصل الثالث عشر فلم يخرج عن (المصريون بين الشوفينية والدونية) :

و عرضت فيه لتهمة طالما لوَّح بها في وجهي "متعلمون مصريون" عديدون. و أقمت دليلاً أراه قوياً على أن "المتعلمين المصريين" لا يُعانون من الشوفينية بل على العكس من الدونية. و صككت مصطلحاً جديداً تماماً هو "معاداة-المصرية" Anti-Egyptianism ، وهو مصطلح يتناص مع مصطلح آخر هو "معاداة-السامية"Anti-Semitism. لكن المحزن في الأمر أن العداء للمصرية ينبع من داخل أبناء مصر أنفسهم، و ذلك على النقيض من العداء للساميين و الأدق لليهود، الذي يستهدفهم من خارجهم.

وكان الفصل الرابع عشر (3 دفاعات عن "اللمح") :

و فيه عالجت التهم-البديهيات الثلاثة(=الثلاث) التي يوجهها "المتعلمون المصريون" وراء الخبراء الأنجلو-أمريكيين للغة المصريين المعاصرين:

(1) "اللمح" عامية.

(2) "اللمح" لهجة.

(3) "اللمح" سوف تُؤدي، لا محالة، إلى تمزيق المنطقة التي أطلق عليها الخبراء البريطان "العالم العربي" و ورثها عنهم الخبراء الأمريكان كي يُطلقوا عليها "العالم الإسلامي" بعد توسيعها قليلاً.

و استندت إلى معرفتي المتواضعة باللغويات من ناحية و الأشد تواضعاً بالمصريات من ناحية أخرى، في نفي التهم الثلاثة(=الثلاث) أي تمزيق البديهيات التي تتأسس عليها.

و لم يتردد الفصل الخامس عشر في الظهور تحت عنوان (مأساة اللغة القبطية في مصر):

و فيه توقفت أمام مأساة مضلعة تعيشها المرحلة الثالثة من تطور اللغة المصرية بين "المتعلمين المصريين". فقسم منهم يجهلها حجري الجهل و قسم آخر لا يرى فيها سوى وعاء لشعائره الدينية. وأشرت في طيّات هذا الفصل إلى أنه مما يُورث الهم و يثقل القلب معاً أن يقوم نظير هذا الجهل وذلك الفهم السيئ في أرضها التاريخية: مصر، علم و معرفة عميقان واهتمام و احتفال عظيمان بهذه اللغة ذاتها في سائر أرجاء العالم. و يتضح ذلك أكثر ما يتضح في طبع و نشر قاموس "كرام" Crum الذي يُعد عمدة اللغة القبطية في المدن و العواصم التالية:

"أكسفورد ـ لندن ـ جلاسجو ـ تورونتو ـ ملبورن ـ ويلنجتون ـ كوالالومبور ـ سنغافورة ـ جاكرتا ـ هونج-كونج ـ دلهي ـ بومباي ـ كلكتا ـ مدراس ـ كراتشي ـ نيروبي ـ دار السلام ـ كيب-تاون"

أي دون العاصمة الأم لهذه اللغة!!!

و ختمت بالفصل السادس عشر و هو بعنوان (حفاير لغوية تحت تعابير مصرية):

و فيه استندت إلى قانون أسميه "قانون الإحلال و الإبدال"، في الكشف عما يبدو عربياً وهو في حقيقته مصري، مثل تعبير Idiom "بالدراع" في الاستعمال الذي يقول: "عايش بالدراع"، و هو ما يعني "عايش باستخدام قوته". و السؤال الذي يفرض نفسه لماذا اكتسبت كلمة "الدراع" هذا المعنى على ألسنة المصريين، في حين أن المعنى باللغة العربية لا يدل و لا يُمكن أن يدل على "القوة"؟ فإذا قلنا "فلان يعيش بالذراع" لما حصلنا، بالمرة، على المعنى الذي نحصل عليه من التعبير المصري، ونفس الأمر ينطبق على تعبير "قمر 14" إلخ. و هنا لا نجد مهرباً من التوصل إلى أن المصريين، و إن استعاروا هذه الكلمة أو تلك أو هذه العبارة أو تلك من اللغة العربية-السامية الوافدة إلاّ أنهم أترعوها بمعنى أحلُّوا فيها معاني وارتباطات و ظلال مصرية، و هذه ليست "إنحرافاتٍ" عن ثقافة/ لغة وافدة من غرب آسيا/ بل امتداداً للثقافة/ اللغة القومية للمصريين، وهو الأمر الذي أبدلها عن نظيرتها المعروفة في شبه جزيرة العرب.

و لسوف يُلاحظ القارئ الكريم أنني أضع مصطلح "المتعلمين المصريين" بصفة عامة بين قوسين على امتداد الكتاب، و هو الأمر الذي ألجأ إليه منذ سنة 1990 أي منذ طبعته الأولى، في دلالة واضحة على تحفظي على المصطلح، إذ أن المجتمع المصري بات وأصبح يفتقر أو يكاد إلى

"جالية أكاديمية" Academic Community . و حمداً للسماء أننا عشنا حتى صدر تقرير جامعة "شانغهاي" الصينية، و هو التقرير الذي ما كان ليصدر عن أي جامعة غربية، لأسباب ليست خافية تماماً، ذلك التقرير الذي صدر في السنة الماضية و قبل الماضية كي يُخرج جامعات مصر ـ ودَعْ عنك جامعات ما يُسمى بـ "العالم العربي" ـ خارج نطاق الجامعات الخمسمائة الأولى على نطاق جامعات العالم، بل و جاء ترتيب جامعات مصر، رقم خمسة آلاف على هذا النطاق، في حين طلع لإسرائيل سبع جامعات ولـ"موزمبيق" جامعة ضمن الجامعات الخمسمائة الأولى على نطاق جامعات العالم. و لهذا الأمر طعم العلقم، إلاَّ أنه يعزز ما سبق لنا أن زعمناه قبل18سنة.

و في هذه الطبعة و هي الرابعة، أضفت فصلين جديدين، هما:

1 ـ {الفرق/ الفروق بين "اللمح" و "اللعق"} و الفصل عبارة عن نص المحاضرة التي ألقيتها أمام "جمعية الحوار الإنساني"، و أعدت إلقاءها بدعوة من أقباط متحدون"Unitedcopts في "برمنجهام" بانجلترا، و فيها توقفت بشكلٍ خاص عند فرق جوهري بين اللغتين. فـ"اللمح" تحليلية و "اللعق" تركيبية. و اللغات التحليلية هي التي تعمل بموجب ترتيب الكلمات في سبيل تحديد وظيفة الكلمة في الجملة أو المنطوق، أما اللغات التركيبية فتدخل تغييراً ما على الكلمة، في سبيل نفس الهدف، و هو تحديد وظيفة الكلمة في الجملة/ المنطوق.

2ـ {"اللمح" هي اللغة القومية للمصريين المعاصرين}، و الفصل عبارة عن نص المحاضرة التي ألقيتها أمام جمعية {"تحوتي" للدراسات المصرية} في قصر التذوق بالاسكندرية. و خلال المحاضرة توقفت ما شاء لي الوقت أمام الفرع المعروف باسم "اللغويات السيكولوجي"، و هو الفرع الذي يقع فيه موضوع المحاضرة، التي انتهيت معها إلى أن "اللغة المصري الحديثة" هي اللغة الأم بالنسبة للمصريين المعاصريين بمعنى لغتهم القومية، و ليست "اللعق"(=اللغة العربية القديمة)، كما يزعم ذلك الخبراء الأنجلو-أمريكان، و وراءهم في جوق سعيد، أكاديميونا، ووعاظنا و شيوخنا الأفاضل.

ملحوظة:

اهتديت إلى مصطلح يُحدد موقعنا على خريطة العالم، عوضاً عن المصطلحات الأجنبية، التي نلهث وراءها فور صدورها عنهم، و هو تحديد أدق قليلاً، و أنزه كثيراً أقصد: "أفريقيا المتوسطية"،L'Afrique Mediterranée، إزاء أفريقيا الاستوائية و أفريقيا الجنوبية إلخ. وها أنا أسوقه في هذا الكتاب على سبيل الاقتراح، ليس إلاَّ.

الفصل الأول

"إبراهيم" سامياً

مالت شمس العصور القديمة في العالم القديم إلى الغروب بُعيد انتصاف الألف الأول لميلاد المسيح و الأولى قبل العصر المعروف (Before Common Era) (ق.ع.م.) على مشهد صامت مروّع ـ و لو أنه تكرر مرات عديدة في أمكنة و أزمنة مختلفة ـ ينهزم فيه الزارع أمام الراعي، وبعبارة أفصح "ينهزم فيه الفلاح قدام الغنام"، أي تنزل الهزيمة بالأرقى أمام الأقل رقياً. غير أن هذه لم تكن المرة الأولى التي ينعقد فيها مثل هذا المشهد في ساحة الشرق الأوسط القديم بل و لم ينتهي(ينته لمن يشاء) مثل هذا المشهد في المرات السابقة إلى هزيمة مماثلة أو مشابهة أو حتى هزيمة من أي نوع لهذا الزارع أمام ذلك الراعي.

نهضت في الشرق الأوسط القديم ـ و هذا مصطلح أعترف بانطوائه على مركزية أوروبا الحديثة ـ حضارتان رئيسيتان هما البابلية في العراق ـ و دعنا نصرف النظر قليلاً عن وراثة البابليين- الساميين للسومريين-الآريين ـ و المصرية في وادي النيل بدءاً مما يصل إلى عشرة آلاف سنة ق.ع.م.(=ق.م.) و لنقل بقليلٍ من التجاوز حضارة العراق و حضارة مصر، وبعبارة أخرى انتقل السكان المحليون في هاتين البقعتين اللتين ترويهما مياه نهرين عظيمين عبر المرحلة العليا من حقبة البربرية إلى حقبة الحضارة وفقاً للتقسيم الذي أدخله على تطور المجتمع الإنساني العالم الأمريكي العظيم "لويس هنري مورجان" في كتابه الذي نُشر بعد وفاته و وصفه "فريدريك إنجلز" بأنه "أحد الكتب التي صنعت العصر الحديث"[1] أيThe Ancient Society المجتمع القديم (1877) و لا يزال هذا التقسيم سارياً دون تحدي(تحدٍ لمن أراد) ذي بال حتى الآن. و لم يكن ذلك التطور الفائق الذي حققه هذان المجتمعان إلاّ تتويجاً لحقبٍ طويلة تمتد لعدة آلافٍ أخرى من السنين. و يكفي أن نرجع إلى حضارات "جيرمر" و "حسونة" و "تل الصوان" و "تل الغارة" و"أريدو"...إلخ بالنسبة لحضارة العراق، و حضارات "مرمدة" و "الفيوم" و "جرز" و "دير تاسا" و"المعادي"...إلخ بالنسبة لحضارة مصر. لكن هذا التطور الذي حققه هذان المجتمعان

العريقان ترك عدداً من القبائل و عدة شعوب مجاورة في طورٍ أدنى حضارياً، كالجوتيين والكاسيين والعيلاميين بالنسبة للبابليين. و الليبيين و الكوشيين، بل و اليونانيين أنفسهم بالنسبة للمصريين. لكن الميتانيين و الكنعانيين و الأراميين و العبرانيين و في أوقات لاحقة العرب كانوا بمثابة القاسم المشترك الأعظم بين هؤلاء و أولئك، و بعبارة أخرى كانت معظم هذه القبائل و الشعوب المجاورة في طور الترحال تتحرك وراء قطعانها التي تتكوَّن بصفة أساسية من الماعز والأغنام و ظل الاعتماد عندها قائماً على الرعي كوسيلة لكسب العيش. و هذه وسيلة لا تدر سوى عائدٍ هزيل غير منتظم، الأمر الذي ألزم هؤلاء الرعاة بصفة شبه مستمرة مستوى ما دون الضرورة يستسقون عنده السماء بينما كان هذان المجتمعان العريقان قد خطوا خطواتٍ واسعة نحو الحضارة و على مدارجها، فأخذوا في استئناس الموارد الطبيعية من نبات و حيوان و مياه و يخترعون الصور الأولى للكتابة، ويضعون أسس العلوم و الفنون و يتحوَّلون إلى الإعتماد في كسب قُوتهم على الزراعة بشكلٍ رئيسي، الأمر الذي وفَّر لهم امكانيات واسعة للارتفاع عن مستوى الضرورة الذي تُستسقى عنده السماء إلى مستوى الحرية الذي يضبطون عنده مياه الأنهار.

و كان طبيعياً أن ينشأ صراع طويل عميق التعاريج بين الزراع و الرعاة، مثلما حدث في أوقاتٍ لاحقة بين اليونان و الرومان و بين الرومان و الجرمان و بين الهنود و المغول و بين الأساميين والأهوم [2] Ahoms، و بتحديد أكثر دقة بين المتحضرين و الأقل منهم حضارة، سواء اتحد هؤلاء و أولئك عرقياً أو اختلفوا. و لقد أخذ هذا الصراع أحياناً شكل التسلل و المطاردة و أحياناً أخرى شكل النزوح و الترحيل، لكنه ارتدى أحياناً ثالثة شكل الغزو و الاحتلال و الاستيطان. إلاَّ هذا الصراع اكتسب بصفة عامة طابع الدفاع من جانب الزراع الذين قنعوا بما تحت أيديهم والهجوم شبه الدائم من جانب الرعاة الذين طمعوا فيما يُعوزهم بل و حلموا أحلاماً خلابة انعكست في خراريفهم و أساطيرهم و عقائدهم قبل أن يضعوا أيديهم عليه. دفاعٌ شبه مستمر وهجوم شبه دائم جعل المصريين يبدون "ودعاء" والساميين "غلاظاً همج". و على أقل تقدير هكذا وصفهما العالم الكبير "سيجموند فرويد" الموسوي الديانة و بعبارته الخاصة:

"بينما انتظر المصريون الودعاء حتى رفع القدر الشخص المقدس لفرعونهم أخذ الساميون الغلاظ/ الهمج قدرهم في أيديهم و تخلَّصوا من طاغيتهم" [3]

و يجدر بنا في هذا المجال أن نتدبَّر هذه الفقرة الغنية بالدلالة التي ننقلها للمؤرخ اليوناني المشهور "استرابو" الذي زار مصر في الثلث الأخير من القرن الأول ق.ع.م.، و نقلاً من جانبي عن العالم الفرنسي "أميلينو":

"كان الملوك المصريون الأوائل قانعين بما تنتجه أرض مصر و لم يستشعروا أي حاجة لهم إلى السلع الأجنبية. و لذلك حظروا دخول الأجانب و اليونانيين بشكلٍ خاص إلى بلادهم. وفي سبيل ذلك أقاموا حامية في بلدة "راكوتي" (=راكودة) التي أصبحت فيما بعد أحد أحياء الاسكندرية أما فيما يختص بالمناطق المتاخمة فلقد تركوها للرعاة الذين كانوا قادرين على رد جميع الذين يُفكرون في التسلل إلى داخل مصر." (4)

أبــرام:

و في خضم ذلك الصراع الطويل الذي دار في الشرق الأوسط القديم، ذلك الصراع الذي ننظر إليه الآن من على بعد عدة آلاف من السنين، خلال منشور اختلط فيه التاريخ بالأسطورة و التقاليد بالوقائع و الحقيقة بالخيال و الرغبات المكبوتة بالأحلام السعيدة ظهرت شخصية "أبرام" الذي أصبح اسمه "إبراهيم" في وقتٍ لاحق:

"فسقط "أبرام" على وجهه و خاطبه الله قائلاً: هاآنذا أجعل عهدي و تكون أبا جمهور أمم، ولا يكون اسمك "أبرام" بل يكون اسمك "إبراهيم" لأني أجعلك أبا جمهور أمم."(5)

و "إبراهيم" هذا ـ وفقاً للثقافة السائدة في المنطقة، و سواء أكان ذلك واقعياً أو خيالياً، كله أو بعضه ـ هو أبو الأنبياء العبرانيين و العرب معاً. و دعنا نقول "الأنبياء الساميين". وهو صاحب قطعان الغنم، و هو الأب الذي امتحنه ربه بأن أمره بذبح وحيده "إسحاق"(=الضاحك) فيما يقول الموسويون و المسيحيون، و "إسماعيل"، فيما يعتقد "المحمديون"(=المسلمون). و لكنه قبل كل ذلك و بعده هو المنظِّر و الزعيم السياسي الخطير الذي أدرك عن وعيٍ و بصرٍ عميقين أن هذين المجتمعين في العراق و مصر لن ينكسرا من الخارج تحت ضغط التسلل أو النزوح أو حتى الغزو. وأن انكسارهما لن يتأتى إلا من الداخل، أي عن طريق السيطرة على روح أبنائهما و بتحديد أكثر على عقولهم و وجدانهم، وفي جملة واحدة بتحويلهم عن عبادة آلهتهم القومية. و بدا "إبراهيم" بداية باهرة إذ دمغهما معاً بعبادة الأوثان/ الأصنام، و بالتالي أنزل على ديانات المجتمعين وسم الوثنية، وهو حكمٌ قيمي Jugement de Valeur أو استقر كي يُصبح كذلك، لا يزال يتردد

حتى اليوم في كتابات بعض " المتعلمين الأجانب" و معظم "المتعلمين المصريين"، إن لم أقل كلهم. ثم ثنى، وأعني "إبراهيم" بدعوتها إلى عبادة إلاهه (إلهه لمن يرغب) أي "إيل":

"فشخص "أبرام" من مصر و امرأته و كل ماله و كل ما له و لوط معه إلى الجنوب. وكان "أبرام" غنياً جداً بالماشية و الفضة و الذهب، فمضى في مراحله من الجنوب إلى بيت "إيل"."[6]

و لم يكن "إيل" الذي دعا "إبراهيم" لعبادته سوى رب الأرباب عندى الكنعانيين والأراميين و تبنَّاه عنهم العبرانيون. و كان "إيل" هذا في وقتٍ أسبق زمناً إلاهاً عادياً ضمن الآلهة التي عبدها الساميون الجنوبيون:

"و جاء في النقوش العربية من مدينة "حرام" ذكر "إيل" أو "إل" كإلاه(إله لمن يود) إلى جانب آلهة آخرين."[7]

و إذا ما عرفنا أن "الدين العربي القديم هو الحجر التاريخي للديانات السامية الشمالية."[8] بمعنى أن الساميين الجنوبيين هم الذين وضعوا الأساس الذي ظل الساميون الشماليون، وخصوصاً العبرانيون و في وقتٍ لاحق العرب، يُحافظون عليه باعتباره دين الآباء و الأجداد إبان حياة البداوة المطلقة "الحرة" التي احتفظوا فيها بخصائص العروبة القديمة، و بتعبير شبيه آخر خصائص العرق السامي القديم، و ذلك لأن بلاد العرب هي وطن الساميين و مهدهم. و إذا ما عرفنا ذلك ثم نظرنا فوجدنا ديانة بني إسرائيل تكتسب ملامح جديدة و الإسرائيليين يعتنقون ديانة جديدة، و إن اختلف مؤرخون ثقاة طويلاً حول مكان ذلك و زمنه، فعند هذه النقطة يكون الوقت قد حان كي نحوِّل وجوهنا عن الناحية الشرقية و نديرها نحو مصر.

إبراهيم و مصر:

لعل أول علاقة نستطيع رصدها ـ و انس التاريخ و الآثار (=الأركيولوجيا) لحظة واحدة ـ لـ "إبراهيم" بمصر هي ما رواه الاصحاح (=الفصل) الثاني عشر في سفر (=كتاب) التكوين بالعهد القديم من الكتاب المقدس:

"ثم ارتحل "أبرام" متوالياً نحو الجنوب. و كان جوع في الأرض فلما قارب أن يدخل مصر قال لـ" ساراي" امرأته: أنا أعلم أنك جميلة المنظر فيكون إذا رآك المصريون، أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني و يستبقونك، فقولي إنك أختي حتى يُحسن إلي بسببك و تحيا نفسي من أجلك. و لما دخل "أبرام" مصر، رأى المصريون أن المرأة حسنة المنظر جداً و رآها رؤساء فرعون و مدحوها لدى

فرعون فأخذت المرأة إلى بيته. فأحسن إلى "أبرام" بسببها فصار له غنم و بقر و حمير و عبيد و إماء وأتن و جمال. فضرب الرب فرعون و أهله ضربات عظيمة بسبب "ساراي" امرأة "أبرام" فاستدعى فرعون "أبرام" و قال له: "ماذا صنعت بي، لم لم تقل لي إنها امرأتك؟ لم قلت أختي حتى آخذها لتكون لي امرأة. و الآن خذها و امضي. وأمر فرعون قوماً يشيعونه هو و امرأته و كل ما له."(9)

يطرح هذا النص التوراتي المقدس عند المؤمنين الموسويين منهم و المسيحيين والمحمديين بطبيعة الحال، عشرات الأسئلة على كل من يملك عقلاً مستقلاً. و لكن السؤال الرئيسي في ظننا هو:

لماذا عاقب هذا الرب فرعون مصر الذي اتخذ امرأة جميلة، هي أخت ضيفٍ حل عليه في أرضه زوجة له؟ برضاها و برضاه؟ و بعبارة أخرى لماذا انتقم هذا الرب من فرعون بل ومن أهله معه لذنبٍ لم تقدمه يداه أو أيديهم ؟ أي لماذا ضرب هذا الرب فرعون و أهله بضرباتٍ عظيمة لكذبة سافرة أدخلها عليه الضيفان "الجليلان" "أبرام" و زوجته بإخفاء بعدٍ هو الزوجية و إعلان بعدٍ آخر هو الأخوة؟ و ذلك وفقاً للنصوص التي يُقدسها العبرانيون كانوا و لا يزالون و الأدق قطاع متزايد - قاعدته هي "السفاريم" - منهم.

تلك أسئلة بسيطة غاية البساطة و على قدر من العمق فيما يبدو لي في نفس الوقت. ولكنه تعذَّر، إن لم يكن استحال عليها أن تطرأ على ذهن "المتعلمين المصريين" سواء أكانوا من أتباع المسيح أو أتباع محمد عليهما السلام.

و الآن أنكون قد قفزنا قفزة واسعة إذا ما قررنا دون مواربة، أن السبب في سلوك هذا الرب على هذا النحو يكمن في أنه لم يكن سوى رب "أبرام" و "ساراي" - "إبراهيم" و"سارة" في وقتٍ لاحق - و أهلهما، أي أنه لم يكن رباً للمصريين أيضاً - و دع عنك رب العالمين - بل رباً قومياً، وبعبارة أكثر تحديداً رباً صنعه بمعنى خلقه العبرانيون كي يسوِّغ ويُبرِّر و يؤوِّل أفعالهم، مثلما تفعل كل الأرباب مع مختلف الشعوب التي خلقتها في كافة أنحاء الكرة الأرضية (الربة "أثينا" بالنسبة لليونانيين و الرب "أبوللو" للطرواديين عند "هومر" نموذجان). و قد تُوجد شعوب بلا أرباب أو آلهة. و لكن لا تُوجد قط أرباب أو آلهة دون شعوب. و ليس يعنينا هنا في قليلٍ أو كثير مدى الصدق التاريخي لتلك القصة المقدسة، و ما إذا كانت محرَّفة أو مزوَّرة قدر الإنقاص من قدر

"إبراهيم" عليه السلام. فليس في نيتنا أن نكون يوماً عبرانيين أكثر من العبرانيين أنفسهم، و لا ساميين أشد من الساميين، و ليس في طوعنا، حتى و لو أردنا أن نكون أعمق يهودية من حاخامات بني إسرائيل، أولئك الذين يُقدسون تلك النصوص. و يستوي عندنا، في نهاية المطاف، هذا القول المقدس:

"في ذلك اليوم بت الرب مع "أبرام" عهداً قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير الفرات" (10)

مع هذا القول غير المقدس أي الخالي من أي قداسة دينية:

"لقد أعطى العبرانيون أي نسل "إبراهيم" عليه السلام، حسبما تجري التقاليد، عهداً أو وعداً لأنفسهم بتلك الأرض التي تمتد من نيل مصر إلى فرات العراق، تلك الأرض التي سمُّوها(=أسموها) "أرض الميعاد" أو "الأرض الموعودة".

الديانة الإبراهيمية:

في سائر الأحوال وضع "إبراهيم" عليه السلام أسس ما نسميه بـ "الديانة الإبراهيمية" التي انشعبت في أوقاتٍ لاحقة، و ذلك وفقاً للتأريخ Chronology الديني، الذي نتحفظ إزاءه بطبيعة الحال، إلى ثلاث شعبٍ هي:

"الموسوية" نسبة إلى "موسى" عليه السلام و "المسيحية" نسبة إلى المسيح عليه السلام والمحمدية إلى محمد عليه الصلاة و السلام، و هي الديانة التي لاح في كتبها المقدسة الثلاثة: العهد القديم و العهد الجديد و العهد الأخير، كلٌ من الزعماء و الآباء و الكهان و الحكماء والشيوخ والقضاة و الملوك العبرانيين أنبياء معصومين أو شبه معصومين يتلقون الوحي من رب السماء. ووقف فيها المصريون جميعاً فراعنة و أنبياء و حكماء و فصحاء و كهنة و علماء وفنانين و حرفيين وأهالي، الذين وصفهم المؤرخ و الرحال اليوناني القديم "هيرودوت" بأنهم ***"أتقى البشر أجمعين"***(11) كفاراً يعبدون الأوثان/ الأصنام. و بناء عليه استبعدت تلك الكتب جميع الأنبياء المصريين الذين دخلوا دائرة النسيان ـ و دع عنك أصداءهم البعيدة التي تلفها الشبورة ـ بانحسار عبادة "أمون" ملك الآلهة في "البانثيون" أو المجمع الإلهي المصري و أول رب للعالمين عرفه تاريخ الأديان ـ و دع عنك "أتون" الذي لم يُعمِّر طويلاً ـ، فهو الإلاه(=الإله) الذي امتدت عبادته

وشيِّدت لاسمه المعابد من أعماق أفريقيا حتى الشواطئ الشرقية لنهر الفرات، و بتعبير النصوص التي وعاها لنا التاريخ من عهد "تحوت-موسي" الأوَّل (عا-خبر-رع)(1258-1510ق.ع.م):

"*من قرن الأرض إلى أطراف المياة المعكوسة في الشمال*" (12)

و انتشرت عبادته بقدرته الذاتية أي خلال القدوة الحسنة التي غرسها أتباعه في شواطئ آسيا الصغرى و جزر البحر المتوسط أو البحر المصري كما كان يُطلق عليه قديماً و جنوب أوروبا و لا يزال "أمون" الذي يعني اسمه "الباطن" يفرض اسمه من وراء حجب النسيان كي يصعد منغَّماً في ختام الصلوات و الأدعية و الأوراد و الإبصاليات و الثيئوتيكيات والقداسات و القناديل التي يتعبد خلالها أتباع الديانة الإبراهيمية بشعبها الثلاث خلال لغاتٍ بالغة التعدد في سائر أرجاء المعمورة بعد أن تحوَّل الاسم من "أمون" إلى "آمين" بموجب قواعد الإمالة و الأولى "التمييل" الشاملة في العائلة اللغوية المعروفة باسم الحامية-السامية أو الأفريقية-الأسيوية، مثلما تحوَّلت "التون" إلى "التين" و "اللذون" اسم الموصول في صيغة الجمع الغائب(الشخص الثالث) و حالة الرفع، و هو الشكل الذي تلكَّأ في الاختفاء قليلاً في لهجة "طيئ"، إلى "الذين" ...الخ.

و يقول عنه بحق و صدق صاحبا تفسير الجلالين:

"*لفظ "أمين" ليس من "الفاتحة" بل و ليس من القرءان قطعاً بل و يُسن الإتيان به لقارئ "الفاتحة" مفصولة بسكتة لتمييز ما هو قرآن عما ليس بقرآن*". (13)

هوامش و مراجع:

(1) "أصل العائلة و الملكية و الدولة"، تأليف: فريدريك إنجلز"، مقدمة الطبعة الألمانية الرابعة.

(2) "الأهوم" هم أبناء قبيلة تايلاندية بوذية اندفعت من الجنوب الشرقي كي تغزو مملكة "كامروبا" Kamrupa في مطلع القرن الثالث عشر و تقيم مملكة جديدة في "سيمساجار"Simsagar و بحلول سنة 1353 م.ع.م.احتل "الأهوم" معظم المنطقة التي أطلقوا عليها اسم "أسام" Assam". و لكن "الأهوم" الذين كانوا أقل تحضراً تبنوا لغة الشعب الذي غزوه أي "الأسامية" و كذلك ديانته الهندوسية و حكموا "أسام" التي تُعد حالياً ولاية هندية تقع في شمال شرق الهند، لعدة قرون.

(3) "موسى و التوحيد" ترجمة د.عبد المنعم حفني. ص 109

(4) La Geographie de L'Egypte à l'epocque Copte.Paris (1890) par E.Amélineau,p 25.

(5) العهد القديم: سفر التكوين. الإصحاح السابع عشر آية رقم 5،4،3

(6) المرجع السابق الإصحاح الثالث عشر. آية رقم 2، 3.

(7) {التاريخ العربي القديم. "الديانة العربية القديمة"}. الفصل الخامس. دينلف نيلسن. ترجمة د. فؤاد حسنين علي ص 211.

(8) المرجع السابق ص 224.

(9) العهد القديم. سفر التكوين الإصحاح الثاني عشر آيات 9 و ما بعدها. و قد كرر "إبراهيم" ما صنعه بزوجته مع فرعون مصر مرة أخرى مع "أبي مالك" ملك "جرار" على هذا النحو، و ذلك وفقاً لـ "التوراة" أيضاً:

(1) " و ارتحل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب و أقام بين "قادش" و "شور" بـ "جرار"(2) و قال إبراهيم عن "سارة" إمرأته هي أختي. فبعث "أبي-مالك" ملك "جرار" فأخذ "سارة"(3) فأتى الله "أبي-مالك" في حلم الليل و قال له إنك هالك بسبب المرأة التي أخذتها فإنها ذات بعل (4) و لم يكن "أبي-مالك" دنا منها. فقال يا سيدي أأمة بارة تقتل (5) أليس إنه هو الذي قال لي هي أختي وهي أيضاً قالت هو أخي. بسلامة قلبي و نقاء كفي صنعت ذلك... فأخذ أبي-مالك غنماً و بقراً وعبيداً و إماء و أعطى ذلك لإبراهيم و رد عليه سارة امرأته" (ت.س. 20)

و في هذا الشأن يعقد "جون فان سيترز"John Van Seters مقارنة بين ما صنعه "إبراهيم" بزوجته "سارة" مع فرعون مصر و ما صنعه بها في وقتٍ لاحق مع ملك "جرار" في فصل عنونه باسم "مشكلة الزوجة الجميلة""The Problem of the Beautiful Wife" من كتابه"Abraham in History And Tradition". و يلاحظ، ضمن ما يلاحظ، أن القصة الأولى

تشير إلى أن فرعون مصر منح "إبراهيم" ثروة طائلة، قبل أن يكشف عن شخصه، و نتيجة مباشرة لانخراط زوجته "سارة" التي إدعى أنها أخته في سلك الحريم في قصر فرعون مصر. و مثل هذا الاستحواذ على كل تلك الثروة، نجم عن الكُذبة التي أدخلها "إبراهيم" عن زوجته على فرعون، و هو الأمر الذي قد يثير حول الزوجين شكوكاً أخلاقية. بينما يحصل "إبراهيم" على كل ما حصل عليه في القصة الثانية من "أبي-مالك"(=أبيمالك) بعد أن كشف "إبراهيم" عن حقيقة "سارة" كزوجة له. و قد استوجب الأمر، و الحال هكذا، أن يُعطي فرعون مصر درساً أخلاقياً لضيفه قبل أن يقوم بطرده، في حين أن ملك "جرار" هو الذي يتوسَّل إلى "إبراهيم" أن يُبرئ ساحته. لكن البرفيسور "سيترز" لا يكلف خاطره بالبحث عن السبب في ذلك الإختلاف الجوهري بين القصتين اللتين تروجان في التقاليد المتوارثة. و ما إذا كان لحجم مصر بالمقارنة مع حجم "جرار" صلة بذلك الاختلاف.

(10) العهد القديم. تكوين. الإصحاح (15) آية رقم (1) و ما بعدها.

(11) "هيرودوت" في مصر. الكتاب الثاني. فقرة رقم (27) تترجيم أستاذي، بالمعنى الحرفي "صقر خفاجة". و لقد صادفت ترجمة جديدة لـ د. شاب نقل فيها هذا النص على هذا النحو: "المصريون أكثر الشعوب تديناً..." و بذلك يكون هذا المترجم قد خلط بين التدين و التقوى أي بين صحيح الطقوس و الشعائر، و هو الأمر الذي تصر عليه، دون سواه، الديانات خلال شيخوختها و بين نقاوة الضمير و طهارة الفؤاد، و هو الأمر الذي تحرص عليه الديانات خلال بكورتها الأولى، و بينها ديانات مصر القديمة. و هذا ما فطن إليه المترجم الأول.

(12) "*الشرق الأدنى القديم*" الجزء الأول ص 24 د. عبد العزيز صالح و نقلاً من جانبه عن *Urk*,IV,14,85

(13) "*تفسير الجلالين*" ص 5

الفصل الثاني

"موسى" منتصراً

تقف شخصية "موسى" عليه السلام عبر التأريخ الثقافي للمنطقة التي نحيا فيها متواضعة النشأة غامضة الأصل، و لكنها تبرز ساحقة في انتصارها في نهاية الأمر. و فضلاً عن ذلك تبدأ بطرح أسئلة خطيرة، إلاّ أن هذه الأسئلة تظل فاغرة الشدقين باستمرار أمام الاجتهاد تلو الاجتهاد و الشطط إثر الشطط: هل "موسى" ذاك شخصية أسطورية "لا يُمكن أن ننسبها للتاريخ" (1) *ومن هنا تشبه الأساطير التي تنسبها شعوب عديدة لملوكها وأمرائها و مؤسسي دياناتها وامبراطورياتها و مدنها، و باختصار أبطالها القوميين مثل "كورش" (=قورش) الأكبر مؤسس الإمبراطورية الفارسية حوالي 558-528ق.ع.م. و"رومولوس" المؤسس الأسطوري لمدينة "روما"، و هو الذي منحها اسمه، و "سرجون" الأكبر أول ملكٍ سامي (نسبة لـ "سام/ شام" بن نوح) يحكم "بابل" حوالي 2600ق.ع.م.، و هو الذي يحكي حكايته على هذا النحو:*

أنا "سرجون"، الملك القوي، ملك "أكاد"، كانت
أمي سيدة متواضعة. أما أبي فلا علم لي به.
و لكن عمي كان يسكن الجبال.
و مدينتي هي "أزور يبانو" التي تقع على
شاطئ الفرات و قد حملتني أمي
المتواضعة و ولدتني سراً.
ثم وضعتني في سلة من الأسل و أحكمت إغلاقها
بالقار.
و طرحتني في النهر الذي لم تُغرقني مياهه.
ثم حملني التيار إلى السقاء "آكي" فحملني
معه و "آكي" السقاء انتشلني من

المياه.
و "آكي" السقاء كفلني كما يكفل ابنه.
و "آكي" السقاء عينني بستانياً له.
و بينما كنت أعمل بستانياً أحبتني الإلهة
"عشتروت"
و لمدة أربع سنوات حكمت المملكة،
و حكمت الشعوب ذات الرؤوس السوداء،
و أخضعتها؟ (2)

و هل هناك "موسى" واحد أم أن هناك أكثر من "موسى"، كما يذهب د."حسن ظاظا"، رئيس قسم اللغة العبرية بجامعة "الاسكندرية"، في مقدمته لكتاب "عصام الدين حفني ناصف": "موسى بين الأسطورة و التاريخ"؟

و هل كان مصرياً كما يذهب "فرويد" في "موسى و التوحيد" أم كان عبرانياً كما تقول الكتب المقدسة الثلاث: "التوراة" و "الإنجيل" و "القرءان"؟

و هل عاش في "مدين" أم في مصر أم فيهما معاً كما يذهب "إدوارد ميير" في كتابه "الإسرائيليون و الشعوب المجاورة"؟ و هل طرحته أمه في الماء رضوخاً لأمر عام من فرعون مصر أم هروباً به منه؟ أم أن أمه دفعها سبب خاص ـ فيما يذهب "فريزر" في موسوعته المشهورة "الغصن الذهبي" ـ وراء تلك الخطوة؟ خصوصاً و أن "عمران" والد "موسى" كان متزوجاً من أخته و كان "موسى" ثمرة هذا الزواج، أي أن "موسى" كان ابن عمته، و أن الشرائع العبرية المتأخرة أبطلت مثل هذا الزواج(الأخ من أخته) باعتباره زنا؟(3)

متى قبلت القبائل العبرانية التي أصبحت شعباً رعوياً منغلقاً إلى حدٍ بارز على تقاليد البداوة، دينها الجديد؟ أي تحوَّلت إلى عبادة "يهوه" إله البراكين التي لا تعرفها أرض مصر، بما في ذلك جبل "حوريب" بسيناء الذي تلقى "موسى" الوحي على قمته؟ في الوقت الذي يرى فيه مؤرخون ثقاة أن العبرانيين اعتنقوا عبادة هذا الإله الذي نسبوه بالبنوة إلى الإله القديم "إيل"، نقلاً عن المديانيين الذين جاوروهم أو جاورهم عدة قبائل منهم في فترة ما من فترات تاريخهم و الأولى ترحالهم؟

هل ترجع عقدة لسانه عليه السلام: "بل أنا ثقيل الفم و اللسان"[4] ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴾ [5] إلى عيبٍ خلقي (بتسكين اللام) أم إلى عجزه عن الإفصاح عن نفسه باللغة المصرية القديمة بطلاقة كافية في حضرة فرعون مصر؟ و بالتالي هل كان "هارون اللاوي" الذي يُقال أنه أخوه مصرياً أم عبرانياً يُتقن اللغة المصرية؟

أسئلة منطقية و على جانبٍ من الأهمية في تصورنا، لكنها لا تزال مفتوحة حتى الوقت الحاضر في ضوء حقيقتين:

الأولى: لم يرد لـ "موسى" ذكْر سواء باسمه أو بصفته في أي نص مصري قديم، وخصوصاً مجموعة الرسائل التي ترجع إلى أرشيف بلاط "أخيتاتون" التي يعرفها علماء المصريات الأجانب ووراءهم مدرسي المصريات في جامعات مصر، لسبب أو لآخر باسم "رسائل تل العمارنة"، بل و لم يرد له ذكر في مختلف ما تركته لنا وراءها الحضارات الأخرى المعاصرة سواء الكبرى أو الصغرى في منطقة الشرق الأوسط القديم من بابلية إلى أشورية إلى حيثية إلى ميتانية.

الثانية: كم هو عظيم و خطير ما تنسبه إلى "**موسى**"، الكتب المقدسة الثلاثة التي تستولي على عقل وأخشى أن أضيف و وجدان شعوب المنطقة التي نحيا في فجاجها و تسيطر بوجه خاص على عقل ووجدان "متعلميها".

"موسى" رمزاً قومياً:

في سائر الأحوال يُعد "موسى" عليه السلام، بصفة أساسية زعيماً و معلماً و محرراً ومشرِّعاً للعبرانيين. و لا عجب في أن ديانة العبرانيين أو الشعبة الأولى للديانة الإبراهيمية حسب اقتراحنا تحمل بين العلماء اسم Mosaiism "الموسوية" نسبة إليه. و لكنه يقف قبل ذلك و بعده كرمز قومي للعبرانيين في وجه فرعون الذي يقف في الكتب المقدسة الثلاثة كرمزٍ قومي لسائر المصريين. و مثلما ضرب رب "إبراهيم" و "سارة" عليهما السلام فرعون مصر و أهله معه، دون تفريق، على نحو ما أشرنا في وقتٍ سابق، يكيل رب "موسى" عليه السلام الضربات و يصب الكوارث على الفرعون <u>*عليه الحرب*</u> و قومه دون تمييز:

"ثم قال الرب لموسى قل لهارون: خذ عصاك و مد يدك على مياه المصريين و أنهارهم وخُلجهم و مناقعهم و سائر مجاميع مياههم فتصير دماء. و يكون دم في جميع أرض مصر، وفي الخشب و في

الحجارة. فصنع ذلك موسى و هارون، كما أمر الرب، رفع العصا و ضرب الماء الذي في النهر على مشهدٍ من فرعون و جميع عبيده فانقلب جميع الماء الذي في النهر دماء، والسمك الذي في النهر مات و أنتن النهر فلم يستطع المصريون أن يشربوا من ماء النهر وصار الدم في جميع أرض مصر."(6)

" و لما كان نصف الليل ضرب الرب كل بكر في جميع أرض مصر، و من بكر فرعون الجالس على عرشه إلى بكر الأسير الذي في السجن و جميع أبكار البهائم فقام فرعون ليلاً هو و جميع عبيده و سائر المصريين و كان صراخٌ عظيم في مصر حيث لم يكن بيت إلا و فيه ميت" (7)

" شباب "أون" (=عين شمس) و فيباست(=تل بسطة) يسقطون بالسيف و النساء (المصريات بطبيعة الحال) يذهبن في السبي" (8)

و أعطي نفسي حرية تجاوز "العهد الجديد" الذي ورد فيه بصورة مفاجئة هذا القول:

" وتهذب " موسى " بكل حكمة المصريين" (9)

إلى "العهد الأخير":

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (10)

و واضح لكل ذي نظر أنني لا أحصي و لا أعدد ما جاء في تلك الكتب المقدسة الثلاثة ضد المصريين، ممثلين في رمزهم القومي الذي اختارته لهم تلك الكتب، دون أن يستشيرهم أحد في ذلك، و هو الفرعون <u>*عليه الحرب*</u>، بل أشير مجرد إشارة هنا إلى اتجاه الريح و حسب. و كان طبيعياً من الفؤاد الرعوي الذي يقف هذا الموقف العدائي السافر، دون سبب قوي والأولى دون سبب من أي نوع، قدَّمه الزارع المصري، أن يقف موقفاً نقيضاً من الراعي العبراني الذي يُعد بشيراً من جانب و في نفس الوقت نذيراً من جانبٍ آخر، بالراعي العربي. فالعهد القديم يصف ـ وهذا طبيعي تماماً ـ العبرانيين بأنهم شعب "يهوه" أي أنه يعتبر نفسه إلههم القومي. وفي وقتٍ لاحق شعب "يهوه" المختار، أي ذلك الإلاه(=الإله) القومي، بعد أن صبا إلى العالمية أي بعد أن تمنى أن يضم بين أتباعه أبناء شعوبٍ أخرى مثل "أشور" و"مصر" (11)، و في عبارة واحدة "شعب الله المختار". و يقول عنهم "العهد الأخير": (12) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾. (13)

و تسبي "سارة" عليها السلام بجمالها الفتان ـ و دع عنك أنها كانت قد تجاوزت، وفقاً للقصص التوراتي ذاته وقت ذاك الخامسة و السبعين ربيعاً من عمرها ـ عين فرعون *عليه الحرب*، بل و كل رجال مصر، و يأسر "يوسف" عليه السلام بوسامته زوجة "فوطيفار" عزيز مصر *عليهما الحرب* بل و جميع نساء مصر إلى الحد الذي يبلغ بهن الأسر أن يقطعن(="يجرحن") أيديهن على سبيل السهو. و يقرر "العهد القديم" أن:

"العبرانيات لسن كالنساء المصريات فهن قويات يلدن قبل أن تدخل عليهن القابلة". [14]

ويقبل الرب قربان الراعي و يرفض قربان الزارع دون سبب وجيه واحد، رغم "الوفرة" وبالتالي الاستقرار و التحضر و الرقي الأخلاقي، و هو الأمر الذي ينتج عن ارتفاع مردود أو غلة ساعة العمل الإنساني للزارع، و "الندرة"، و بالتالي الارتحال والتخلُّف و القسوة والغدر و الأنانية والتردي الأخلاقي، و هو ما ينتج عن انخفاض مردود ساعة العمل الإنساني للراعي:

"و عرف آدم حواء فحملت و ولدت "قاين" فقالت رزقت رجلاً من عند الرب ثم عادت فولدت أخاه "هابيل" فكان "هابيل" راعي غنم و "قاين" يحرث الأرض. و كان بعد أيام أن "قاين" قدَّم من ثمر الأرض تقدمة للرب، و قدَّم "هابيل" أيضاً شيئاً من أبكار غنمه و من سمانها، فنظر الرب إلى "هابيل" و تقدمته و إلى "قايين" و تقدمته لم ينظر". [15]

و في "القرءان":

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ ﴾ [16]

و يشرح صاحبا تفسير الجلالين، ذلك على النحو التالي:

"*فتقبل من أحدهما*" بقولهما: "وهو "*هابيل*". [17] و "*لم يُتقبل من الآخر*" بقولهما: "وهو *قابيل*" [18]

و يقول "اليعقوبي":

"و قد روى بعضهم أن الله عز و جل أنزل لهابيل حوراء من الجنة فزوَّجه بها و أخرج لقابيل جنِّيَّة من النار فزوَّجه بها. فحسد قابيل أخاه على الحوراء. [19]

و لا ينبغي أن نمضي قُدماً هذه المرة دون نشير إلى أن "العهد الجديد" يخاطب السيد المسيح بـ"ابن داوود"(داود لمن يريد).

احتقار الذات:

ذلك هو موقف ما نسميه بالديانة الإبراهيمية التي يدين بها قولاً و عملاً سائر المصريين وخصوصاً "متعلموهم" سواء أكانوا من أتباع المسيح أو أتباع محمد عليهما السلام، و سيان كانوا أكاديميين أو علمانيين، متخصصين محافظين أو "مثقفين ثوريين". و لقد قنع الأخيرون - و يا اللعجب العجاب - و رضوا عن أنفسهم باكتشاف أن لـ "فرعون" بعداً طبقياً فوافقوا و صدَّقوا على قاله و يقوله فيه صباح مساء أعداؤه القوميون: الإبراهيميون، رغم أنهم أي أولئك الإبراهيميون و الأدق الساميون لم يكونوا منزهين - دون سائر معاصريهم - عن الإنقسام، هم أيضاً، إلى طبقات سائدة و أخرى دنيا. و نجد في كنايات أولئك "المثقفين الثوريين" و استعاراتهم وتشبيهاتهم أصدق دليل على موافقتهم و تصديقهم على أحكام الإبراهيميين على جدودهم، الذين يلذ لهم أن يتبرأوا منه جملة و تفصيلاً تأسيساً على رفض، يبدو أمام أعينهم و كأنه رفض لوضع طبقي، بينما لا يعكس أي ذلك الرفض و على وجه الترجيح، سوى دونية قومية متأصِّلة يشتركون فيها مع سائر "المتعلمين المصريين" المعاصرين.

و بهذا يكون "المتعلمون المصريون" قد انفردوا بكافة أطيافهم بين سائر المتعلمين في جميع أنحاء المسكونة باحتقار جدودهم أي باحتقار أنفسهم، نزولاً عند إرادة أعدائهم التاريخيين، دون أن يستأهل جدودهم على الأقل ذرة واحدة من هذا الاحتقار العظيم الذي يحمله هؤلاء "المتعلمون" في جوانحهم دون أن يشعروا بثقله عليهم مثلما يحملون ذلك العمود من الهواء الذي يمتد عدة كيلومترات فوق رؤوسهم في الغلاف الجوي للأرض.

بين الأتونية و الموسوية:

و لكن هل تلقى "موسى" عليه السلام الذي نسب إليه نُساخ "العهد القديم" الذين جلسوا كي يدونوه بعد نحو 700 سنة من الوقوع المفترض لأحداثه، الأسفار الخمسة Pentateuch أو الستة Hexateuch الأولى منه أي "التوراة"، موسويته أو يهوديته تلك جاهزة من ربه على جبل "حوريب" السيناوي أم أن لها مصادر سابقة عليها؟

يعقد الباحث الجاد "فرَّاس السواح" مقارنة جديرة بالنظر بين الديانتين "الأتونية" و"الموسوية" على هذا النحو:

{(1) تصر الديانتان الأتونية و الموسوية ـ و ذلك لأول مرة في التاريخ ـ على وحدانية الإلـه، إلاَّ أن وحدانية "أخناتون" أعم و أشمل، لأنه يرى "أتون" إلاهاً للأمم كلها بينما بقيت اليهودية فترة طويلة من تاريخها على الاعتقاد بـ "يهوه" إلهاً للشعب اليهودي يتجلى في المعارك والانتصارات، لا كما يتجلى "أتون" في الزهور و الشجر و جميع أشكال النماء والحياة.

(2) تمنع الديانتان أي نوع من أنواع التصوير أو النحت للإله الواحد. و لذلك حُطمت كل التماثيل إبان حكم "أخناتون". و مُسحت عن جدران المعابد صور و أسماء الآلهة القديمة. و كانت الإشارة الوحيدة المسموح بها كرمزٍ للإله هي أشعة الشمس التي كانت جميع الصلوات تحث على النظر للقوة الكامنة خلفها. فـ "أتون" ليس قرص الشمس ذاته بل خالق أشعته التي عبَّر عنها بالطاقة. و ليس ما في الكرة الملتهبة من مجدٍ مشرق إلا كرمزٍ للقدرة المستورة. كذلك نقرأ في التوراة: "لا تصنع لنفسك تمثالاً صورة مما في السماء من فوق و ما في الأرض من أسفل، وما في الماء تحت الأرض." (سفر التثنية. الإصحاح 5-7 العهد القديم)

(3) لا نجد في الديانتين أثراً لفكرة البعث و الحساب و الحياة الآخرة. فـ "أخناتون" في صراعه مع الديانات القائمة آنذاك أراد أن يحرم "أوزيريس"، و هو الإله الشعبي الأول، من ملكوته في العالم الآخر، لأنه رب البعث و الحساب الذي يزن الحسنات و السيئات في العالم السفلي، و مالك قلوب العباد الباحثين عن السعادة في الحياة الآخرة. و عمد "أخناتون" إلى إلغاء فكرة البعث و الحساب. و على منواله نسجت الديانة اليهودية التي لا نجد عندها أفكاراً واضحة عن الحياة بعد الموت بل إن هذه الفكرة قد اعتبرت لفترات طويلة ضلالاً مبيناً. و لم تبدأ في السيطرة على عقول المتدينين إلاَّ في الفترات المتأخرة وقبيل ظهور السيد المسيح.

(4) نظراً لاتصال الديانات المصرية بالسحر، فلقد حاربت "الأتونية" السحر و السحرة وأبطلت تأثيرهم في المجتمع. كذلك الأمر في الديانة اليهودية التي حرَّمت السحر.} [20]

و قد لاحظ عديد من مؤرخي العالم القديم هذه الصلة القوية بين "الأتونية" و"الموسوية"، على رأسهم "جيمس هنري بريستيد"، حجة المصريات الكبير الذي عقد مقارنة واضحة بين صلاة " و الأولى ترنيمة "أخناتون" للإلاه(=الإله) و بين "المزمور" 104 من مزامير "داوود"(=داود) بالعهد القديم. و يحسن بنا في هذا الصدد أن نثبتها نقلاً عن ترجمة د. "أحمد فخري" في كتابه "الحضارة المصرية":

ترنيمة "أخناتون":

و عندما تغرب في الأفق الغربي،
تظلم الأرض كالموت.
و يخرج كل أسدٍ من عرينه،
و كل ما يزحف و يلدغ.
و عندما يطلع النهار و تُشرق في الأفق،
تسوق الظلام بعيداً،
يستيقظ الناس و يقفون على أقدامهم.
جميع من الكون يعملون عملهم.
ما أكثر أعمالك
إنك تخفى عن نظر الإنسان،
أيها الإله الواحد الذي لا شبيه له.
لقد خلقت الأرض حسب مشيئتك.

المزمور رقم 104

تجعله ظلمة فيصير ليلاً.
فيه يدب على قدميه حيوان الوعر.
الأشبال تزمجر لتخطف.
تشرق الشمس فتجتمع و في مآويها تربض.
الإنسان يخرج إلى عمله.
و إلى شغله في الماء.
ما أعظم أعمالك يا رب.
كلها بحكمة صنعت.
ملآنة الأرض من غناك.

لقد كان الملك "أمين-حوتب" الرابع أو "أخناتون" أوَّل من دعا إلى الوحدانية التي تدعو لعبادة إلاه مُعيَّن، و تستبعد كافة الآلهة الأخرى. و لقد تأكدت هذه الصفة في عبارات عديدة منها ما ورد في إحدى ترانيمه:

"أنت يا أيها الإلاه الواحد لا إلاه إلاَّ أنت"(21)

و كان "أخناتون" يحارب بأتونيته هذه كافة الديانات المصرية و خصوصاً "الأمونية" ديانة الدولة الطيبية نسبة لـ"طيبة"، و "الأوزيرية"، تلك الديانة الشعبية الواسعة الانتشار التي بشَّرت و أنذرت في نفس الوقت بعالم آخر، بعد الموت. و ما يستتبع ذلك من حسابٍ وجزاء، تحت إمرة "أوزير" الذي أصبح أهم الآلهة في عالم الموتى.

و يجدر بنا أن نشير في هذا المقام إلى عادة "الطهور" (للذكور) ـ أو "الختان" كيلا يغضب حماة "اللعق" ـ التي انفرد بها المصريون بين شعوب جنوب البحر المتوسط. و كانت تُمارس بينهم، فيما يروي لنا "هيرودوت" أبو التاريخ(484-420ق.ع.م.) من زمن طويل. و تأيَّد قوله بفحص المومياوات المصرية، و كذلك بالرسومات التي أُكتشفت على جدران المدافن. و يقول عنها "فرويد":

"إن الساميين و البابليين و السومريين لم يكونوا يعرفون الختان"(22)

و مع ذلك يعود كُتَّاب "التوراة" و نساخها بتاريخ عادة "الطهور" هذه إلى أيام زعماء القبائل العبرانية كعلامة للعهد بين الرب و "إبراهيم" عليه السلام. و يغضب الرب من "موسى" عليه السلام، لأنه أهمل هذا العرف المقدس و يقترح أن يذبحه. و لكن زوجة "موسى" ع.س. وهي من أهل "مدين"، تنقذه من غضب الرب بإجراء العملية له على وجه السرعة. غير أن "فرويد" يرفض كل هذه الأقاويل بصفتها "تحريفات" و لا نرانا أقل موضوعية منه.

و إذا كان الأمر كذلك فإننا لا نجد مفراً من مواجهة هاتين النتيجتين:

1ـ استخدم العبرانيون ثم ورثتهم من بعدهم و أقصد أشقاءهم-أشقاءهم العرب. وهؤلاء وأولئك رعاة ساميون ديانتين مصريتين و بالتحديد "تياراتٍ" رئيسية من "الأتونية" و"الأوزيرية" في قمع المصريين أيدولوجياً بدفعهم إلى نسيان عبادة آلهتهم المتعددة وبعبارة أخرى أنتج المصريون أنفسهم و بصفة جزئية على الأقل السلاح الذي قمعهم به في وقتٍ لاحق أعداؤهم التاريخيون.(23) و هذه إحدى نقائض تاريخ المنطقة التي نعيش في وهادها ونجادها.

2ـ بهزيمة "فرعون" أمام "موسى" ع.س. دخلت البشرية المعروفة وقت ذاك أي قبائل وشعوب الشرق الأوسط القديم و أفريقيا المتوسطية L'Afrique Mediterranée وأوروبا، ظلمات العصور الوسيطة، دون توفر أي عوامل اقتصادية-اجتماعية، كما كان ليرى الماديون-التاريخيون، تسوِّغ ذلك. و ظلت البشرية سادرة في ظلمات تلك العصور التي طالت حتى دامت خمسة قرون كاملة من القرن العاشر حتى الخامس عشر، إلى أن رجحت كفة الفرعون أي كفة العقل و الوجدان و أهم منتجاتهما العلوم و الفنون مرة أخرى، وبعبارة أخرى تراجعت البداوة أمام الحضارة خلال عصور النهضة أو الإحياء في أوروبا التي انطلقت في تحررها من الظلمات وراء سهمين: المستقبل الوضاء و الماضي الأعمق في الحضارة اليونانية-الرومانية القديمة التي اتضحت صلتها الوطيدة بحضارات الشرق الأوسط القديم، و خصوصاً أفريقيا المتوسطية و بالذات الحضارة المصرية القديمة التي بناها المصريون تحت الإدارة الفائقة الكفاءة للفراعنة العظام، أي رست البشرية التي هددها الانقراض تحت ظل الشعبتين الثانية و الثالثة الأولى في الغرب و الأخرى في الشرق من ديانة الساميين، إلى وضع الدنيا أمام الآخرة والزراعة أمام الرعي و العلم و الفن أمام الدين والطقس و بكلمة واحدة: الإنسان أمام الإله.

هوامش و مراجع:

(1) "الفولكلور في العهد القديم" تأليف "جيمس فريزر". تترجيم: د. نبيلة إبراهيم ص6

(2) المرجع السابق ص 8

(3) المرجع السابق ص12

(4) العهد القديم. سفر الخروج. الإصحاح الرابع آية رقم 10

(5) قرآن. سورة طه آية رقم 27، 28

(6) العهد القديم. سفر الخروج. الإصحاح السابع آية رقم 19، 21

(7) المرجع السابق. الإصحاح الثاني عشر. آية رقم 29، 30

(8) العهد القديم. نبوءة "حزقيال" الإصحاح 30 آية رقم 17

(9) العهد الجديد. أعمال الرسل. الإصحاح 7 آية رقم 22

(10) قرآن. سورة الأعراف. آية رقم137

(11) العهد القديم. سفر "إشعياء". الإصحاح التاسع عشر آية رقم 29

(12) هذا لا ينفي علمي بوجود عهد "بعد أخير" هو "الأقدس" كتاب الديانة البهائية. لكنني لا أعرض للأمر الآن لا بخير و لا بشر.

(13) قرءان. سورة الجاثية. آية رقم 16

(14)العهد القديم. سفر الخروج. الإصحاح الأول.آية رقم 20

(15) العهد القديم.سفر التكوين. آية رقم 1، 5

(16) قرءان. سورة المائدة. آية رقم 27

(17) تفسير الجلالين ص 92

(18) لأمر ما لا يجد المصريون، و هم "حُراث للأرض" حرجاً في إطلاق اسم "قابيل" على أولادهم دون "هابيل" ذاك.

(19) تاريخ اليعقوبي جزء 1 ص 6

(20) "مغامرة العقل الأولى". فراس السواح. ص 104، 105

(21) تاريخ مصر. "جيمس هنري بريستيد" ص 374

(22) Moise et le Monotheisme,Traduit d'Alleman par Anne Berman.Editions Gallimard,1948.p.37

(و يذكرنا "مير" بأن "يشوع" طلب من الشعب اليهودي أن يأخذ بعادة الطهور (=الختان) تحاشياً لسخرية المصريين. و يُعيد أي "مير" إلى أذهاننا أيضاً أن "هيرودوت" أشار إلى أن الفينيقيين (و يقصد

دون شك اليهود) و السوريين الذين يعيشون في فلسطين يعترفون بأنهم نقلوا عادة الطهور عن المصريين) نفس المرجع ص 47

(23) لا تُعد الشعبتان الثانية و الثالثة من الديانة الإبراهيمية أن تكونا من الناحية الإبستمولوجية سوى حاصل جمع و الأولى دمج للأتونية الجافة و الأوزيرية الأكثر غنى بالتيمات الأسطورية، و ذلك قبل تشربهما للروح السامية.

الفصل الثالث

"الله" -لفظ الجلالة- عربياً

" الله" هو الاسم الذي تعرفه اللغة العربية "الفصحى" للإله الواحد، ذلك الإلاه الذي عرفته شعوب الشرق الأوسط القديم، و انتقل هذا الإلاه الواحد أحياناً كثيرة بمعناه (حالات الإيرانيين و الترك و الهنود المسلمين نماذج) و أحياناً نادرة بمعناه و لفظه العربي-السامي ذاته إلى شعوب أخرى في المنطقة المحيطة (حالتا المصريين و الأمازيغ نموذجان)، أي أن "الله" كاسمٍ للإلاه الواحد[1] يوازي "كيريا" κγριε عند اليونانيين القدماء - و لنصمت قليلاً عن θεος - ويناظر Deus عند الرومان القدماء و يساوي Dios عند الأسبان المعاصرين و Dieu عند الفرنسيين و Gotte عند الألمان المعاصرين و God عند الإنجليز.

و نقرأ في الترجمة التي قامت بها "جمعية الكتاب المقدس بجنيف" Genfer Bibelgesellschaft

لـ"العهد الجديد" عن النص اليوناني القديم ثلاث عبارات متناظرة:

A-Die Bibel ist inspiriente Wort Gottes.

B-La Bible est la parole inpirée de Dieu.

C-The Bible is the inspired word of God.

و ليس في استطاعتنا أو استطاعة أحد، في ظننا، أن يترجم هذه العبارة إلى اللغة العربية "الفصحى" دون أن يستخدم لفظ الجلالة العربي "الله" على هذا النحو:

"الكتاب المقدس هو كلمة "الله" الملهمة/ المنزلة.

و هذا نفس ما اضطر إليه د. عبد الرحمان بدوي في كتابه "من تاريخ الإلحاد في الإسلام" عندما ترجم لفظ θεος إلى "الله" - و لو أن سيادته خلط بذلك بين معنيين مختلفين إلى هذا الحد أو ذاك الواحد عن الآخر - و كذلك "لويس عوض" مترجم مسرحية "الفرس" لـ"إيسخيلوس" إلى تترجيم اسم الإلاه اليوناني في صيغة المنادى إلى "يا الله" رغم الحقيقة الساطعة، بما لا يحتاج إلى أي

لجج: اليونانيون القدماء لم يعرفوا قط هذا الاسم، و إن عرفوا "الإلاه الواحد" و أطلقوا عليه اسماً خاصاً في لغتهم.

و نقابل في مادة Allah في قاموس "أكسفورد" أن: "الله" هو الاسم الإسلامي للإلاه Muslim name of God، و لو أن مصنِّف القاموس غفل بذلك عن أن الإسلام ليس لغة بل ديناً. و اللغات هي التي تُطلق الأسماء و تصوغ الصيغ و تضع الأفعال، و ليس الأديان، وعلم الدلالات Semantique فرع من اللغويات، و ليس مذهباً من مذاهب هذه الديانة أو تلك. و بناء عليه، فإن العرب-الساميين هم الذين سموا الالاه الواحد بهذا الاسم، و ليس المسلمين. و لو أن هؤلاء المسلمين نقلوا و تبنّوا و تعبّدوا خلال هذا الاسم في أوقاتٍ لاحقة.

و يُعلِّمنا التاريخ أن انتظام القبائل العبرانية في جماعة قومية ذات تعبير ثقافي-سياسي، انتهى - وفقاً للتقاليد - إلى بناء دولتين-قوميتين إلى هذا الحد أو ذاك هما "يهودا" و"إسرائيل"، و لو أنهما لم يعمِّرا طويلاً في ساحة الشرق الأوسط القديم، بل يُشكك علماء عديدون في قيام إتحادٍ بينهما في أي وقت، واكب استقلالها أي تلك القبائل باسمٍ خاص لإلاه عبراني مخصوص عوضاً عن كل الآلهة السامية الأخرى، حتى تلك التي تبنوها في أوقات سابقة من ترحالهم مثل بعل/ بعليم و "إيل"/ إلوهيم و إيل/ شداي إلخ. و كان اسم هذا الإلاه العبراني المخصوص هو "يهوه" الذي نجده متضمناً في أسماء من نوع "نتان-يهوه" أي "عطية الله" باللغة العربية، و هو الاسم الذي يوازي "إيزي-دورا" أي "عطية إيزيس" و لو أن الجزء الأول من هذا الاسم مصري و الآخر يوناني. لكن العبرانيين نسبوا إلاههم الخصوصي بالبنوة إلى "إيل" الإلاه السامي القديم، أي أن إلاههم كان مستقلاً، دون أن يكون منفصلاً عن آلهة الساميين. و يبدو واضحاً أن العرب لم يشذوا في هذا الأمر عن أشقائهم-أشقائهم العبرانيين. فلقد واكب تحوُّلهم، إلى جماعة قومية، و هو تحوُّل عسير أحتاج لمساعدة السماء نفسها، استقلالهم باسم خصوصي للإلاه هو "الله".

"الله" سبحانه هو المُذل:

إذا كان "المقريزي" الملقب بشيخ المؤرخين العرب قد كتب في خططه تعليقاً على الانتصار الساحق الذي أحرزه الخليفة عبد الله المأمون رضي الله عنه و أرضاه، على المقاومة الباسلة التي خاضها البشموريون-المصريون أي سكان إقليم "بشمور بشمال شرق الدلتا:

" و أذل الله القبط (=المصريين) في جميع أرض مصر "(2)

فإن المعنى لا يزيد و لا ينقص شعرة واحدة عن:

"و أذل العرب-الساميون المصريين في جميع أرض "كيمي"

و على نفس النول(=المنوال) إذا قابلنا في "التوراة" هذه العبارة:

"فأذل الله في ذلك اليوم "يابين" ملك "كنعان"(3)

فإن المعنى لا يزيد و لا ينقص شعرة واحدة، هو الآخر، عن:

" و أذل الإسرائيليون/ العبرانيون الكنعانيين"

فكما أن "الملك" رمز لمحكوميه، كذلك "الإلاه" رمز لمخلوقيه.

و لقد بدأ الصراع قومياً في ذلك الوقت و استمر كذلك و إن ارتدى الطابع الديني الزائف في هذا الوقت أو ذاك. و على الوجه الآخر لا نستطيع أن نتخيَّل، مهما جمح بنا الخيال، أن يُذل "أمون" أو أي إلاه مصري آخر المصريين. و على أي حال لم يرد في أي نصٍ قديم أو وسيط أو حديث، مثل هذا القول الذي يُجافي في رأينا، كل عقلٍ، و ذلك لأن القبائل والجماعات القومية و القوميات لا تخلق الآلهة ـ فيما يرى علماء الأديان المقارنة ـ كي تُذلهم أو تُخضعهم بل لكي تُذل و تُخضع لهم الأجانب.

و غني عن الذكر أن اسم "الله" أو لفظ الجلالة هذا يوازي "أمون" عند المصريين القدماء ويساوي "خدا" عند الإيرانيين، قدماء و محدثين، على حدٍ سواء. و ترى المسلمين منهم يترجمون "باسم الله الرحمن الرحيم" إلى {بنام "خدا" باخشونده مهربان} و يعادل "خداي" عند الأفغان-الباشتون، و المسلمون منهم يودعون بعضهم البعض الآخر بلهجتهم المعروفة باسم "الدري" بـ"خداي حافظ". و يطابق "تاكري" بين الأتراك، والمسلمون منهم يرفعون الآذان على هذا النحو:

"تاكري أولودر" أي "الله" أكبر.

و ينعكس ارتباط لفظ الجلالة العربي "الله" بديانة الساميين القمرية بصفة عامة فيما ورد في "القرءان":

"الله نور السماوات و الأرض"(4)

و لو كان الاسم هو "رع" لوردت هذه الصورة الشعرية على هذا النحو:

"رع هو ضوء السماوات و الأرض"

فالنور يرتبط، في الأصل، بالقمر أما الضوء فبالشمس.

اسمان أجنبيان:

يروي الرحَّال ـ و دع عنك الرحَّالة ـ الإنجليزي "إس.إتش.ليدر" الذي زار مصر عند انحناءة القرن التاسع عشر(5) أن المصريين ساروا في موكبٍ واحد ضخم في شوارع "الكاهرا"(=القاهرة) يطلبون الرحمة من السماء أي يستسقونها بعد انخفاض الفيضان في ذلك الموسم الزراعي، و كان قسم منهم يردد:

"لا إلاه إلاَّ الله"

و قسم آخر يهتف:

"كيريا لسون" ΚΥΡΙΑ ΕΛΕΗCΟΝ=(يارب ارحم) باللغة اليونانية القديمة. و كان الموكب الضخم يُصدر الاسترحام في نغمة واحدة و إيقاعٍ واحد، الأمر الذي بهر الرحَّال الإنجليزي "ليدر".

لكن الملاحظة التي تسترعي انتباهنا، نحن المصريين أو يجب أن تفعل، إزاء هذا الموكب الضخم أن المصريين بشقيهم كانوا يُخاطبون "الإلاه الواحد الأحد" باسمين أجنبيين أي بلغتين أجنبيتين هما اللغة اليونانية القديمة التي وفدت من جنوب أوروبا و اللغة العربية الكلاسيكية أو "الفصحى" كما يحلو لـ "المتعلمين المصريين" أن يُلقِّبوها، التي قدمت مع الغزاة العرب من غرب آسيا، و بعبارة أخرى كان المصريون قد أوغلوا في تجرع هزيمتهم المزدوجة حتى نسوا أسماء كافة آلهتهم، و خصوصاً رئيس المجمع الإلاهي المصري: "أمون"، و هو الأمر انفردوا به، على وجه التقريب بين الشعوب التي دخلت المسيحية أو المحمدية في القارات الست المأهولة بالبشر.

و كان الأجدر بنا أن نتوقف طويلاً أمام لفظيْ الجلالة "الله" العربي و "كيريا" اليوناني ونبحث في اشتقاقهما و نتتبع مراحل التطور الدلالي التي دخلت عليهما حتى صارا إلى ما صارا إليه. و لكن يكفينا في الوقت الحاضر و يفي بغرضنا في هذا الفصل أن نقول أن "كيريا" هو اسم "الرب" الذي يعني "السيد" و هو اسم من النوع الثاني من أنواع الأسماء في اللغة اليونانية. و أن "الله" ما هو إلاَّ تصحيف/ تحريف للفظ "إيل" الذي نرصد وجوده في أسماء سامية عديدة مثل "جبرائيل" الذي نستطيع تفكيكه إلى "جبر+إيل" و "اسماعيل" الذي يقبل الفك إلى "سمع+إيل" و "عمانو~إيل" الذي يعني "إيل معنا" و "كرمل" الذي يعني "كرم إيل"...الخ. كما أن "إيل" لا يرفض التحول إلى حالة التأنيث من "إيل" إلى "إيلات"، و كذلك شكله الأحدث "الله" إلى

"اللات". و يقبل هذا اللفظ ما تقبله سائر ألفاظ اللغة العربية من قوانين فـ "اللام" ينطقها العرب مفخمة أحياناً في: الله أكبر، و مرققة أحياناً أخرى كما في "باسم الله". و نستطيع أن ننقل عن العالم الفرنسي المشهور "دوسو"Dusaud قوله:

"أخبرتنا النصوص، و هي نصوص عربية شمالية، للمرة الأولى، و بدليل لا يقبل الشك كيف أن "الله" كان معروفاً لدى العرب و كان مقدساً خاصة في المجمع الإلاهي العربي الشمالي قبل أن يُبشِّر به الإسلام كإلاه للتوحيد"(6)

بل و في طوعنا أن ننصت للذاكرة الشعرية للعرب قبل-الإسلام التي وعت لنا هذا البيت الذي يُنسب إلى "أوس بن حجر":

باللات و العزى و من دان دينهم،

و بالله إن الله منهن أكبرُ.(7)

و غني عن الذكر أن الإسمين الجليلين يقبلان بطبيعة الحال ما تقبله سائر الأسماء في اللغتين، اليونانية و العربية من حالاتٍ إعرابية تصل إلى خمس حالات في الأولى و ثلاثٍ في الثانية. كما أن اللفظين الجليلين لا يأبيان(=يرفضان) كتابتهما بأي أبجدية سواء جرت من اليمين إلى اليسار أو العكس.

يكفينا هذا قبل أن نقصر الحديث على حياة الإسمين في مصر، و في عبارة أخرى على حجم التأثير الذي تركته اللغتان اللتان سادتا كلغتين رسميتين للدواوين الحكومية و الطقوس الدينية و(التعليم؟)، إلى الحد الذي مال عنده "المتعلمون المصريون" في الحقبتين اليونانية التي طواها الدهر، و العربية التي لا نزال نحياها إلى الزعم بأن المصريين يونانيون مرة و بأنهم عرب مرة أخرى، دون أن يستند أي من الزعمين إلاَّ إلى العواطف الدينية: المسيحية في الأولى و المحمدية في الثانية.

و "المتعلمون المصريون" يتجاوزون في الحالتين الأدلة الساطعة التي يراكمها العلماء والمؤرخون يوماً إثر يوم على أن المصريين حاميون شرقيون، و لم يكونوا في الماضي يونانيين و لا حتى آريين، و ليسوا في الوقت الحاضر عرباً و لا حتى ساميين إذ:

"لا يلزمنا أن نبالغ في انتشار الجنسية (=العرقية) الأسيوية في مصر. فالواقع أن حضارة البلاد من أساسها أفريقية. و يجب ألاَّ نتخيَّل النازحين قبل عصر الأسرات 2500ق.ع.م. إلاَّ

عدداً ضئيلاً بالنسبة إلى السكان الأصليين. لذلك سرعان ما اختلطوا بهم و اندمجوا فيهم و تطبعوا بطباعهم. و هكذا نجد اللغة و الزراعة الأصليين مستمرتين منذ أقدم عهودهم و لم يؤثر النازحون في تغيير شيء كبير منهما بل كان تأثيرهم سطحياً "(8)

و بالإضافة إلى ذلك:

" إن الفتح العربي كان تغييراً في السادة الحكام أكثر منه تغييراً في الجنس" . (9)

زد على ذلك:

"أما عن العرب الذين كثيراً ما يُطلق اسمهم بطريقة غير سليمة على المصريين، فلقد نُسب إليهم تأثير أكبر بكثير مما كان لهم في الحقيقة" . (10)

و إلى جانب ذلك:

" إعلم أن العرب الذين شهدوا فتح مصر قد أبادهم الدهر، و جُهلت أحوال أكثر أعقابهم" . (11)

و معنى عبارة "المقريزي"، كما هو واضح، أن العرب الذين وفدوا من غرب آسيا قد تمصَّروا في مصر، و ذابوا في المصريين.

محاولتان جسورتان:

غير أن اليونانيين و العرب ينفردون، كل منهم على حدة، دون سائر الذين شقوا طريقهم إلى مصر، من فرس و أشوريين و رومان و ترك، بل و من فرنسيين و انجليز بأنهما، حاولا و حققا قدراً من النجاح، لا مفر من بالإقرار به، نحو استبدال لغة المصريين في مرحلتها الديموتيكية على زمن اليونانيين و في مرحلتها القبطية على أيام العرب بلغتيْهما اليونانية ثم العربية. و كان كلاهما مسلَّحاً بكتابٍ مقدس، مستعار و متأخر نسبياً بالنسبة لأولئك و أصيل أي غير مترجم عن لغة أصلية، ومواكب زمناً بالنسبة بالنسبة لهؤلاء. و كانت هاتان المحاولتان أخطر محاولتين من نوعهما في التاريخ القديم و الوسيط. و لا مناص(=مفر) من الاعتراف بأنهما حققتا قدراً متفاوتاً من النجاح في إنجاز ما هدفت كل منهما إليه. و الفضل الأول في ذلك راجع، دون مراء إلى الدور الممالئ لمن يُسمون أنفسهم بـ "المتعلمين المصريين" و أحياناً ليست قليلة بـ "المثقفين المصريين". و ذلك خلافاً للمحاولات التي بذلها قبلهم و بعدهم المستعمرون من أمثالهم. إذ باءت كل تلك المحاولات بفشل متفاوت الحجم لأسبابٍ لا مجال لتقصيها الآن.

رقي المغلوبين:

لكن اليونانيين و العرب كانوا، كلاً على حدة بطبيعة الحال، في مستوى أدنى حضارياً عند تسللهم ثم غزوهم أرض "إيزيس" دون أن ننفي ما كان عليه أولئك و هؤلاء من تسليح أفضل ودُربة أوسع و تنظيم أدق و روحٍ معنوية أعلى، و دون أن ننكر تطور اليونانيين إلى آفاقٍ أكثر تحضراً في وقتٍ لاحق اعتماداً، بصفة جزئية على الأقل، على ما استوعبوه من أبناء مصر أو الجمود أو شبه الجمود الذي ركن إليه الآخرون بعد نهبهم لعرق المصريين على هيئة جزية أحياناً و خراجٍ أحياناً أخرى، بضمائر أخرستها نصوص مقدسة. وذ. ستمد دليلنا على الدونية النسبية للغزاة أولئك وهؤلاء من حقيقيتين قد تبدوان متناقضتين، و هما كذلك فعلاً، و لكن عند مستوى معين.

تتمثل الحقيقة الأولى في أن اليونانيين و العرب عند دخولهم أرض "إيزيس" في سنتيْ 332ق.ع.م. و 642م.ع.م. على التوالي كغزاة لم يكونوا قد تحوَّلوا، كلٍ على حدة بطبيعة الحال إلى أمة بالمعنى الذي نفهمه من مصطلح "أمة" كجماعة قومية موحَّدة أي أن هؤلاء وأولئك لم يكونوا قد غادروا بصفة نهائية، ضيق الانتماءات العرقية (=القبلية) إلى رحابة الانتماء القومي، و الأمة التي تُعد تعبيراً عن النضج القومي "ظاهرة اجتماعية يُمكن أن تظهر في كافة مراحل التاريخ" و فق "سمير أمين"، و بعبارة أخرى لم يكونوا قد ارتقوا إلى مستوى إعلاء شأن محل الإقامة أي رابطة الأرض بشكلٍ حاسم على رابطة الدم أي رابطة القبيلة أو البطن أو العشيرة أو الفخذ، و أقصى ما كان اليونانيون قد شارفوه هو الانتماء إلى حي في مدينة: "أثينا" أو "اسبرطة" أو "كورنثة"...إلخ ويذكر "ولف"Wolff" و أخرون:

"إذا كانت كل وثائق الاسكندرية ترجع إلى عهد الإمبراطور "أغسطس" فإنه لا شك في أنها تصوِّر ما كان متبعاً بين إغريق "الاسكندرية" و "بطوليس" من ذكر الزواج أمام كهنة الواحدات(=البطون) و أنه من المعروف أن هاتين المدينتين كانتا تعتزان بالنظم الإغريقية القديمة التي كانت تستوجب انتماء كل مواطن إلى قبيلة phyle و حي demos و بطن phratra. و أما "نقراطيس" فإنه لم توجد فيها قبائل و أحياء و تبعاً لذلك لم تُوجد فيها "بطون". و مثلما كان عليه

الحال في المدن الإغريقية الأخرى أو على الأقل في "أثينا" يبدو أن الواحدات(=البطون) في "الاسكندرية" و "بطولميس" كانت تقوم بدورٍ في زواج أعضائها." (12)

و يقول "ابن عبد الحكم" المؤرخ القرشي المصري المشهور:

"كذلك روعي هذا التقسيم (القبلي) في مدينة "الفسطاط" التي اخطتها العرب إذ اتخذت كل قبيلة لنفسها خطة مستقلة عن القبائل الأخرى" (13)

و لم يكن الأمر قاصراً ـ أو مقصوراً كيلا يغضب حراس اللغة العربية "الفصحى" ـ على خطط "الفسطاط" بل و في تحديد الكور التي يرتبعون فيها كلما حل الربيع:

(كانت "هذيل" تأخذ في "بنا" و "بوصير"، و كانت "عدوان" تأخذ في "بوصير" ...إلخ) (14)

و نفس الأمر عند:

"الاصطفاف للقتال" (15)

و غني عن الذكر أن المصريين أعلوا شأن رابطة الأرض على رابطة الدم، منذ آمادٍ بعيدة. و في هذا الصدد يقول عالم المصريات الكبير "ريدفورد"، خلال حديثه عن الأسرة الثامنة عشرة، أي القرن الخامس عشر ق.ع.م.:

" و لما كان الجيش (المصري بطبيعة الحال) قد قام كتجريدة كبيرة، فلقد جرى تقسيمه إلى فرق تتألف كلٌ منها من نحو خمسة آلاف رجل، يُنظمون على أساس الاقليم الذي ينتمون إليه من أقاليم البلاد: "طيبة"، "أون" إلخ." (16)

تلك هي الحقيقة الأولى أما الحقيقة الثانية التي نستند إليها في إقامة دليلنا على الدونية النسبية للثقافتين أكرر الثقافتين، اليونانية و العربية على حد سواء، إزاء الثقافة المصرية التي عبَّرت عنها بشكلٍ رئيسي اللغة الديموتيكية أمام اليونانية و اللغة القبطية أمام العربية فهي "وضع المرأة".

يقول "ابراهيم نُصحي" نقلاً عن "بونشي ليكليرك"Bonché Leclerq

"لعل الفارق بين التشريعين المصري و الإغريقي يبدو لأول وهلة في تنظيم الأسرة، وذلك لأن الشواهد كثيرة على أن المرأة كانت تتمتع بمكانة اجتماعية و قدرٍ من الاستقلال لم تعترف بها الشرائع للمرأة الإغريقية. فعند الغربيين (القدماء بطبيعة الحال) لم يعترف القانون إلاَّ بالطفل الذي كان قبل كل شئ ابن أو ابنة الأب الشرعي. على حين أن القانون المصري كان يُعلِّق أعظم الأهمية في مسائل البنوة الشرعية و الوراثة على الأم التي أنجبت الطفل. ويذهب "ديودور الصقلي" إلى

حد القول بأن الزوج كان يعد في عقود الزواج المصرية بإطاعة زوجته. و يتفق كلٌ من "هيرودوت" و "سوفوكل" على أن الرجال في مصر كانوا يقومون ببعض الأعمال في البيت مثل النسيج فيما تخرج النساء لتكسب قوت الأسرة. و يشير "رفيللو" إلى أن الزوج كان ينزل لزوجته عن أملاكه و يقول: "أنت التي تعنين بي في حياتي وإذا مت فأنت التي ستتولين أمر دفني ومقبرتي." وفضلاً عن ذلك كانت المصرية لا تتزوج إلاَّ بمحض اختيارها و لا تستمر فيه إلاَّ بمحض إرادتها. و تشير القرائن إلى أنه عندما ساوى البطالمة بين المرأة المصرية و الإغريقية من حيث اعتبارها قاصراً، أدخلوا على القانون المصري الأحكام الإغريقية الخاصة ببيان الأوصياء على المرأة و كانوا أقرب أقاربها من الرجال، و أحق الناس بالولاية عليها. و إذا لم يكن للمرأة وصي ممن ينص عليهم القانون أو وصية أبيها كانت تلجأ للمحاكم كي تعيِّن لها وصياً". (17)

أي أن المساواة التي أدخلها اليونانيون-البطالمة بين المرأة اليونانية و المصرية هبطت في عبارة أخرى بمنزلة المرأة المصرية، على الصعيد القانوني، إلى مستوى المرأة اليونانية.

أما عن وضع المرأة عند العرب، فالأمر كان و لا يزال شديد السطوع. و يكفي أن نُعيد إلى الأذهان أن النسق القبلي-العشائري، عند هؤلاء الأقوام كان قد تخلى وقت ذاك تماماً عن حق الأم و انتقل إلى حق الأب، بفضل و الأدق بسبب سيادة الملكية الخاصة على العامة، وبشكلٍ أشد تسارعاً في ظل مردود عملٍ شحيح و غير منتظم: "رزق" تدره وسيلة الرعي، بعد انعكاسها باتجاه السماء، الأمر الذي جعل الغزو و الإغارة وسيلة كسب عيش و أخشى أن أقول وسيلة كسب العيش بينهم.

و يقفز إلى الذهن ذلك الحديث النبوي و الأولى المنسوب للنبي الكريم:

"نحن قوم لا نزرع و لا نصنع و إنما نعيش على الغنائم التي نغنمها من الكفار". (18)

و ليس يعنيني في كثير أو قليل ما إذا كان هذا الحديث موضوعاً أو صحيحاً، متفقٌ أو مختلفٌ عليه، قوي العنعنة أو ضعيفها، فهو في نهاية المطاف، و في سائر الأحوال تعبير عن عقل العرب الذين يلزم لاستمرارهم قيد الحياة، و الحال هكذا، وجود "كفار" بأعدادٍ معقولة في متناول أيديهم والأولى في متناول سيوفهم. كما يستلزم هذا الاستمرار قيد الحياة أن يبذلوا جهوداً موفقة في سبيل الحفاظ على "كفر" هؤلاء الكفار إذا ما ملكوهم بحد السيف. فلو حدث و آمن فجأة هؤلاء جميعاً لمات أولئك من الجوع. لكن هذا الوضع الاقتصادي-الاجتماعي هو الذي جعل الشريعة المحمدية

تقضي بأن "للذكر مثل حظ الأنثيين" عند التوريث. و يبدو أن عقاباً حتمياً كان لينبع من هذه الأرض التي يقف عليها هذان المجتمعان، أحدهما واثق من أن تلك هي طبيعة الأمور، و الآخر مطمئنٌ إلى أن هذه هي قوانين السماء، من جراء نبذهما للمرأة و إنزالها تلك المنزلة الدنيا على ذلك النحو: انتشار اللواط و ازدهاره إلى ظاهرة اجتماعية بارزة عمت بلاد اليونان، حتى جنى قطوفها "زيوس" رب الأرباب نفسه. و يجدر بمن يشاء أن يرجع إلى أسطورة الفتى "جانيميد"Ganymede في هذا الصدد، و هو الاسم الذي أُشتق منه في اللغة اللاتينية الدارجة المُصطلح المعروف catamite. و انتشرت بين العرب حتى نعم بثمارها خلفاء مثل "الوليد بن يزيد" الذي قال عنه الإمام "الذهبي": "لم يصح عن الوليد كفر و لا زندقة بل اشتهر بالخمر واللواط". وحديثي منصبٌ هنا، بما لا مجال معه لأي لجج، على "اللواط" الذي يرجع لأسبابٍ اجتماعية و بالتحديد للفصل النابع من التراتب بين الجنسين.

و لعلنا نعرف جميعاً أن المجتمع المصري القديم الذي لم ينبذ المرأة و لم يُنزلها مثل تلك المنزلة جهل أو كاد أن يجهل هذه "المتعة" طوال تاريخه الذي يمتد آلاف السنين. و استمد دليلي هنا من الاستهجان الحاد الذي نظر خلاله المصري منذ عهودٍ موغلة في القدم و حتى اليوم، و على وجهٍ أخص منذ المحاكمة المشهورة التي وقف فيها "حوريس" و عمه "سيت" أمام القضاة-الآلهة برئاسة "رع" في أسطورة "إيزيس" و "اوزيريس".

حقيقتان متناقضتان أو تبدوان كذلك، كما سبق و أسلفنا في ضوء التطور الرأسي الاتجاه الذي نتحفظ عليه. فلقد ارتقى المصريون خلال الحقيقة الأولى إلى مرحلة أعلى، أي غادروا حق الأم، لكنهم لم يسيروا بحق الأب الذي انتقلوا إليه إلى ذروته الكئيبة ، و لو أنه كان يواصل صعوده في خطٍ موازي(=موازٍ) على وجه التقريب مع تقدم الملكية الخاصة على الملكية العامة. و لعلنا نلاحظ أن هذا الحق في شكله الأكثر حدة أصبح و يُصبح في زمننا الحالي، بمثابة نتوء على مجرى التاريخ الإنساني. إذ استمر المصريون أمويين(نسبة للأم) مثلما استمروا شمسيين في وجه الأعاصير الوافدة من غرب آسيا للقمر-الأب.

هوامش و مراجع:

(1) تُعد "الأرواحية" Animism بمثابة الديانة العالمية الوحيدة، أي تلك التي آمن بها البشر أجمعين، على وجه التقريب. و لكن نظراً لأن الظاهرة الدينية كانت لا تزال وقت ذاك في بداياتها الأولى، فلم تعرف لها إلاهاً بعينه و لا أوامر و لا نواهي و لا رسلاً و لا أنبياء و لا كهنة من أي نوع. و نعرف أن "البيروني" ترجم لفظ الجلالة العربي "الله" إلى اللغة السنسيكريتية لغة الهنود القديمة على هذا النحو: Avyakta، و هو الاسم الذي ظهر على العملة التي سكها السلطان "محمود الغزنوي" في العبارة التي تقول: "باسم الله ضُرب" في مطلع القرن الحادي عشر من العصر المعروف. راجع في هذا الصدد: "الدورية الفصلية "ثقافة الهند" المجلد رقم 43 العدد 3 لسنة 1992. و لقد بذل البربر محاولة مستميتة بعد دخولهم رحاب الديانة المحمدية، نحو الاحتفاظ باسم "الإلاه الواحد" في لغتهم البربرية أو "الأمازيغية" و الأولى في العودة إليه. و نعرف من المؤرخ المشهور "البكري" أن طائفة "البرجواتية" Berghawata حاولوا أن يُحلوا في صلواتهم اسم "ياكوش" أي "المعطي" بلغتهم "الأمازيغية" محل الاسم العربي للالاه الواحد الأحد: "الله". راجع في هذا الصدد:

"Les Berberes memoire et identité".par Gabriel Camps,Editions Errance,Paris, 1987 ,p.188

و بناء عليه فإذا تجاسر أحد المصريين-المصريين و ترجم البسملة: "باسم الله الرحمان الرحيم" من اللغة العربية إلى اللغة المصرية على هذا النحو: {*باسم "أمون" الرؤوف الحنون*}، فهل يحق لأحد، أياً كان، أن ينتقص من إيمانه لهذا السبب على وجه التحديد؟

(2) خطط "المقريزي" الجزء الأول ص.127

(3) توراة. قضاة. إصحاح 4آية رقم 23

(4)قرءان.

(5) Modern Sons of the Pharaohs رقم الصفحة مفقود.

(6) "التاريخ العربي القديم" ترجمة: "فؤاد حسنين علي" ص 211

(7) قاموس "المنجد" طبعة 1981 .

(8) "تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي". جيمس هنري بريستيد. رقم الصفحة مفقود.

(9) "هجرات". فلندرز بتري. و نقلاً من جانبي عن "شخصية مصر" د.جمال حمدان.

(10) "أبحاث". شانتر. و نقلاً من جانبي عن "شخصية مصر". د.جمال حمدان.

(11) "البيان و الإعراب" رقم الصفحة مفقود. و يجدر بنا أن ننقل هنا عن "كلير أوسيان" و "كارولين سمبسون" أن أبناء القبيلة العربية التي وطنت في مقابر النبلاء في "الجرنة" قبال الأقصر، و أصبحوا يُعرفون بـ "الجرناوية" لا يزالون يُفاخرون العالمين حتى اليوم بأنهم ليسوا مصريين. و في كل مرة يشير أي شخص إلى

أصلهم، كانوا يؤكدون أنهم "بدو". و تنقل "سمبسون" على وجه الخصوص عن "جوزيف بوبوني" الذي عاش هناك لمدة طويلة، في عشرينات القرن الثامن عشر، أن أبناء هذه القبيلة أبلغوه أنهم ينحدرون من أربعة أخوة، كانوا قد نزلوا "الجرنة" قبل خمسمائة سنة. و كانت "الجرنة" وقت نزولهم مأهولة بالأقباط/ المسيحيين EEF.30.Jan.2001 و معنى القول أن هؤلاء البدو كانوا قد بدأوا "يتمصَّرون"، رغماً عنهم. و كانت أول خطوة في هذا السبيل هو نسيان اسمهم الأصلي، حيث لم يعدوا يذكرون منه سوى ذكرى غائمة: "بدو". أما الخطوة الثانية فتتمثل في بدء الانتساب إلى محل إقامتهم "الجرنة" أي إلى الأرض عوضاً عن "العرق/ الدم".

(12) "مصر في عصر البطالمة" ج 4 د. إبراهيم نُصحي. ص 16، و نقلاً من جانبه عن "وولف"

Wolff,p.39 و Wilcken,Grund,18.,Erdman,Ehe im alt.Griechenland,Münch,Beit.Papyrusfor.,1939,pp.131,262,ff.

(13) "ابن عبد الحكم" ص 90

(14) المرجع السابق ص 99

(15) المرجع السابق ص 85

(16) Akhnaten,the heretic King, Donald Redford,Princeton University Press.p.22

(17) نُصحي. مرجع سابق ص 5

(18) ورد هذا الحديث النبوي في منشور كان الطلاب الإسلاميون يوزعونه في أواخر سبعينات القرن الماضي (العشرين) في جامعات مصر، و ضاع ضمن ما ضاع مني في غارة مفاجئة لـ "زوار الفجر" مع الخيوط الأولى ليوم 21 يناير/ طوبة سنة 1985. و على أي حال لا يكاد المرء يعد و لا يحصي الأدب المتوفر عن تلك العصور، الذي يصب في نفس الاتجاه:

منه ما ورد عند "ابن عبد الحكم": "...فقال القوم: لو سألنا رسول الله(صلعم) عن الأدم الجُعد؟ فأفاق(من سكرة الموت) فسألوه فقال: قبط مصر، فإنهم أخوال و أصهار، و هم أعوانكم على عدوكم و أعوانكم على دينكم. فقالوا: كيف يكونون أعواننا على ديننا يا رسول الله؟ قال: يكفونكم أعمال الدنيا و تتفرغون أنتم للعبادة."

"فتح مصر و أخبارها" تقديم و تحقيق محمد صبيح. دار التعاون. ص 14

و منه الحديث المنسوب للرسول الكريم: "جعل رزقي تحت سن رمحي" ...إلخ.

الفصل الرابع

مصر رهن الهزيمة

بدأت مصر تدفع الجزية للأجانب بشكلٍ منتظم في أعقاب الهزيمة المريرة التي نزلت بها أمام جحافل الفرس تحت إمرة الفاتح الأسيوي "كمبيز ابن كورش" في سنة 525 ق.ع.م. و ليس المجال مجال البحث في أسباب هذه الهزيمة أو تقصي المدى الذي بلغته وقت ذاك شوكة التحالف بين العسكروت و الكهنوت أو احتقار المصريين للسلك الأول أو نفوذ الجنود المرتزقة، و خصوصاً من اليونانيين و العبرانيين، أو العون الوافر الذي قدمته القبائل العربية من أهل "قدري" Qidri تحت إمرة ملكهم للغزاة الفرس، فيما نعرف من كتاب العالم الذائع الصيت John Van Seters/المعنون Abraham in History and Tradition، ولا القياس الخاطئ للأفيال الأفريقية على الأفيال الأسيوية، مما سيشكّل موضوعاً خصباً لسنيائيين جديرين بصفتهم كمصريين، لا أشك لحظة في أن مصر سوف تنجبهم في المستقبل، مهما بدا ذلك مستحيلاً الآن. ولكن يكفي أن نشير إلى أن جدودنا قاوموا الغزاة الأسيويين، فيما يروي المؤرخ والرحال(=الرحالة) "هيرودوت" بقيادة الفرعون الليبي الأصل و السيئ الطالع "بسماتيك" الثالث (عنخ-كا-ان-رع) مقاومة باسلة. و لكن الفرس تمكّنوا بعد الخدمات التي قدّمها "الساميون" على الطريق و انضمام القائد اليوناني للمرتزقة إليهم من أسر الفرعون المقاتل، ثم من عليه "كمبيز" (=قمبيز) بإطلاق سراحه. ولكن الفرعون الشامخ الأنف استأنف تنظيم المقاومة المصرية ضد الغزاة الأسيويين. غير أن نهايته لا تزال غامضة، ما بين رواية تذهب إلى أنه انتحر.[1] و ثانية إلى أن الفرس قبضوا عليه مرة أخرى و صلبوه. و ثالثة تقول أن "كمبيز" أرسله إلى "سوسا" كي يعيش تحت رحمة الفرس.[2]

في سائر الأحوال قدّر الفرس على مصر جزية تبلغ ـ وفقاً لـ"هيرودوت ـ ألف تالنتtalent من الفضة و التالنت يساوي 56 رطلاً. و يُضيف "هيرودوت" أن الفرس كانوا يستنزفون من معادنها،علاوة على هذه الجزية مثل هذا المقدار. و منذ ذلك الحين أي منذ القرن السادس عشر ق.ع.م.، استمر المصريون يدفعون الجزية و الأدق استمرت مصر تدفع الجزية للأجانب حتى

وقـتٍ حـرت طـويلاً و يئـست أخـيراً مـن تحديـد نهايتـه، فالعلاقـات الاقتـصادية بـين "الكاهرا"(=القاهرة) و "واشنطون" و وكالاتهـا المتخصـصة، عـلى سبيل المثـال، تُـسفر في نهايـة التحليل، خلال اللاتكافؤ المفروض، عن نقل فائض قيمة من مصر إلى زعيمـة الاسـتعمار الجديـد: الولايات المتحدة، لا أملك إلاَّ تقديره بأضعاف مضاعفة لما كانت مصر تدفعـه عـلى سـبيل الجزيـة للأجانب خلال العصو-وسيطية و العصور القديمة عـلى حـدٍ سـواء، و خـصوصاً إذا وضـعنا في حسابنا نشاط الولايات المتحدة في التدمير العمدي لهياكل الانتاج المصرية المنافسة(الزراعة والقطن و القمح بالذات، نموذجاً)[3]

و لكن الفـرس لم يـأتوا إلى مـصر بديانـة جديـدة، و بتحديـدٍ أكثـر بديانـة معاديـة لـديانات المصريين. و لم يرموا هذه الديانات بالوثنية. و لم يُحاولوا إزاحة آلهـتهم القوميـة بـإلاه قـومي جبـار يصبو إلى العالمية. و في نهاية المطاف لم يفرضوا لغة و ثقافة أجنبية على أهل الـبلاد الأصـليين. و لـو أنهم "*أفسحوا بطبيعة الحال مجالاً لكتاباتهم المسمارية في تدوين أوامرهم إلى جانب الكتابة المـصرية، بـل و اسـتعملوا في ذلـك في بعـض الأحيـان اللغـة الآراميـة مـستعينين بأتبـاعهم مـن الـساميين وخصوصاً العبرانيين*".[4]

و يستطرد "جاردنر" الذي نقلت عن كتابه*Egypt of the Pharaohs* الفقرة السابقة يقول:

"*و مثلما كان عليه الحال من قبل أخـذ الـسكان الأصـليون يواصـلون أداء شـؤونهم الخاصـة بلغتهم مستخدمين في هذا المجال ذلك النوع الرقعة أو المتصل و بكلمة أفصح "المـشبك" cursive إلى حدٍ كبير من الكتابة، و هذا ما أصبح يُعرف عند اليونـانيين باسـم "الديموتيكيـة" بـل و سـمَّى بعض الفرس المقيمين في مصر أبناءهم بأسماء مـصرية. و اتجهـوا بـصلواتهم إلى أربـاب المـصريين. وأكمل ملوكهم بعـض المعابـد التـي بـدأها الفراعنـة الـصاويون و لا سـيما في الـدلتا و الواحـات الخارجة.*"[5]

تغير خطير:

لكن التغيُّر الخطير حقاً بدأ مع وصول اليونانيين من جنوب أوروبا ثم العرب من غرب آسيا. و بادئ ذي بدء نود أن نسوق هاتين الملاحظتين:

الأولى: كـان المـصريون يـدفعون الجزيـة أي ضريبـة الـرأس بـصفة أساسـية، تلـك التـي سمَّاها(=أسماها) اليونانيون Synataxis للاسكندرية خلال حكم البطالمة الذين حكموا مصر مـن

عاصمتهم هذه في داخل مصر. أما مصر فهي التي كانت تدفع الجزية لعواصم أجنبية يتخذ فيها حكامٌ أجانب أي العرب مقارهم خارج مصر، من "يثرب" (=أثرب) إلى "الكوفة" إلى "دمشق" إلى "بغداد".

الثانية: على غرار الفرس لم يأتِ اليونانيون إلى مصر بديانة تحقر ديانات المصريين وتصمها بالوثنية، و ذلك على النقيض مما صنع العرب.

أكان لهذين الأمرين صلة باتسام الحكم في عهد اليونانيين-البطالمة بقدر محدود و غير مستمر من التسامح و اللين و في عهد الأخيرين بقدرٍ عظيم و شبه دائم من القسوة والبطش؟

على أي حال تكاد قرارات العفو التي أصدرها الحكام البطالمة ـ سيراً على نهج الفراعنة ـ عن الثوار المصريين الذين لم يكفوا عن تنظيم الانتفاضة تلو الانتفاضة أن تساوي عمليات الإبادة الجماعية التي شنها الخلفاء العرب-المسلمون سواء بأيديهم أو بأيدي ولاتهم وقوادهم العسكريين ضد الثوار الأقباط أي المصريين، و هي انتفاضات و ثوراتٍ متتالية، نظَّمها ثوارٌ لم ينالوا سوى اللعن و التكفير على أيدي الكهنة خلال عصر البطالمة-اليونانيين أو أيدي القساوسة على عهد العرب-المسلمين، و بتعبيرنا الأثير: على أيدي "المتعلمين المصريين" زمان ذاك. و إن لم يمنع الأمر بطبيعة الحال، أن يتصدَّر بعض الكهنة أيام البطالمة (صانع الفخار نموذجاً) أو نفر من القساوسة أيام العرب (يؤنس السمنودي نموذجاً) لمقاومة الحكام الأجانب. و نقرأ في قرار الكهنة "المصريين" الذي أصدروه عقب استيلاء الجنود اليونانيين في صيف 197 ق.ع.م. خلال حكم "بطليموس أبيفان" على "لوكوبوليس" أي "أسيوط" الثائرة ضد العسف و الجور ما يُثقل القلب و يورث الهم: "*قتل الملك (=البطليموس) كل الكفار الذين وجدهم فيها على نحو ما فعل قديماً هرمز/ حورس إبن "إيزيس" و أوزيريس" مع الثوار في المكان نفسه*"!

و يُعلق صاحب كتاب "مصر في عصر البطالمة" الذي أنقل عنه هنا، على الأمر بقوله "*على أنه و إن استكان بعض الكهنة و الأهالي للبطالمة فإن غالبية الأهالي العظمى كانت تعلل الأمل بطرد الطغاة الأجانب و إقامة فرعون قومي على نحو ما يبدو لنا من "نبوءة صانع الفخار*".[6]

و على نحوٍ مماثل يقف القساوسة المسيحيون أي "المتعلمون المصريون" وقت ذاك من ثورة المصريين-البشموريين في شمال شرق الدلتا الذين رفضوا الرضوخ لعسف "متولي الخراج" ـ بتعبير أدب ذلك الزمن ـ و نظموا ثورة استمرت عدة أجيال متتالية دون أن يخمد أوارها من أواخر

الحكم الأموي حتى عهد الخليفة العباسي العاشر "عبد الله المأمون" رضي الله عنه و أرضاه، الذي فرض عليهم الإبادة هذه المرة، بعد أن فشل في ذلك قواده. و ها هو "ساويرس ابن المقفع" يروي الفصل الأخير في كتابه أو الكتاب المنسوب إليه، على هذا النحو:

"تفضَّل أبوانا البطركان "ديونوسيوس" بطرك "أنطاكية" و البابا "يوساب" الثاني وسارا إلى البشموريين، و سألاهم و نصحاهم و وَبخاهم ليتخلّوا عن أفعالهم فلم يُجيبوا و لا قبلوا سؤالهما فعادا و أعلما "المأمون" بذلك. فأمر "المأمون" حينئذٍ الأمير بأن يسير إليهم بعسكره و أن يقاتل البشموريين، فلم يقدر عليهم لتحصُّن مواضعهم بالمياه، بل كانوا يقتلون من عساكر "الإفشين" كل يومٍ جماعة، فلما اتصل الخبر بـ"المأمون" سار بجيش إلى هناك. و أمر أن يحشدوا جميع من يعرف طرق البشموريين من أهل المدن و القرى المجاورة لهم، و من كل الأماكن الذين يعرفون طرق تلك الأماكن، و كانت العساكر تتبعهم إلى أن سلَّموا لهم البشموريين فهلكوهم و قتلوهم بالسيف بغير إهمال، و نهبوا و أخربوا مساكنهم وأحرقوها بالنار و هدموا بَيَعهم."

و يضيف نيافته:

"تم عليهم قول "داوود" النبي في "المزمور" رقم 77: "أسلم قوتهم للسبي و ما لهم لأعدائهم و أسلم شعبه للسيف و لم يُشفق على ميراثه." و لما نظر "المأمون" كثرة القتلى أمر العسكر أن ترفع السيف، و الذي بقي منهم أي من البشموريين أسره إلى مدينة "بغداد" من الرجال و النساء."(7)

و غني عن البيان أن هذه الثورات كانت تحمل طابعاً قومياً بارزاً، و في ظل هذا الطابع حملت طابعاً طبقياً. فالسمة الرئيسية للصراع التاريخي في هذا المنطقة، و على العكس، مما يردده "المراكسة الحفَّاظ"، كانت قومية و ليست طبقية. و ليس أدل على ذلك من انضمام يونانيين متمصرين إلى الأولى و عرب متمصرين إلى الثانية. فالمحرك الأول، و لا شك، كان عسف الحكام الأجانب وثقل الجزيتين، جزية الرأس، و جزية الأرض (=الخراج) فضلاً عن كافة أعمال السخرة و السلب والنهب و كذلك السبي، التي نظمها، كل منهما ضد المحكومين من أهل البلاد الأصليين من المصريين و المتمصرين على حدٍ سواء.

موقف ابراهيمي:

سرعان ما انتشرت المسيحية أي الشعبة الثانية من الديانة الابراهيمية، وفق اقتراحنا، في مصر، عن طريق اللغة اليونانية. و كان طبيعياً أنْ تقف هذه الشعبة، نفس الموقف الابراهيمي التقليدي، ضد الديانات المصرية القومية بدعوى أنها "وثنية". و لا تزال المعابد المصرية التي حوَّلها المسيحيون الورعون إلى كنائس تقف شاهداً يوازي تلك الشواهد الأخرى على تحويل الكنائس إلى جوامع على أيدي الأتقياء من أتباع الشعبة الثالثة أعني المحمدية. و دع عنك عمليات التشويه والتخريب و الحرق و القشط بالأزاميل التي قام بها المسيحيون "المصريون" ضد تراث جدودهم أي تراثهم، تلك العمليات التي طالت المقابر و الجداريات و التماثيل و الرموز و الصور. و يكفي في هذا الصدد أن نُلقي نظرة عابرة على مقبرتيْ "ميروركا" و "كاجمني" في منطقة "سقارة".

و لقد أوعز في رواية، و بارك في رواية أخرى، البابا "كيرلس" الكبير أو "كيرلس" الأول، الملقب بـ "عامود الدين" قتل الفيلسوف المصري الموهوب "هايباتيا" التي كانت تعتز بـ/ و تدافع عما سمّاه(=أسماه) المسيحيون وقت ذاك بـ "الوثنية الاسكندرانية". فلقد قام الغوغاء الأتقياء بسحب الفيلسوف من عربتها-الحنطور، إلى داخل الكنيسة القيصرية الكبرى و فسَّخوا جسدها إرباً. و كان ذلك خلال "الصوم الكبير" في ربيع 415 م.ع.م.[8]

و لننصت إلى رواية مؤرخ "مصري" - بقوسين عريضين بهدف التحفظ - يدين بالديانة المسيحية هو الأسقف "يوحنا النقيوسي":

"و في هذه الأيام ظهرت امرأة وثنية فيلسوفة بمدينة الاسكندرية اسمها "أنباديا"(=هايباتيا) تخصصت في عمل السحر و الأسطرلوبات و أدوات اللهو في كل وقت. و غررت بكثير من الناس بتمويه الشيطان. و كان حاكم المدينة يُكبرها لأنها خدعته بسحرها. و كان لا يكف عن الذهاب إلى الكنيسة كعادته، بل و كان في العمل العصيب يصل إليها مرة...ثم قامت جماعة من المؤمنين بالرب مع الوالي بطرس، و كان هذا مؤمناً تماماً لكل ما ليسوع المسيح، و ذهبوا للبحث عن هذه المرأة الوثنية التي تُضلل أهل المدينة بأسحارها. و حين عرفوا المكان الذي كانت به ساروا إليها فوجدوها تجلس على كرسي، فأنزلوها من الكرسي و سحبوها حتى أوصلوها إلى الكنيسة العظيمة التي تُسمى "قيسارية". و كان ذلك في أيام الصوم، و نزعوا ملابسها، و سحبوها إلى شوارع المدينة حتى ماتت."[9]

لكن هذا البابا لم ينجو(=ينج) هو نفسه من وصف المسيحيين الغربيين له، في خضم صراعه مع "نسطور" أسقف "القسطنطينية" الذي حاول إسقاط القداسة عن "مريم العذراء" بـ "الفرعون العنيد"[10] نتيجة لإصراره أي إصرار "كيرلس" الأول بابا الاسكندرية على الطبيعة الواحدة من طبيعتين غير ممتزجتين كالحديد و النار أي "المونوفيزية" Monophysite لا الطبيعتين المنفصلتين له أي "البوليفيزية"Polyphysite، و هو الصراع الذي انتهى إلى وضع "دستور الإيمان" الذي صاغ له "كيرلس" الأول، هذا، مقدمته التي تبدأ على هذا النحو:

"نعظمك يا أم النور الحقيقي، و نمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الإلاه...الخ" .

و دع عنك مرة أخرى ما أقدم عليه الولاة في حقبة الاحتلال العربي لمصر من تحويل الأهرامات و المعابد و سائر آثار "الفراعنة" الخالدي الاسم العاطري الذكرى، الطيبي القلب والموصومين في نفس الوقت على امتداد التقاليد السامية بـ "الطغيان"، إلى محاجر ينتزعون منها ما يلزمهم في بناء قصورهم و جوامعهم و شتى مبانيهم.

حرق مكتبة الاسكندرية :

نستطيع أن نقارن الأفعال التي ارتكبها المسيحيون المصريون ضد تراث جدودهم أي ضد تراثهم، بالأعمال التي أقدم عليها العرب المسلمون بدءاً من حرق مكتبة الاسكندرية على أيدي الغازي ـ و لمن يشاء الفاتح ـ الأسيوي "عمرو بن العاص" و الأولى "إبن النابغة" رضي الله عنه وأرضاه، سيراً على نهج اخوانه في حرق سجع الكهان بالحجاز و حرق أقرانه، و خصوصاً الصحابي الجليل "سعد بن أبي وقاص" رضي الله عنه {*لمكتبة "المدائن" التي ضمت علوم الفرس*}[11]

و يقول الرحَّال(=الرحالة) "عبد اللطيف البغدادي" الكردي الأصل، خريج مدرسة "النظَّام" في عاصمة الخلافة العباسية "بغداد" و "الأزهر" بـ "الكاهرا"(=القاهرة) الذي زار مصر في القرن العاشر:

"ورأيت أيضاً عامود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة، بعضها صحيح و بعضها مكسور. و يظهر من حالها أنها كانت مسقوفة و الأعمدة تحمل السقف و عامود السواري عليه قبة هو حاملها، و أرى الرواق الذي كان يدرس فيه أرسطوطاليس و شيعته من بعده، في دار العلم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته، و فيها خزانة الكتب التي حرقها "عمرو ابن العاص" بإذن عمر رضي الله عنه."[12]

لغة الغزاة-الحكام:

لكن أخطر ما فعله هؤلاء و أولئك هو محاولة فرض لغتهم على السكان المحليين أي المصريين. و كان "المتعلمون" في الحقبتين هم أسرع بني وطنهم في نبذ دين آبائهم و التخلي عن لغتهم و اعتناق الدين الجديد و تبني اللغة الوافدة، لغة الغزاة-الحكام. و ذلك لأسبابٍ هزيلة وباقتناعٍ أشد هزالاً. و تقول د. "سيدة اسماعيل كاشف":

"و لا ريب في أن انتشار اللغة العربية في مصر ميزة للعرب على غيرهم من الفاتحين، فإن الشعوب المختلفة التي توالت على مصر قبل العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين. و هذه ظاهرة تستحق امعان النظر لأن تنازل شعبٍ عريقٍ في المدنية كالشعب المصري عن لغته و اتخاذه لغة شعبٍ لا يوازيه في الحضارة أمر غير عادي. و بينما نجد "الفردوسي" في إيران ينظم ملحمة "الشاهنامة" بالإيرانية الحديثة في القرن الرابع الهجري نجد رجال الدين الأقباط في مصر يكتبون باللغة العربية و يخاطبون أبناء دينهم باللغة العربية بعد أن أصبحت لغة التخاطب فيما بينهم."(13)

و إذا ما تجاوزنا الخرافة الشائعة بين "المتعلمين المصريين" - ضمن منظومة الخراريف العديدة و المتعددة التي ترصف عقولهم رصف أحجار البازلت للشوارع - بأن اللغة العربية أصبحت لغة التخاطب في مصر، فلعل د. "كاشف" تقصد هنا، و على وجه الخصوص أسقف "الأشمونين" الذي سبقت الإشارة إليه، و كتب كتابه أو الكتاب المنسوب إليه: "*تاريخ البطاركة*" باللغة العربية خلال القرن العاشر م.ع.م. أو القرن الرابع الهجري أي نفس القرن الذي كتب فيه "الفردوسي" ملحمته بلغة جدوده.

و قد تكون هذه سمة خاصة - على ما يبدو لنا - بـ "المتعلمين المصريين"، دون سواهم من متعلمين في مشارق الأرض و مغاربها. فلو رجعنا بذاكرتنا إلى الوراء قليلاً إلى العصر الموازي في رأينا للعصر العربي، و هو العصر اليوناني، الذي امتد على المستوى الثقافي حتى شمل العصر الروماني - مع احترامنا لكافة الفروق و الافتراقات بين العرب و اليونانيين - فلسوف نجد أن:

"كل الدلائل تشير إلى أنه كانت هناك مخطوطاتٌ كثيرة باللغة اليونانية في العصور الأولى لتغلغل هذه اللغة، في كل الميادين الروحية و الطقسية داخل الكنيسة و خارجها وكانت هي لغة التخاطب بين المثقفين والرهبان. و نعلم أنها كانت لغة الرهبان في أديرة ظاهر الاسكندرية و "أنبا مقار" كان يتكلم اليونانية مع زائريه. و قصة الحوار الذي سجّله لنا الأنبا "إشعياء" و هو يتحدّث إلى رهبان الاسكندرية معروفة."(14)

و إذا ما عرفنا أن "مانيتو" السمنودي كبير كهنة "هليوبوليس"، و كان تبعاً لـذلك في طليعـة أساتذة معهدها العلمي قد وضع تاريخه الذي سجَّل فيه أسماء الفراعنة مـن عهـد "مينـا" إلى عهـد الغزو - أو الفتح كيلا يغضب أنصاف المصريين من أسيويي الهوى - الأشوري حوالي 343 ق.ع.م. باللغة اليونانية، فإننا نكون أمام ظاهرة تكاد أن تكون خاصة بـ "المتعلمين المصريين". و يتأكـد لنـا ذلك إذا ما صادفنا في العصر الحديث، و على سبيل المثال لا الحصر أستاذ التـاريخ القـديم بجامعـة "الاسكندرية" يقول في خاتمة كتابه الذي تتبع فيه بجهدٍ محمود و صبرٍ مشكور حركات التحرير في مصر القديمة بدءاً من تلـك التـي قادهـا الفراعنـة العظـام حتـى فـتح - كـي لا نكيـل بمكيـالين - الاسكندر المقدوني لمصر:

"و بقيت مصر كذلك - أي مزرعة لأوروبا - حتى جاء "عمرو بن العاص" يحمل معه هدايـة الإسلام و نور الإيمان فآمنت مصر بربها الواحد الأحد، و اعتنقـت الإسـلام ديانتهـا الخالـدة و إلى الأبد إن شاء الله و نطقت باللغة العربية لغة القرءان."(15)

و هذه أقوال، كما يستطيع تلميذ بالمرحلة الابتدائي - لو كان في مصر تعلـيم أصـلاً - أن يلْمـس بنفسه، غير دقيقة و تنطوي على لغة إذاعية سجالية ركيكة و بائسة. و أجدني مـضطراً إلى أن أسـوق ما يلي تعليقاً على الفقرة ملتزماً الاختصار الشديد:

(أ) مصر لم تبقي (تبق لمن يُحب) مزرعة لأوروبا و فقط. فتلك الـ "مصر" كانت أيضاً مكتفية بذاتها من المحاصيل اللازمة لغذاء الإنسان و الحيوان و الطيور مـن قمـح وذرة(=أذرة) و رز(=أرز) و عدس و برسيم إلخ أما القطن الذي كان يُعطـي مـصر أكـبر حـصة مـن هـذا الخـام الرفيـع المستوي في السوق العالمي و يـشكل مـصدرها الأول مـن العمـلات الأجنبيـة فكـان أساسـاً لصناعة منسوجات كانت الأرقى على نطاق العـالم، و كـذلك صـناعات عديـدة كـالزيوت و الكسب، و قد نجح خديوي مـصر العظـيم "إسـماعيل باشـا"، بطريقـة أو أخـرى، في ضـمان احتكار مصر للسكر الذي يُنتجه المصريون من محصول القصب، في الإمبراطورية العثمانيـة... إلخ.

(ب) عبارة "جاء "عمرو" تعبير عارٍ من الصحة إلى حد كان ليحول بين صـاحبه واسـتخدامه. فـ "عمرو" رضي الله عنه لم يجئ إلى مصر، بل "غزاها"، مثلما فعـل كـل الـذين سبقوه و الـذين لحقوه من غزاة لأرض "إيزيس". و لم يكن هدفه، و من معه من "عربـان" أن يهـدي "مـصر"

إلى الديانة المحمدية(=الإسلام) و لسوف نقف بتفصيل أكبر أمام هذه النقطة في الفصل التالي من هذا الكتاب.

(ج) تعبير "فآمنت مصر" ركيك أي عاجز عن توصيل معنى محدد، فـ "مصر" و الأصح "كيمي" لم تؤمن، و لا تستطيع ذلك فالأرض لا تفعل، و إنما الذي "يؤمن" هو الناس، أي "المصريون" ـ و القوسان هنا بهدف التحفظ ـ فالذي آمن هو جزء من المصريين، قل الغالبية، ولكن استمر بعضهم على ديانتهم، و لو أنها أجنبية هي الأخرى. و من المفارقات التي تدعو للتأمل أن الذي حال دون إيمان كل "المصريين" بالديانة الأجنبية الجديدة، و هو الأمر الذي كان ليقيم إدعاء هذا السيد "المتعلم المصري" على قدمين صلبين، لم يكن أي شخصٍ آخر سوى الولاة العرب "المسلمين" الذين كتبوا إلى أسيادهم في عواصم الخلافة بأن "الإسلام يضر بالجزية"! و لسوف نعرض لذلك مرة أخري في الفصل القادم من هذا الكتاب.

(د) مقولة "العربية لغة القرءان" التي يجترها "المتعلمون المصريون" باستمرار، و بينهم هذا السيد، تنطوي على تزييف بالحذف لا يتورعون عن ارتكابه في كل فرصة تسنح أمامهم و ذلك تمهيداً لتشييد ادعاءٍ غير صحيح بشأن قداستها. فالعربية ليست "لغة القرءان" و فقط بل و أيضاً لغة "الشعر الجاهلي و سجع الكهان و شعر "والبة بن الحباب" و مقامات بديع الدين الهمذاني الخ."

و على الجانب الآخر يكتب أستاذ كبير في مجلة "المقتطف" تحت عنوان "اللغة القبطية نشأتها وتطورها":

(...لذلك لا نعجب أن نرى بعد ذلك شعب مصر يرحب (هكذا!) بقدوم "الإسكندر" وبرسم كهنة "سيوة" له إبناً لكبير آلهتهم "أمون"، و منحه سائر الألقاب الفرعونية الخمسة. و تُوفي "الإسكندر" و ورثه البطالمة، و أخذت الصلة بين مصر و اليونان تقوى حتى صارت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية و قد بقيت كذلك حتى دخول(هكذا!) العرب مصر... وكلما يتقدم بنا

العهد نحو المسيحية تتثبت في مصر فتنهزم أمامها الوثنية. و يضطر الإمبراطور "قسطنطين" إلى الاعتراف بها ديناً رسمياً له و للدولة حوالي 325م.ع.م. و حوَّل خلفه بعض المعابد المصرية القديمة إلى كنائس. كما أغلق الباقي منها. ثم جاء الإمبراطور "جوستنيان" فأرسل قائده "نرسيس" إلى جزيرة "فيلة" حيث قضى على البقية الباقية من عبادة "إيزيس" و "أوزيريس") (16)

تُرى متى يتحوَّل "المتعلمون المصريون" عن التنفس بخياشيم أجنبية كي يتنفسوا، مثلما يفعل سائر البشر، برأتيهِم؟

هوامش و مراجع:

(1) "هيرودوت". III-15

(2) نقلاً من جانبي عن "دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم"ـ "حركات التحرير في مصر القديمة"د.محمد بيومي مهران. 1976ص 35. و نقلاً من جانبه عن R.Gahirshman.op.cit.p.137,

(3) "*كانت علاقة مصر بالخلافة قد انتهت رسمياً من سنة 1914 بإعلان الحماية البريطانية على مصر. لكن جهاز الدولة الإداري ظل يدفع بالعادة و النسيان مستحقات الجزية العثمانية من سنة 1915 حتى سنة 1955 بدون حق أو بدون أساس. و خلال هذه الفترة دفعت مصر بالذهب مبلغاً مقداره 23.174,984جنيها*" {د. "عبده أنور" الأهرام 17 فبراير/ أمشير 1997}

(4) Egypt of the Pharaohs.Sir Allan Gardiner,p.369-370

(5)"الشرق الأدنى القديم" الجزء الأول.د.عبد العزيز صالح ص 313.

(6) "مصر في عصر البطالمة"، إبراهيم نُصحي. ص223

(7) "تاريخ البطاركة" ساويرس ابن المقفع. الجزء الأول. ص.270/ 271.

(8) Henry Wace&William Piercy.Dictionary of Christian Biography.

(8) "قصة الكنيسة المصرية". الكتاب الأول. إيريس حبيب المصري. ص.437.

(9) "تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي". تترجيم د.ع.ص. عبد الجليل.دار عين. الطبعة الأولى.1991.

و قد كتبت د.ن.السعداوي في جريدة "الأهرام" يوم2برمهات/ مارس 1997تحت عنوان: "الثقة بالنفس و الصراع الحضاري" تقول:

"إحدى المجلات الفلسفية العالمية اليوم تحمل اسم امرأة مصرية أصدرت عدداً من المؤلفات الفكرية الهامة اسمها الفيلسوفة "هيباتيا" كانت تعيش بمدينة الاسكندرية ضمن القيادات الفكرية بها، حين دخلها الأجانب فحرقوا كتبها و قتلوها عام 415 ...إلخ"

و لست أدري أي غزاة أجانب تقصدهم الكاتبة. و لكنني أستطيع أن أخمّن أنها نسبت مقتل "هايباتيا" لـ "غزاة أجانب"، عوضاً عن "مسيحيين مصريين أتقياء"، أي عكس الحقيقة المعروفة لكثيرين في عالمنا المتحضر سعياً، دون شك، وراء غاية تعتقد سيادتها أنها نبيلة!

(10) "قصة الكنيسة المصرية". الكتاب الأول. مرجع سابق ص.437.

(11) يقول "ابن خلدون":

"فالعلوم كثيرة و الحكماء في أمم النوع الإنساني متعددون و ما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل فأين علوم الفرس التي أمر "عمر" رضي الله عنه بمحوها عند الفتح و أين علوم الكلدانيين و السريانيين

وأهل بابل و ما ظهر عليهم من آثارها و نتائجها و أين علوم القبط و من قبلهم" (المقدمة) ص.32. الكتاب الأول طبعة المطبعة الأزهرية 1930.

و يعود "ابن خلدون" كي يُسلِّط مزيداً من الضوء على الأمر في الفصل الثالث عشر من نفس الكتاب على هذا النحو:

" و لما فُتحت أرض فارس وجدوا(أي العرب) فيها كتباً كثيرة. فكتب "سعد بن أبي وقاص" إلى عمر ابن الخطاب ليستأذنه في شأنها و تلقينها للمسلمين. فكتب إليه "عمر" أن اطرحوها في الماء، فإن يكن فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه، و إن يكن ضلالاً فقد كفانا الله. فطرحوها في الماء أو في النار، و ذهبت علوم الفرس فيها دون أن تصل إلى أيدينا." ص 402.

(12) "الإفادة و الاعتبار في الأمور المشاهدة و الحوادث المعاينة بأرض مصر". عبد اللطيف البغدادي.ص.28.

و يقول "المقريزي" في خططه الجزء الأول تحت عنوان: "ذكر عامود السواري":

"...إن هذا العامود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق أرسطاطاليس الذي كان يُدِّرس به الحكمة و أنه كان دار علم و له خزانة كتب أحرقها "عمرو بن العاص" بإشارة "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه." ص.159.

و "يؤثر عن "ابن الخطاب" رضي الله عنه "أن بلغه أنه ظهر بين أيدي الناس كُتب فاستنكرها و كرهها و قال: قد بلغني أن ظهرت في أيديكم كُتُب فأحبها عند الله أعدلها و أقومها فلا يُبقينَّ أحد كتاباً إلاَّ أتاني به فأرى فيه رأياً. فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها و يقوِّمها على أمرٍ لا يكون فيه اختلاف فأتوه بكتبهم فأحرقها بالنار." "مصادر الشعر الجاهلي" ناصر الدين الأسدي.ص.168/ 169.

(13) "مصر في عصر الولاة".د.سيدة اسماعيل كاشف.ص.104.

(14) "الرهبنة القبطية" الأب متى المسكين. ص 562.

(15) "دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم: حركات التحرير في مصر القديمة" م.مهران بيومي. ص 402.

(16) مجلة "المقتطف" العدد 104برمهات/ مارس 1946ص229/ 231.

الفصل الخامس

متعلمون مصريون

يُخطئ من يظُن أننا ندين "المتعلمين المصريين" بشتى أطيافهم و في سائر مراحل تاريخنا القديم(بعد غروب عصور الفراعنة) و الوسيط و الحديث و المعاصر، بصفتهم متعلمين ومصريين. إذ أن هذه الإدانة تنصب من جانبنا على رؤوسهم لفقدانهم لهاتين الصفتين على وجه التحديد، مهما ادعوا غير ذلك و أوغلوا في ادعائهم فحملوا الشهادات و الألقاب الأكاديمية و الجوائز المحلية والعالمية. و لما لم يكن الوجود الفيزيقي للبشر، محل أي لوم من جانبي في أي لحظة من اللحظات، فإن المقصود هو إدانة مافي رؤوسهم أي "تعليمهم وإعلامهم" بصفة رئيسية. و إليكم ما يرضعونه منذ الصف الخامس الابتدائي من التعليم الأساسي، الذي يُعد أخطر مرحلة تعليمية على وجه الإطلاق. و أنقل ما أنقله هنا عن كتاب "وطني مصر" الذي أَلَّفته كوكبة من كبار "المتعلمين المصريين" تحت عنوانٍ فرعي هو "أسباب فتح العرب مصر":

"كانت رسالة الإسلام رسالة عالمية و ليست قاصرة فقط على العرب في شبه الجزيرة العربية حيث قال الله تعالى للنبي محمد عليه السلام (و ما أرسلناك إلاَّ رحمة للعالمين) آية رقم 107 سورة الأنبياء... و لذلك حرص المسلمون على تبليغ الدعوة الإسلامية بعد وفاة الرسول إلى البلاد التي لم يصلها الإسلام و لم تعرف عنه شيئاً.

إن استيلاء العرب على مصر كان أمراً ضرورياً بعد أن نجح العرب في فتح الشام لأن وجود جيوش الروم في مصر كان يسمح لهم بأن يشنوا هجوماً على الشام براً و بحراً لطرد العرب منها.

و كان العرب يعرفون عن مصر خصوبة و وفرة خيراتها و ثرواتها و أن الاستيلاء على مصر يفتح الباب أمام نشر الدعوة الإسلامية في شمال أفريقيا و وصولها إلى مناطق جديدة."(1)

هذا هو جوهر ما يتعلَّمه و يُعلِّمه لبعضهم البعض الآخر "المتعلمون المصريون" في سائر مراحل تعليمهم و يهنِّؤون و يبوِّسون بعضهم البعض كلما تسلَّموه كاملاً من الأجيال السابقة أو نقلوه غير منقوصٍ إلى أجيالٍ لاحقة. و لا نغالي إذا قلنا بل و يُشكل ملخصاً موجزاً لأطنان

الرسائل الجامعية التي يتقدم بها طلبة الماجستير و الدكتوراة في أقسام التاريخ المتخصصة في جامعاتهم بدءاً من "الكاهرا" (=القاهرة) و انتهاء بالأزهر مروراً بالجامعات الإقليمية. و رغم الغموض الكثيف الذي يمكن أن ينقلب إلى وضوح ساطع، إذا اهتدينا له إلى مفتاح صغير، ذاك الذي يكتنف الجملة الأخيرة بشأن الصلة بين خصوبة الأرض و وفرة الخيرات في بقعة ما و بين الحماس لنشر دعوة دينية سامية في هذه البقعة بالذات دون سواها، فإن السؤال الذي يُطل علينا برأسه هو:

هل "جاء" العرب إلى مصر كي ينشروا دعوة دينية حنيفة تخاطب العالمين أم "جاؤوا" أيضاً لنفس الغرض الذي "جاء" من أجله قبلهم الفرس و الأشوريون و الرومان و "جاء" من أجله بعدهم الأتراك العثمانيون بقيادة السلطان الخليفة سليم الأول رضي الله عنه سنة 1517م.ع.م. وكان لا يجهل دون شك وقت ذاك أن مصر "مفتوحة" منذ أواسط القرن السابع من العصر المعروف، و تسير وفق الشريعة المحمدية ربما قبل أن يدخل جدوده هو شخصياً من بني عثمان الديانة المحمدية بقرنين على الأقل من الزمن. و "جاء" من أجله أي ذلك الغرض سائر المستعمرين القدماء و الجدد على حد سواء؟ و بتحديد أكثر هل "جاء" العرب كي يفرضوا الجزية على المصريين كهدفٍ رئيسي لهم، أم كان هدفهم نشر الدعوة المحمدية الجديدة؟

و اشتقاقاً من هذا السؤال: هل سعد أي خليفة من خلفاء الرسول سعادة غامرة انتفضت لها جوانحه في عاصمته أياً كانت عندما شرع المصريون/ الأقباط يدخلون في "دين الله أفواجاً"؟ و هل نشط "العرفاء" في رصد الذين يتخلون عن ديانتهم المسيحية إلى الديانة الجديدة ورفعوا رصوداتهم، تحت رايات السعادة و وسط "أمارات" السرور، إلى أسيادهم في عواصم الخلافة، فاستقبل هؤلاء الأسياد ذلك الاندفاع إلى ديانتهم وسط آيات الابتهاج وآلاء الانشراح؟

و انطلاقاً من ذات نفس السؤال: كيف نُفسِّر تلك السدود العالية التي أقامها السادة الخلفاء و ولاتهم أمام الذين ينوون دخول رحاب الديانة الجديدة التي جاءت "رحمة للعالمين" أو دخلوها فعلاً من المصريين/ الأقباط مرة بحجب صفة "مسلمين عنهم والاكتفاء بمنح صفة "أسلميين" لمن يعتنقون منهم دين محمد عليه الصلاة و السلام، و مرة بالامتناع عن تحويل "أرض الخراج" إلى "أرض عشور"، رغم دخول أصحابها الديانة الذي حملها أصحابها إلى مصر من غرب آسيا، و مرة أخرى بإضفاء لفظ الأشراف على العرب أو بعض العرب الغزاة و خلع لفظ "الموالي" أي العبيد

على المصريين كل المصريين أي أصحاب البلاد الأصليين حتى الذين تركوا منهم ديانتهم إلى الديانة الجديدة؟

أسئلة نظن أنها على جانب من الأهمية غير منكور، لكنها لم تطرأ، و ما كان لها أن تفعل، على ذهن أي "متعلم مصري"، لا سراً و لا علناً أو على الأقل لم يُفصح عنها أو عن مثلها أي "متعلم مصري" سيان أبحر في العمق أو خوَّض في الضحل، و ذلك في نطاق علمنا بطبيعة الحال.

ويل للمغلوب:

يجدر بنا في هذا الصدد أن نُعيد إلى الأذهان كيف رأى رعاة الغنم و المعيز **"درة العالم القديم"** و في عبارة الأمين المصريين: "أم الدنيا". و في رأي النبي العبراني المتأخر زمناً **"إشعياء"**: "جنة الرب كأرض مصر "[2]

كتب أول الولاة العرب على مصر "عمرو بن العاص" و الأولى "ابن النابغة" **رضي الله عنه** إلى أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه و أرضاه:

*"إعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء و شجرة خضراء. طولها **شهر** و **عرضها** عشر. يكتنفها جبل أغبر و رمل أصفر. يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات. **تجري** فيه الزيادة و النقصان كجري الشمس و القمر. له أوان يدر حلاَّبه و يكثر فيه دبابه. **تمده عيون الأرض** و ينابيعها حتى إذا اصلخم عجاجه و تعاظمت أمواجه فاض على جانبيه. **فلم يكن** التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلاَّ في صغار المراكب و خفاف القوارب وزوارق كأنهن في **المخايل** وُرْق الأصائل. فإذا تكامل في زيادته نقص على عقبيه كأول ما بدا في جريته، و طما **في** درته. / فعند ذلك تخرج أهل أمة محقورة و ذمة مخفورة يحرثون بطون الأرض و يبذرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب. لغيرهم ما سعوا من كدهم فناله منهم بغير جدِّهم./ [3] فإذا أحدق الزرع و أشرق، سقاه الندى، و غذاه الثرى فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء...إذ هي عنبرة سوداء فإذا هي زمردة خضراء فإذا هي ديباجة رقشاء. فتبارك الله الخالق لما يشاء الذي يصلح هذه البلاد و ينميها ويقر قاطنيها فيها. ألاَّ يقبل قول خسيسها في رئيسها، و ألاَّ يستأدي خراج ثمرة إلاَّ في أوانها و أن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها و ترعها، فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال و الله تعالى يوفق في المبدأ و المآل."* [4]

غزو العرب لمصر:

يقول "ابن عبد الحكم" في كتابه المشهور:

"حدَّثنا أبو الأسود بن عبد الجبار قال حدثنا لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص دخل مصر بثلاثة آلاف و خمسمائة " رجل" . ثم قدم "الزبير بن العوام" في اثني عشر ألف و تلقاه عمرو ثم أقبلا يسيران ثم لم يلبث الزبير أن ركب و طاف بالخندق ثم زق الرجال حول الخندق."[5]

و لكن كم كان يبلغ عدد المصريين/ الأقباط وقت ذاك؟

يروي "ابن عبد الحكم":

"حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب أن المقوقس (والي الرومان الشرقيين على مصر) صالح "عمرو بن العاص" على أن يدفع الأقباط دينارين عن كل رجلٍ منهم.[6]

و يُضيف:

" و قال غير الليث:

و كان المقوقس قد جباها قبله بسنة واحدة عشرين ألف ألف (أي عشرين مليون دينار) ."[7]

و يوضِّح الأمر على هذا النحو:

"و أحصوا عدد القبط (أي المصريين وقت ذاك) خاصة من بلغ منهم الجزية و فرضوا عليهم الدينارين. رفع بذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة فكان جميع من أحصي من جميع القبط (=المصريين) فيما أحصوا و كتبوا و رفعوا أكثر من ستة ألف ألف نفس فكانت فريضتهم يومئذٍ إثنْي عشر ألف ألف في كل سنة."[8]

و إذا ما تذكرنا أن الذين استحقت عليهم الجزية أي ضريبة الرأس ليس بينهم *"امرأة ولا شيخ و لا صبي دون الخامسة عشرة"* فإن عدد المصريين يكون قد تراوح وقت ذاك حول 12 مليون نفس على الأقل، حتى مع وضعنا في الحسبان ذمم العرفاء، رغم "الأيمان المؤكدة" التي طلبها منهم رؤساؤهم، خصوصاً و أن "عبد الله بن سعد" رضي الله عنه الذي استعمله عثمان بن عفان رضي الله عنه، جمعها أربعة عشر ألف ألف دينار. و قال عثمان لعمرو:

"يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول." فقال "عمرو": "أضررتم بولدها."[9]

و لكن هل وقف هؤلاء البشر الذين يبلغون ـ دعنا نقول ـ عدة ملايين تحت قيادة "متعلميهم" موقف المتفرج أمام غزو بضعة آلاف قدموا من غرب آسيا لبلادهم؟

كلا و ألف كلا!

يستطرد "ابن عبد الحكم":

"و كان بالاسكندرية أسقف للقبط يقال له "أبو بنيامين" فلما بلغه قدوم "عمرو بن العاص" كتب إلى القبط/ المصريين يعلمهم ألاّ تكون للروم دولة و أن مُلْكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو. فقيل أن القبط الذين كانوا في "الفرما" (قرب برسعيد حالياً) كانوا يومئذٍ لعمرو أعواناً."(10) و يقول "يوحنا النقيوسي" في تاريخه "*وكل من وجدوهم (أي الأقباط) من جنود الروم كانوا يقتلونهم*" ص 200 من ترجمة د. "عمر عبد الجليل".

و كان من الطبيعي أن يمُن الغازي الأسيوي رضي الله عنه بإعفاء الرهبان، أي القادة الروحيين بصفة أساسية للأمة المصرية وقت ذاك أي طبقة و الأولى الشريحة العريضة من "الإنتيليجنسيا" ـ المفترضة ـ التي تحوزها مصر، و في عبارتنا الأثيرة "متعلميها" من الجزية. و لكن هذه المنَّة أو "المكْرُمة" لم تستمر طويلاً إذ قام الوالي "عبد العزيز بن مروان" (685-705 هـ) بإلغاء هذا الإعفاء و مد ظل الجزية كي يشمل الرهبان أيضاً "*بواقع دينارين عن كل راهب و زاد على ذلك بأن أمر ألاّ يترهب أحد بعدما أحصاه.*"(11)

عهد عمر:

يذكر "المقريزي" شيخ المؤرخين العرب أن "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه ما لبث أن كتب إلى واليه على مصر "عمرو بن العاص" و الأولى "ابن النابغة" رضي الله عنه:

"*إختم رقاب أهل الذمة بالرصاص (هكذا!) و ليظهروا مناطقهم و يجزوا نواصيهم ويركبوا عرضاً و لا تضرب الجزية إلا على من جرت عليه الموسى دون النساء و الولدان و لا تدعهم يتشبّهون بالمسلمين في ملبوسهم.*"(12)

و نقرأ في كتاب "نهاية الرتبة في طلب الحسبة":

"*و ينبغي أن يشترط عليهم ما شرطه "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه في كتاب الجزية الذي كتبه لأهل الذمة و يأخذون بلبس الغيار*(13) *فإن كان يهودياً وضع على كتفه خيطاً أحمر أو أصفر، وإن كان نصرانياً شد في وسطه زناراً*(14) *و علّق في عنقه صليباً و إن كانت امرأة لبست خفين*

أحدهما أبيض و الآخر أسود. و إذا عبر الذمي إلى الحمام ينبغي أن يكون في عنقه طوق من حديد أو نحاس أو رصاص ليتميَّز به عن غيره و يمنعهم "المحتسب" من ركوب الخيل و حمل السلاح و التقلد بالسيوف و إذا ركبوا البغال ركبوها بالأكف[15] *عرضاً من جانب واحد، و لا يرفعون بنيانهم عن بنيان المسلمين و لا يتصدرون في المجالس و لا يزاحمون المسلمين في الطرقات بل يُلجأون إلى أضيق الطرق، و لا يُبدأون بالسلام و لا يُرحَّب بهم في المجالس. و يشترط عليهم "المحتسب" ضيافة من مر بهم من المسلمين وإنزالهم في بيوتهم و كنائسهم، و يُمنعون من إظهار أعيادهم و رفع الصوت على موتاهم. فجميع ذلك شرطه عليهم "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه، فيراعى "المحتسب" أحوالهم في جميع ذلك و يُجبرهم عليه. و يأخذ منهم الجزية على قدر طبقاتهم، على الفقير المعيل ديناراً و على المتوسط ديناران و الغني أربعة دنانير عند رأس الحول. فإذا جاء "المحتسب" أو العامل لأخذ الجزية أقامه بين يديه ثم لطمه على صفحة عنقه*[16] *و يقول له: أد الجزية يا كافر." فيُخرج الذي في يده من جيبه مطبوقة على الجزية فيُعطيها له في ذلة و انكسار."*[17]

منزلة العبيد:

حقاً بدأ القبط أي المصريون وقت ذاك يدفعون الجزية بصلحٍ أُبرم بين "عمرو بن العاص" رضي الله عنه أي بين والي مصر العربي الجديد و بين واليها البيزنطي السابق المعروف عند المؤرخين العرب باسم "المقوقس". و لكن هذا الصلح روجع بعد ذلك بجيلين أو ثلاثة أجيال و حسب، كما سبق القول. و يقول "ابن عبد الحكم" في هذا الصدد:

"حدثنا أبو الأسود النقر بن عبد الجبار و عبد الله بن مسلمة قالا حدثنا ابن لهيعة عن عبد الملك بن جنادة كاتب حيان بن سريج من أهل مصر من موالي قريش قال: كتب حيان إلى "عمر بن عبد العزيز" الذي أشاع مؤرخون عرب في كتاباتهم عنه العدل حتى لقبوه بخامس الخلفاء الراشدين رضي الله عنه يسأل أن يجعل جزية موتى القبط/ المصريين على أحيائهم. فسأل "عمر" "عرَّاك بن مالك" فقال "عرَّاك":

"ما سمعت لهم بعهدٍ و لا عقدٍ و إنما أُخذوا عنوة بمنزلة العبيد فكتب "عمر" رضي الله عنه أن "إجعل جزية موتى القبط/ المصريين على أحيائهم."[18]

و إزاء قول "عمرو بن العاص" رضي الله عنه، وفقاً لما يُورده "القلقشندي" و غيره كثيرون:

"من كتمني كنزاً فقدرت عليه قتلته."[19]

و ما ذكره "ابن عبد الحكم" من أن عمراً قتل أحد أثرياء الصعيد و يُدعى "بطـرس"، فكـان ذلك كافياً كي يُخرج الأقباط أي المصريون كنوزهم خوفاً من القتل."[20]

فإن المرء يحار أمام هذا السؤال:

أكان هذا النهب الذي لا لبس فيه و لا مراء - و الخارج عن كـل قـانون و كـل شرع - يـدخل جيب "عمرو بن العاص" رضي الله عنه أم يدخل بيت المال؟

في سائر الأحوال أنزل الغزاة الأسيويون أهل البلاد الأصليين منزلة العبيد، سـواء دخلـوا في الديانة الجديدة أفواجاً أم ظلوا على ديانة آبائهم.

و يذكر "ابن عبد الحكم":

"*خرج أبو سلمة بن عبد الرحمن يريد الاسكندرية في سفينة فاحتاج إلى رجلٍ يقذف(=يُجـدف) به فسخَّر لذلك رجلاً من القبط. فكُلِّم في ذلك فقال: إنما هم بمنزلة العبيد إن احتاجنا لهم.*"! [21]

و غني عن البيان أن الغزاة العـرب صـاروا أو صـيَّروا أنفسهم "أشرافـاً" [22] لا يُزوِّجـون بناتهم لأهل البلاد الأصليين حتى و لـو أسـلموا و انحـدروا مـن آبـاء و جـدودٍ مـسلمين حـسني الإسلام. و بذلك يكون جلياً بما لا يحتاج للجج، أن الديانة الجديدة ديانة عربية محض. و بناء عليـه فجوهر الصراع هنا قومي و ليس طبقياً. و عند ذلك انهمك الأقباط/ المصريون الـذين دخلوهـا في إثبات عروبتهم كذباً وزوراً، فالإسلام لـيس الفيـصل بـل العروبـة. و دفعـوا في ذلـك الرشـاوي للقضاة الشرعيين فيما وعاه لنا تاريخ العصور الوسيطة [23]، و فضلاً عن كل ذلك يستطيع المرء أن يتأمل طويلاً مراسلات الخلفاء مع ولاتهم العرب.

و اغــوثاه:

كتب "عمر" إلى "عمرو" رضي الله عنهما:

"*إلى العاص بن العاص. فإنك لعمري لا تبالي إن سمنت أنت و من معك، و أن أعجـف أنـا ومن قَبلي.فياغوثاه ثم يا غوثاه. فرد عليه عمرو:"أما بعد فيالبيك ثم يا لبيك أتتك عير أولها عنـدك و آخرها عندي مع أني أرجو أن أجد السبيل إلى أن أحمل إليك في البحر ثم أن عمرو ندم على كتابـه في الحمل إلى "المدينة" في البحـر و قـال: "إن أمكنـت الخليفـة مـن هـذا خـرب مـصر و نقلهـا إلى "المدينة" فكتب إليه:" إني نظرت في أمر البحر فـإذا بـه عـسر لا يُلتـام و لا يُستطاع. فكتـب إليـه الخليفة:عمر" رضي الله عنه: "إلى العاص بن العاص. فلقد بلغني كتابك تعتل في الذي كنت كتبت*

إنّي به من أمر البحر. و أيم الله لتفعلن أو لأقلعنَّك بإذنك أو لأ بعثن من يفعل ذلك. فعرف عمرو أنه الجد من "عمر بن الخطاب" ففعل. فبعث إليه "عمر" أن لا تدع بمصر شيئاً من طعامها و كسوتها و بصلها و عدسها و خلّها إلاّ بعثت إلينا منه."[24]

بقرة حلوب:

يقول "ابن عبد الحكم" عقب فتح الاسكندرية للمرة الثانية على أيدي "عمرو بن العاص" خلال خلافة "عثمان بن عفان" رضي الله عنهما:

"فلما هزم الله الروم أراد عثمان بن عفان عمرواً (=عمراً) أن يكون على الحرب وعبدالله ابن سعد على الخراج فقال "عمرو":

{"أنا إذا كماسك البقرة بقرنيها و آخر يحلبها. فأبى "عمرو."}[25]

أكان غريباً، و الحال هكذا، أن يدخل المصريون في الديانة الجديدة "أفواجاً" دون طمع، حاشا، في وضع هذه الأعباء عن كاهلهم؟

يضيف "ابن عبد الحكم":

"و حدثنا عبد الملك بن مسلمة حدَّثنا ابن وهب عن محمد بن عبد العزيز عن ابن جريج: "أن رجلاً أسلم على عهد عمر فقال: "ضعوا الجزية عن أرضي" فقال عمر: "لا إن أرضك فُتحت عنوة."[26]

و في عبارة أخرى، لم يعُد الإسلام هو الفارق، كما يقضي بذلك ظاهر النصوص المقدسة ذاتها، سواء بالنسبة للجزية على الرؤوس أو الجزية على الأرض المسماة بـ "الخراج"، خصوصاً و أن اعتناق الديانة الجديدة، كان يُهدد بانقاص موارد الخزانة الأموية و العباسية ثم العثمانية. و لذلك حق على المصريين، مهما أسلموا، أن يستمروا في دفع الجزية عن رؤوسهم أحياناً و أحياناً أخرى عن أرضهم التي تظل "كافرة" رغم إسلامهم."[27] حسب تعبير المفكر التونسي المشهور "العفيف الأخضر" في أحد أعداد مجلته المعروفة باسم "المجالس" التي كان يُصدرها في العاصمة الفرنسية.

غزوة الطائف:

قد يكون من الظلم لأنفسنا أن نطوي هذا الفصل دون أن نضع هذا السؤال:

"هل نهض العرب و بالتحديد أهل "المدينة المنورة" (=يثرب/ أثرب)، و الأدق بُناة الدولة/ الجنين إلى فتح "الطائف" على بعد مسيرة نصف نهار على القدم، في قلب الحجاز، لا مصر، كي ينشروا الدعوة المحمدية و فقط أو حتى بصفة رئيسية؟

يروي الإمام "الأصفهاني":

"و من حديثه أي حديث الذي سار فيه هذا المثل: "أخنث من هيت" أنه دخل يوماً دار "أم سلمة (=إحدى زوجات الرسول الكريم) و رسول الله صلى الله عليه و سلّم عندها، فأقبل على أخ "أم سلمة" عبد الله بن أبي آمنة فقال:

"إن فتح الله عليكم "الطائف" فسل أن تُنفَّل (=تُعطى) "بادية بنت غيلان بن سلمة الثقفية"، فإنها مبتلة هيفاء، شموع نجلاء تناصف وجها في القسامة، و تجزّأ في الوسامة فإن قامت تبنّت، وإن قعدت تثنّت، و إن تكلّمت تغنّت، أعلاها قضيب و أسفلها كثيب، إذا أقبلت أقبلت بأربع و إذا أدبرت أدبرت بثمانٍ، مع ثغر كالأقحوان، و شيء بين فخذيها كالقعب المكفأ كما قال "قيس بن الخطيم":

تغترق الطرف و هي لاهية،

كأنما شف وجهها نُزُفُ،

بين شكول خلقتها قصدٌ

فلا جبِّلة و لا قُضُفُ!

فسمع رسول الله صلى الله عليه و سلّم فقال: مالك سباك الله. ما كنت أحسب أنك من ذوي الأربة من الرجال. فلذا كنت لا أحجبك عن نسائي ثم أمر أن يُسيَّر به إلى "خاخ" (موضع بين الحرمين) ففُعل.

فدخل في أثر ذلك بعض الصحابة على الرسول صلى الله عليه و سلّم. فقال: أتأذن لي يا رسول الله أن أتبعه فأضرب عنقه. فقال الرسول: لا . إنا أُمرنا ألا نقتل المصلين."(28)

ذلك هو المشهد الذي وصفته في فاتحة الحديث بإشاعة الصمت و بث الروع، إذ ينتهي إلى هزيمة الزرَّاع أمام الرعاة، هزيمة لم تنزل بالزراع إلى منزلة العبيد و السبايا و حسب، بل وإلى حضيض الحضيض أي إلى حد احتقار جدودهم أي أنفسهم، و بالتالي فقدان الثقة في ذواتهم. هزيمة داخلية علاوة على الهزيمة الخارجية. هزيمة تغلغلت حتى النخاع، و بطبيعة الحال نخاع "المتعلمين المصريين"، بصفة أساسية.

و لكن؟

هوامش و مراجع:

(1) "وطني مصر" تأليف مجموعة من "التربويين المصريين" ص 217

(2) "العهد القديم" سفر "إشعياء" الإصحاح الرابع آية رقم 30

(3) يحرص الكتاب المدرسي في مصر على حذف هذه الفقرة من هذه الرسالة، دون تفسير لذلك.

(4) "النجوم الزاهرة في أخبار مصر و القاهرة". تأليف: ابن تغري بردي (جزء1)ص 32 / 33.

(5) "تاريخ مصر و أخبارها". ابن عبد الحكم. ص 47.

(6) المرجع السابق عن كل رجلٍ منه ص 55.

(7) المرجع السابق المقوقس قبله ص 110

و جاء في كتاب "الحياة الاجتماعية في مصر القديمة" تأليف سير "فلندرز بتري". تترجيم "حسن محمد جوهر" و "عبد المنعم عبد الحليم". الهيئة المصرية. 1975: "و في القرن الثامن الميلادي بلغ عدد السكان حوالي عشرة ملايين نسمة وفقاً لقوائم ضريبة الرؤوس(يقصد المترجمان: الجزية)

(8) ابن عبد الحكم و أحصوا عدد القبط ص 55

(9) إبن عبد الحكم مرجع السابق ص 111

(10) ابن عبد الحكم مرجع سابق ص 49

(11) "صبح الأعشى". "القلقشندي". 1355-1418ق.ع.م. رقم الصفحة مفقود.

(12) خطط المقريزي جـ 1 ص 76.

(13) "الغيار" هو "الملبوس الذي يتميَّز به أهل الذمة عن المسلمين في العصور الوسيطة" حسب خطط المقريزي الجزء الأول ص 135 حاشية رقم 4.

(14)"الزنار" هو حزام يشده المسيحي في وسطه تمييزاً له عن المسلم." حسب كتاب "الخراج". "أبويوسف" ص 117.

(15) جمع "أكف" و هو بردعة الحمار. القاموس المحيط.

(16) وضع الخديو العظيم إسماعيل باشا الجزية عن كاهل المصريين المسيحيين في سنة 1865. و لكن صداها استمر، على وجه الترجيح، في الخزي الرهيب الذي ينفرد المصري، بصرف النظر عن ديانته، باستشعاره، دون سائر أبناء القوميات الأخرى في المنطقة، في "لمس" قفاه، و هو ما يحمل في طياته أصداء صفع "المحتسب" لجدوده على قفاهم. و لا يزال المصريون المعاصرون، من كافة الديانات والمذاهب يقولون "ضرب القفا نص قتلة"، و هو القول الذي يجري على الألسنة جري الأمثال.

(17)"نهاية الرتبة في طلب الحسبة" تأليف: "عبد الرحمن بن نصر الشيرازي". و قام على نشره "الباز العريني". لجنة التأليف و الترجمة و النشر. القاهرة. 1946ص 106.

(18) "ابن عبد الحكم مرجع سابق ص 67

(19) "صبح الأعشى". مرجع سابق. رقم الصفحة مفقود.

(20) ابن عبد الحكم مرجع سابق ص 65

(21) "المرجع السابق" ص67.

(22) يستطيع من يريد أن يرجع إلى الحجج التي استندت إليها المحكمة الشرعية في أوائل القرن العشرين في الحكم الذي أصدرته ببطلان زواج الشيخ "على يوسف" رئيس تحرير جريدة "المؤيد" من ابنة الشيخ "السادات" نقيب الأشراف وقت ذاك.

و يروي السيِّد."أ.عبد المعطي حجازي" في كتابه "عروبة مصر" قصة قبيلة من الفيوم دفعت رشوة "محترمة" للقاضي الشرعي في مصر، فـ "شرَّفها" بالانتساب إلى العرب، و بالتالي سقطت عن أبنائها أعباء الانتساب للمصريين، و تحولَّت أراضيهم من أرض خراج إلى أرض عشور. و لكن قبيلة منافسة رفعت الأمر إلى قاضي القضاة في عاصمة الخلافة "بغداد" فخلع عنهم عروبتهم المزيفة.

و نقرأ في جريدة "اللواء الإسلامي" يوم 23كياك/ ديسمبر 1993 البيان الذي أصدره "رفعت أحمد المحفوظي" من "دار السلام"-سوهاج:

" هذا بيان مني للسادة الأشراف الذين عرفوني قبل افتتاح (و الأدق إعادة افتتاح) نقابة الأشراف وبعدها عضواً بلجنة البحث و تحقيق الأنساب... و أسلوبي في العمل على منهج الله و رسوله، أعلن لهم انسحابي ومن معي من لجنة البحث نظراً للتجاوزات التي تجري في عمل اللجنة و منها:

**وجود باحثين غير منسبين، متخصصين و لا دراية لهم بالأنساب.*

**تسجيل أنساب غير صحيحة بالنقابة.*

**استخراج بطاقات عضوية بالنقابة لغير أشراف"*

(23) يحكي د. "محمد كامل حسين" في كتابه "عروبة مصر الإسلامية"، دار الفكر العربي. ص 20 ما يُسمى بقضية "أهل الحرس" التي شغلت الرأي العام زمناً طويلاً (185-194هـ) و أهل الحرس هم جماعة من القبط المصريين الذين أسلموا، و رغبوا في أن يتساووا مع العرب في جميع الأوضاع الاجتماعية، فكتبوا لأنفسهم نسباً يعود إلى "حوتك" إحدى القبائل العربية. فثارت عنصرية عرب مصر و رفضوا أن ينتسب غير عربي إليهم... و تحرَّش العرب بهؤلاء القوم و آذوهم فجمع أهل الحرس من بينهم نقوداً دفعوها للقاضي العمري ليُثبت لهم نسباً عربياً. و أتوا ببعض أعراب الجوف الشرقي ليشهدوا بنسبتهم إلى بنى "حوتكة" من "قضاعة"، و قبل القاضي العمري شهادة عرب الشام(و سجَّل لهم نسباً بذلك فثار عرب مصر و قام الشعراء يهجون القاضي و أهل الحرس، فيقول أحدهم و يُدعى "يحيى الخولاني":

و من أعجب الأشياء أن عصابة من القبط فينا أصبحوا قد تعرَّبوا

و قالوا أبونا حوتك، و أبـوهــم   من القبـط علجٌ حبله يتذبـذب.

... و يقول آخر و هو "معلى بن المعلى الطائي":

إن كنت قد ألحقتهم   عرباً فزوِّجهم بناتك!!!

(24) المرجع السابق ص 113

(25) المرجع السابق ص 121

(26) المرجع السابق ص. 107

(27) "المجالس". عفيف الأخضر. العدد مفقود في غارة لـ "زوار الفجر".

(28) "الدرر الفاخرة في الأمثال السائرة". الإمام "حمزة ابن الحسن الأصفهاني" المتوفي نحو 351هـ ص 182 طبعة دار المعارف.

الفصل السادس

مصــر الأميــة

أكان للزراعة أن تنهزم أمام الرعي؟ أو هل كـان للحـضارة، في عبارة أخرى أن تنـدحر أمـام البداوة؟

أخذت الديانة الأمونية ترث الأتونية شيئاً فشيئاً عقب الانقلاب الذي قـام بـه الملـك المـشهور "أمين-حوتب" الرابع أو "أخناتون" في وقتٍ لاحـق، ذاك الـذي وصـفه عـالم المـصريات الكبـير "جيمس هنري بريـستيد" بأنـه "أول شخـصية متفـردة في التـاريخ" The first individual in history[1] و بمعنى آخر: أخذ "أمون" أو "أمـون-رع" يكتـسب صـفات "أتـون"[2] و بالتـالي يستبعد على وجه التحديد سائر الآلهة الأخرى عبر عملية غاية في الخصوصية دون أن تنغلق بطبيعة الحال أمام الصفة العمومية. فلقد بدأ يتسَّيدهم في المجمع الإلهي المصري (التاسوع) عقب خروجـه من "ثامون" الأشمونين، كي يغدو إلاه الدولة الطيبية، ثم يترأسهم في الثالوث الطيبي("أمـون"ـــ "موت"ـ "خونسو") و يُدمجهم في ذاته ويحولهم إلى أبناء و بنات و زوجاتٍ له، على نحو مـشابه لمـا فعله "إيل" في المجمع الالهي الـسامي، و لـو أن الأمـر لم يغـادر عنـد المـصريين مرحلـة "أول بـين أنـداد(=متـساوين) primus inter paris، و في جملـة واحـدة كـاد "أمـون" الـذي يعنـي اسـمه "الباطن" أن يغدو الإلاه الواحد، رب المصريين و رب العالمين، على نحو ما دعا "أخنـاتون" لإلهـه "أتون". و لم يكن هناك شذوذ في الأمر، فلعلنـا نعـرف في العـصر الحـديث كيـف أن الكاثوليكيـة غدت شكلاً من أشكال البروتستانتينية بعد عدة أجيال و حسب من مقاومتها لحركة البروتـستانت في أوروبا الحديثة. و مرادنا لا يعدو أن كهنة "أمون" أخذوا يحققون لأنفسهم الانفـراد في الـساحة الدينية أي في الساحة الدنيوية-الزمنية معكوسة. و لقد واصلوا زحفهم نحـو هـدفهم في الـسيطرة حتى ارتقى عرش مصر، و هو عرش دنيوي، الكاهن الأعلى لـ "أمـون"، الـذي لم يكـن مـن بـاب الصدف وحدها أن كان أيضاً "جنرالاً" و هو "حريحور" حـوالي سـنة1100ق.ع.م. و منـذ ذلـك الحين بدأت تنبت ملامح المشهد الذي مر وصـفه ببـث الـروع و إشـاعة الـصمت. فلقـد بـدا أن

المصريين و الأدق "المتعلمين المصريين" تحديداً قد أصبحوا عاجزين عن التطور. و دون أن نقع في أسر المقولة المبتذلة بأن الأجدد دائماً أفضل و أجدر وأروع، فإن الذين يعجزون عن التطور لا ينهزمون و حسب، بل و يسلِّمون أقدامهم، دون وعي أو بصر لبداية الطريق الذي ينتهي بهم إلى الاندثار. و هذا هو الخطر الذي يهدد العرب المعاصرين و من يرضون لأنفسهم أن يصيروا عرباً. ما لم يشرعوا في نبذ عروبتهم أي بداوتهم على غرار ما ينبذ أشقاؤهم-أشقاؤهم العبرانيون عبرانيتهم أي بداوتهم الموازية على بعد رمية حجر منهم، و في عبارة أخرى ما لم يتخلوا عن جلودهم التي ضاقت عليهم حتى لا يفقدوا عمودهم الفقري و نسغهم و في عبارة أشد وضوحاً، ما لم يتخلوا عن شكلٍ معين لوجودهم حتى لا يفقدوا وجودهم ذاته. و هذا درس بسيط، و إن كان بليغاً، يستطيعون أن يتعلَّموه حتى من بعض الزواحف و كل الأشجار.

فرض الثبات:

يحار علماء المصريات طويلاً أمام حقيقة أن المصريين القدماء توصلوا إلى نحو 24علامة هجائية سمَّاها (=أسماها) العالم الانجليزي العظيم "جاردنر": أبجدية[3]، تشير كلٍ منها إلى صوت منفرد متميِّز، كانت لتكفل لهم أن يكتبوا لغتهم بصورة أبجدية خالصة، و أعاروها لليونانيين، كما هو معروف، و الأمازيغ، حسب "محمد شفيق" عبر الفينيقيين، (راجع: النحو الأمازيغي ص16 Grammaire du Tamazight) كما أعاروها للعبرانيين و أشقائهم-أشقائهم العرب، و غيرهم من شعوب الشرق الأوسط القديم، كي يكتبوا بها لغاتهم، بصفة جزئية على الأقل. ويجمل بنا أن ندعو القارئ إلى عقد مقارنة بين حرف "الشين" العربي-النبطي الأصل على سبيل المثال لا الحصر بأسنانه الثلاثة، و كذلك العبري بأسنانه الثلاثة، هي الأخرى:رسم الحرف "الشين" العبري بأسنانه الثلاث، من جانب و الـ "شاي" القبطي ϣ و جدهم جميعاً "الشين" و الأدق الـ "شا" الهيروغليفي ( ) الذي رمز له المصريون القدماء بـ "بركة أنبتت ثلاث زهور من زهور اللوتس (=البشنين)، و مع ذلك ظل المصريون يحافظون أيضاً على كتابة لغتهم لما يزيد على أربعة آلاف سنة بالقلم الهيروغليفي، الذي احتاج إلى جهدٍ شاق و وقتٍ مديد لتخريج نساخيه و الأولى رساميه[4] حيث بلغت علاماته نحو 700 (سبعمائة) علامة مختلفة. و هذه كتابة "*غير منطقية تماماً من الناحية العملية*" في رأي "مارينا سكريا ين" رئيس قسم الأبحاث بالمركز القومي للبحوث العالمية في فرنسا.[5]

و بذلك يكون المتعلمون المصريون القدماء قد كشفوا و منذ وقتٍ مبكر من فجر البشرية عن آفة مرزولة تلازم المتعلمين ـ على ما يبدو ـ في كل زمن و مكان: أن يسقطوا أسرى لما تعلموه، وسواء خاضوا في بحوره أو طافوا و حسب بشطآنه، فإنهم لا يُصبحون سوى أعداء أشاوس له، عندما يرفضون بإصرار متخشِّب كل ما يخالف أو يختلف عما تلقَّنوه من قريبٍ أو بعيد. و أذكر أنني عانيت طويلاً في سبيل طرح وجهة نظر جديدة لطالبة كانت تحضِّر رسالتها لنيل درجة الدكتوراة في إحدى كليات الآثار في مصر بأن الهيروغليفية والديموتيكية خطوط و مراحل في نفس الوقت في تطور لسان المصريين(6) و كاد الأمر يصل معها إلى حد الانخراط في البكاء و هي تردد و الأولى "تجتر" بصوتٍ عالي(=عالٍ) ما لقَّنوها إياه: الهيروغليفية و الهيراتيكية و الديموتيكية و القبطية خطوط. خطوط.خطوط. و لم أشأ لحظتها أن أواصل معها الحديث في هذه النقطة و أقول أن "الهيراتيكية" تنفرد في هذا المجال بأنها خط لا غير، لأن عمرها من عمر "الهيروغليفية".(7)

و يطوف بالذهن ما إذا كان متعلمو العصور الوسيطة الذي لقنهم معلموهم أن "الأرض مسطحة" استناداً إلى الكتاب المقدس الذي لا يأتيه الباطل، و سائر كتبهم الدراسية شبه المقدسة، التي لا يحوم حولها الخطأ، يتخانفون و يُصعِّرون أصداغهم و يعوجون مشيتهم أيضاً، مثلما يفعل متعلمونا في الوقت الحاضر باعتبارهم ملاكاً للصواب المطلق أي المعصوم؟

على أن السبب الرئيسي وراء ذلك لا يتجاوز في ظننا ضمور أيديهم، و اليد هي أستاذ المخ. ومعنى القول أن المتعلمين المصريين كانوا قد دخلوا مرحلة الشيخوخة أي ما سمُّوه (=أسموه) بالقداسة و إجلال التقاليد العريقة إلى آخر مثل هذه البلاغة البائسة، و هو ما لا يزيد و لا ينقص عن محاولة محكوم عليها مسبقاً، نحو فرض الثبات على العالم المتغير بطبعه.

و كان منطقياً أن يسقط من أيديهم مشعل الحضارة التي أنارت العالم القديم بأسره. وسرعان ما التقطه و الأدق التقط الرعاة الأجانب في غرب آسيا، رماده و عجنوه بأحقادهم و أطماعهم وأحلامهم و شوفينيتهم و باختصار بـ"بداوتهم" و جاءوا به كسلاح أيدولوجي إلى مصر كي يقمعوها و يستذلوها و يستغلوها بنصله المتعدد الحدود.

لكن قطاعاً من المصريين كان هناك.

تحتشد القرائن و الشواهد و الدلائل و الأدلة، معاً، لكننا نلتقط عفو الخاطر هذا الدليل الذي أراه أشد سطوعاً و أقرب منالاً، في نفس الوقت لرقعة أوسع من "المتعلمين المصريين"، و أخص

منهم "الأكاديميين" و "المثقفين" الذين لا يرتفع مستواهم العقلي/ الوجداني بحالٍ من الأحوال عن المستوى الذي يحوزه الفلاحون أو نجارو السواقي، إن لم يهبط كثيراً، و مع ذلك يحتكرون وحدهم عمليات التعليم و التوجيه و التأهيل والتصعيد و القيادة لصالح البلاط الحاكم، سواء أكان أجنبياً أو عسكرياً، و أقصد بهذا الدليل: التوقيت المصري القديم.

اهتدى المصريون القدماء إلى توقيت يُعد أقدم توقيتٍ شمسي و الأدق نجمي عرفه بنو الإنسان في العالم القديم. إذ حسبوا ما بين كل ظهور صادق و ظهورٍ صادق آخر لنجم "الشعرى اليمانية" الذي اعتبروه أنثى و أطلقوا عليها اسم "سبدت" أي "جالبة الفيضان"، فوجدوه 365 يوماً، أي سنة كاملة، و هي التي قسَّموها إلى اثني عشر شهراً قمرياً و كسور لا تصل إلى نصف شهر، و أكملوا عدة كل شهر ثلاثين يوماً، و بقيت خمسة أيام سمُّوها(=أسموها) الشهر الصغير أو النسيئ. و كان ذلك في سنة 2773 في أرجح الآراء. ولو أن كان هناك من يعود بهذا التاريخ إلى سنة 4231 ق.ع.م. مثل "بريستيد" الذي يقول: "و قد ألهمت المملكة الأخيرة سنة 4231ق.ع.م. أن السنة الشمسية تتكون من 365يوماً."(8)

هذه هي السنة الشمسية الفلكية التي توصَّل إليها المصريون القدماء و هي لا تفرق عن السنة المعروفة حالياً، إلا بحوالي ربع يوم، و لو أنهم أدركوا هذا الفرق بأنفسهم في وقتٍ لاحق خلال العصور الفرعونية.

و يقول "بسَّام حاتم" عضو "الجمعية الكونية السورية":

"ظهرت التقاويم الشمسية التي تعتمد على رصد حركة الشمس حصراً. و كان الفراعنة (هم) أول من أخذ بهذا الإجراء بسبب تطور بنيتهم الزراعية"(9)

و في سائر الأحوال يقف هذا التوقيت الشمسي وراء التواقيت الشمسية الأخرى التي ظهرت في أوقاتٍ لاحقة في العالم القديم، و خصوصاً عند اليونانيين و العبرانيين و الرومان. ويقول "هيرودوت" في هذا الصدد:

"أما ما يتعلق بأمور البشر فالجميع على اتفاقٍ في ذلك. و قد كان قدماء المصريين هم أول من ابتدع حساب السنة و قد قسموها إلى اثني عشر قسماً بحسب ما كان لهم من معلوماتٍ عن النجوم. و يظهر لي أنهم أحذق من الإغريق الذين يحسبون شهراً كبيساً كل ثلاث سنوات تكملة للفصول.

فقد كان المصريون يحسبون الشهر ثلاثين يوماً و يُضيفون خمسة أيامٍ إلى السنة لكي يدور الفصل ويرجع إلى نقطة البداية. "[10]

و إذا ما تذكرنا أن التوقيت الروماني كان قمرياً ثم تحوَّل إلى شمسي على يديْ كاهن مصري يسمى "سوسيجيتس" في سنة 46ق.ع.م.، و هو التوقيت الذي دخلت عليه تعديلاتٌ طفيفة في أوقاتٍ لاحقة حتى استقر على التوقيت الجريجوري المعروف عندنا بالتوقيت الأفرنجي الذي تبناه المصريون المعاصرون منذ سنة 1865 خلال عهد الخديوي العظيم إسماعيل، فمعنى القول أن أكثر من ثلث البشر يسيرون وفق توقيتٍ مصري و إن حمل إسماً غير مصري، و في عبارة حجة المصريات الكبير "بريستيد":

"يوليوس قيصر الرومان هو أول من أدخل التوقيت المصري إمبراطوريته ثم عم استعماله العالم". [11]

و لقد ظل العرب الحجازيون المعاصرون يقاومون ما ينطوي عليه هذا التوقيت من تطور، حتى اضطروا قبل جيلٍ واحد أو جيلين إلى صك سنة شمسية هجرية فيما يُعرف باسم توقيت "أم القرى" التي يقصدون بها "مكة" أو "بكة"، تلك التي ضمت كعبة العرب الوثنيين ثم المسلمين منهم، و إن ظلوا يحتفظون بالسنة الهجرية القمرية كي تحدد لهم مواقيت المناسك الدينية.

و غني عن الذكر أن هذا التوقيت القديم لا يزال حياً في عقل و وجدان من يحلو لنا نحن "المتعلمين المصريين" أن نسميهم باستعلاء لا لبس فيه و لا مراء بـ "الأميين"، في الوقت الذي يجهله "المتعلمون المصريون" أو بالتحديد قطاعات آخذة بالاتساع منهم، وبعبارة أدق من يفرض عليهم "التعليم المصري" السائد أن يجهلوه و يتجاهلوا ارتباطاته خلال حصار الصمت المحكم المفروض حوله و حول الثقافة المصرية القومية بصفة عامة. وقد لا أبالغ إذا قلت أن المصريين الذين يستطيعون تذكر الشهور الاثني عشر القبطية أي المصرية، يتناقصون كلما أوغلوا في مدارج التعليم، دع عنك أن يتذكروا الأمثال و الحكم والأقوال المأثورة التي يربطون بينها و بين شهورهم:

توت ي تروي ي تفوت(توت ي تتغطا ي تموت)

بابة يغلب النهابة(بابة ادخل و رد البوابة)

هاتور أبو الدهب المنتور

كياك صباحك مساك، تقوم م النوم تحضر غداك و عشاك.

طوبـة فيـه الـبرد و العجوبـة، طوبـة يخـلي الـصبية كركوبـة، الاسـم لــ "طوبـة" و الفعـل لـ"أمشير"،... إلخ)

أمشير أبو الزعابير

برمهات قشش م الغيط و هات

برمودة دق العمودة

بشنس يكنس الغيط كنس

بؤونة فلاق الحجر ينشف المياية في السجر

أبيب أبو اللهاليب يخلي العنب زبيب

مسرى يجري المياية في الترع العسرة

و عود على بدء:

رطب توت

رمان بابة

موز هاتور

سمك كياك

ماية طوبة

خروف أمشير

لبن برمهات

ورد برمودة

نبق بشنس

عسل بؤونة

تين أبيب

زبيب مسرى...إلخ

ما الذي حدث؟

قدم الأميون المصريون الشهداء تلو الـشهداء. و لقـد وعـى لنـا التـاريخ بعـض أسـمائهم مثـل "خونسوس" و "أتينيس" و "بساويرس" و "ترورباستوس"، زعماء ثورة الدلتا الأبرار الـذين شـد

"بطليموس أبيفان" وثاقهم إلى عجلته الحربية و جرهم وراءه عـراة و شـوَّهم ثـم أعـدمهم ناقـضاً بذلك عهده معهم بالعفو عنهم.، حتى زعـيم ثـورة "البـشموريين": "مينـا إبـن بقـيرة" (بإثبـات الألف)، و لا ينبغي لمثلي أن ينسى في هذا المجال: "عبدوس الفهري" العربي المتمصر. و كان ذلـك طبيعياً ما دام هؤلاء هم الذين وقع على كاهلهم أثقل أعباء الجزية والخراج و سائر صنوف الـسخرة و الضيافة القسرية و الارتباع الجبري من جانب الغزاة الأجانب من الفرس و الرومان و العرب.

لكن الذي يستحق منا نحن "المتعلمين المصريين" أن نرنوا إليه في صمتٍ عميق و تأمـلٍ أعمـق مع بعض الخزي هو: لقد كان الأميون المصريون، دون "متعلميهم" هم الـذين واصـلوا احتـضان الحضارة/ الثقافة المصرية في أعـماق وجـدانهم بعـد سـقوط مـشاعلها، و ذلـك في وجـه الثقافـات الأجنبية الأقل تقدماً للغزاة ـ أو الفاتحين كيلا يغضب ناقصو المصرية أي "المتعلمين المصريين" ـ أو الوافدين المستوطنين سواء الذين قدموا من جنوب أوروبا أو غرب آسيا. و الأميون المصريون هـم الذين طالبوا قادتهم الروحيين الذين "تهلينوا" أيام سيادة "الهيلينيين" (=اليونانيين) عـلى المـستوى الثقافي في القرن الثاني بأن يُترجموا لهم الكتاب المقدس إلى لغتهم التي يفهمونها أي القبطية، فأنقـذوا بذلك، سواء قصدوا أو لم يقصدوا، أحدث مرحلـة وقـت ذاك مـن مراحـل تطـور اللغـة المـصرية القديمة.

و غني عن الذكر أن "المتعلمين المصريين" حرصوا وقت ذاك على الابتعاد قـدر وسـعهم، عنـد ترجماتهم، عن الألفاظ المصرية التي تذكرهم بها سمُّوه (=أسموه) بالوثنية، بعد تنازلهم عن عقـولهم لصالح العقل السامي و الأولى الإبراهيمي أي السامي بعد دخوله مرحلة الشيخوخة. و يكفينـا في هذا الصدد، و دون الدخول في تفاصيل كثيرة و خلافاتٍ أشد أن نشير إلى أن متعلمي ذلك الزمـان تعففوا و استهجنوا و استحرموا أن ينقلوا كلمة "الـروح" اليونانيـة Πνεγμα إلى "كـا" .... أو "با". ... أو حتى NIqI التي تعني "روح" أو "نفس" دون ارتباطـاتٍ لاهوتيـة خاصـة. و فضَّلوا الإبقاء عليها يونانية كما هي، و إن حملت على أيديهم أداة التعريف القبطية في حالة المـذكر. و لكنهم أحسنوا صنعاً عندما احتفظوا في "البسملة" باسم الرب أو الإلاه(=الإله) باللغة القبطيـة، و هو اسم منحدر عن لفظ "نوتر"..( ). المصري في المرحلة الهيروغليفي، ذلك اللفظ الذي كتبـه جدودنا المصريون-الأقباط المسيحيون هكذا NOY† و لا يزالون يبسملون على هذا النحو:

ϦЄΝ ΦΡΑΝ ΝЄⲘ ΠϢΗΡΙ ΝЄⲘ ΠΠΝЄΥⲘΑ ЄΘΥΑΒ *ΟΥΝΟΥϮ* ΝΟΥⲰΙ ΑⲘΗΝ

أي: باسم الآب و الابن و الروح القُدس الإله الواحد آمين.

و معنى القول أن: *ΟΥΝΟΥϮ* ذاك، و رغم كل شئ هو آخر اسم مصري عبد خلاله المصريون "الإله الواحد" في تاريخهم الطويل الذي يرجع - على مستوى التدوين - إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة ق.ع.م. و لا يزال المصريون المسيحيون يترنَّمون في ختام تسابيحهم على هذا النحو:

Φϯ ναι ναν

Φϯcωτεⲙ εροⲛ

Φϯ coⲙc εροⲛ

Φϯ ϫενϩητ ϩαροⲛ [12]

غير أن *ΦΝΟΥϮ* أي الإسم المصري/ القبطي للإله (=الإله) هذا نازعه حقه على ألسنة المصريين المسيحيين اسم الرب اليوناني κγριε (في حالة المنادى) في نصوصٍ مقدسة عديدة على رأسها القداسات الثلاثة المشهورة "الكيرلسي" و "الباسيلي" و "الجريجوري" وكذلك اسم الإله (=الإله) اليوناني θεος الذي دخل في حالة القابل dative في الثيؤتيكية، بمعنى "لوالدة الإله"، و هو اسم الترانيم الرائعة التي هم المصريون المسيحيون بوضعها في إطار ردودهم على المذهب النسطوري الذي انتشر في الإمبراطورية الرومانية الشرقية في القرن الخامس م.ع.م. وهدف إلى اسقاط القداسة عن أم السيد المسيح "مريم العذراء". و الأميون المصريون هم الذين واصلوا نهج الجدود، و هو نهج متحضر، في التعبد للإله رقصاً فيما يسمونه بـ "الزكر" (بالزاي وليس الذال)، أي أنهم مصَّروا اللفظ العربي-السامي و أترعوه بمعنى مقدس، بأرقى مستوى للتقديس، فيما لا يزال "متعلموهم" منخرطين في "ماراثون" من الجدل العقيم، بدأ دون أن تلوح له نهاية في الأفق البعيد، في ظل الثقافة السامية السائدة حول ما إذا كان الرقص الذي يُجاوز بالإنسان نطاق الوجود الغريزي، إلى آماد أرقى، حلالاً أم حراماً. و هكذا واصل الأميون نهجاً اكتشفه الجدود - ودعنا تقول مع الأسيويين الغربيين - الفراعنة. فلقد كان هؤلاء الفراعنة جدوداً عظاماً للمصريين المعاصرين الذين يفخرون كل الفخر بالإنتماء إليهم - و نفس الأمر يسير أيضاً

على التعبد غناء، فلقد شحنوا اللفظ العربي-السامي: "التجويد" بمعنى مصري خالص. و ليس مجهولاً أن "التجويد" أو الغناء الذي نعرفه عن قرائنا العظام خاص بالمصريين المحدثين، وهو منحدر إليهم عن المصريين القدماء، أو الفراعنة، فلقد كانوا جدوداً عظاماً لنا و إن خجلوا بعض الخجل من أن يخرج من صلبهم أمثالنا، و خصوصاً "متعلمونا". و ليس سراً أن الشيخ "محمد رفعت" الملقب عن جدارة بـ "قيثارة السماء" يُجوِّد أو يُغني القرءان من مقام "نهاوند-ألفا" والشيخ "مصطفى اسماعيل" مقرئ الملوك من مقام "بياتي- النوا-صول" والشيخ "عبد الباسط عبد الصمد" من مقام "صبا-النوا-صول" و الشيخ "صديق المنشاوي" من مقام سيكا-المي" ...إلخ

و هذا التجويد ينفرد به المصريون دون سواهم من أتباع الديانة المحمدية. و لقد عابه علينا بشكلٍ حاد الإمام "القرطبي" ـ و كاد الأمر معه يصل حدود التكفير ـ على هذا النحو:

"قلت و هذا الخلاف إنما هو ما لم يفهم معنى القرءان بترديد الأصوات و كثرة الترجيعات فإن زاد الأمر حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق، كما يفعل القراء بالديار المصرية الذين يقرأون أمام الملوك و الجنائز و يأخذون على ذلك الأجور و الجوائز ضل سعيهم و خاب أملهم."(13)

ثورة برمهات 1919

نستطيع أن ننظر إلى ثورة برمهات/ مارس 1919 المجيدة ـ و الأدق التي توفَّرت لها ظروفٌ مواتية، كي تكون مجيدة ـ على الصعيد المعرفي، باعتبارها أول شرخ يضرب بنية الثقافة الأجنبية و بالتحديد الثقافة العربية-السامية السائدة في مصر خلال العصر الحديث. و ما كان لهذا الشرخ أن يظهر لولا انخراط من نسميهم نحن "المتعلمين المصريين" باستعلاء ممجوج، "االأميين المصريين" في غمارها. و لقد كانوا دائماً هناك في أعمق أعماق الوجدان المصري يُؤثِّرون، إلى هذا الحد أو ذاك في "متعلميهم"، حتى اندفعوا تلك الاندفاعة الهائلة خلال الثورة فأعادوا إلى ذلك الحد المحدد و لا أقول المحدود، الاتصال بين المصريين المحدثين و المصريين القدماء. و ليس غريباً أن يلتقط، في ضوئها النحات العظيم "محمود مختار" الإزميل الذي سقط من أيدي جدوده، و أن يلتفت الموسيقار العظيم "سيد درويش" إلى الألحان المصرية المسماة بالشعبية التي تخمَّرت في ترانيم المعابد المصرية القديمة. و لا أستطيع القفز إلى نتيجة محددة استناداً إلى أن الفنان المجيد غنى لأول مرة في تاريخ الغناء المصري الحديث ـ فيما أظن ـ للشمس(أي لـ "رع") في:

"طلعت يا محلا نورها شمس الشموسة"

بدلاً عن "القمر" الذي يتربع على قمة التشبيهات و الاستعارات كرمز للجمال و الأنثوي منه بشكلٍ خاص. لكنني لا أستطيع أيضاً أن أمر بالأمر دون اكتراث.

و ليس غريباً أن يبرز "طه حسين"، أحد قمم ما استطاع العقل المصري إبداعه - رغم أزهريته - في العصر الحديث، تحت تأثير واضح، لا ترصده سوى أعين الأجانب، أي غير "المتعلمين المصريين" لذلك الشرخ أي تحت تأثير ثقافة المصريين الأميين دون "متعلميهم". و لنا أن نقف على مدى تأثير ما يُسميه "المتعلمون المصريون"، دون خجلٍ أو حياء، في ظل دونيتهم المزمنة- "اللغة العامية" ، دون اللغة المصرية القومية - على لغة "طه حسين" التي اتسمت بالبساطة و الوضوح إلى جانب الروعة و العمق إذا ما رجعنا إلى كتاب صغير مدهش يستحيل أن تطرأ فكرته الأساسية على ذهن أي "متعلم مصري". و الكتاب المقصود هنا من تأليف متعلم تونسي[14] هو "البشير بن سلامة"، و هو الكتاب الذي يرصد فيه صاحبه تأثير تلك اللغة "العامية" على عربية "طه حسين" الرائعة، فضلاً عن تشرب الرجل إلى حدٍ كبير لروح الصلابة و الشموخ التي يسخر منها في نكاتهم المبتذلة "المتعلمون المصريون" من أبناء الحضر الذين يضمون بين صفوفهم بعض الغزاة الأجانب مع مواليهم، أولئك الذين ينعون على المصريين أنهم فلاحون مرة و ريفيون مرات. و لقد لاحظ بحق وصدق "فرج فودة" شهيد الكلمة هذه الملاحظة الذكية:

"يجب أن نعترف جميعاً و بصورة واضحة و معلنة بأن في مصر قدر من التعصب الديني و أن هذا القدر موجود لكنه محدود و أن له من الخصائص ما يتناقض مع المنطق فهو يزداد مع ارتفاع المستوى التعليمي فيتواجد مثلاً في بعض الأقسام في الجامعات و يقل كثيراً في القرى أو المدن الصغيرة"[15]

و هذه ملاحظة ذكية حقاً لكنها لا تحل "التناقض" الذي تلمِّح إليه، إذ أنه كامن وحسب في وجود ثقافتين إحداهما قومية و راقية، آخذة في الرحيل و الأخرى أجنبية ومتخلفة تحل محلها. والرحيل و الحلول يجريان على قدمٍ و ساق نتيجة لنسقين محددين يتمثّلان في تعليم زائف و إعلام أشد تزييفاً، مفروضين فرضاً برعاية أنجلو-أمريكية سافرة، على عقل ووجدان المصريين المعاصرين، تحت صمم آذان "متعلميهم" و عمى أبصارهم.

و غني عن الذكر أن التعصب نوع من الانحطاط العقلي و الخلقي في آنٍ واحد، بمعنى أنه لا يعدو كونه تكلساً للعقل الحر و ضموراً للضمير الحي، و هو بذلك ألصق بالبداوة وأبعد عن الحضارة.

هوامش و مراجع:

(1) ترجم "سليم حسن" العبارة في حماسه الدافق لـ "أخناتون" إلى "أول شخصية مستقلة في التاريخ" في كتاب "فجر الضمير" لـ "جيمس هنري بريستيد".

(2) نقرأ في قصة "مغامرات ونامون" التي يُرجعها علماء المصريات إلى سنة 1100ق.ع.م. أن أمير "بيبلوس" أبلغه أن "أمون خلق كل البلدان لكنه خلق مصر قبلهم."

(3) Egyptian Grammar,Allan Gardiner,p.27

(4) فعل "كتب" هو نفسه فعل "رسم" في اللغة المصرية القديمة في مرحلتها القبطية: Cϧⲁⲓ

(5) مقال بعنوان: "الكتابة الأسطورية و الخلق في مصر الفرعونية" في مجلة "ديوجين" رقم 35 مطبوعات اليونسكو.

(6) ظل الأدب الذي أصادفه خلال عملي في هذا المجال يُقدم الدليل إثر الدليل على تأييد وجهة نظري التي تقول بأن الهيروغليفية و الديموتيكية و القبطية خطوط و مراحل في نفس الوقت في تطور اللغة المصرية القديمة.

وهنا أذكر، و على سبيل المثال، ما ذكرته "جانيت جونسون" في مقدمة الطبعة الثالثة لكتابها المعنون:
An introductory Grammar of Demotic.Thus wrote Onchsheshonqy

"الديموتيكية هو الإسم الذي يُطلق في نفس الوقت على خط و مرحلة في تطور اللغة المصرية. وبعبارتها الخاصة:
Demotic is the name applied to both a script and a stage in the development of the Egyptain language."p.1

(7) "Hieratic writing is as old as hieroglyphic,but it is more cursive and the result of a quick hand drawing signs on a sheet of papyrus with a reedbrush. Gardiner's)+ http/www.geocities.com-amenhotep/language/glyph/aspects.html Dec.23,2000

(8) "تاريخ مصر القديم" تأليف "جيمس هنري بريستيد" ترجمة "حسن كمال" ص 2

(9) مجلة "آفاق علمية" الكويتية لسنة 1986 ص 45

(10) "هيرودوت" 2: 4

(11) تاريخ مصر القديم" مصدر سابق ص 22.

(12) الإبصلمودية المقدسة السنوية ص 137.

(13) "تفسير القرطبي" طبعة مركز تحقيق التراث ص 16/ 17.

(14) "التطور الإيقاعي للغة العربية الفصحى" تأليف "البشير بن سلامة".

(15) مجلة "فكر" عدد 7 ص 25.

الفصل السابع

أثريون و لغويون

انقسم "المتعلمون المصريون" بشكل يكاد أن يكـون حاسـماً إزاء موضـوع اللغويـات الـذى نستمد منه أقوى الأدلة وأغناها فى هذا الكتاب على ما نطرحه من فرضية، إلى قسمين كبيرين.

الأول: هم الأثريون الذين يدرسون لغة مصـرية قديمة ميتة أو بائدة شاءوا أن يشطّروها سيراً على نهج المستشرقين إلى خطوط ما بين هيروغليفية وهيراتيكية وديموتيكية وقبطية أحياناً و أحياناً أخرى إلى خمس حقب:

1- اللغة المصرية القديمة (من قبل 3000 حتى 2200 ق. م)

2- اللغة المصرية الوسيطة (من 2200 إلى 1600 ق.م)

3- اللغة المصرية المتأخرة (من 1550 إلى 700 ق.م)

4- الديموتيكية (من 700 ق.م حتى 400)

5- القبطية (من القرن الثانى حتى القرن الـ17)

الثانى: هم اللغويون الذين يقفون عند حدود اللغـة العربيـة المشهورة بالفصحى ويعتقـدون اعتقاداً أرسخ من الجبال "الأوتاد" أن "اللغة المصرية الحديثـة" التـى يطلقـون عليهـا فى دونيـتهم المزمنة "العامية" ليست سوى لهجة من لهجات تلك اللغـة السامية Semitic الوافـدة مـن غـرب آسيا. وبذلك يفترض هؤلاء الأثريون وأولئـك اللغويـون، أن العـرب عنـدما غـزوا أو فتحـوا أو دخلوا مصر لم يصادفوا سوى شقة مفروشة أشبه بشقق حى الزمالك أو المهندسين أو مصر الجديدة فى الوقت الحاضر، وإن كانت باتساع وادى النيل، ولم يجدوا شعباً ولا حضارة ولا لغـة ولا تراثـاً ولا أدياناً ولا عقائد سامية (من السمو) ولا إلاهاً (إلهاً لمن يفضل) للغيب يدعى "أمون"/"أمـين" ثم أن المصريين بادوا و اندثروا فور دخول الغزاه العرب بلادهم دون أن يخّلفوا وراءهم أثـراً مـثلما يحدث فى الكوارث الطبيعية المفاجئة كالزلازل والبراكين.

حقاً أشار أثريون إلى استمرار بعض أسماء المدن مثل "أسوان و "أسيوط" و "دمنهور" و"منوف"... إلخ وبعض أسماء الأشخاص مثل "بشندى" و"شنودة" و"بشاى" بالإضافة إلى بعض التعبيرات المتناثرة مثل: ياللابرا، وحوى يا وحوى، توت توت... إلخ. وأشار لغويون إلى وجود طبقات تحتية Substrata تعمل عملها فى إحداث *"اختلافات بين التعبيرات العربية التى تختلف مكانياً."*(1)

ولكن تخصص الأثريين هؤلاء أقصد جهلهم باللغويات كعلم إنسانى راقى أو راقٍ، وأكاد أقول أرقى العلوم الإنسانية قاطبة، و ذلك بدخوله نطاق "العلوم التجريبية"، جنباً إلى جنب العلوم الطبيعية، حال دون أن يروا ما وراء حدود تخصصاتهم. وبالمثل حال تخصص اللغويين أولئك أقصد جهلهم باللغات المصرية القديمة دون أن يمدوا أنظارهم وراء تخوم تخصصاتهم.

وإذا كان د. عبد العزيز صالح يقول: *"وغلبت اللغة العربية باعتبارها لغة القرءان الكريم المصرية القديمة ولكنها لم تجبها تماماً فظلت بقية من مفردات لغتنا القديمة قائمة حية فى مجتمعنا المعاصر تصل أهلها بماضيهم وتجرى على ألسنتهم فى أسماء قراهم ومدنهم وأسماء شهورهم الزراعية وتتخلل أحاديثهم فى شئون حياتهم اليومية "*(2)

وإذا كان د. "لويس عوض" وهو متعلم كبير واسع المعارف غزير المعلومات يقول فى كتابه المحظور (وقت ذاك):

"المصريون وعامة سكان شمال أفريقيا على سبيل المثال ينتمون سلالياً إلى عنصر غير عربى. ومع ذلك قبلوا اللغة العربية حين قبلوا الإسلام. بل إن أقباط مصر الذين لم يقبلوا الإسلام قبلوا اللغة العربية لأنها غدت لغة مصر القومية "(3).

وإذا كان الأب "قنواتى"، يقول فى دراسة قدمها إلى "معهد الدومينيكان للدراسات الشرقية" Instiute Dominican des études Orientales ما ترجمته:

"تأثير اللغة القبطية على اللغة العربية ضعيف للغاية."

وينقل عن "ولسون بشاى" وهو أستاذ أمريكي مصرى الأصل متخصص فى اللغة القبطية أن *" هناك مائة كلمة وتسع وبتحديد أكثر 109 مادة لغوية على المستوى المعجمى وحسب يمكن أن نطمئن إلى اعتبارها مستعارة من اللغة القبطية إلى اللغة العربية المصرية."*(4)

إذا كان الأمر كذلك فإن المرء لا يستطيع إلا أن يقول أنه أمـام أرضٍ بكـرٍ لم تجرحهـا عـين ولم يخدشها تأمل ذو بال من قبل. وليسمح لنا القارئ الكريم أن نضع فرضياتنا على شـكل تـساؤلات بسيطة:

- ما هى الآليات التـى سـادت خلالهـا – كـما يبـدو لـسائر "المتعلمـين المـصريين" وخـصوصاً لغويوهم وأثريوهم – لغة الغزاة الأسيويين أى اللغـة العربيـة المـشهورة بالفـصحى عـلى لغـة السكان المحليين أى اللغة المصرية فى مرحلتها القبطية؟
- ما هو السر فى أننا نقول على سبيل المثال لا الحصر، فيما أسـميه بــ "اللغـة المـصري الحديثـة": "أقعد ـ همسة" لكننا لا نقول إمشى همسة أو غمَّض همسة؟ وفى أننا نقول: جبنة – حلوم؟ وفى أننا نقول: "يا ابن ـ التوى" أو يا ابـن المركـوب؟ وفى أن النـساء المـصرية أو المـصريات تغنـى "أونى أونى ـ يا حجر الرحاية؟ وفى أننا نقول "بنها ـ العسل"؟

أتكون اللغتان المصرية – الحامية والعربية – السامية قد بلغتا فى وقت ما مرحلـة مـن التـوازن المرهف فيما بينهما على المستوى الدلالى – المعجمى حتى أصبح المـصرى بـالمعنى الثقـافى لا العرقـى يقول الكلمة بلغة ومرادفها بلغة ونصف العبارة بلغة ونصفها الآخر باللغة الأخرى؟ خصوصاً إذا عرفنا ولا يجدر بنا ونحن مصريون ألا نعرف أن "أقعد" العربية – السامية تعنى كفعل أمـر باللغـة المصرية القديمة فى مرحلتها القبطية التى نستطيع كتابتهـا بـالحروف العربيـة النبطيـة دون أن تفقـد مصريتها بطبيعة الحال "همسي"(ϩⲉⲙⲥⲓ) وأن "جبنة" هـى ϩⲁⲗⲱⲙ وأن "ابـن التـوى" تعنـى "ابن المركوب" لأن كلمة ⲧⲟⲟⲩⲉ/ "توى" تعنى مركـوب بمعنـى حـذاء. ونـستطيع مـن ثـم أن نرجِّح أن الأولى أقدم من الثانية.

وهل تستطيع حقيقة أن قرية "العليقات" فى النوبة القديمة، والواقعة على الحدود بين القبائـل العربية الرحالة وبين النوبيين المستقرين يقولون حتى الآن أو حتى وقتٍ قريبٍ نسبياً:

سوق العنزة/ تير فيكا ويجا

أى هذه العبارة وترجمتها فى نفس الوقت خشية من المتكلم أن يكون المخاطب من هؤلاء أو من أولئك أى ممن يجهلون هذه اللغة أو تلك؟ هل تستطيع هـذه الحقيقـة أن تـساعدنا، ولـو قليلاً، فى استجلاء ما حدث على نطاق أوسع فى الوادى الكبير؟

ـ ما هو السر فى أننا ننفى الإثبات فى اللغة المصرية الحديثة وفق اقتراحى، على نفس النول الذى كانت اللغة المصرية القديمة فى مرحلتها القبطية تنفى الإثبات خلاله وليس على النول العربى أو خلال البنية العربية – السامية:

ما – أعرف – هو – ش

Ⲛ- ϯ -ⲤⲞⲨⲚ -ϥ -ⲀⲚ

وإذا تحامل القارئ على نفسه قليلاً وتخطى إمكانية اللبس اليسير الناجم عن كتابة العربية من اليمين إلى اليسار بينما تجرى القبطية من اليسار إلى اليمين، فلسوف يستنتج معنا أن الجملة القبطية توازى تماماً الجملة المصرية الحديثة كل مورفيم إزاء مورفيم آخر. وهاتان "اللغتان" تختلفان معاً عن بنية النفى فى اللغة العربية التى تجرى على هذا النحو:

لا – أعرف – هـ

ـ ما هو السر فى أن اللغة المصرية الحديثة تثبِّت العدد ولا تغيِّره بتغيُّر المعدود كما تفعل اللغات السامية التى تسير وفقاً لما يسمى بالتوافق العكسى Chiastic Concordance. إذ بينما تقول المصرية الحديثة تلات بنات و تلات صبيان و تقول النوبية أي شقيقة المصرية buru tusku أي تلات بنات، و tod tusku أى تلات صبيان، وبعبارة أخرى تثبِّت الشقيقتان الحاميتان المصرية و النوبية جنوسة العدد مع المعدود. بينما تقول العبرية Yeladim salosa. Banoti salos أى تسير مع شقيقتها العربية وفق نمط واحد هو التوافق العكسى. أى لماذا تتفق اللغتين الحاميتين المصرية الحديثة والنوبية فى هذه النقطة كى تختلفا مع اللغات السامية، ونقول خشية الزلل مع هاتين اللغتين الساميتين الشقيقتين – إحداهما للأخرى – العربية والعبرية على الأقل؟

أيكون الأب اليسوعى الألمانى "أثاناسيوس كيرشر" هو أول من قال فى أوائل القرن السابع عشر م.ع.م. بأن اللغة القبطية هى نفس اللغة المصرية القديمة مكتوبة بحروف يونانية، ويكون الحر الفقير هو أول من يفترض أن "اللغة المصري الحديثة"(=اللمح) حسب تعبيرنا هى مرحلة من مراحل تطور لسان المصريين، و بالتحديد الرابعة؟ وهذا هو السر فى إطلاقنا عليها هذه التسمية بالذات و نبذنا بأمان و طمأن لسائر التسميات السائدة؟

ولا أرانى بحاجة إلى المضى فى هذا السبيل فى الوقت الحاضر على الأقل أبعد من هذا الشوط فدورنا لا يتعدى هنا دور القابلة أما الجنين أقصد "اللغة المصري الحديثة"، فلقد حملته مصر

أخصب الأرحام وأطهرها، قبل حقبة طويلة. وأصبح أى ذلك الجنين قادراً على أن يتنفس الهواء برئتيه المستقلتين عن أمه والحاملتين لجوهر خصائصها فى آن واحد.

وفى سائر الأحوال هذا مبحث بكر فى نطاق ما يسمى باللغويات التاريخية Linguistique diacronique نتركه مفتوحاً ونمضى إلى بحث الأمر فى نطاق اللغويات الوصفية Linquistique Synchronique وفقاً للتقسيم الفذ الذى أدخله اللغوى السويسرى المشهور "دى سوسير" De Saussure على اللغويات فى كتابه "Cours" أو "محاضرات".

هوامش ومراجع:

(1) العربية ولهجاتها د. عبد الرحمن أيوب الطبعة الأولى سنة 1968 ص 20

(2) حضارة مصر القديمة وأثارها الجزء الأول ص 32

(3) مقدمة في فقه اللغة العربية د. لويس عوض ص 27

(4) Factors and effects of Arabization and Islamization in Medieval Egypt and Syria, Individualism and Conformity in classical Islam. Wiesbaden 1975.

الفصل الثامن

بين ما يسمى بالعامية وما يسمى بالفصحى

صادفت فى الآونة الأخيرة مقالين حول العلاقة بين ما يسمى بالعامية وما يسمى بالفصحى: ظهر المقال الأول فى جريدة "الأخبار" المصرية اليومية يوم 29/8/1985، والمقال الآخر فى مجلة "المورد" العراقية الفصلية المجلد الرابع عشر – العدد الثانى. كتب المقال الأول الذى حمل اسم "لغة النور ولغة الظلام" د. ع. العراقى أستاذ الفلسفة بكلية الآداب. جامعة القاهرة. وكتب المقال الآخر الذى حمل عنوان "ازدواجية اللغة" د. م. ر. الزغلول الأستاذ بجامعة اليرموك – إربد – الأردن. لم يرجع صاحب المقال الأول إلى أى مرجع من مراجع الدرجة الأولى فى اللغويات، سواء فى اللغة العربية أو أى لغة أخرى، أى لم يشأ أن يقف على آخر ما قيل فى موضوع ينوى تناوله بل والخوض فيه. ورجع صاحب المقال الآخر إلى مراجع من هذا النوع ووقف على آخر ما قيل فى الموضوع. ولكن المحير حقاً أنهما انتهيا إلى نتائج متشابهة وأكاد أقول نتيجة واحدة، عبَّر عنها الأستاذ الدكتور الأول، غير المتخصص فى الموضوع بهذه العبارة:

"أقول من جانبى عن اعتقادى ويقينى أن لغتنا الفصحى إنما هى لغة النور، لغة الانفتاح، لغة المستقبل أما السخرية منها واللجوء إلى تلك اللغة التى حشرت حشراً أى لغتنا العامية فإن هذا بعينه هو طريق الظلام".

وأفصح عنها الأستاذ الآخر، المتخصص فى اللغويات – فيما يبدو واضحاً من رطانه – خلال هذه العبارة:

"أستطيع القول بكل الثقة أن الدعوة إلى العامية الآن لا تقابل بأكثر من الاستهزاء فى الوسط الثقافى العربى ولا أظن أن هناك عربياً يمتلك شيئاً من الولاء للعروبة والإسلام أو كليهما يتفوه بتلك الدعوة، وذلك لخطرها على الأمة العربية ووحدة تراثها واستمرارية تأثير هذا التراث .. إلخ".

ولعل مكمن الحيرة ليس فى هذه النتيجة بحد ذاتها، فذلك هو المستوى العام للثقافة السائدة في مصر و المنطقة المحيطة، تلك الثقافة التى يقف منها الأكاديميون ضمن غيرهم من المتعلمين موقف السدنة/ الحُرّاس الذين يشرعون أنيابهم و مخالبهم في كافة الاتجاهات، استعداداً للفتك بكل و أي من يختلف معهم، بصرف عن أسانيده العلمية أو مقاصده السامية في رفعة شأن الأمة، لكن فى هذه الصياغة القاطعة الجازمة لديهما معاً، تلك التى تفارق لغة العلماء التى تنطوى باستمرار على قدر من التشكك أى التعقل بل وتخاصم لغة الحكماء أنفسهم التى تتحرى بصفة دائمة بعضاً من التروى أى التحوط والحذر خشية الزلل. ويضيف د. عاطف العراقى:

"غير مجد فى يقينى واعتقادى أن نتصور أن الحل فى اللجوء إلى ما يسمى باللغة العامية. هل العامية تعد يا قوم لغة؟ أى قواعد لتلك اللغة؟ هل سمعتم عن لغة بلا قواعد؟ أليس من المؤسف والمخجل أيضاً أن نتباهى بتلك الجرثومة أو الزائدة الدودية والتى نطلق عليها ظلماً وعدواناً لغة عامية. إننى أقطع بأن العامية هى لغة الظلام، لغة الركود، لغة الشوارع الخلفية ..."

يبدو فى ضوء السياق أن الأسئلة التى طرحها د. ع. العراقى فى صدر هذه الفقرة أسئلة بلاغية لا يقصد من ورائها الاستفهام وانتظار الجواب، بل يبتغى منها التأكيد على أن العامية ليست لغة وأنها بلا قواعد. ولكنه يقطع فى نهاية الفقرة نفسها بأن "العامية هى لغة الظلام" ألا ينطوى هذا القول على تناقض ذاتى كان أجدر بأستاذ الفلسفة أن يحرص على ألا يقع فيه، إذ أنىّ له أن يقرر أن شيئاً ما ليس (س) ثم يقرر بعد قليل أنه (س).

على أى حال لأخطو عائداً داخل حدود الموضوع المطروح. هل ما يسمى بالعامية ليس لغة لأنها بلا قواعد؟ إذن كيف يتفاهم المصريون، ليس فى الأسواق والشوارع الخلفية وحسب، بل وفى دور العلم بدءاً من المدرسة الابتدائى – أكرر الابتدائى و ليس الابتدائية – حتى الجامعة مروراً بالدروس الدينية التى يحتفى بها التليفزيون المصرى – الذى استمر يلقب نفسه بالعربى حتى وقت قريب – لشيخ كالشيخ متولى الشعراوى – المغفور له – ما لم يكن هذا التفاهم بتلك التى تسمى بالعامية؟ وإذا لم تكن تلك لغة؟ فماذا إذن تكون؟ وإذا كان المصريون يتفاهمون بلغات أدنى من لغتهم المنطوقة مثل إيماءات الوجه وإشارات اليد دون أن يخطئوا فى "أجروميتها" أو يخلطوا بين عضة الشفة السفلى وغمزة زاوية العين، أو هزة قبضة اليد اليمنى واليسرى قابضة على معصمها أو

هزة اليد المفردة مع انعقاد سبابتها على إبهامها فكيف نسوغ لأنفسنا أن ننكر على لغتهم "العامية" أن تكون لغة ذات قواعد؟

لقد كان الأستاذ الآخر أشد حصافة وأقل شططاً عندما قال فى هذا الصدد:

"لا شك أن العامية تميل إلى التبسيط وخاصة فى القواعد إذ على سبيل المثال تختفى صيغة المثنى تقريباً وتنقص الضمائر. وتختفى معظم أوزان الجمع وصيغ الأفعال وتختفى حركات الإعراب".

ولكن هذا الدكتور الأكاديمى يستوى، مع ذلك مع نظيره الأول إذ يقرر بعد ذلك مباشرة:

"ولكن هذا التبسيط هو ولا شك على حساب القدرة على التعبير و يتناسب طردياً مع تضييق الآفاق لا توسيعها، كذلك فإن العامية قاصرة على أن تفى بالتعبير عن الأمور الثقافية والفكرية والفلسفية. وعلى المتكلم فى هذا المواضيع أن يعود إلى الفصحى.."[(1)]

وبذلك يهدر الدكتور الآخر ملاحظاته الذكية السابقة فى سبيل هذه التعميمات الفضفاضة، وتلك الأحكام غير الواقعية.

وفى سائر الأحوال تقتضى لغة العلم أن ينحى الباحث، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، كافة الأحكام القيمية التى ترسخها العواطف الدينية والقومية فى إطارنا الثقافى السائد، ويمضى إلى وصف الظاهرة اللغوية وصفاً موضوعياً كى يراها بادئ ذى بدء، كما هى عليه. وهذه خطوة يتعذر عليه، دونها أن يكتشف حقيقتها أو يتوصل إلى القوانين الذاتية التى تحكم صيرورتها قبل أن يحكم أى حكم سواء بالسلب أو بالإيجاب على الظاهرة أو يقترح اقتراحاً ذا قيمة، وبعبارة أخرى، ذا أثر فعال سواء فى المدى البعيد أو القصير على هذه الصيرورة. فالكون الذى نعيش داخله ونشكل جزءاً منه متغير بطبيعته، وكافة ظواهره الطبيعية والبشرية خاضعة أيضاً للتغير سواء تحسَّرنا على ذلك أو سعدنا له.

وبناء عليه فاللغة ، بصفتها ظاهرة، خاضعة أيضاً لهذا القانون الشامل الذى ينتظم الكون بأسره. ولطالما تردد فى كتابات عديدة باللغة العربية المسمَّاة بالفصحى أن اللغة كائن حى. ولكن الفجوة تظل باستمرار فاغرة شدقيها بين الواقع والمجاز، إذ تستمر طى الغموض تلك الصفة أو تلك الصفات التى تجمع بين هذه وتلك على وجه التحديد. ويقرر أكاديميون كثيرون هذا القول فى بداية حديثهم، لكنهم سرعان ما يلحقونه بما يفيد أن اللغة ليست بحال من الأحوال كائناً ولا حياً بل هى، على النقيض من ذلك، شىء مقدس تضمه الكتب القديمة من نحو "سيبويه" إلى ألفية

"ابن مالك" إلى شرح "ابن عقيل"، وعلى العرب الذين يدبون ويسعون فى بلاد العرب، ولو أنهم عرب كُمَّل خُلَّص أن يتعلَّموه ويتلقَّنوه حتى تُقبل، بصفة نهائية، أوراق عروبتهم. وكل تغير يطرأ على ذلك "الشيء المقدس"، لا يكون سوى انحراف يلجأ إليه العامة من العرب بغية التبسيط المخل، وينبغى على الخاصة بالتالى أن ينزِّهوا أنفسهم عنه... إلى آخر مثل هذا المنطق والأولى اللامنطق.

ينبغى، إذن، على الباحث أن يرفض كافة الأحكام القيمية التى تغلِّف الظاهرة اللغوية فى مصر وتضبب معالمها الرئيسية والثانوية معاً. فالقول بأن اللغة العربية الكلاسيكية التى عرفتها العصور الوسيطة لغة فصحى حكم قيمى يفتقر إلى حجية العلم وإن استند إلى انسيال العواطف الدينية أو القومية أو هما معاً لدى أقوام العرب. ومن جانب آخر يعد وصف "اللغة المصري الحديثة" – حسب تسميتى الخاصة – بأنها لغة عامية أو لغة العوام حكماً قيمياً يفتقر بالمثل إلى حجية العلم. دع عنك أنه يعكس استعلاء طبقياً يصير ممجوجاً بصورة متزايدة فى العصور الحديثة التى تسعى إلى استعادة روح المساواة العشائرية القديمة خلال شكل سياسى محدد هو الديمقراطية أى حكم الشعب.

و يذهب ظننا إلى أن كافة الذين اتصلوا من قريب أو بعيد بدراسة اللغويات كعلم له منهجه وموضوعه وقوانينه الخاصة يلتقون عند وصف "العربية"المشهورة بالفصحى بأنها "لغة" و بأن "المصري الحديثة" على حد تعبيرنا: "لهجة" وانطلاقاً من هذا المستوى الذى لا نرضاه بطبيعة الحال، إلاَّ بصفة مؤقتة و على سبيل الجدل، سوف نمضى إلى فحص فرضيتنا. وبادئ ذى بدئ نطرح هذا السؤال:

- ما هى "اللغة"؟

تقول "كارول ريد": *"اللغة عبارة عن نسق جزافى بمعنى غير قابل للنقاش بصفة خالصة، من الرموز الصوتية، يستطيع البشر عن طريقه أن يتفاعلوا بعضهم مع البعض الآخر"*[(2)] ولعل هذا هو التعريف الأقل إثارة للجدل بين معظم ما قدمه الذين تصدوا للأمر. ولكنه يثير إشكالاً خاصاً، مع ذلك، حول طبيعة العلاقة بين ذلك النسق من حيث الجوهر، وبين تلك الرموز الصوتية وبعبارة أخرى، بين تلك المبادئ البالغة التجريد والمترابطة فى نظام دقيق، وبين تجلياتها فى أصوات إنسانية منطوقة – مسموعة محددة.

يتميز الطفل الإنسانى بين سائر أطفال الأنواع الأخرى، بما فى ذلك القردة العليا التى تتمتع بدرجة ملحوظة من الذكاء، بأن عمليتى التعلم والتكلم لديه عمليتان إبداعيتان إلى جانب كونهما اتباعيتيْن. فعندما يتعرض الطفل الإنسانى للغته القومية ويتقنها مع بلوغه الخامسة أو السادسة من عمره على وجه التقريب، لا يكون قد أتقن تقليد أبويه وذويه وحسب، مثلما تفعل الطيور المغردة على سبيل المثال، بل واستوعب "نسقا لغوياً" كذلك وتركه يترسب فى الطبقات السفلى من وعيه و قل لا وعيه. وأصبح قادراً على استعماله بشكل خالص للتعبير عن رغباته وأفكاره وما إليها حتى يصبح هذا النسق أشبه بحفظه لتوازنه على الدراجة الثنائية العجل، أى قادراً على إنتاجه بل وتطويره بصفة منتظمة دون جهد واعى (واعٍ لمن يحب) خلال أصوات محددة. ثم نمضى إلى طرح هذا السؤال:

- ما هى اللهجة؟

تقول "ريد" أيضاً: "اللغات المختلفة، على نحو محدد، ليست قابلة للتفاهم المتبادل فيما بينهاmutually intelligible، أما اللهجات المختلفة، لنفس اللغة فقابلة لمثل هذا التفاهم المتبادل"(3)

وهذا قول علمى، لكنه لا يحل الإشكال المطروح. وهو التفريق بشكل حاسم بين اللغة واللهجة. ونرانا أميل، والحال هكذا، إلى القول بأن الاختلاف يكون محدوداً بين لغتين تنتميان إلى عائلة لغوية واحدة أو فرع واحد لهذه العائلة مثل اللغتين العربية والعبرية حيث تنتميان كلتاهما إلى الفرع السامى من العائلة اللغوية المعروفة باسم الحامية – السامية، بل ويضيق هذا الاختلاف أكثر عندما تنتمى اللغتان إلى فريع واحد داخل نفس الفرع للعائلة اللغوية الواحدة مثلما يحدث بين الأسبانية والإيطالية داخل الفريع اللاتينى أو الرومانى من العائلة الهندو – الأوروبية . وللشاعر الإيطالى المشهور "جوزيف توسيانى" تجربة شيِّقة فى هذا الصدد، إذ كتب قصيدة باسم "مجد اللحظة" La gloria del momento يستطيع المرء أن يقرأها مرة بالإيطالية ومرة بالأسبانية دون أن يضطر إلا إلى تغيير نطق بعض الحروف. ولكن المعنى يظل فى هذه مثلما هو فى تلك.

لكن "ريد" لم تكن غافلة تماماً عن الأمر، إذ تقول فى نفس الكتاب أننا نستطيع أن نقول أن الإنجليزية والألمانية والهولندية لهجات لا لغات، ما دامت قد اشتقت جميعها من أصل مشترك

واحد هو الجرمانية القديمة. ونفس الأمر يصدق أيضاً على الإيطالية والفرنسية والأسبانية بالنسبة لأصلها المشترك، وهو اللاتينية.

ويذهب رأينا، والحال هكذا، إلى أن الأمر ينطوى على تداخل حدود اللغة واللهجة وهو ما أدى باللغويين المحدثين من مختلف مدارس اللغويات، إلى أن يؤكدوا أنه لا يوجد شخصان إثنان يتحدثان – تماماً – نفس اللغة أو حتى نفس اللهجة، أى ينتجان نفس النسق اللغوى بصورة اتباعية محضة دون تغيير مهما بدا ضئيلاً. ولعل هذا هو السر فى أننا نعرف أصدقاءنا على الخط التليفونى قبل أن ينطقوا بأسمائهم كما نستطيع التمييز بين عدد من المتحدثين عبر الراديو دون أن نراهم فى مسرحية مذاعة على إحدى موجاته. و في هذا الصدد تحضرني تورية شعرية مصرية أصيلة:

بتبرم على مين و احنا برّامين،

و ان خبَّط الباب نعرف برامين!

فاللغة كالبصمة مشتركة بين سائر البشر ومتفردة فى نفس الوقت غاية التفرد. ويتفق اللغويون على أن دوائر التفاهم المتبادل تتداخل أى تتقارب وتتباعد، بدءاً من الدائرة الأضيق وهى "اللغوة" Idiolect أى لغة الفرد عبر اللهجة التى تتكلمها الجماعة الإنسانية المحيطة فى إطار اللغة المجتمعية. ولكنهم يختلفون طويلاً بشأن حدود هذه الدوائر. وما إذا كانت قائمة على الاختلافات العرقية أو المهنية أو الجغرافية أو التاريخية. على أن الاختلاف الأخير "التاريخى" يحظى باهتمام بالغ، فتلك الدوائر قد تختلف للأسباب السابقة، لكنها تختلف بالتأكيد، أى تتغير، خلال الاستعمال. ويترك التباعد الزمنى اختلافاً أشد بروزاً بين تلك الدوائر و وضوحاً من سائر التباعدات الأخرى. و نحن نعرف أن الانجليز الذين يشتهرون بيننا بالمحافظة، يُترجمون الآن أعمال "وليم شكسبير" إلى اللغة الانجليزية المعاصرة و لم تكد تمر على كتابتها أكثر من أربعة قرون، كما أننا نعرف، و إن كنا لا نفهم حق الفهم، الأسباب التي تجعلنا ندرس و نحفظ و نشرح "المعلقات" التي يرجع تاريخها المفترض، إلى ما قبل ظهور الدعوة المحمدية، أي قبل أربعة عشر قرناً، و كأنها مكتوبة بالأمس أو قبل الأمس، أي دون ترجمة مصاحبة. و إذا سلَّمنا بأهمية الاختلاف الذي يتولَّد و يترعرع عبر امتداد الزمن، يكون ضرورياً أن تدخل كلمة "التغير" فى القاموس اللغوى والعقلى للباحثين اللغويين فى منطقتنا. بمعنى ألا يكتفى هؤلاء الباحثون بمنح كلمة التغير ولاء شفوياً أو "برو عتب": Lip Service بينما يظل ولاؤهم الحقيقى والعميق، على نحو ما كان وما هو كائن للثبات

أى للتقديس، فالثبات هو جوهر التقديس. وعندئذ يدركون وندرك معهم أن اللغة العربية المشهورة بالفصحى تقف فى طرف وتقف سائر لهجاتها كالشامية والعراقية والحجازية واليمنية و الخليجية فى طرف آخر، وبعبارة أخرى تغدو ما يسميه الأكاديميون الموقرون بالفصحى ليس إلا مرحلة من مراحل هذا التغير، وأن ما يرميه أولئك الموقرون بالعامية ليس سوى مرحلة أخرى أرقى.

ولـ "أنيس فريحة" أستاذ اللغات السامية بجامعة بيروت أفضال عديدة، أحدها، دون شك، هو التفريق بين البساطة والتفاهة. فباحثونا - لا فُضَّت أفواهم - لا يرون فى بساطة "اللهجة" المصرية أو ما نسميه بـ "اللغة المصري الحديثة" رقياً بل تفاهة يقع فيها العامة. ومن ثم ينبغى على الخاصة وخاصة الخاصة أن ينأوا بأنفسهم عنها قدر الإمكان. لكن الرجل أوضح منذ الستينات، وخلال محاضراته التى ألقاها فى معهد الدراسات التابع للجامعة العربية، في ستينات القرن العشرين و خلال ولاية أستاذنا "طه حسين" على المعهد، أن اللغة وسيلة، والوسائل لا تتفاضل الواحدة عن الأخرى، إلا على أساس حظها من البساطة والسهولة فى تحقيق الغرض المنشود، وهو فى حالة اللغة: التفاهم. فتعذيب البشر، بأي وسيلة كانت، عمل خسيس لا يقبل بإنزاله بالغير سوى الأدوات، أي الأدنى من مستوى الانسان:sub-humans

ونمضى الآن إلى فحص ما نسميه بـ "اللغة المصري الحديثة" ـ "اللمح" ـ واللغة العربية الموصوفة بالفصحى خلال ثلاثة مجالات:

الأول: النحويات Syntax أى ذلك العلم الذى يدرس أكبر وحدة لغوية ذات معنى أو مفيدة حسب تعبير اللغويين العرب، وهى الجملة، وكيفية بنائها كلمياً.

الثانى: الصرفيات Morphology أى ذلك العلم الذى يدرس ما يسمى بالكلمة وكيفية بنائها مورفيمياً.

الثالث: الصوتيات Phonology الذى يدرس الوحدات الصوتية فى علاقاتها مع الوحدات المورفيمية. والمورفيم هو أصغر وحدة لغوية ذات معنى أو بتحديد أكثر ذات وظيفة أو وظيفية.

مثال : "الألف والتاء" و هو "المورفيم" الذى يدل على جمع المؤنث السالم.

أ) النحويات:

تنتمى اللغة العربية المشهورة الفصحى مثلها فى ذلك مثل اللاتينية التى حملت ترجمة العهدين القديم والجديد أو "الكتاب المقدس" عند الموسويين والمسيحيين إلى اللغات التركيبية Synthetic أى تلك اللغات التى تحدد وظيفة الكلمة فى الجملة: فاعل . مفعول. منادى. مضاف. إلخ عن طريق إدخال تغيير ما عليها، أى على الكلمة سواء بالحذف أو الإضافة أو بأى تغيير آخر. مثال:

اللاتينية Puella rosam amat

العربية تحب البنتُ الوردةَ

فإذا جرَّبنا على سبيل الدرس أن نغيِّر موضع الكلمات فى أيٍ من هاتين الجملتين اللتين تمتدان طولياً امتداد الخرز فى العُقد على هذا النحو:

اللاتينية Rosam puella amat

العربية الوردةَ تحبُ البنتُ

كانت النتيجة أن المعنى المحدد لم يطرأ عليه تغير دلالى. فالـ "a" فى اللاتينية كالضمة فى العربية تشير باستمرار إلى أن الكلمة فاعل. كذلك الأمر بالنسبة للـ "am" فى اللاتينية التى تشير بصفة دائمة إلى أن الكلمة مفعول على غرار ما تفعل الفتحة فى العربية، وذلك بصرف النظر عن موقع الكلمة داخل الجملة، وإن لم يمنع ذلك تغير الإيحاء الذى تتركه الجملة كالتأكيد وخلافه. ولكن الأمر عندئذ يغادر بنا حدود اللغويات إلى حدود أخرى قد تكون مملكة البلاغيات. و يظل الجواب على هذا السؤال: هل تغيَّر المعنى اللغوى بتغيير مواضع الكلمات فى الجملة هو النفى.

لننظر بعدئذ إلى ما يسميه اللغويون بـ "اللغات التحليلية" أى تلك التى تحدد وظيفة الكلمة فى الجملة استناداً إلى موضعها فى ذلك الامتداد الطولى للجملة أو ما يسمونه تحديداً Word Order. وليسمح لنا القارئ الكريم أن نضيف الفرنسية و كذلك الأسبانية لارتباطهما بعلاقة تاريخية باللاتينية، إلى الإنجليزية الحديثة وما نحن بصدده من مصرية حديثة.

الفرنسية La fille aime la rose

الإنجليزية The girl likes the rose.

الأسبانية La chica ama la rosa

المصرية (الحديثة) البنت بتحب الوردة

لنجرِّب سوياً على سبيل الدرس تغيير موضع الكلمات فى كل من هذه الجمل الثلاث على هذا النحو:

الفرنسية	La rose aime la fille
الإنجليزية	The rose likes the girl
الأسبانية	La rose ama la chica
المصرية	الوردة بتحب البنت

هل تغير المعنى دلالياً؟

الجواب: نعم إذ أصبح الفاعل هو: الوردة ,La rose, The rose, La

فى هذه الجمل الثلاث على التوالى. وبالمثل أصبح المفعول هو:

الوردة ,La chica, La fille, The girl على التوالى.

لنجرب مرة أخرى تغيير موضع الكلمات على نحو آخر:

الفرنسية	Aime la rose la fille
الإنجليزية	Likes the rose the girl
الأسبانية	ama la rosa la chica
المصرية	بتحب الوردة البنت

هل تغير المعنى دلالياً؟

الجواب: لقد خرج جملة وتفصيلاً عن اللغة المفهومة وصار على المستمع أن يعيد ذهنياً صف الكلمات كى يلتقط المعنى المراد.

دعنا نساوى بين جنس الفاعل وجنس المفعول كأن يقول:

Ali beats Mohammad
Ali frappe Mohamet

عدِّل موضع الكلمات وتساءل عمن يكون عليه الحق: "على" أم "محمد". تجد الأمر يختلف مع كل تغيير.

ولكن ألا يلاحظ القارئ الكريم معنا أن اللغات التركيبية تميل عبر القرون وبتحديد أدق عبر الاستعمال الطويل إلى أن تصبح تحليلية؟ تماماً مثلما أصبحت الإنجليزية القديمة التى كتبت بها ملحمة "بيوولف" واللاتينية و العربية المشهورة بالفصحى؟

هل نستطيع أن نحكم على هذا التغير بأنه تطور؟

ينهانا اللغويون الوصفيون عن مثل هذا القول ويسوقون فى هذا الصدد أسباباً وجيهة، من بينها أن مثل هذا القول ينطوى هو الآخر، على حكم قيمى. ولكن ألا يستند مثل هذا الحكم إلى أساس موضوعى كامن فى أحكام واقعية Jugements de fait، أكثر قليلاً على الأقل، من القول بأن اللغات الثلاث الحديثة "الفرنسية والإنجليزية والمصرية" لا تعدو أن تكون سوى "إنحرافات" عن اللغات الأصلية المقدسة اللاتينية والأنجلوساكسونية والعربية المشهورة بالفصحى؟

وإذا ما عدنا إلى موضوعنا، وجدنا أن هذا التغير أو التطور هو الذى جعل من إعراب الأسماء Declension زائدة دودية حقاً وصدقاً، بل وأدى إلى قصر "الياء والنون" كمورفيم الدلالة على جمع المذكر السالم فى سائر الحالات الإعرابية من خفض ونصب ورفع، وخصوصاً الحالة الأخيرة وهو الأمر الذى أسقط مشتق المورفيم Allomorph أى الواو والنون وصار فى إمكاننا أن نقول:

الموظفين بيزوغو.

بدلاً من:

الموظفون يزوغون.

دون أن ينقص المعنى ذرة أو يلتبس شعرة.

ولعله من الطريف أن سقوط الواو والنون كان مدوياً إلى حد انعكس على اللغة العربية المشهورة بالفصحى ذاتها. إذ بالغ المتفاصحون فى مقاومة جاذبية "الياء والنون" حتى وقعوا فيما يسميه اللغويون بالمغالاة فى الصواب (حسب مقاييسهم بطبيعة الحال) Hypercorrection فلقد كتب صحفى مخضرم فى صحيفة "أخبار اليوم" الأسبوعية تحت عنوان "الشعار الذى مات":

"لم يكن ثوار يوليو سياسيون متمرسون ولا كانوا علماء متخصصون ولكنهم ألهموا إلهاماً أن صلاح مصر يكمن داخل إطار المثلث الذى عبروا عنه بالشعار المشهور: الاتحاد والنظام والعمل"[3].

ويبدو واضحاً ان الكاتب أضفى أفضلية كبرى فى مستوى اللاشعور على "الواو والنون" لكنها أفضلية ميكانيكية أدت إلى ظهورها فى أماكن غير لائقة أى إلى الخطأ بدلاً من الصواب المنشود، ذلك الصواب القديم الذى لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا من أمامه:

"لم يكن ثوار يوليو سياسيين متمرسين ولا علماء متخصصين... إلخ

وغنى عن الذكر أننى لا أعرض لمضمون هذه العبارة هنا لا بخير ولا شر.

ولكن لماذا سقطت "الواو والنون" ولم تسقط "الياء والنون" عوضاً عنها؟

تكمن الإجابة على هذا السؤال فى ميل لا سبيل للجدال فيه لدى سائر اللغات الإنسانية إلى الإمالة(=التمييل) التى تتمثل فى العائلة الحامية – السامية فى تحويل "الواو والنون" إلى "ياء ونون" وبتحديد الـ "U" إلى "I" و"a" إلى "I" و"الواو" إلى "ياء" أمثلة:

أمون	أمين
ضراح	ضريح
صراح	صريح
مشتروات	مشتريات إلخ

ولعله من الملاحظ أن اللحظة التاريخية التى شهدت بدء سيادة لهجة قريش على سائر لهجات شمال شبه جزيرة العرب قبيل عصر النبوة المحمدية تحولت "اللذون": جمع الاسم الموصول "الذى" فى حالة الرفع إلى "الذين" التى كسبت الجولة النهائية فى لهجة قريش، وإن ظلت "اللذون" تتشبث بالبقاء حيناً من الزمن فى لهجة "طيئ" الأشد قدماً، وهو الأمر الذى جعل "اللذون" الغاربة تتزامن لوقت ما، فى لهجتها بطبيعة الحال، مع "الذين" الصاعدة فى لهجة قريش ومن ورائها سائر لهجات العرب، قبل أن يلحقها الاندثار التام. وصار فى وسع اللغة العربية أن تقول: "كفر "الذين" – لا اللذون – قالوا كيت وكيت".

ولعله من الملاحظ مرة أخرى أن اللغة العبرية الحديثة – وهى لغة سامية – قصرت "مورفيم" الجمع على الياء والميم "مثال: سفرديم – إيمونيم – بعليم... إلخ. ولما كان حرف الميم شقيق النون فكلاهما أنفى، ويتبادلان بسهولة، فى حالة التماثل الخلفى Regressive assimilation مثال: (ينبت / يمبت) جاز لنا أن نسأل هذا السؤال الذى يبدو لنا مشروعاً من الوجهة اللغوية التاريخية: هل عرفت العبرية القديمة – قبل إسقاطها للإعراب – "واو وميم" كمشتق لمورفيم الدلالة على الجمع فى حالة الرفع على غرار "الواو والنون" فى اللغة العربية التى اشتهرت دون سبب واضح بالفصحى؟

فسائر هذه اللغات صارت إلى جانب لغات أخرى تحليلية تسقط إعراب الأسماء. ولعل هذا هو السبب الرئيسى فى كفاية "الشهور الستة" المشهورة للمهاجر الطازج إلى "إسرائيل" كى يتقن

اللغة العبرية الحديثة أي التحليلية، فى الوقت الذى لا يكفى فيه عمر العربى كله كي يحسن الحديث أو حتى الكتابة بلغته "الأم" أو التى يزعم قادته الروحيون أنها كذلك، وأقصد "اللعق" بتركيبيتها المعروفة بطبيعة الحال.

ب) الصرفيات:

تعرف اللغة الإنجليزية تحول ما يسمى بالأفعال الجامدة Strong Verbs إلى أفعال لينة Weak Verbs والأفعال الأولى هى التى تحدد صيغة الماضى استناداً إلى تغير يطرأ على حرفها الصائت مثال:

Dive – Dove

والثانية هى التى تحدد هذه الصيغة استناداً إلى إضافة ed إلى جذر الفعل مثال: Walk – Walked.

وثمة ميل – دعنا نسميه مع العقلانيين Rationalists – بأنه فطرى لدى النوع البشرى نحو الانتظام، أى إسباغ النظام على الفوضى، وهو الميل الذى يدفع الإنجليزى إلى أن يقول عفو الخاطر: I Knowed أى يُسلك بصورة لا شعورية صيغة Knew غير المنتظمة كيلا نقول الشاذة فى ُعقد الانتظام الذى يضم كلاً من returned, failed, gained بل ومعظم أفعال اللغة الإنجليزية. ولكن هذا الشخص الرائد الذى يستشرف الأفق اللغوى القادم قد يتعرض للاتهام من جانب متفاصحين إنجليز ـ لو كان لهم وجود ـ بـ "هدم" اللغة الإنجليزية بل والأمة الإنجليزية بأسرها خلال الكفر بمقدساتها العريقة. ولكن اللغويين، ولكونهم علماء، يتريثون طويلاً قبل أن يرموه بالخطأ فى القاعدة السائدة، مجرد الخطأ. إذ أن المستقر لديهم أن المرء لا يخطئ مطلقاً – وأكرر مطلقاً – فى لغته القومية Lengua Materna وما يبدو خطأ فى حديث من يتحدث بلغته القومية Native Speaker قياساً على لغة معياريةstandard أو قل فصحى، ليس سوى الصواب الآخر الذى قد يخبئه لنا رحم المستقبل.

مقدمة طويلة حقاً. لكننا نراها ضرورية، مع ذلك قبل الدخول فى هذا المجال فى لغتيْنا: المصرية القومية والعربية الوافدة من جيراننا في غرب آسيا. ولننظر إلى هذا الجدول:

صيغة	مثال	صيغة	مثال
فاعل	حائر	فعلان	حيران
أفعل	أجرب	فعلان	جربان
فعول	كسول	فعلان	كسلان
فعل	بَطِر	فعلان	بطران
فعيل	مليئ	فعلان	مليان
مفعول	مكروب	فعلان	كربان
مفعل	متْعب	فعلان	تعبان
مفعال	محتاج	فعلان	حوجان

ما الذى حدث؟ وبعبارة أدق: ما الذى يحدث؟

الجواب المباشر: الفوضى تنتظم. أما إذا قال أحدهم أن صيغة "فعلان" كانت موجودة هى الأخرى فى اللغة العربيةالمشهورة بالفصحى، وعلى نفس المستوى مع تلك الصيغ الأخرى المذكورة عاليه، فإن حديثه ذاك يكون فى الديانات وليس فى اللغويات. فكل ما هو جديد كان موجوداً دون شك، بشكل جنينى فى الماضى وما قد يجد فى المستقبل موجود هو الآخر، بنفس الشكل فى الحاضر. لكن الأهم هو أن اللغة المصرية الحديثة أسقطت تلك الصيغ التى تشكل وتعكس عدم الانتظام، وأبقت على الصيغة التى نظمت الفوضى: فعلان. ولعله من الملاحظ أن هذه الصيغة تواصل تقدمها على سائر الصيغ الأخرى، حتى ولو استحدثت ما لا تعرفه اللغة العربية، مثال: "حزين" التى تتحول تحت سمعنا وبصرنا وبشكل هادئ إلى "حزنان" التى ظلت اللغة العربية تجهلها طوال عمرها كله. ولعلنا نضيف أن اللغة المصرية الحديثة تتوسع فى هذه الصيغة كى تستحدث صفات لا تعرفها اللغة العربية مثل "دفيان" أى ذلك الذى يشعر بالدفء، و"بردان" أى ذاك الذى يشعر بالبرد و"غديان"، ذاك الذى يشعر بالشبع والامتلاء و"زوران" و"خرمان" و"هفتان" إلخ

والآن لننظر مرة أخرى إلى هذا الجدول:

صيغة	مثال	صيغة	مثال
فعل	كوب	فعالة	كباية
فعلة	حبة	فعالة	حباية
مفعال	مبراة	فعالة	براية
فعلة	حدأة	فعالة	حداية
فاعلة	طائرة	فعالة	طيارة

على هذا النحو يفضل النوع البشرى، ولأمر ما، أن يقتصد فى بذل طاقته بتنظيم الفوضى. ولأمر ما ننتمى نحن المصريين إلى هذا النوع بالذات دون سائر الأنواع الأخرى. ولأمر ما نقتصد فى بذل طاقتنا مثلما يقتصد. و سيان بدا هذا الأمر غريباً إلى حد إثارة الذهول ومكروهاً كراهة التحريم بالنسبة للذين يرون الصواب المطلق والكمال المطلق والبهاء المطلق حكراً على الماضى، و بالتحديد على "العصور الوسيطة"، أو بدا عادياً لنا - نحن العاديين - فإن اللغة المصرية الحديثة تميل إلى تنظيم الفوضى والاضطراب خلال هذه الصيغة ولسبب ما، جزافى بطبيعة الحال، تخصصها للدلالة على الآلات بصفة عامة. وليس مجهداً فى ظننا أن يتذكر القارئ الكريم سلسلة طويلة فى هذا الشأن: خلاطة، غسالة، تلاجة، فوالة، كماشة، بتَّانة، زحَّافة، شماعة... إلخ.

ولا نرانا بحاجة ماسة إلى مواصلة تعداد الصيغ الشاذة غير المنتظمة التى نظمتها المصرية الحديثة، بل ومضت وراءها لهجات عربية فى المنطقة شوطاً ما فى نفس الطريق. لكننا ننتقل إلى نقطة أخرى، فى نطاق "الصرفيات" أيضاً حققت المصرية الحديثة ووراءها معظم اللهجات العربية فى المنطقة كالشامية والنجدية والحجازية والخليجية والليبية، قفزة هائلة وضعتها فى مقدمة كافة اللغات الحية المعروفة - لنا بطبيعة الحال - ونقصد بذلك إسقاطها التصريف بشكل كامل عن الاسم الموصول إذ بينما تحتفظ العربية بست صيغ مختلفة لهذا الاسم بالإضافة إلى مشتقين آخرين وهى كما يلى:

"الذى - التى - اللذان (اللذين) - اللتان (اللتين) - الذين - اللواتى"

ولنغض الطرف عن "اللاتى" و "اللائي".

وتحتفظ الفرنسية بأربع صيغ له، فضلاً عن مشتقين آخرين، هى:

Le quel (auquel) – La quelle – les quels (auxquels) les quelles

إلا أننا نجد فى المصرية الحديثة اسماً واحداً أى صيغة واحدة له وهى "اللى"، وبذلك تكون هذه اللغة التى يقبل "المتعلمون المصريون" وصفها - فى ظل دونيتهم المزمنة - بـ"االعامية" قد أسقطت عن الاسم الموصول تجلياته المربكة أى جعلت منه صوتاً موسيقياً مفرداً أو رمزاً رياضياً بحتاً.

جـ) الصوتيات:

يعد هذا المجال هو أوضح المجالات وأشدها حساسية التى يتبدى فيها التغير فى الظاهرة اللغوية. ويقول "رونالد لا نجاكر" فى كتابه "اللغة وبنيتها" Language and its structure "*أن اللغات تتغير ولا تتدهور، وإلا لكنا قد هجرنا الكلام منذ أمد بعيد إلى القباع أى صوت الخنازير*". واللغوى الكبير يملك الحق كل الحق فى هذا القول. فاللغات كسائر ما فى الكون تتغير، وأبرز مظاهر هذا التغير تتضح فى المجال الصوتى. ولعله من المعروف أن سائر الشعوب التى تنطق إذاعاتها وتلفزيوناتها باللغة العربية تخلّت عن حرف القاف على سبيل المثال، مرة لصالح الهمزة "قال – آل" ومرة لصالح الجاف "قويدر – جويدر" ومرة ثالثة لصالح "الغين" قادر – غادر" (عند أشقائنا-أشقائنا السودانيين، ومناطق معينة في زمام "منوف" بالوجه البحري). ولم تبق "القاف" القديمة إلا فى جيوب معزولة محدودة فى مناطق جبلية فى اليمن، هذا إذا كانت قد احتفظت بمخارجها القديمة دون تغير. ولعله استاذنا "إبراهيم أنيس" هو الذى أوضح أن حرف "الضاد" كما كان القرشيون ينطقونه قد اختفى تماماً حتى من اللغة العربية المشهورة بالفصحى بعد أن تحول إلى "دال" مفخمة على ألسن الذين يدعُون أنفسهم بالعرب فى الوقت الحاضر، رغم أن كثيرين منهم يلذ لهم أن يصفوا هذه اللغة ذاتها بلغة الضاد! و العرب الأقدمون وتحديداً عرب العصور الوسيطة أنفسهم تخلَّصوا من الهمزة التى لا تقل، إن لم تزد، فى ثقلها عن "القاف" مرة لصالح الواو مثلما حدث فى نأى – نوى وليس نؤي ومرة لصالح الياء فى ذئب ـ ذيب بل وحذفوها فى بعض الأحيان فى سماء – سما وإن أخذ هذا التخلص فى كثير من الأحيان شكل الاضطرار الشعرى وزناً أو قافية. ولعله من المعروف أن الحجازيين تميَّزوا إبان عصر النبوة المحمدية بتحويل الهمزة إلى "ياء" بصفة دائمة وأياً كان موضعها فى الكلمة مثل "أثرب"... "يثرب"، فالحجازيون لا يهمزون.

ولكن هل هذا التغير لا يحكمه قانون؟

يذهب بنا الظن إلى أن "لانجاكر" كان يرد على الذين يقولون بتدهور اللغات. ومعظم "المتعلمين المصريين"، وخصوصاً أكاديميوهم يرون ذلك ولا يكفون عن ترديد أغانيهم البائسة فى التحريف والتصحيف لأصلٍ كاملٍ مقدسٍ لا يعرف التغير ودع عنك التطور. لكنه ظل مقيداً بالمنهج الوصفى ولم يشأ أن يتطلع إلى مثل هذا القانون البسيط الذى يحكم التغير فى هذا الصدد:

الاقتصاد فى بذل الطاقة. فمثل هذا القانون هو الذى يفسر لنا بصفة عامة، تخلى المصريين المعاصرين عن الحروف الثقيلة أى تلك التى تحتاج جهداً عضلياً أكبر فى إنتاجها عبر الأجزاء العميقة من الجهاز الصوتى. وفى ضوء هذا القانون يأتى تخلص المصرية الحديثة من الصائتين المدغمين أو ما يسمى بالـ "Diphthong" وتحويلهما، كل على حده، إلى صائت بسيط:

بيْن بين

موْز مُوز

على أن الصائتين البسيطين هذين اللذين استحدثتها اللغة المصرية الحديثة يُعدَّان صوتين جديدين، بصفة كاملة، على اللغة العربية الكلاسيكية، بل وأكاد أقول سائر اللهجات المنطوقة فى المنطقة، تلك اللهجات التى كان لقانون التطور أن يعمل معها عمله، وأخص منها الشامية التى يقول فيها الشاعر:

ياريْت.

إنت وأنا بالبيْت

شى بيْت، أحلا بيت.

ممحى ورا حدود العتم والريح... إلخ.

وتقول سطور أخرى فى نفس اللهجة:

وقِّف يا أسمر فيه إلك عندى كلام.

ها البنت يا اللى بيْتها "فوْق" الطريق

حمّلتني "اليوْم" لعيونك سلام... إلخ.

هذه شواهد وملاحظات محدودة حقاً، لكنها تتمشى مع قانون التطور الذى يقوم على الاقتصاد فى بذل الطاقة وبمقتضاه تتجه الأصوات اللغوية عند إنتاجها بصفة عامة، إلى التحرك من أعماق الجهاز الصوتى إلى أطرافه. والمذيعة المصرية التى تنطق "القاهرة" على هذا النحو: "الكاهرا" لا ترتكب خطأ فاحشاً ولا جرماً غير مغفور، يستدعيان ذلك الاستنفار الذى يدب وسط تلك الكتائب والسرايا التى تنتدب نفسها بنفسها، للتصحيح الذى لا يخلو من هزء وتأنيب وتوبيخ. والمعروف أن اسم عاصمة مصر هو: "كاهى - رع" ومعناه "أرض رع". و نتيجة لعوامل التحات اللغوي التي حذفت حرف "العين" في النطق القبطي،pH أصبحت "كاهي-را" ، و يكتفى

مصريون كثيرون بإطلاق اسم "مصر" عليها. و ليس هناك من يسميها "القاهرة" سوى الكتب والصحف وبعض مذيعى ومذيعات التلفزيون.

ولكن لماذا اختلفت اللغة العربية القديمة كل ذلك الاختلاف فى مصر، عنها فى سائر أرجاء المنطقة التى تمتد من الخليج إلى المحيط؟ و بعبارة أخرى لماذا سلكت هذه اللغة تلك الصيرورة بالتحديد كى تصل إلى ما أسميه بـ "اللغة المصري الحديثة"؟

فى هذا السؤال تكمن فرضيتى، وبادئ ذى بدء أود أن أشير إلى ما أراه بديهيات أولية، وإن كانت مطمورة تحت ركام التخلف الذى يتبدى بألف قناع وقناع. القناع الأول هو ما يبدو تعليماً مصرياً والثانى هو ما يبدو إعلاماً مصرياً:

"مصر بصفة أساسية أفريقية والحضارة المصرية القديمة حضارة سوداء بصفة أساسية والمصريون حاميون بصفة أساسية. حقاً تطوروا وحقاً تأثروا، تطوروا بفعل العوامل الداخلية وتأثروا بالعوامل الخارجية كالهجرات والغزوات البشرية والثقافية والدينية التى حلت بأرض "إيزيس" مرة من البحر المتوسط ومرة من البحر الأحمر ومرات خلال شبه جزيرة سيناء، لكنهم استمروا مصريين، وما كانوا ليذوبوا بل ذَوَّبوا أو بتعبير آخر استوعبوا ومَصَّروا. لماذا؟ لسبب بسيط: هم الأعظم حضارة".

ولم يكن هوارس Horace شاعر الرومان ومؤرخهم الكبير يكتب عبارة خلابة إذ كتب:

Capti Captivos Ceperunt

ومعناها: لقد أسر المأسورون الآسرين.

بل يضع قانوناً إنسانياً شاملاً يصدق على اليونانيين والرومان مثلما يصدق على سائر المتحضرين عندما يغزوهم الأقل منهم حضارة وإذا كانت مصر قد عرفت أعظم حضارة سطعت فى العالم القديم، في العصرين الحجري الحديث و البرونزي، فإن جميع الذين هاجروا إليها أو غزوها واستقروا على أرضها قد أصبحوا متمصرين ثم مصريين أقحاح وبعبارة أخرى أصبحوا وهم الغزاة الوافدون، أسرى حضارتها وثقافتها بل ودياناتها. ولا يخالجنى كثير شك فى أن البدو الرحل الذين اتصلوا بمصر لسبب أو لآخر، من عبرانيين و عرب قد تحولوا إلى مستقرين يعيشون على الزراعة لا الرعى والحرف و الصناعة لا الغزو والإغارة. فالقانون يقضى في الظروف الطبيعية بتحول الأقل حضارة إلى متحضر وليس العكس.

وإذا كان المصريون – لا يزالون دون سائر شعوب المنطقة – يقدِّسون المرأة ويسبغون على السيدة زينب صفات "إيزيس" إلاهتهم العظمى :

"أم العواجز"

"الطاهرة"

"رئيسة الديوان"

"الست"

"ندهة المنضام" الخ

ويضفون على شقيقها "الحسين" صفات "أوزير" إمام الشهداء المفصول الرأس، فإن الاسم يكون قد تبدَّل ولكن الروح ظلت والأولى استمرت مصرية أصيلة.

إلى أين اتجه؟

لقد تطورت اللغة المصرية القديمة من الهيروغليفية إلى الديموتيكية ثم القبطية ولكن هذه القبطية اختفت من الدواوين بل ومن الكنائس التي تتحوَّل صلواتها إلى العربية. فهل اندثر لسان المصريين من الوجود؟

على أننا نستخدم كلمة القبطية هنا استخداماً لغوياً محضاً دون أى ارتباطات أو ظلال دينية. ولعلنا نذهب فى هذا الصدد إلى أن الشعب الثلاث للديانة الإبراهيمية وهى الموسوية والمسيحية والمحمدية نشأت فى ظل العقائد المصرية القديمة من التوحيد إلى التلثيث، ومن البعث والخلود إلى الحساب والميزان ومن الحج والطواف إلى الطهور وتدنيس الخنزير، وفضلاً عن ذلك لاقت تجلياتها فى مصر مصيرين اثنين لا ثالث لهما: الرفض أو التمصير.

هل اندثرت من الوجود اللغة المصرية القديمة بآخر شكل معروف لها، وهو القبطية؟ هذا هو السؤال.

في سائر الأحوال يذهب اللغويون إلى أن الإنجليزية الحديثة لغة جرمانية رغم الكم الهائل من الكلمات اللاتينية – اليونانية التى دخلتها مرة بشكل مباشرة إبان الاحتلال الرومانى للجزيرة البريطانية ومرة بشكل غير مباشر إبان الحكم الفرنسى – البريتانى لها. وتقدر الموسوعة البريطانية الأمر على هذا النحو:

The Vocabulary of modern English is approximately half Germanic old English and Scandinavian and half Italic or romance (French and Latin) with copious importations from Greek in science and borrowings from many other languages. Britannica p. 500 V.4.

أى:

"نصف ألفاظ اللغة الإنجليزية الحديثة على وجه التقريب يرجع إلى أصل إنجليزى قديم جرمانى واسكندنافى، والنصف الآخر يعود إلى أصل إيطالى أو رومانسى (فرنسى ولاتينى) مع مستوردات غزيرة من اللغة اليونانية فى المجالات العلمية واستعارات من لغات عديدة أخرى."

ومعنى هذا كله أن اللغة بصفة أساسية بنية Structure وليست كلمات منفصلة أو تعبيرات متناثرة.

وإذا كان لنا أن نعود إلى حديث دكتوريْ الجامعة حول خطورة الدعوة إلى ما أسميناه معاً بالعامية على ما يسمى بالقومية العربية والإسلام فإننا ما كنا نود لأكاديميين متخصصين أن يغادروا مجال تخصصهم الأكاديمى كى يفتوا باطمئنان راسخ فيما لا يفقهون فيه لا كثيراً ولا قليلاً. فالقومية تولد وتترعرع وفى خط موازى (أو موازٍ) تُولد وتترعرع لغتها، وليس هناك شواهد تاريخية حاسمة تخالف ذلك. و إذا كان للقوميات أو بالأولى الجماعات القومية و قبل-القومية المنتشرة فيما بين الخليج الفارسي والمحيط الأطلنطي أن تتحد يوماً ما تحت ظل قومية موحدة فلسوف تنشئ هذه القومية لغتها التى نرجح أن تكون إحدى اللغات أو اللهجات الراقية المنطوقة فى المنطقة. وليس هناك احتمال قوى أن يعود من يسمُّون أنفسهم بالعرب إلى التحدث باللغة العربية القديمة الكلاسكية الميتة المشهورة بالفصحى التى اتخذت لهجة قريش نموذجها الأعلى، مهما اندمجوا أو اتحدوا، مثلما يتعذر أن نتخيل أن تعود أوروبا إلى التحدث باللاتينية مهما اتحد الأوروبيون أو اندمجوا. أما الخطر الذى يخشاه دكتورا الجامعة على الشعبة الأخيرة من الديانة الإبراهيمية حسب ما نرى، فالديانات تنشأ وتستمر فى الوجود لأسباب أخرى خلاف الارتباط بلغة مقدسة، أياً كانت. فالهندوسية لم تنقرض بانقراض السنسيكريتية والمسيحية لم تتلاشى بزوال لغاتها المقدسة العديدة كالأرامية واليونانية القديمة واللاتينية. والعقائد المصرية القديمة لم تندثر بانحسار اللغة المصرية القديمة.

هوامش ومراجع:

(1) يلاحظ القارئ الحصيف، ولاشك، أن حديث الدكتورين الأكاديميين يتناول "عاميتين" لا عامية واحدة، إحداهما المصرية. ولكن أياً منهما لم يحدد أى عامية يقصد على اعتبار أن هناك عامية واحدة (*هكذا!*) إزاء فصحى واحدة في المنطقة.

(2) Dialects of American English. Carol Reed.

(3) أخبار اليوم ص 8 يوم 7/ 9/ 1985.

الفصل التاسع

حول أبجدية جديدة

أ- القبطى مصرياً

يعد المصريون، باسمهم هذا، واحداً من الشعوب التاريخية المعدودة التى أصبحت تعرف بالاسم الذى أطلقه عليها الأجانب. فلقد أطلقت، على سبيل المثال، الشعوب والقبائل المجاورة اسم الجرمان والكوريين على الشعبين اللذين نعرفها فى أقصى غرب أوروبا وأقصى شرق آسيا بهذين الإسمين. وعلى نحو مماثل أو مشابه أطلق الأسيويون الغربيون المعروفون باسم الساميين اسم "مصر" أى "الحد" فى لغاتهم على هذه الأرض السوداء أو "كيميت" وفى وقت لاحق و بفعل عملية التحات اللغوى "كيمى" باللغة المصرية القديمة[1] التى تتاخم بلادهم.

وعلى وجه أكثر تفصيلاً أطلق الأشوريون عليها اسم "مصر" والأراميون اسم "مصرين" والعبرانيون اسم "مصرايم"، والعرب اسم "مصر" مرة أخرى. ومضى العبرانيون، وسار وراءهم العرب، فى نسج أسطورة والأولى خرافة فقيرة نسبت المصريين إلى من يسمى "مصرايم" أحد أحفاد "نوح"[2]، ومن "مصرايم" هذا - هكذا تمضى خرافة الساميين - اشتق اسم مصر الذى عرفت به أرض "إيزيس" فى الكتب المقدسة للشعب الثلاث للديانة الإبراهيمية: الموسوية والمسيحية والمحمدية، أي فى العهد القديم والعهد الجديد والعهد الأخير على التوالى. وتقف هذه الخرافة كأساس لخراريف عديدة لاحقة ليست خرافة اكتساب "مصر" اسمها من اسم الملك "مصر بن الملك سيف بن ذى يزن" إلا أحد تجلياتها.

لكن المصريين، مع ذلك، ينفردون بين سائر الشعوب التى سماها الأجانب بفقدانهم لاسم خاص يطلقونه هم على أنفسهم، إذ لا يزال الألمان أو الجرمان كما أسماهم لأول مرة فى التاريخ تاسيتوس Tacitus أكبر مؤرخ رومانى كتب باللغة اللاتينية (56م - 120م. على وجه التقريب) فى كتابه المعروف *Germania*[3] يطلقون على أنفسهم اسم دويتش Deutsch وعلى بلادهم اسم دويتشلاند كما نجد الكوريين يسمون بلادهم "تشوسون" Choson التى تعنى اشتقاقياً "بلاد

الصباح الهادى"[4] و ينسبون أنفسهم إلى هذا الاسم على هذا النحو Chosonsaram، وبذلك يكون اسم الجرمان مرادفاً من الناحية الدلالية لاسم "دويتش" ونفس الأمر يصدق على الكوريين Koreans و"تشوس سارام" وكل ما هنالك أن الإسمين الأولين في الحالتين هما ما يطلقه الأجانب والإسمين الآخرين هما ما يطلقه السكان الأصليون على نفسى المسمى. ولعل هؤلاء وأولئك يقفون نفس الموقف لدى إطلاق اسم الغزاة والفاتحين على مسمى واحد.

و مع ذلك ظل المصريون، كما أسماهم الأسيويون الغربيون القدماء أو "المصاروة" كما يدعوهم الأسيويون الغربيون المحدثون يحتفظون حتى غروب العصور الوسيطة باسم خاص يدل عليهم وحدهم دون غيرهم وهو الأقباط. ولقد دأب المؤرخون العرب أنفسهم على أن يشيروا إلى المصريين بصفتهم أقباطاً طوال تلك العصور. وكانوا يكتبون: الأقباط المسلمون أو الأسلميون والأقباط المسيحيون أو النصرانيون. ولا غرابة فى الأمر، فلفظ "قبط" مشتق من أحد الأسماء التي أطلقها المصريون القدماء على عاصمة بلادهم "منف"[5] وهو "ها - كو - بتاح" أى "بيت روح بتاح" وتحولت "هاكو بتاح" هذه إلى "هاكو بتاه" بفعل عوامل التحات اللغوى المعروفة التى تطول في هذه الحالة أواخر الكلمات فتُحوِّل "طازج" إلى "طازة" و "فلوزج" إلى "بلوظة"، و "نيلج" إلى "نيلة" و "ماشج" القبطية ⲙⲁϣⲁϫ إلى "ماشة" المصرية على سبيل المثال بطبيعة الحال. وفى وقت لاحق أطلق المصريون القدماء الاسم على بلادهم من باب إطلاق اسم العاصمة على القطر بأكمله، وهو ما نراه في حالات أخرى مثل "الجزائر" العاصمة والجزائر البلاد وهو الاسم، مرة أخرى. الذى عرفهم به اليونانيون على هذا النحو *Aiguptos*، وانحدر إلى سائر اللغات الأوروبية الحية، وإن حمل خصائص هذه اللغة أو تلك من Egypt إلى L'Egypte إلى Egitto إلخ.

على أن بغيتى فى هذه الشأن ليست بحال من الأحوال استبدال لفظ المصريين بالأقباط - إلحاقاً من جانبى للباء بالمأخوذ لا المتروك - بل استخدامها - دلالياً - بشكل مترادف وحسب. ولعل قصر اسم "الأقباط" على المصريين المسيحيين على نحو ما اتفق عليه، ولأمر ما، مصريون عديدون على الضفتين المفترضتين: المسيحية والمحمدية، لعمل ينطوى على لبس يتجلى على نحو أوضح متى صادفنا عبارة اللغة القبطية أو الأبجدية القبطية فليس فى حدود معرفتى، لغة دينية سيان كانت

مسيحية أو موسوية أو محمدية أو حتى بوذية، وإلا نكون عندئذ قد غادرنا نطاق العلم إلى نطاق المجاز الذى يتسع حتى للغة الصمت ولغة العيون ولغة الآى آى. وفى سائر الأحوال:

"دخلت الحروف اليونانية القديمة على اللغة القبطية قبل ميلاد المسيح. ويحتفظ متحفا باريس ولندن بنصوص قبطية وثنية أى لغتها مصرية وحروفها يونانية وإن احتفظت ببعض الحروف الديموطيقية "[6]

لكن هذا اللبس يزدهر إلى فوضى ضاربة الأطناب عندما يقرر مسيحيون دون أدلة كافية أن الشعب المصرى شعب أبيض من شعوب البحر المتوسط قادم من جنوب أوروبا حاملاً العهد الجديد أى الإنجيل فى لغته اليونانية بطبيعة الحال، وفى عبارة المؤلف الخاصة:

"المصريون شعب أبيض من جنس البحر الأبيض المتوسط وقد نزحوا إلى وادى النيل واستوطنوه بالتدريج ثم اختلطوا بشعوب مختلفة... "[7]

وعندما يقرر مصريون محمديون أو محمديو الهوى دون أدلة كافية بنفس الدرجة أن المصريين شعب عربى سامى قادم من غرب آسيا حاملاً العهد الأخير أقصد "القرءان"، أو باتوا وأصبحوا كذلك:

"وآثار الفتح العربى لمصر تعفينا بعد عما يقتضيه التقصى العلمى من الحالة فى هذا الصدد. فنحن ما نكاد نبلغ القرن الثامن (الميلادى)، ونلقى أول مصرى كتب عن مصر بعد الفتح وهو ابن عبد الحكم حتى نجدنا أمام مجتمع عربى بارز المعالم مثل مجتمعات دمشق والمدينة ومكة المعاصرة. فأهل هذا المجتمع عرب وتفكيرهم عربى وتقاليدهم عربية وليس فى عروبة من ليس بينهم من أصل عربى كابن عبد الحكم نفسه أى تكلف أو زيف. ومصر ابن عبد الحكم ذاتها مصر سامية عربية منذ أن كانت الخليقة وليس فى تاريخها الطويل ما يستحق أنْ يذكر سوى قصص إبراهيم وإسماعيل وموسى ويوسف ومريم القبطية وإيثار النبى القبط وبغض الله كفر المصريين الأولين "[8]

وكأن وادى النيل بالنسبة لهؤلاء ولأولئك لم يكن سوى سهل فسيح ممتد غير مأهول بشعب عريق، وفى أقل تقدير أعرق من غزاته جميعاً سواء الذين قدموا من جنوب أوروبا أو من غرب آسيا.

ولست أتجاهل، ولا ينبغى لى، ما يذهب إليه البعض من أن لفظ "مصر" ذاته مشتق من "ما - س - را" التى تعنى بالمصرية القديمة: "بيت أبناء الشمس" أو ما يذهب إليه بعضهم من أن اللفظ مشتق من "مجر" باللغة المصرية القديمة من جانب وما يقول به آخرون من جانب آخر من أن اسم "دويتش" Deutsh منحدر من لفظ أطلقه الرومان على الذين يتحدثون اللغة العامية أى الألمانية دون اللغة الفصحى، أى اللاتينية وقت ذلك مكان ذلك وهو Theotheseus فهاتان المعلومتان، مع افتراض صحتهما، لا تخدشان من قريب أو من بعيد - مع ما يشبههما من معلومات مستفيضة أخرى - ما أذهب إليه فى هذا الصدد، وهو على وجه التحديد:

ثمة اسم يطلقه الأجانب وثمة اسم آخر يطلقه السكان المحليون على نفس المسمى، وهو فى الحالة الأولى المصريون/ الأقباط. وفى الحالة الثانية الجرمان/ الدويتش بصرف النظر عما يسفر عنه اقتفاء أثر كل لفظ على حده إلى أصوله الأولى التى ضبَّبها، دعنا نعترف بعد المسافات وانحلال الخراريف إلى بديهيات، وخصوصاً عند المتعلمين المحليين أى ضحايا الأيديولوجيات التى يسيِّدها الغزاة، ثم يواصل تسييدها من بعدهم أتباعهم الذين ينحدرون من أولئك الضحايا أنفسهم.

أترانى أستطيع، بعد كل ذلك، أن أخلُص، وبحذر، إلى أن لفظ قبطى ومشتقاته يرادف من الوجهة الدلالية لفظ "مصري" ومشتقاته[9]؟

على أى حال. هذا ما يطمئن إليه فؤادى.

ومعنى القول أننا كمصريين - وسواء أكنا مسيحيين أو لم نكن نملك الحروف القبطية واللغة القبطية والتراث القبطى ملكية الأحفاد لتراث الجدود.

ب- الهيروغليفية، لا الفينيقية، هى أم الأبجديات فى العالم:

يرى "جى. جيلب" فى كتابه "دراسة فى الكتابة" A Study of Writing أن "*الكتابة نسق للتواصل بين البشر عن طريق علامات مرئية تقليدية على العكس من الصور التى يرسمها الفنانون، فهذه تعد علامات شخصية لا تقليدية*" ويتفق معه فى الأمر جمهرة الباحثين فى الموضوع. لكن هؤلاء وإن اختلفوا طويلاً حول الاسم الذى ينبغى إطلاقه على الأبجدية الأولى التى ظهرت فى العالم القديم، وهل هو الأبجدية السامية "الفينيقية" أو أحد أشكال الكتابة المقطعية الأسيوية الغربية: "السومرية" إلا أنهم يتفقون على أن هذه وتلك إنما تضرب بأشكالها دون أسماء حروفها إلى الكتابة المصرية القديمة وبالتحديد الهيروغليفية وهو لفظ يونانى قديم يفيد "الكتابة الإلهية"

ولا يزيد هذا اللفظ اليونانى عن نقل التعبير المصرى القديم نقلاً حرفياً. فالتعبير المصرى فى هذا الصدد هو : "ميدو نوتر" .

ويقول "جيمس هنرى بريستيد" حجة المصريات الكبير:

"تؤيد الدلائل رأى من قال أن هؤلاء المصريين الذين عاشوا فى عصر ما قبل التاريخ الذين تواريهم الجبانات هم وأجدادهم كانوا أقدم مجتمع عظيم على وجه الأرض، استطاع أن يضمن لنفسه غذاءه باستئناس الموارد البرية من نبات وحيوان، على حين أن قهرهم للمعادن فيما بعد وتقدمهم فى اختراع أقدم نظام كتابى قد وضع فى أيديهم السيطرة على طريق التقدم الطويل نحو الحضارة "[10]

ويقرر اللغوى الإنجليزى المشهور "سيميون بوتر":

"كافة الأبجديات فى العالم تنحدر عن أصل مشترك واحد فهذه الأبجديات جميعا اشتقت من الكتابة الصورية التى نشأت فى مصر.[11]

ويشير "جاردنر" عالم المصريات الكبير وصاحب "النحو المصرى" الذى لا يزال يُعد عمدة اللغة المصرية القديمة فى مرحلتها الهيروغليفية إلى ما يلى:

"ظل التاريخ المدون فى حكم العدم حتى اكتشف المصريون قبل نهاية حقبة ما قبل الأسر مبدأ الكتابة الصورية (وفى عبارته الخاصة: Rebus or Charade) . وتمثل الاتجاه الجديد فى استخدام الصور، ليس فى الدلالة على الأشياء فى حد ذاتها أو على أى أفكار شبيهة، بل فى الإشارة إلى أشياء أخرى مختلفة كل الاختلاف، ولا تخضع بسهولة للتمثيل الصورى أى أسماء الأشياء التى تصادف أن حملت أى تلك الأسماء – صوتاً مماثلاً "[12]

وإيضاحاً للأمر، أسوق هذا المثال: حرف " (⌓) و هو عبارة عن صورة الفم كما هو واضح و ينطقونه "رو" بالهيروغليفية لم يعد يمثل الفم وحسب بل ويمثل أيضاً حرف "الراء" الذى يتصادف أن يقع فى أسماء أشياء عديدة أخرى. ولمزيد من الإيضاح أضرب هذا المثال من الحروف العربية النبطية الأصل. لنفترض – اتفاقاً مع آخرين – أن حرف "الجيم" "ج" كان يعد فى أصله البعيد تمثيلاً لصورة – معنى الجمل. لكن هذا الحرف لا يعود الآن يمثل لفظ الجمل بل حرف الجيم الذى يقع فى أسماء عديدة أخرى بالإضافة إلى الجمل بطبيعة الحال.

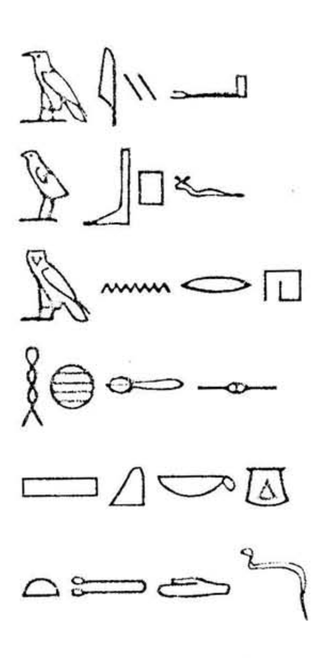
ويعتقد "ديفيد مادلين" أن الحدث الذى اخترق حدود المعرفة حقاً حول دراسة الهيروغليفية يتمثل فى اكتشاف "شامبيلون" *"أن حروف حجر رشيد تحمل قيمة صوتية إلى جانب قيمتها الدلالية"*[13].

وهذا وصف علمى دقيق للخطوة الجبارة التى خطاها العالم الفرنسى المشهور "جان فرانسوا شامبليون". ويتفوق بها لا يقاس فى علميته ودقته على ما يدرسه المصريون المعاصرون فى كتبهم الدراسية أو التى تزعم أنها كذلك، من أن "شامبليون" (حل طلاسم "اللغة" الهيروغليفية). إلا أن الباب لا يزال مواربا، بعد كل ذلك، أمام هذا السؤال:

هل تنطوى الكتابة الهيروغليفية على أبجدية أى علامات محددة تشير كل منها إلى صوت منفرد متميز يؤثر كل من غيابه و حضوره على المعنى phoneme؟

واقع الأمر أن المصريين القدماء استمروا يكتبون بالقلم الهيروغليفى الذى وصفه الغزاة/ الفاتحون القادمون من غرب آسيا فى أواسط القرن السابع م.ع.م.(=الميلادى) بـ "لغة العصافير" (ولعلهم كانوا يقصدون الطيور) لحقبة تزيد على أربعة آلاف سنة. وكان منطقياً ألا تظل تلك الكتابة طوال تلك الحقبة الزمنية الطويلة على ما هى عليه دون تغير أو تطور. وصادف ما هو منطقي تطابقه مع ما هو واقعى فى هذه الحالة. فلقد عرفت الكتابة الهيروغليفية أكثر أنساق الكتابة بدائية وهو نسق علامة – معنى Ideogram أو صورة – معنى pictogram حتى أرقى هذه الأنساق جميعا وهو النسق الأبجدى أه الألفبائى، مروراً بالنسق المقطعى Syllabry مثل علامة (⌓)التى تلفظ "نب" أوعلامة (⊓) التى تلفظ "بير" أو (𓁹) التى تلفظ "إير". وليس يهمنا فى هذا الصدد سوى الأبجدية الهيروغليفية وبعبارة أدق ما انطوت عليه الهيروغليفية من أبجدية، أرى فى إثباتها بحروفها الأربعة والعشرين دليلاً حاسماً، أليس كذلك؟ على أن "لغة العصافير" تلك حملت نسقاً أبجدياً مع ذلك أو إلى جانب ذلك.

وقد يجهل سائر المتعلمين المصريين الذين انحصروا أو حصروا أنفسهم فى نطاق التعليم غير القومي السائد فى مصر من أدنى درجاته إلى أعلاها، أي الذي يتناقض مع كل تعليم آخر في سائر أرجاء العالم الواسع، أن حرف الـ a فى النسق الأبجدى اللاتينى الذى تكتب به لغات حية عديدة فى أرجاء القارات الخمس المأهولة بالسكان منحدر عن حرف الـ "الألف" اليونانى القديم a عن نظيره الفينيقى a، وهذه جميعها عن الحرف الأول المناظر فى الهيروغليفية، ويمثله الصقر المصرى المعروف باسم "الرخم" (𓄿). و كل هذا بطبيعة الحال.من باب ضرب الأمثال لا حصرها.



ولا ينبغى أن نطوى هذه الفقرة دون أن ننصت إلى العالم الألمانى المشهور "فرنز هومل" يقول:

"صار من المحقق الآن أن القرابة قوية جداً بين أبجدية النقوش العربية الجنوبية وبين الأبجدية الفينيقية. لكن الخلاف يدور حول درجة القرابة ونوعها فإما أن الأبجديتين نشأتا عن أبجدية واحدة هى بمثابة الأم لهما، وأن هذه الأبجدية الأم كانت موجودة حوالى 2000 ق.م. وإما أن الأبجدية العربية الجنوبية تفرعت من الأبجدية الكنعانية مع تغيير بسيط أو العكس هو الصحيح. ولكن إلى جانب هذه الاحتمالات يجب أن نذكر الظروف المحلية التى قد تُزيد المسألة صعوبة فعلينا قبل كل شىء أن نُسلم بوجود حلقة اتصال مفقودة ... وتوجد اعتبارات أخرى جديرة بالاهتمام كالعلاقة بين تلك الأبجدية السامية والأبجدية المصرية القديمة التى عرفت حوالى أربعة آلاف عام قبل الميلاد، وذلك لأنه من المستبعد أن توجد أبجدية مرتين فى العالم القديم وتكون هذه الأبجدية أبجدية حروف صامتة (يقصد سواكن Consonants ب. أ) وبها إشارة الهمزة وكل أبجدية مستقلة عن الأخرى" (14).

وإذا كان الأمر كذلك وصادفنا ما كتبه د. "أحمد هبو" السورى الحلبى لدى ذكر الألواح الستة عشر التى اكتشفها الأثرى الإنجليزى الكبير "فلندرز بترى" فى منطقة "سرابة الخادم" بجبل سيناء، ويرجع تاريخها إلى منتصف الألف الثانى ق. م:

"ولقد أثار اكتشاف هذه الكتابة السينائية ضجة كبيرة فى أوساط الباحثين فى تاريخ الكتابة وحفزّهم على التكهن بأن هذه الكتابة هى حلقة الوصل بين الكتابة التصويرية (الصورية . ب.أ) والكتابة الألفبائية الأبجدية. أما الكتابة التصويرية فهى الهيروغليفية فى هذه الحالة لأن المنطقة كانت تحت السيطرة المصرية وأن الكتابة الألفائية الأبجدية المقصودة فهى الفينيقية أم الكتابات الألفبائية الأبجدية المقصودة فهى الفينيقية أم الكتابات الأبجدية فى العالم"[15]

ترى ماذا يملك المرء سوى الابتسام مرتين، الأولى لعبارة "تحت السيطرة المصرية" فى الإشارة إلى منطقة قائمة فى سيناء المصرية ومرة لعبارة "الفينيقية أم الكتابات الأبجدية فى العالم".

وليس من شيمى أن أغمط أحداً حقه، أو أحاول ذلك، فالفينيقيون ذو فضل كبير، مع ذلك على الكتابة الأبجدية القديمة. لكن هذا الفضل يتمثل، وحسب، فى نبذهم ما استمر المصريون القدماء يتمسكون به من تقاليد كتابية راسخة طمست أو كادت تطمس ملامح الأبجدية التى توصلوا هم أنفسهم إليها، أى أن فضل الفينيقيين محدد فى نطاق الروح العملية التى اكتسبوها من كونهم تجاراً وبحارة وجوابين للآفاق، وفى عبارة مجازية، استطاع الفينيقيون وقت ذاك أن يفصلوا اللحم عن الشحم، ورحلوا مغتنمين الأول مخلِّفين الثانى وراءهم. وفى عبارة كل من "داويت بولنجر" و"دونالد سيرز" فى كتابهما المشترك "مظاهر اللغة" *Aspects of Language*

"حاكى الفينيقيون عند انحناءة منتصف الألف الثانى قبل ميلاد المسيح النسق المقطعى الأحادى الساكن للمصريين طارحين جانباً الباقى"[16]

ولنلاحظ هنا أن المؤلفين الكريمين فضَّلا استخدام عبارة "النسق المقطعى الأحادى الساكن" دون النسق الأبجدى ذى الحروف الساكنة تاركين بذلك الباب مفتوحاً أمام ما أدخله اليونانيون القدماء من صوائت Vowels على هذا النسق قبل أن يسلما – على ما يبدو – بأن ما تحت أيديهما يستحق لفظ أبجدية.

و خلاصة القول اننا كمصريين نملك الأبجديات التى ظهرت فى الشرق الأوسط وجنوب أوروبا فى العصور القديمة والوسيطة والحديثة سواء أكانت نبطية – عربية أو يونانية أو لا تينية

بحكم إنحدار هذه الأبجديات عن الأبجدية المصرية القديمة. وقبل ذلك وبعد ذلك بحكم انتمائنا إلى بنى البشر، وهو نفس الانتماء الذى رفع الحرج أى حرج، عن شعوب عديدة فى سائر أرجاء المعمورة، فكتبوا لغاتهم بحروف أجنبية عنهم. ونستطيع، من ثم أن نطرح هذه ونتبنى تلك متى اقتنعنا بذلك، دون عوائق من قداسات زائفة مضفاة من الخارج.

ج) فشل الترقيع:

استقرت جمهرة اللغويين على أن الحجازيين اقتبسوا ما أصبح يعرف بالحروف العربية من الحروف النبطية المشتقة بدورها من الحروف الآرامية التى ترتبط بصلة وثيقة بالحروف الفينيقية التى ينتهى أصلها عند الأبجدية الهيروغليفية وبتحديد أكثر الأبجدية التى حملتها الهيروغليفية إذ *"عثر العالم الفرنسى "دوسو" Dussoud على نقش على قبر الملك أمرو القيس ثانى ملوك الحيرة وجد المناذرة وقبره فى "المنارة أو "إنـارة" الواقعة فى "الحرة" شرق جبل الدروز. ولم يكن هذا النقش بخط مشتق من المسند بل بقلم متأثر بالقلم النبطى".*[17] *"وبهذه الحروف النبطية أو حروف مشابهة كتب المصحف الإمام أو المصحف العثمانى. ومنذ ذلك الحين أخذ الإصلاح يدخل على هذه الحروف تلو الإصلاح بدءاً مما استنبطه اللغوى أبو الأسود الدؤلى عن الحروف السريانية من علامات الإعراب إذ وضع نقطة فوق الحرف للدلالة على الفتحة ونقطة تحته للدلالة على الكسرة وأمامه للضمة ونقطتين للتنوين. وكانت تلك النقط تتم بحبر يخالف فى اللون حبر الكتابة. ولم يتأخر الإصلاح الثانى أكثر من عشرين عاماً فحسب. إذ وضع "يحيى بن يعمر" و"نصر بن عاصم" ما يسمى بالإعجام أى نقْط الحروف المشتركة فى الرسم بنفس لون الحبر الذى يكتب به الكاتب باعتبارها جزءاً من الحرف ذاته. وكان ذلك على عهد عبد الملك بن مروان تحت ظل ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى على العراق، ثم كان الإصلاح الثالث الذى تم على يدى اللغوى الكبير الخليل أحمد الفراهيدى الذى وضع طريقة أخرى لعلامات الإعراب، وذلك بأن استبدل النقط الملونة بعلامات صغيرة تكتب بنفس الحبر. وكان مجموع ما وضعه ثمانى علامات وهى الفتحة والكسرة والضمة والسكون والشدة والمدة والهمزة والوصلة، على شكل حروف صغيرة ثم تطورت حتى صارت إلى الصورة التى نعرفها عليها اليوم. وهكذا حظيت الحروف العربية النبطية الأصل بثلاثة إصلاحات كبرى فى غضون فترة لا تتجاوز قرناً من الزمان قبل أن تصل إلى مرحلتها الأخيرة التى بقيت عليها حتى يومنا هذا أى قرابة اثنى عشر قرنا "*[18]

ترجمة النقش

1- هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذى تقلد التاج،

2- وأخضع قبيلتى أسد ونزار وملوكهم وهزم مذحج إلى اليوم وقاد،

3- الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر وأخضع معدا واستعمل بنيه،

4- على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه،

5- إلى اليوم مات 223 من اليوم 7 أيلول وفق بنوه للسعادة.

لكن صورة الحروف العربية النبطية الأصل هذه وإن غادرت عبر هذه الإصلاحات الثلاثة ضفة اللبس والتعقيد، إلا أنها لم تصل إلى الضفة الأخرى المنشودة: الوضوح والبساطة. وليس أدل على ذلك من أن يكتب "ابن تغرى بردى" وعلى سبيل المثال بطبيعة الحال هذه العبارة:

"تولى شتير بن شكل القيسى الكوفى من أصحاب على بن أبى طالب وابن مسعود رضى الله عنهما" وشتير بضم الشين المعجمة وفتح التاء فوقها نقطتان وبعدها ياء تحتها نقطتان وشكل بفتح الشين المعجمة والكاف وآخره لام".[19]

ولا نزال نقابل أصداء هذه العبارة الإرشادية فى كتاباتنا بما فيها الصحفية السطحية حتى الوقت الحاضر. ويروى أن مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر المنتخب أي المحترم سأل ضيفه ونظيره الإيرانى "مصدق" الذى كان اسمه ملء الصحف السيارة وقت ذاك عما إذا كان "مصدَّق" بفتح الدال أم كسرها.

وفى هذا دليل قوى، أليس كذلك؟، على فشل الإصلاحات الثلاثة الكبرى التى أشرت إليها، رغم ما أدته من خدمة كبيرة فى مقاومة اللبس والتعقيد الشديدين اللذين انطوت عليهما الحروف العربية النبطية الأصل.

ومع انحناءة القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين فى مصر، وعلى وجه أخص فى أعقاب ثورة برمهات 1919 شبه المجيدة دبت روح جديدة تولى وجهها مرة أخرى شطر

الإصلاح والتغيير. وإذا ما عرض المرء للأسماء التى دعت إلى إصلاح الحروف العربية النبطية الأصل فإنه يقابل بينها حتى بعض من نذروا أنفسهم فى أوقات لاحقة كسدنة لكل ما هو قديم، وبتحديد أكثر لكل ما ينتمى إلى العصور الوسيطة عصور الظلم والظلام. أكانت روح الثورة قد انحسرت؟ وكانت موجات الثورة ـ التي لا يُشترط أبداً أن تتبنى أي درجة من درجات العُنف ـ التالية قد تأخرت فى دعم الموجة الأولى؟

لا أقطع برأى فى الأمر. ولكن أهم ما أشارت إليه دعاوى الإصلاح فى هذا الصدد، كما عبرت عنها شخصيات كبيرة كأحمد لطفى السيد وطه حسين و قاسم أمين و على الجارم وجاد المولى ومحمود تيمور وعلى عبد الواحد وافى وعثمان صبرى وعبد المجيد التاجى وغيرهم كثيرون، أن الحروف العربية – النبطية الأصل تنطوى، فى حد ذاتها، على أسباب موضوعية محددة وراء اللبس والتعقيد وأهمها فى نظرى:

1 -تعدد رسم الحرف الواحد وفقاً لوقوعه فى الكلمة، ما بين أولها إلى وسطها إلى آخرها، فضلاً عن طبيعة الحرف ذاته من قبوله للاتصال بما يليه أو بما يسبقه من حروف مثال حرف "العين" الذى يصبح "عـ" و"ع" و"ـع" و"ـعـ" . دع عنك كتابة الهمزة التى تتوقف فى مدرسة على حركة الحرف السابق عليها، وفى أخرى على حركتها هى ذاتها مثال: رءوف – رؤوف، و هو الأمر الذي يرجع إلى غفلة الكتابة العربية النبطية الأصل عن تخصيص حرف منفرد لصوت ساكن يُعد أحد أصواتها الرئيسية، و لقد كان "القلقشندي" محقاً في كتابه "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" عندما أدرج الهمزة تحت عنوان "ما ليس له صورة تخصه". و هذا هو السر في كتابتها على صور تكاد تعز على الحصر، و تورث من يلم بها، أي بتلك الصور، سعادة ساذجة واعتداداً أجوف بمعرفة هى أدنى قيمة من الجهل الصريح، فهي لا تزيد و لا تقل عن مضيعة للوقت و الجهد و المال، فيما "لا رطب و لا صيص" وراءه، و بعبارة أفصح: "فلحسة".

2- الافتقار إلى صوائت مستقلة vowels. والمعروف أن الصوائت الثلاثة (الألف والواو والياء) هى سواكن فى نفس الوقت Consonants. و هذا الافتقار هو المسؤول بصفة رئيسية عن اللبس و الالتباس الذي يعوق الفهم و بالتالي النطق الصحيح. إذ يلزم لقارئ العربية، دون سواها، أن يفهم كي يقرأ، لا العكس. كما أنه مسؤول كذلك عن إضافة "واو" في آخر "عمْرو"، دون سبب منطقي، اللهم سوى تمييزه عن "عُمر"!

3- اتساع الفجوة بين ما يُكتب وما يُنطق اتساعاً لا مسوغ له على مستوى المنطق، وخصوصاً عندما نقارن بين هذه الفجوة الواسعة والفجوة الأقل اتساعاً بدرجة كبيرة فى اللغات الحية المعاصرة. فالإنجليز يكتبون night وينطقونها "نايت" بإسقاط الحرفين gh اللذين كانا يمثلان فونيماً واحداً، هو الـ الخاء. ويرجع السبب فى وجود هذه الفجوة بين كتابتهم ونطقهم إلى أنهم كانوا ينطقون "الفونيم" gh فى وقت سابق ثم سقط فى لغة الكلام التى تتطور أو تتغير باستمرار، بينما بقى فى لغة الكتابة التى تقاوم التغير والتطور وتميل بصفة دائمة إلى الثبات والجمود. وكل تطور يلحقها لابد وأن يكون قد سبقه تطور موازى (أو مواز) فى اللغة المنطوقة ولا يزال الألمان يكتبون وينطقون ذلك الفونيم الذى أسقطه الإنجليز على هذا النحو "nacht" نخت أو "نشت" أو ما بينهما، وهو "الأمر الذى يسبب حسب المستشرق الفرنسى برينيه – ونقلاً من جانبى عن عثمان صبرى – أضراراً جسيمة إذ أنها تجعل القراءة مستحيلة على جمهرة الشعب وتقف حجر عثرة فى سبيل مدنية الأمم لأنها تقاوم نشر الأفكار ونشر الثقافة". وقد كتب طه حسين فى "مستقبل الثقافة مصر" يقول:

"أريد أن تكون الكتابة تصويرا دقيقا للنطق، لا أن تصور بعضه وتلغى بعضه، لا أن تصور نصف اللفظ وتلغى نصفه الآخر. أريد أن تكون للكتابة ما نسميه الحروف (السواكن ب.أ) وما نسميه الحركات (الصوائت ب.أ) تصويراً لا إهمال فيه من جهة وتصويراً قوامه اليسر والسهولة والسرعة والاقتصاد فى الوقت الجهد والمال من جهة أخرى"[20] ونستطيع أن نضرب مثالاً على ذلك باسم "طه" نفسه الذى يُكتب بحرفين اثنين من الحروف الأربعة التى يُنطق بها: "طاها".

- رفض الكتابة العربية، الظهور على هيئة حروف مفردة، مثلما تفعل الأنساقُ الكتابية العديدة ، المعروفة لنا كاللاتينية، و اليونانية و الأرمنية و العبرية و القبطية والأمازيغية...إلخ فالكتابة العربية لا تظهر لنا، بعد أن نتعلمها، إلاَّ مشبَّكة، أي حاملة لكافة مشاكلها التي تفوق الحصر.

- لكن أغرب ما فى الكتابة العربية واشده إرباكاً فى نفس الوقت هو تأثر المكتوب بالقواعد الصرفية للكلمة، وهو الأمر الذى يؤدى بهذه الكتابة اللامنطقية إلى كتابة الصوت الواحد بحرفين مختلفين. مثال "دعا" و"هدى" فالصوت الأخير فى الفعلين واحد هو "الألف". ولكنه يكتب مرة بالألف ومرة أخرى بالياء، وذلك استناداً إلى أن الفعل المضارع لـ "دعا" هو "يدعو" ولـ "هدى"

"يهدى" . وتوغل هذه الكتابة فى لا منطقيتها فتخضع كتابة الكلمة المفردة لوظيفتها فى الجملة أى لنحوها. مثال موازى – مواز، خالى – خال ... إلخ.

وإزاء هذه الأسباب وأسباب أخرى عديدة اقترح مجددون عظام استبدال الحروف العربية – النبطية الأصل بالحروف اللاتينية التى كانت قد حققت ظفراً طازجاً فى تركيا فى ذلك الوقت على يدى الزعيم الوطنى الكبير "كمال أتاتورك" بعد أن كانت التركية تكتب بالحروف العربية – النبطية الأصل . وكان ذلك التحول قد تم سنة 1929.

وكان ما حدث أن دعاوى الإصلاح ودعاوى الاستبدال لم يُؤخذ بأى منها، وظلت الفجوة فاغرة شدقيها بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة بل وعدنا نكتب "موسيقا" و"رضا" و"دجا" كما اقترح المجددون على هذا النحو التقليدى السابق "موسيقى" و"رضى" و"دجى" إلخ.

ولكن الدعوة التى دعا إليها فريق من المصلحين الذين امتازوا بالصدق مع النفس والإخلاص لبنى وطنهم والشجاعة فى الرأى باستخدام الحروف اللاتينية بدل الحروف العربية – النبطية الأصل، وعلى رأسهم عبد العزيز فهمى وسلامة موسى تستحق أن يسأل المرء إزاءها هذا السؤال:

لماذا لم ينتبه هذا الفريق إلى الحروف القبطية؟ وفى عبارة آخرى:

لماذا حدد "سلامة موسى"– ولم يكن منفرداً فى ذلك فى واقع الأمر – مطلبه بـ "يجب أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوروبا" فى كتابه (اليوم والغد) ؟

ولكن الأمر يهدد عندئذ بأن يقودنا خارج نطاق موضوعنا. وفى سائر الأحوال لا أرانى أتهيَّب، ولا ينبغى أن يظن أحد بى ذلك، الدعوة إلى الكتابة بالحروف القبطية، وبتحديد أدق اعتماد النسق الأبجدى القبطى فى وضع أبجدية جديدة. فمثل هذه الأبجدية هى التى تستطيع وصلنا بالعصر الذى نحياه ، حيث أن الحروف اللاتينية التى تكتب بها لغات عديدة فى القارات الست المأهولة بالسكان مشتقة من الحروف اليونانية القديمة، وهذه تشكل 25 حرفاً من الـ 31 أو 32 التى هى مجموع الحروف القبطية، كما أنها تصلنا فى نفس الوقت بتاريخنا القديم الذى لا يزال – رغم كل شئ – حيّاً في وجداننا، وفى عبارة منقحة عن عبارة الرائد الكبير: "سلامة موسى":

"يجب أن نخرج من آسيا وأن نستمر كما نحن عليه، فى "أفريقيا المتوسطية L' Afrique Mediterranée بصفة أساسية" *

د- أبجدية جديدة للغة قومية حية:

أشارت الفقرة السابقة إلى ما حاق بالإصلاحات الثلاثة الكبرى التى أدخلها مصلحون مجددون على الحروف العربية – النبطية الأصل من فشل نسبى فى الوصول إلى الضفة المنشودة من الوضوح والبساطة، وهو فشل حفَّز نفراً من المصلحين الصادقين إلى تجديد الدعوة إلى استبدالها بأبجدية جديدة. ومع ذلك يذهب ظنى إلى أن كافة هذه الدعاوى لن تصادف سوى فشل آخر طالما كان الهدف الذى تتوخاه هو كتابة اللغة العربية المشهورة بالفصحى. و هو فشل جديد آخر من نفس النوع الذى صادف ويصادف "الطريقة الكلية"، التى تستند إلى نظريات علم النفس الجشطلتى فى تدريس تلك اللغة فى دور التعليم المدنية و الأزهرية على حد سواء.

ترى ما هو السبب فى ذلك؟

تقتضى أمانة العلم ونزاهة الضمير أن أقرر بثبات أن السبب يكمن فى أن اللغة العربية المشهورة بالفصحى/أجنبية ميّتة، تجاوزها التاريخ اللغوى و تركها بجوار اللاتينية، والإغريقية والسريانية والأنجلو ساكسونية و السنسيكريتية وسائر اللغات الفصحى المقدسة التى سادت فى العصور الوسيطة والقديمة. و يُعد وصف "اللغة المصري الحديثة" كما أدعوها، بأنها انحراف أو تصحيف للغة العربية المشهورة بالفصحى، فيما يروج فى كتابات اللغويين المصريين، وراء الخبراء الأنجلو-أمريكان، أشبه بالرأى الذى قد يقول: لقد تخلى المصريون المعاصرون عن "طرابيشهم". فالأصح أنهم تخلُّوا أو نبذوا غطاء الرأس التركى – العثمانلى وحسب، فذلك الغطاء لم يعرفه سكان أرض "إيزيس" قبل غزو السلطان أمير المؤمنين سليم الأول رضى الله عنه لبلادهم فى أوائل القرن السادس عشر (1517م.ع.م.). وعلى نفس المنوال نبذ المصريون وينبذون لغة لم تكن فى يوم من الأيام لغتهم القومية أى لغتهم الأم Mother Tongue

لكن الإشكال ليس مقصوراً على الحروف العربية النبطية الأصل بحيث يمكننا تجاوزه باللجوء إلى حروف أخرى، أياً كانت ، فالإشكال يمتد ليشمل طريقة الكتابة ذاتها. وإذا كان لى أن أسأل هذا السؤال البسيط الذى أراه مشروعاً إلى جانب ذلك:

لماذا نفصل حرف الجر "من" عن الاسم الذى يليه "من النهر إلى البحر" بينما نلحقه بالضمير أى بنائب الاسم مثال : "خذ منى ما تحتاج إليه" رغم ما تنطوى عليه الخطوة الأولى من وضوح وبساطة وما تنطوى عليه الخطوة الأخيرة من لبس وتعقيد يعوقان الفهم الصحيح، حيث تلتبس

"منى" كما هو واضح – مع الاسم "منى" بمعنى منى الذكر ومع اسم العلم المشهور "منى" ومع اسم المكان الأشهر الذى يضم أحد مناسك الحج بالنسبة لأتباع محمد عليه السلام.

فى ذلك السؤال يكمن جوهر اقتراحى الجديد ليس لكتابة "اللغة المصري الحديثة" (=اللمح) و حسب، بل ولطريقة كتابتها كذلك، أى أن اقتراحى ينقسم إلى شقين، الأول: الكتابة فى حد ذاتها، وبصدده أرى أن يمضي المصريون المعاصرون إلى اعتماد الحروف القبطية، وخصوصاً حروفها السبعة الديموتيكية كأساس لأبجدية جديدة يكتبون بها لغتهم المصرية الحديثة أى لغتهم القومية الحية. الثانى: طريقة الكتابة التى سأمضى حالاً لوضعها موضع التشريح.

هـ- حول ـريقة كتابة المصرية الحديثة:

أعتذر بادئ ذى بدء – إن كان هناك ما يوجب الاعتذار – عن قصر استشهاداتى فى هذا الصدد على كتابات ثلاثة مبدعين وحسب هم عبد الله النديم فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر وبيرم التونسى فى النصف الأول من القرن العشرين وأحمد فؤاد نجم معاصرنا. فهؤلاء الثلاثة توغلوا أعمق الأشواط – قدر معرفتى ووسع إدراكى بطبيعة الحال – فى الانصات للأميين المصريين، أى لذلك القسم الأكثر اتصالاً بالحضارة المصرية القديمة، والانصهار فى وجدانهم وتشرب روحهم والتفكير رأساً بلغتهم المصرية الحديثة التى تمت بنسب أقوى للغة المصرية القديمة، ودون أن ينطوى الأمر من جانبى على أى حكم سلباً أو إيجاباً على المواهب التي حبتهم الطبيعة بها أو حبت بها غيرهم، بل و أمضي إلى الإقرار بأن استشهاداتى هذه سوف تعتمد، مرة أخرى، وكيفما أتفق بطبيعة الحال على ديوان "صندوق الدنيا" لنجم "والسيد ومراته فى باريس" لبيرم وكتابات النديم فى مجلته الذائعة الصيت "الأستاذ".

كتب "نجم" ص 61:

حتقفل مخك.

ولست أدرى لماذا وصل "الحاء" بالكلمة التى تليها، وألم يكن من الأوضح والأبسط أن يكتب عبارته على هذا النحو:

ح تقفل مخك.

خاصة وأنه فصل هذا "الحاء" نفسه فى السطر التالى مباشرة على هذا النحو:

ح نطخك.

و إذا مددنا هذه الطريقة، أى كتابة الكلمة مورفيمياً، على استقامتها، أما كان يتعين علينا أن نكتب العبارتين أو السطرين الشعريين نشداناً لضفة الوضوح والبساطة على هذا النحو:

ح تقفل مخ ك.

ح نطخ ك.

وكتب هو نفسه ص 51:

ماشفتش

وحسناً فعل إذ فصل الـ "ما" هنا بعد أن كان قد وصلها فى ص 19 على هذا النحو:

سحر مفيش.

ولكن ماذا لو كان قد كتب العبارتين على هذا النحو:

ما شفت ش.

سحر ما فى ش.

وعلى أى حال لا يزيد اقتراحى فى هذه النقطة عن "تقعيد" ما كتبه هو نفسه، وبعبارة أدق ما اضطر أن يكتبه ص 48 إذ كتب:

ولا تقلقوش.

فلقد حال بينه وبين وصل الـ "شين" بما قبلها أمر يرى فيه لغويون كثيرون – وهم على حق فى ذلك – أحد مظاهر الصعوبة غير المجدية غير المثمرة للحروف العربية النبطية الأصل، وهو امتناع بعض الحروف بطبيعة رسمها عن الاتصال بما يأتى بعدها. والحرف المقصود فى هذا الشأن هو. "الواو" فى تقلقو". لكن هذه الصعوبة انقلبت هذه المرة، إلى دافع غير واعى (واعٍ لمن يفضل) على الإبانة والتوضيح. ولست أفعل فى هذا الصدد سوى تحويل هذا الدافع غير الواعى إلى هدف واعى (أو واعٍ) منشود. وعلى أى حال ثمة حروف "ذهبية" أخرى تفعل نفس ما تفعله "الواو" المذكورة مثل ألف الفصل التى لا تتصل بطبيعة رسمها بما يليها، وساعدت "نجم" على أن يكتب فى ص 76.

ما لهاش.

ولقد كتب "بيرم" ص 2.

– إنتى كده عريانة مستورة.

وحسناً فعل إذ أثبت حرف "الياء" فى "انتى" مستعيضاً به عن كسرة الكتابة العربية الحديثة. لكنه كتب "كده" وليس "كدا". وقد يرى البعض أن المصريين المحدثين ينطقونها "هاء" مثلما كتبها "بيرم" وليس "ألفاً" ممدودة. ولكن ينبغى، طالما كنا ننشد الوضوح والبساطة، وهذان هدفان نبيلان فى هذا المجال إذ يتولد عنهما توفير الوقت والجهد والمال خلال السرعة فى الأداء، أن ندفع ضريبة عليهما، وهذه تتمثل فى بعض الدقة التى لا تتحقق بشكل كامل إلا داخل المعامل الصوتية واستخداماً لأبجدية صوتية خاصة. ويصير لزاماً علينا، من ثم، أن نكتب "كده" بطريقة أقل دقة أى "كدا" حتى نشير إلى انحدارها من "كذا" و"هكذا". وعندئذ يتحدد فى الذهن معناها على نحو أسرع ويغدو الفهم أقرب منالاً. وقد تستبين ضرورة أكبر لذلك فى أمثلة أخرى.

وعلى أى حال كتب "بيرم" ص 9 هذه العبارة:

ودا يبقى إيه؟

وكتب فى نفس الصفحة:

- عالبيت.

ويبدو أن "بيرم" حرص بذكائه غير المنكورعلى أن يرسم مختصر حرف الجر "على" كما يرد فى "المصري الحديثة" أمام الحرف الساكن. لكنه كان أقل حرصاً على فصله عما يليه على هذا النحو:

- ع البيت.

إلا أن "بيرم" الذى توخى هنا كتابة صوتية أى كما ننطق، وإن لم تسعفه الحروف العربية النبطية الأصل، بعجزها المعروف، كتب فى نفس الصفحة:

(1) وحا نروح على فين دلوقت.

وحسناً كتب إذ فصل الـ "حا" عما يليها، إلاَّ أن حرف الجر "على" جاء تقليدياً حاملاً الالتباس القديم مع اسم العلم "علي" وصار اتساقاً مع كتابة "بيرم" نفسه أن يكتب العبارة على هذه النحو:

وعادت "دلوقت" تنشد كتابة صوتية. ولست أدرى ما إذا كان مما يبعدنا عن اللبس والتعقيد أن نكتب هذه الكلمة على هذا النحو:

- دا الوقت.

وكتب الرجل فى ص 71:

(1) يا خدوا عشرين فرنك.

وألف الجماعة فى "ياخدوا" ليس سوى جزء من تركة ثقيلة - رغم الأسباب التى يسوقها أصحابها - هى الكتابة بصورة غير منطقية وغير مبررة، مرت عبر يد "بيرم" إلى "اللغة المصري الحديثة" التى أودعها معظم إبداعاته دون أن تفوز منه بهذا الوصف العلمى. ولو شاء "بيرم" مزيداً من الاتساق لحذفها وضرب بالأسباب التى تقف وراء إثباتها طول الحائط قبل عرضه.

أما "النديم" فكتب ص 46:

- الخمور متناسبشى بلادنا.

وأرى من جانبى أن الوضوح والبساطة تقتضيان أن نكتب العبارة على هذا النحو:

- الخمور ما تناسب شي بلادنا.

وكتب ص 248:

(1) يا اختى إيش جاب لجاب.

وأتصور أن الأوفق أن نكتب العبارة على هذا النحو:

يا اختى إى ش جاب لـ جاب.

وكتب فى ص 358:

- ما فيهش

والأولى أن نكتب العبارة هكذا:

- ما فيه ش

لكن "النديم" كتب:

(1) على شان

وحسناً رسم إذ فصل "على" عن "شان". لكن يده نقلت ركاكة الكتابة العربية إلى الكتابة المصرية الحديثة فى "على" على نحو ما سبقت الإشارة إليه.

إلا أن "النديم" ذاته كتب:

- خلاً قلبى ياكلنى.

وحال بذلك دون زحف الركاكة التى كانت لتحدث لو كتب "خلى" – قياساً على "ياء" الفعل المضارع: "يخلى"، على نحو ما يفقّهنا به فقهاء العربية المشهورة بالفصحى. ولكن الرجل عاد يكتب:

(1) "عايزين يخلوا البلد أردخانة"

مثبتاً الألف التى لا تقل غرابة عن "واو" عمرو، على نحو ما تقضيه الكتابة العربية فى هذا المجال، وإن حذف الألف من كلمة "المرأة فكتبها "المرة" مغامراً بالتباسها مع "المرة" بتشديد "الراء".

ومجمل القول أن النقد الذى سقته لكتابة "اللغة المصري الحديثة" (=اللمح)عند ثلاثة من كبار مبدعيها يستند إلى قاعدة راسخة، وإن كنت أرجو ألاَّ تصير مقدسة تقاوم التغيير لا فى يوم قريب ولا بعيد، وهى:

ينبغى أن نكتب "اللمح" مورفيمياً قدر الإمكان وصوتياً قدر المستطاع سواء استمررنا فى كتابتها بالحروف العربية النبطية الأصل أو اهتدينا إلى أبجدية جديدة تصلنا بالعصر الحديث من ناحية وبجذورنا القديمة أقصد جذورنا الأعمق كمصريين حاميين أفارقة من ناحية أخرى.

هوامش ومراجع:

(1) كتب المصريون القدماء هذا الاسم الذى يعد أحد الأسماء العديدة التى أطلقوها على بلادهم فى المرحلة الهيروغليفية من المصرية القديمة هكذا(𓆎𓅓𓏏𓊖)

وفى المرحلة القبطية(KHⲘⲒ) ومعناها الأرض السوداء نسبة إلى طمى النيل، وإلى هذا الاسم يرجع اسم علم الكيمياء وفقا للقاموس الاشتقاقى للغة الألمانية:

Etymologisches Worterlrich der deutschem Sprache Kluge. Berlin und Leipzig 1934 p. 10.

(2) العهد العتيق. سفر التكوين. الإصحاح العاشر أية رقم 6.

(3) Britannica v.22 p. 486.

(4) Ibid v. 22 p. 514.

(5) لأمر ما يطلق عليها "العهد العتيق" اسم "نوف".

(6) قواعد اللغة القبطية د. جورجى صبحى 1925.

(7) تاريخ الأقباط زكى شنودة ص 11.

(8) "فى أصول المسألة المصرية" صبحى وحيدة ص 62، 63.

(9) دخل تطوُّر دلالي على إسم "مصري" فبعد أن كان يدل على "العرب المقيمين بمصر"، أصبح يدل على كافة المصريين، بصرف النظر عن أي انتماء أدنى من الانتماء القومي أي لوطن هو مصر. و هو نفس النهج الذي ورثه المصريون المعاصرون، بصفتهم زراعين حضريين مستقرين، عن جدودهم، و يقوم على نسبة الشخص للمطرح لا العكس، كما يميل العرب بصفتهم رعاة و بدو رُحَّل.

(10) فجر الضمير. جيمس هنرى بريستيد. ترجمة سليم حسن ص 29.

(11) Our Language. Simeon Potter A Pelican Book. 1961 p. 29.

(12) Egyptian Grammar Sir A. Gardiner p,6.

(13) Le debat les ecritures et L'hieroglyphicaux.

ونقلا من جانبى عن كتاب "الاستشراق" إدوارد سعيد ت. كمال أبو ديب، ص 159.

(14) "التاريخ العام" ترجمة د. فؤاد حسنين على ص 60 ضمن كتاب "التاريخ العربى القديم".

(15) "الأبجدية: نشاة الكتابة وأشكالها عند الشعوب" د. أحمد هبو.

(16) Aspects of language.Simeon Potter (باقي المعلومات مفقودة)

(17) تعليق للدكتور "مراد كامل" على الفلسفة اللغوية لـ "جورجى زيدان" ونقلا من جانبى عن "نحو أبجدية جديدة" للمستشار عثمان صبرى ص 740

(18) نحو أبجدية جديدة مرجع سابق.

(19) النجوم الزاهرة "أبن تغرى بردى" ج 1ص 186.

(20) "مستقبل الثقافة في مصر" طه حسين طبعة دار الكتاب اللبناني.بيروت. صفحة رقم 308

الفصل العاشر

ننقده لا نصادره

[إيران أمى أما الديانة المحمدية فزوجتى. قد أطلق هذه، لكننى لا أستطيع أن أطلق تلك]

حجة الإسلام حسين بهراز

نسى "الأزهر" الذى نشأ شيعياً واستمر كذلك طوال حكم الخلفاء الفاطميين الشيعيين، حقاً أساسياً من حقوق الإنسان، أقصد حق التعبير الذى يكفله الدستور المصرى الأخير الصادر فى عام 1971، والدستور العالمى المعروف باسم الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر فى 10 كياك/ ديسمبر عام 1948، عندما اتخذ قراره بمصادرة كتاب "مقدمة فى فقه اللغة العربية" للرائد الكبير "لويس عوض". وأغفل الأزهر، الذى تحول إلى المذهب السنى على أيدى السلاطين الأيوبيين السنيين، بقراره ذاك وفى نفس الوقت حق الإنسان المصرى فى "أن يعرف"، وهو حق تقره لبنى الإنسان جميعاً اتفاقات ومعاهدات دولية ليس أولها اتفاق هيلسنكى لعام 1975 وليس آخرها العهد الدولى الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعهد الدولى الخاص بالحقوق المدنية والسياسية اللذين صدرا فى أواخر العقد الماضى. و"الأزهر" الذى يتجه فى الوقت الحاضر إلى الأصولية -الوهابية فى ظل الهيمنة الأمريكية -السعودية على المنطقة، يشيع بقرارات المصادرة التى نشط فى إصدارها فى الآونة الأخيرة، جواً من الإرهاب بين الباحثين والراغبين فى البحث، الأمر الذى يفت فى عزائمهم ويشل قدراتهم على ارتياد أوسع الآفاق وطرح أجرأ الآراء نشدانا للحقيقة. والأزهر بقراراته تلك يفرض وصاية على سائر المصريين، مثل الوصاية التي فرضها عليهم إبان العصور الوسيطة، الأمر الذى أدى إلى جمود عقل الأمة المصرية ووهن جسمها وجعلها فى نهاية المطاف لقمة سهلة المنال أمام الطامعين وأى طامعين سواء قدموا من الشرق وكانوا مسلمين أو وفدوا من الغرب ولم يكونوا كذلك.

والأدهى والأنكى أن قرار "الأزهر" بمصادرة الكتاب جاء استجابة لحملة مسعورة شارك فيها مع بالغ الأسف أساتذة جامعيون ونقاد وصحفيون وموظفون كبار وصغار، ضد الكاتب الذى بلغ من الشجاعة مع النفس أن وضع باستمرار، ورغم الأجواء الخانقة للشرق، قوميته المصرية قبل ديانته وارتقى فى مدارج نزاهة الضمير حتى وضع إنسانيته دائماً فوق قوميته. ولقد اشتعلت تلك الحملة فى وقت كان ينبغى على جميع مثيريها ومؤججيها أن يتجاوزوا الشخص إلى فكره، وأن يتنزَّهوا عن تعييره بالإفراط فى قبطيته بينما كان يقتضيهم الحد الأدنى من الانتماء لوطنهم أن يخجلوا من التفريط فى مصريتهم. وليس يخفى على كل ذى عقل مستقل أن القبطية مرادف للمصرية، فكل منهما تشير إلى قومية واحدة ولغة واحدة وثقافة واحدة وإن مرت مثلما تمر سائر القوميات واللغات والثقافات بمراحل مختلفة. ولكن "الأفاضل" الذين شاركوا فى تلك الحملة التى ظلمت أصحابها بنفس القدر الذى ظلمت به الراحل العظيم اكتفوا فى البدء وفى الختام بإشهار تعلقهم بهدفٍ نبيلٍ سامٍ من الأهداف النبيلة السامية التى تنافح عنها الثقافة السائدة فى مصر والمنطقة المحيطة، كالحفاظ على لغة القرءان وإلقاء إسرائيل فى اليم وإعادة فرض الجزية على الأسبان فيما يصفه شعراء بارزون (نزار قباني نموذجاً) بضياع الأندلس ويتباكون عليه حتى اليوم. ويؤمل هؤلاء الأفاضل من وراء هذا التعلق، فيما يبدو أن يغفر لهم اضطراب مناهجهم وهزال أدواتهم وضمور وسائلهم.

ولعل هذا هو السر فى أن كتاباتهم التى دبّجوها رداً على الكتاب لم تكشف عن دراسات جادة أو نظرات ثاقبة، بل عن بضعة أحكام قيمية تتردد فى كتاباتهم دائماً وأبداً كما تتردد فى كتابات أمثالهم سواء أكان الموضوع المطروح هو اللغويات أو البشريات (=الأنثروبولوجيا) أو السياسة أو الاجتماع او الفلسفة. ولم تومئ تلك الكتابات، من قريب أو من بعيد، إلى أن أصحابها أو أياً منهم يعرف اللغة المصرية القديمة فى أى مرحلة من مراحل تطورها سواء الهيروغليفية أو الديموتيكية أو القبطية. وكان بطبيعة الحال من أوجب الواجبات عليهم أن يلموا على الأقل بتلك اللغة لسببين: أولهما أنهم متعلمون مصريون وثانيهما أنهم متخصصون، كما تقول شهاداتهم، فى مجال اللغويات. وبحكم تخصصهم فى هذا المجال يفتون، كلما طلبت منهم الفتيا، باطمئنان الراسخين فى العلم، فى أمر العلاقة بين ما يتراءى من لغة عربية فصحى وعاميتها أو لهجتها المصرية. وعلاوة على ذلك تشر تلك الكتابات إلى أن أصحابها يحترمون المنهج العلمى أو يفقهون إلى البديهيات الأولى فى علم

اللغويات. ولكنهم يكتبون ويسهبون ويتبارون فى إنكار الحقائق والوقائع متوهِّمين ومدْخلين فى روع بنى جلدتهم معاً أن ذلك الإنكار عمل نبيل يستحقون من أجله أن يُكللوا بالغار.

أما بعد فإننى أتأسى بأرسطو إذ قال: *"أفلاطون حبيب إلى نفسى، و كذلك "سقراط" غير أن الحقيقة أحب إلى منهما"*، Amicus Plato,amicus Socrates, sed magis amica veritas(L.) قبل أن أعرض للكتاب الذى يحز فى نفسى أن أسوق كلمة واحدة فى نقده فى وقت لا يزال فيه رهن المصادرة. والحق أننى ظللت منذ قراءتى الأولى للكتاب، وقبل مصادرته بوقت طويل أتساءل حول موضوعه وأقف حائراً أمام منهجه وأعجز عن قبول كثير من نتائجه.

فى البداية تمنَّيت أن يكون الكتاب مقدمة فى فقه آخر هو فقه "اللغة المصري الحديثة" (اللمح)، فى ضوء حملة الإبادة الثقافية التى يواجهها الشعب المصرى فى الوقت الحاضر على أيدى تحالف غير مقدس و بالأولى مقدس جمع أعداءه التاريخيين فى غرب آسيا مع مستغِّليه الدوليين على ساحليْ الأطلنطى، وأن ينشغل الكتاب بقياس المسافة بين الحاميات والساميات فى العائلة اللغوية المعروفة باسم الحامية – السامية، لا أن يبحث فيما يجمع لغات هذه العائلة مع العائلة المعروفة باسم الهندو – أوروبية ، خصوصاً وأن علماء اللغويات انتهوا إلى أن كافة اللغات البشرية بما فى ذلك لغات هاتين العائلتين والعائلات الأخرى من قبيل الصينية – التيبتية Sinotibetan Languages والإسكيمو – ألويت – Eskimo aleut – lgs تنطوى على تسعة حروف والأولى تسعة أصوات رئيسية قابلة للتبادل فيما بينها، وليس يجدى كثيراً استنفاد الوقت والجهد فى إقامة أدلة دامغة – حتى ولو كانت كذلك – على أن *"اللغة العربية هى أحد فروع الشجرة التى خرجت منها اللغات الهندو -أوروبية"* ص 26 وكان يكفى، والحال هكذا، أن يقول فى سطر واحد أن اللغة العربية هى إحدى لغات البشر، لو أن فى هذا القول ما يُغنى أو يُسمن.

أما المنهج فإننى أقف حائراً حقاً أمام كتاب يتناول فقه لغة ما، دع عنك العربية أو سواها، ويقصر حديثه فى فقهها على التحليل الفونولوجى Phonology أى الصوتى دون التحليل المورفولوجى" Morphology أى بناء الكلمة والتحليل النحوى Syntax أى بناء الجملة التى تعد أصغر وحدة لغوية كاملة. فإذا جئت إلى النتائج أذهلنى أن أجد مخاوفى وتوجساتى وقد تحققت وتجسدت فى أكثر من نتيجة. يقول الكتاب:

"ليس من الضرورى أن تكون هذه الأصول واحدة فى السلالة كما يذهب أصحاب النظرية العنصرية، لكى تشترك الشعوب فى اللغة التى تستخدمها، فالمصريون وكافة سكان شمال إفريقيا على سبيل المثال ينتمون سلالياً إلى عنصر غير عربى، ومع ذلك فلقد قبلوا اللغة العربية حين قبلوا ثقافة الإسلام بل إن أقباط مصر الذين لم يقبلوا ثقافة الإسلام قبلوا اللغة العربية لأنها غدت لغة مصر القومية وحين واجهوا مشكلة الاختيار بين الوحدة القومية فى اللغة والانشقاق القومى باللغة، آثروا الوحدة على الانشقاق. وبالمثل فإن المصريين المسلمين رغم قبولهم للثقافة الإسلامية لم يأخذوا اللغة العربية مأخذاً حرفياً وإنما امتصوا فيها الكثير من عناصر اللغة المصرية القديمة الديموطيقية أى العامية التى كانوا يتكلمونها قبل دخولهم الإسلام، وهكذا ظهرت بين الكافة من المصريين العامية المصرية التى كان عمودها الفقرى من اللغة العربية ونسيج لحمها من اللغة المصرية القديمة" ص 22)

يثير هذا النص عدداً كبيراً من التحفظات لكننى سوف أكتفى بثلاثة فحسب أراها أشد إلحاحاً:

أولاً: إذا كان لماكس موللر (1823 – 1900) فضل القول بأن تصنيف الأعراق / الأجناس ينبغى أن يكون مستقلاً عن تصنيف اللغات، فإن "جون كامبل" معاصره يوضِّح ذلك بأن "موللر" لا يعنى بقوله ذاك ولا يمكن أن يعنى أنه لا يحق لنا أن نتوقع وجود علاقات هامة و وثيقة قائمة بين التصنيفين. (العنصر القبطى فى اللغات الهندو – أوروبية1872 The coptic element in languages of the Indoeuropean family,John Campell).

وبناء عليه فإن سكان شمال أفريقيا، وبينهم الشعب المصرى، قد يكشفون ولابد أن يكشفوا عن علاقات هامة ووثيقة بين سلالاتهم ولغاتهم التى يتحدثونها حتى ولو كانت لغة الغزاة/ الفاتحين الذين قدموا من غرب آسيا كى يغزوهم فى شمال أفريقيا.

ثانياً: تنطوى عبارة "لأنها – ويقصد اللغة العربية – غدت لغة مصر القومية" على نفى للواقع اللغوى فى مصر، فاللغة العربية التى حازت اسم الفصحى ليست لغة المصريين القومية وإن كانت اللغة الرسمية بينهم ولغة التعليم والثقافة ونشرات الأخبار فى الإذاعة والتلفزيون. ولعل إحدى بديهيات اللغويات السيكلولوجي Psycho – linguistics أن اللغة القومية أو mother tongue تكتسب acquired ولا "تتعلم" learned.[2] ولقد تأثر علم اللغويات فى هذه النقطة

بالذات بنظرية اللغوى الأمريكى الكبير "نعوم تشومسكى" عن "النحو التوليدى" ثم عن "النحو التحويلي" الذى حاول خلالها ببراعة فائقة منذ الستينات أن يجيب على هذا السؤال: كيف يتأتى للطفل الإنسانى، دون سائر أطفال الفصائل الأخرى كالقردة العليا مثلاً، أن يستنبط "بمفرده" قواعد النحو للغة الحية المنطوقة التى يتعرض لها من جانب أبويه وذويه ويستخدمها فى إنتاج جمل وتعابير لم تطرق أذنيه من قبل؟

حقاً لا يزال هناك جدل واسع النطاق حول هذا السؤال ولكن ما يتفق عليه اللغويون أن اللغة القومية هى تلك التى يتقن الطفل الإنسانى فهمها إذا سمعها والنطق بها إذا أراد التعبير عن أفكاره ومشاعره قبل أن يبلغ الخامسة من عمره أو نحو ذلك. وبناء عليه فإن اللغة العربية (الفصحى) ليست بحال من الأحوال لغة قومية للمصريين بل وليست كذلك حتى بالنسبة للعرب الشماليين أو الجنوبيين تماماً مثلما لا تعد اللاتينية لغة قومية فى الوقت الحاضر بالنسبة للإيطاليين المعاصرين وإن كانت كذلك فى زمن مضى.

وغنى عن الذكر أن الطفل الفرنسى والإنجليزى والسويدى وسائر الأطفال فى مختلف أرجاء المعمورة يتوجهون إلى المدرسة وهم يتقنون المهارتين الأوليين للغتهم القومية وهما السماع – الفهم، التعبير – النطق، ولا يكون عليهم أن يتعلموا فى المدرسة إلا المهارتين الأخريين: القراءة والكتابة. فاللغة هى اللغة المنطوقة أما اللغة المكتوبة فليست إلا تمثيلاً لما هو منطوق. وكل تغيُّر يحدث فى النسق الكتابى لابد وأن يكون قد سبقه تغير فى النسق المنطوق. و يُقدر العلماء عمر اللغة البشرية بما يزيد على مليون سنة فيما لا يتجاوز عمر أقدم نسق كتابى ستة آلاف عام.

ثالثاً: تلقى عبارة "*ظهرت بين الكافة من المصريين العامية المصرية التى كان عمودها الفقرى من اللغة العربية ونسيج لحمها من اللغة المصرية القديمة*" غموضاً أكثر مما تلقى ضوءاً إذ يظل طى اللبس، ذاك الذى أخذته ما أسماه الكتاب بالعامية المصرية من اللغة العربية وما أخذته من اللغة المصرية القديمة على وجه التحديد. وهل ما أخذته من اللغة العربيبة هو كم من الكلمات أم هل هو بناء نحوى؟ أم هل بناء صرفى؟ ولكن الأمر يتضح قليلاً إذا ما قابل المرء عبارة "*لأن تجربة خروج العامية المصرية من العربية الفصحى تثبت لنا غير ذلك*" ص 26" فالكتاب – وبصرف النظر عما يريد أن يثبته أو ينفيه فى هذه العبارة – يرى، بجلاء، أن العامية المصرية خرجت من العربية

الفصحى، وهذا بعض ما يتفق فيه الكتاب مع الثقافة السائدة فى مصر، وما اختلفت فيه، بوضوح، معه ومع هذه الثقافة فى آن واحد.

وبادئ ذى بدء اعترف بوجود مسافة شاسعة بين القول الذى أذهب إليه بأن اللغة القومية فى مصر هى ما أدعوه باللغة المصرية الحديثة أى المرحلة الرابعة فى تطور، و لمن شاء تغير، لغة المصريين وبين القول السائد بأن اللغة القومية فى مصر هى العربية بفصحاها وعاميتها. ولكن هذه المسافة كانت ستكون، بكل تأكيد، أقصر لو أن المصريين الذين يعرفون اللغة المصرية القديمة فى أى مرحلة من مراحلها، كانوا يقفون أيضاً على أبجديات علم اللغويات. وكانت تلك المسافة لتكون أضيق، قطعاً، لو أن اللغويين المصريين أو بالأولى مدرِّسى اللغويات فى جامعات مصر يعرفون أيضاً اللغة المصرية القديمة. فاللغوى الذى يكتب كتاباً على سبيل المثال بعنوان "العربية ولهجاتها" ، كى يفسر الظواهر اللغوية فيما يدعوه باللهجة العامية المصرية بالعودة باستمرار إلى إحدى لهجات القبائل العربية القديمة يجد نفسه وقد وقع فى الحرج إثر الحرج. وعندما صادف كلمة "ياما" ولم يجد لها أصلاً فى شبه جزيرة العرب، وفسرها بأنها كانت فى الأصل عبارة "ياما أكثرها" ثم حذف العامة النصف الأخير من العبارة "أكثرها" وأبقوا على النصف الأول "ياما"، كان التفسير قد هبط منه إلى مستوى ذلك التفسير الآخر الذى يذهب إلى أن كلمة / فرعون / مكونة من الفعل العربى / فر/ و/ عون/ الذى كان عبداً وفر من سيده! وهذان تفسيران أمسك تأدباً وتهذباً عن وصفهما. ولكنهما يكشفان ، فى نفس الوقت عن عمق المشكلة، التى تتمثل فى أن القول بأن "اللغة المصري الحديثة" لهجة/ عامية من لهجات العربية الفصحى يحتاج لقبوله إلى أن يستطيع القائل به أن يرجع معظم إن لم أقل كل الظواهر فى هذه اللهجة العامية إلى أصل فى اللغة العربية الفصحى أو إحدى لهجاتها القديمة. وهذا ما لم يستطيع أحد من القائلين به أن يفعله حتى الآن.

ولقد طرحت فى وقت سابق عدداً من الأسئلة حول هذه النقطة. وها آنذا أطرح عدداً جديداً من الأسئلة حول نفس النقطة، وأرجو ألاَّ تقابل هذه الأسئلة بمثل ما قوبلت به الأسئلة السابقة.

1- لماذا يميل المصريون فى لغتهم المصرية الحديثة حسب اقتراحى إلى وضع أداة الاستفهام فى آخر السؤال؟ وذلك على العكس من اللغة العربية "الفصحى": رايح فين؟ جاى من أين؟ عامل إيه؟ اسمك إيه؟ فى مقابل: إلى أين أنت ذاهب؟ من أين قادم؟ ماذا تفعل؟ ما اسمك؟ على التوالى.

2- لماذا تشكل الأصوات البين – أسنانية الثلاثة/ ث،ذ،ظ/ مناطق صعبة فى النطق Areas of diffculty بالنسبة للتلميذ المصرى الذى يتلقى صراخ مدرسه دائماً بأن يخرج لسانه لدى إنتاجه هذه الأصوات، كلما جلس كى يتعلم اللغة التى تدعى الثقافة السائدة أنها لغته القومية؟

3- لماذا يضع المصريون فى لغتهم اسم الإشارة بعد الاسم المشار إليه على نحو: الولد دا – البنت دى – البنات دول – بدلاً من : هذا الولد – هذه البنت – هؤلاء البنات – على التوالى. وغنى عن الذكر أن عبارة: دا ولد لا تضم اسم اشارة بل ضمير إشارة. وغنى عن الذكر مرة أخرى أن القول بأننا نستطيع إرجاع / دا ودى ودول / إلى أصل عربى لا يُجدى شيئاً فى هذه النقطة. فالفيصل هنا هو (البنية) Structure وليس الطوب. وهذه العبارة ليست عربية: "*بدون أشخاص موظف داخل شدن*" بل "درية": إحدى لغات أفغانستان، رغم أن كلماتها أو كل كلماتها فيما عدا واحدة، عربية. وتحتاج إلى ترجمة، بكل تأكيد، إلى العربية فيما لو أراد شخص عربى اللغة أن يقف بدقة على معناها.

هل نستطيع أن نقبل هذه الفرضية: إن السر فى كل ذلك يكمن فيما يسميه اللغويون بالطبقة التحتية أو Substratum، وهى فى هذه الحالة اللغة المصرية القديمة فى مرحلتها القبطية؟ فالأمر ليس أمر انقطاع بمعنى اندثار لغة وحلول لغة أخرى محلها، بل أمر اتصال بين لغة قديمة هى اللغة المصرية القديمة وبين "اللغة المصري الحديثة" التى أخذت من اللغة العربية الوسيطة "الفصحى" كماً هائلاً من الكلمات، لكنها نطقتها حسبما كانت تنطق كلماتها فى الماضى ثم خففتها كثيراً من الترادف والشذوذ والتضاد والالتباس ثم استخدمتها فى بنائها النحوى الخاص.

ونحن نعرف أو ينبغى علينا أن نعرف أن اللغة المصرية القديمة ـ مثل شقيقتها النوبية ـ لا تعرف الأصوات – phonemes البين – أسنانية Inter – dental واللغة المصرية القديمة تقول ست – تن ومعناها بالعربية السيدة – هذه وسى – بن ومعناها السيد – هذا، ونحن نعرف أو ينبغى علينا ذلك، أن اللغة المصرية القديمة فى مرحلتها القبطية تستفهم خلال ذلك البناء الشائع فى اللغة المصرية الحديثة، وعبارة عامل أيه؟ التى تعد التحية الأكثر انتشاراً فى مصر، دون أن يفطن كثيرون إلى ذلك، ليست إلا ترجمة حرفية Loan Translation لعبارة:

Ⲁⲕ ⲉⲣ ⲟⲩ?

القبطية حيث تضع هذه اللغة أداة الاستفهام كما هو واضح فى آخر السؤال وليس فى أوله، مثلما تفعل اللغة العربية "الفُصحى". ورد التحية: ماشية، التى ينفرد بها المصريون، دون سواهم، ليست هى الأخرى سوى ترجمة حرفية، والأولى مورفومية لعبارة:

Cϣє حيث c ضمير غير شخصى فى حالة المؤنث و ϣє تمشى.

وبذلك يكون الأرجح بشأن لغة المصريين المعاصرين أنها أخذت عمودها الفقرى من اللغة المصرية القديمة، وبعض نسيجها من اللغة العربية "الفصحى" وأقصد بالعمود الفقرى، البنية Structure وبالنسيج الكلمات. ولكن كتاب "مقدمة في فقه اللغة العربية"، الذي نعرض له لم يكن ليصل الي مثل هذه النتيجة لسبب بسيط : لقد اشترك صاحبه مع مختلف لغويينا، و بينهم مع شديد الأسف خُصومه الأشاوس في عدم معرفة لغة جدودهم، أقصد اللغة المصرية القديمة حتى في مرحلتها القبطية التى تعد أقرب منالاً، ولو أن هؤلاء اللغويين نعوا على صاحب الكتاب قبطيته. وكان الأجدر بهم ان ينعوا عليه وعلى أنفسهم قبله الجهل بلغتهم القبطية، أو لغة جدودهم، رغم أنفهم، أي مهما بذلوا من جهودٍ غير محمودة لأي سبب مهما كان، كي يتبرأوا منهم. ولعل هذا الجهل هو الذي حال بين صاحب الكتاب وبين تفسير زمن الاستقبال فى لغة المصريين المعاصرين تفسيراً راجحاً. فلقد ذكر فى ص 116 "أن المصريين حين قصدوا للغة العربية نطقوا (س) الاستقبال (ح)" وضرب مثلاً على ذلك فى سأكتب / ح أكتب . فالأدق فى هذه النقطة أن المصريين استخدموا مرة أخرى الطوب العربى فى البناء المصرى، فعبارة/ ح أكتب/ هى مجزوء / راح أكتب/ ولقد لاحظ صاحب الكتاب بحق أن "راح" هذه ليست "راح" العربية حيث أن هذه تفيد الماضى لا المستقبل إلا أنه لزم الصمت بعد ذلك. ولكن العبارة فى اللغة المصرية الحديثة ليست سوى ترجمة لكلمة ⲚⲀ التى تصنع لنا فى القبطية صيغة المستقبل الأول تعنى راح أو aller و عبارة ϯⲚⲀ ⲂⲰⲔ تعنى J'irai وحرفياً Je vais aller.

ولقد استغربت بعض الاكتشافات التى جزم صاحب الكتاب بصحتها وأكاد من فرط استغرابى أن أنفى فهمى لها، وعلى سبيل المثال، قال فى ص 369:

"وكلمة "قدم" ولو أنها من الكلمات الأساسية لم تدخل مصر قط إلا فى لغة المثقفين أما العامية المصرية فهى تعبر عن القدم بكلمة (رجل) وهى تدل أصلاً على عضو المشى كله بما فيه الساق والقدم."

والسر فى استغرابى أن الكلمة دخلت صميم "اللغة المصري الحديثة" على عكس ما يقول به صاحب الكتاب. فالفلاح المصرى يغنى أو ظل يغنى حتى وقت قريب نسبياً فى بلدة سرس الليان - منوفية:

وردم غزالتين من وادى اليمن ما اكلوش.

ماشيين يدقو *القدم* حالهم عدم ما اكلوش.

ونقرأ فى "الحوليات" المجلد الرابع عشر وفى المواويل التى جمعها "جاستون ماسبيرو" فى مطلع القرن الحالى(العشرين) من الأقصر Chansons recueillies a louxor pour la chadouf et sakieh. P. 197.

قدمك يا أحمد.

تحته الرمل إجمد.

هذا بعض ماعندى عن الكتاب الجاد لصاحبه الرائد الجليل. وفى الختام أعود فأقول أن الكتاب يحتاج إلى مزيد من الدفاع بقدر ما يحتاج لمزيد من النقد طالما كنا ننشد الحقيقة، ونتخذ منها قبلة نيمّم وجوهنا شطرها باستمرار.

الفصل الحادي عشر

"اللغة المصري الحديثة"
بين ما يسمى بالفصحى وما يسمى بالعامية

مقدمة:

نستطيع أن نصف المتعلم فى مصر – ولنصمت قليلاً عن المثقف – بأنه الشخص الكامل أى ذلك الذى لا يستشعر منذ اللحظة التى يكمل فيها تعليمه أياً كانت درجته أى نقص مهما كان ضئيلاً فى ذاته. فمتى تعلم صار مصمتاً ، لا يرى ولا يسمع إلا ما يؤكد ما حصّله من أفكار وكوّنه من آراء وشكّله من وجهات نظر. ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى مناهج التعليم التي يتلقى خلالها علومه بل ومعارفه بصفة عامة. فهذه المناهج تقوم على تلقينه الصواب المطلق الذى لا يعرف الباطل إليه سبيلاً، وتطلب منه ألا يردد باستمرار إلا الأجوبة الصحيحة كى ينجح ويتأهل و يترقى أى أنها تقوده على درب الطمأنينة دون القلق والتسليم دون الشك واليقين دون الاحتمال. وهذه مناهج أخشى أن تقارب إلى هذا الحد أو ذاك غسيل المخ Lavage de cerveau حيث ترسّخ فضيلة النقل والاتباع دون رذيلة الخلق والإبداع. ولكن التعليم الذى يستحق هذا الاسم يقوم على تربية ملكة التساؤل الدائم لدى المتعلم خلال مناهج تستند إلى أن أفضل جواب عن أى سؤال يأتى عبر طرح سؤال أعمق، وأن بنى الإنسان لم يعرفوا قضية ما إلا وكان لها ما يؤيدها (pro) وما ينقضها (contra) فى نفس الوقت ، وأن البديهيات ليست سوى مسلمات مؤقتة وقابلة أيضاً للتساؤل. وبمثل هذا التعليم يكون فى طوعنا أن نرسى على صعيد الثقافة قبل السياسة أسس الحوار والتعدد والتسامح، وهى الأسس لا يستطيع، بدونها، أى مجتمع أن ينمو أو يزدهر بل ولا حتى أن يستمر قيد الحياة.

تعد مقولة الفصحى والعامية التى تحاول وصف الوضع اللغوى فى مصر بمثابة إحدى البديهيات التى ترسّخها الثقافة السائدة التى تحرث عقولنا وتتشع فى وجداننا خلال التعليم بصفة رئيسية، وهى البديهية التى سنحاول وضعها فى هذه الدراسة القصيرة موضع التساؤل.

ساد علم المصريات Egyptology خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، اتجاه يميل إلى تصنيف اللغة المصرية القديمة بمراحلها ولمن شاء بخطوطها الثلاثة الرئيسية: الهيروغليفية والديموتيكية والقبطية، كإحدى اللغات السامية. وتجلى هذا الاتجاه بصفة خاصة فى المدرسة الألمانية وبصفة أخص عند عالم المصريات الكبير "أدولف إيرمان". وانعكس هذا الاتجاه بين مدرِّسي المصريات عندنا وعلى رأسهم "أحمد بدوى" و "سليم حسن" و "أحمد كمال" وغيرهم. ولكن "ألان جاردنر" صاحب "النحو المصرى"، الذى لا يزال يعد، في رأيي، عمدة اللغة المصرية القديمة كتب فى مقدمته لهذا المرجع الذى ظهرت طبعته الأولى فى بريطانيا فى عام 1927 يقول:

"فرغم هذه التشابهات (بين اللغة المصرية القديمة من جانب واللغتين الشقيقتين العربية والعبرية من جانب آخر) إلا أن اللغة المصرية تختلف عن جميع اللغات السامية أكثر كثيراً مما تختلف أيٌّ من هذه اللغات السامية، الواحدة عن الأخرى. ويتعين، على الأقل ريثما يقوم العلماء بتحديد العلاقة بين اللغة المصرية (القديمة) واللغات الأفريقية بصورة أدق أن نصف هذه اللغة المصرية (القديمة) كلغة مستقلة عن مجموعة اللغات السامية".(1)

وشهد نصف القرن الأخير من قرننا الحالى(=العشرين) إنجازات عميقة فى علاقة الفرع الحامى أو الأفريقى من العائلة اللغوية المعروفة باسم الحامية – السامية أو الإفريقية – الآسيوية بمختلف اللغات الأفريقية كالنوبية و التشادية و الأمازيغية و الطوارقية و الهاوسية إلخ، وهى الإنجازات التى أكدت وجهة النظر التى حدس بها فى عشرينات القرن العشرين العالم البريطانى العظيم "جاردنر" باستقلال اللغة المصرية القديمة عن الفرع السامى – الآسيوى و أشار إلى ضرورة التأني قبل نسبتها إلى الفرع السامي، إلى أن تتحدد بشكل حاسم علاقتها باللغات المندرجة في الفرع الحامي من تلك العائلة. و يقول عالم المصريات المعروف "فيرنر فيسيكل" W. Vycichl فى مقدمة قاموسه الاشتقاقى للغة القبطية ص X تحت عنوان : "موقع اللغة المصرية (القديمة) فى العائلة الحامية – السامية:

"تشكّل المصرية والقبطية واحدة من المجموعات اللغوية الأربع المسماة بالحامية التى يتكلمها الأفارقة فى أفريقيا. وهذه المجموعات الأربع تقابل اللغات السامية التى نشأت فى آسيا. والمجموعات الحامية هى:

(1) المصرية والقبطية.

(2) البربرية.

(3) التشادية.

(4) الكوشية . (النوبية)

والمجموعات السامية الأكثر أهمية هى:

(1) الأكادية (آشورية الشمال وبابلية الجنوب)

(2) العبرية (لغة التوارة)

(3) الآرامية (لغة يسوع المسيح)

(4) العربية (لغةالقرءان)

(5) الأثيوبية (لغة "منيليك" الابن الأسطورى للملك سليمان)

وتمثل المجموعات الحامية بصفة إجمالية نموذجاً أشد قدماً من المجموعات السامية. وقد حددنا الاختلافات التالية بين الفرعين الحامى والسامى:

1- تعرف اللغات الحامية الفعل الثنائى أى ذلك الذى يتكون من حرفين اثنين وحسب مثال: Wn "فتح" ( )

(ق د) ( ) بمعنى "بنى" فيما لا تعرف اللغات السامية بالمقابل سوى الفعل الذى يتكون من ثلاثة حروف فأكثر.

2- تكوِّن الأفعال الثنائية فى اللغات الحامية صيغة التأكيد بتضعيف الحرف الساكن الأول. وهو الأمر الذى لا تعرفه اللغات السامية.

3- لا تعرف اللغات الحامية صيغة التسبيب causatif بالتضعيف وهى الصيغة الشائعة فى اللغات السامية فالعربية تقول "فرّح" و"ضعّف" (أى سبب الفرح والضعف على التوالى).

4- لا تعرف أى لغة من اللغات الحامية إعراب الأسماء بالمعنى الذى يعرفه النحو فى اللغات السامية فاللغة العربية (على سبيل المثال) تعمل حسب نسق من ثلاث حالات: الفاعل (الملكُ) المضاف (الملكِ) المفعول (الملكَ).

5- بناء اسم العدد فى المجموعات السامية مختلف عنه فى المجموعات الحامية. فالأعداد من 3 إلى 10 تتوافق مع المعدود فى اللغة المصرية (القديمة)
مثال:

(أى تسع قوارب) بينما نلاحظ أن اسم العدد يضاد المعدود فى اللغات السامية كاللغة العربية ***إذ*** *نجد خمسة رجال وخمس نسوان.*

6- لا تعرف أى لغة حامية تكوين صيغة المبنى للمجهول باستخدام الحرف الصائت – U – (الضمة) قَتل... قُتل... إلخ[2]

وقد بدأت هذه الإنجازات تسرى في أبحاثنا فى الآونة الأخيرة وتؤثر على دراساتنا فى **هذا** المجال. فيقول "عبد المنعم محمد الحسن الكاروري" فى بحث قصير باسم : العنصر السامى فى اللغة المصرية القديمة: *"وإذا صح لى هنا أن أضع النتائج أمام المقدمات، فإنى لا أجد بداً من التعبير عن ميلى إلى اندراج المصرية القديمة فى عداد الحاميات لا الساميات".*[3]

ولكن إذا كان الاتجاه القديم إلى إدراج اللغة المصرية القديمة فى الفرع السامى – الأسيوى من العائلة اللغوية المعروفة باسم الحامية – السامية قد أفسح المجال أو كاد أمام الاتجاه الحديث الذى يميل إلى اندراج المصرية القديمة فى عداد الحاميات، إلا أن الإصرار عند جامعات الغرب على وصف اللغة المنطوقة فى مصر بأنها عامية اللغة العربية الفصحى لا يزال فتياً مفعماً بالحيوية والتحفز، وهذا الأمر ينعكس بصورة خاصة على متعلمينا وبصفة أخص على أكاديميينا، حتى صار بمثابة إحدى البديهيات كما أشرت فى صدر المقال.

وبادئ ذى بدء إذا قبلنا، على مضض، و هو مضضٌ مؤسسٌ على أسباب أراها قوية، بسيادة لغة عربية واحدة كلغة للثقافة والتعليم فى المنطقة التى تمتد من الخليج إلى المحيط، فإننى اعتقد بأنه من المتعذر أن نقبل بأى حال من الأحوال بوجود سيادة لعامية واحدة فى هذه المنطقة. إذ يلزمنا نشداناً للدقة العلمية أن نقول بوجود عاميات منطوقة كلغة للحديث وأداء المعاملات اليومية، وفى أحيان ليست نادرة كلغة للفنون القولية، أبرزها وأهمها هى "عامية" المصريين أو "العامية المصرية" وهو الوصف الذى تجاهد الثقافة السائدة فى مصر فى تحاشيه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، رغم أنه وصف أدق من الاكتفاء بوصفها "بالعامية" وحسب. لكنه فى نفس الوقت ليس – فيما أرى – وصفاً علمياً دقيقاً. فلو كانت اللغة المنطوقة فى مصر عامية العربية الفصحى لأمكن للغويين أن

يفسّروا كافة ظواهرها اللغوية وسواء كانت نحوية أو صرفية أو صوتية أو دلالية إما بالرجوع إلى إحدى لهجات اللغة العربية فى شبه جزيرة العرب أو الاستئناس بقوانين التغير و قل التطور التى تحكم صيرورة اللغة العربية. وهذا ما لم يستطعه أحد من هؤلاء اللغويين، وما كان فى قدرتهم، حتى الآن.

والمحاولات التى بذلها البعض فى هذا الصدد لا تستحق الالتفات ولا تستاهل التعليق. وأسوق مثالاً على ذلك بمحاولة تفسير الـ (ش) الأخيرة فى صيغة النفى فيما يُسمونه بـ" العامية المصرية" بالعودة إلى "كشكشة ربيعة" أى نطق هذه القبيلة العربية للكاف الأخيرة (ش) منك – منش، وعليك – عليش[4]. ولم يبق أمام لغويينا سوى الخيار الآخر أى الاستئناس بقوانين التغير، وهو الأمر الذى عجزوا عنه عجزاً كاملاً تمثل فى أنهم لم يكتشفوا أى قانون من تلك القوانين حتى يستأنسوا بها فى فهم الظواهر اللغوية الجديدة بل ولم يحاولوا ذلك. واكتفوا فى هذا الصدد بدور آخر هو دور "المصحح" الذي لا يمل و لا يكل في إطلاق أحكام قيمية، تتمحور حول "التحريف" و "التصحيف" و "اللحن" إلخ، و هي الأحكام التى لا تثمر لا "رطب ولا صيص".

إذ ماذا يفيد القول بأن اللغات الأسبانية والفرنسية والإيطالية "انحرافات" عن اللاتينية أو أن اللاتينية واليونانية والسلافية، "لحون" بالنسبة للغة الهندو – أوروبية المبكرة – proto – indo European؟ وماذا يغنى أن يقول لغوى مصرى معاصر:

{*"اللحن" ... هو الخطأ فى اللغة أصواتها أو نحوها أو صرفها أو معانى مفرداتها*؟ }[5]

وهل مهمة اللغوى أن يكتشف "الخطأ"، على نحو ما يفعل هذا المصحح أو ذاك، ممن يملأون حياتنا بمشاعر الدونية القومية، أم يكتشف القانون الذى يحكم صيرورة التغير دون أن يحكم عليه بالخطأ وكفى الله الباحثين شر الفكر والتفكير!

وأمضى إلى تضييق النطاق الذى يتناوله سؤالى على هذا النحو:

لماذا تنفى "اللغة المصري الحديثة" وفق اقتراحى الخاص جملتها/ منطوقها خلال هذه البنية:

س + ص + س2

مثال:

ما أعرف ش؟

هل نجد الجواب الشافى إذا رجعنا إلى إحدى بنيات النفى فى أى لهجة من لهجات اللغة العربية فى شبه جزيرة العرب؟ هل يسعفنا قانون خاص من قوانين تغيّر هذه اللغة بتقديم الجواب ودع عنك الحكم القيمى الكسول بأنه لحن من لحون العامة، ذلك الحكم الذي يحلو لأكاديميينا أن يرسلوه برخاوة و استرخاء؟

تناول أستاذنا "إبراهيم أنيس" فى رسالته لنيل درجة الدكتوراه من جامعة لندن فى بؤونة/ يونيو 1941 هذا السؤال ذاته وقل هذا الموضوع فى الفصل الخاص الذي حمل عنوان "النفى" على هذا النحو:

"فسر الباحثون باستمرار اللاحقة (ش) بأنها تحوير أو إدغام لكلمة (شىء) باللغة العربية الكلاسيكية. وقرر هؤلاء الباحثون أيضاً أن "موش" تركيب إذا فككناه لوجدناه مماثلاً للتركيب الفرنسى ne... pas ومضى البعض شوطاً أبعد فى تأييدهم لهذه الفرضية بأننا إذا ما استبدلنا (ش) بكلمة (شئ) فإن المعنى يظل أحياناً مستقيماً مفيداً".

ويضيف "أنيس" وهذا فى رأيي بيت القصيد فى هذا الصدد:

"إلا أن الحقائق التالية تلقى بظلال الشك على الفرضية المذكورة:

أ- اللاحقة (ش) لا تستخدم مطلقاً فى حالة الإثبات بينما يجوز استخدام كلمة (شِىء) مثال: دا شِىء مريع، بالمصرى. ويقابله باللغة العربية الكلاسيكية: هذا شَيْءٌ مريع. وعلى هذا فإننا لا نستطيع أن نحوِّل مثل هذه الجملة العربية الكلاسيكية "عمل شيئاً عظيماً" إلى لغتنا (المصرية) على هذا النحو: عمل ش عظيم.

ب- إذا أخذنا كلمة أخرى تتوازى فى المعنى مع كلمة (شَيْء) العربية مثل "شِىء" أو "حاجة" المصريتين فإننا نستطيع استخدامها فى حالة النفى بصورة مستقلة عن اللاحقة (ش) مثال: ما يفهم شئ، وما يعرف حاجة.. وبناء عليه وفقاً للافتراض المعتاد فإن حالة النفى هذه تنطوى على كلمتين تعنيان المعنى نفسه.

جـ- عندما نستبدل فى غالب الأحيان اللاحقة (ش) بأصلها المفترض (شَيْء) فإن الجملة المعنية لا تفيد معنى، بل ونجد أن الاستبدال خدش النحو كلاسيكياً كان أو حديثاً. ويكتسب الأمر وضوحاً أشد متى جاءت حالة النفى على هيئة جواب مرتبط أو احتوت فعلاً لا زماً، مثال:

ما يهملش؟

مانتاش بردان؟

موش أخوك؟

موش أنت؟

د- يبدو أن اللاحقة (ش) داخلة فى علاقة دلالية وطيدة مع النفى. ولكي نوضح ذلك يجدر بنا ن نقارن بين هذين المثالين:

عملت له ش حاجة؟

عملت له حاجة؟

فالجملتان تنطويان على حالتى استفهام ولكن الفرق الوحيد بينهما، فيما يتعلق بالنحويات، يتمثل فى أن الأولى تضم اللاحقة (ش) ولكن الجواب المنتظر على الصيغة الأولى هو النفى على أقل من جانب المتكلم فى حين أن الجواب المنتظر على الثانية قد يكون النفى وقد يكون الإثبات.

هـ- الافتراض الذى يذهب إلى أن اللاحقة (ش) ليست سوى إدغام أو اختصار للاسم (شىْء) يقتضى أن يكون ورود (شىْء) فى صيغة النفى بالارتباط مع (ما) شائعاً للغاية و بعبارته هو: very frequen: في اللغة العربية الكلاسيكية. و لكننا لا نجد سوى 17 مثالاً/ آية و حسب. فالقرءان كنه يحتوي علي (شيئ) في صيغة النفي بالارتباط مع (ما). وهذا يوضح على الأقل أن ذلك تركيب المفترض للنفى لم يكن شائعاً بحال من الأحوال.

[وعدد "أنيس" الآيات الواردة السبعة عشر:

أ- سورة النساء:

1- ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (113)

ب سورة الأنعام:-

2- ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (38)

3- ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (52)

4- ﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (52)

5- ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (69)

6- ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (91)

ج- سورة الأنفال

7- ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (72)

د- سورة هود

8- ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (101)

هـ- سورة يوسف

9- ﴿ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (67)

10- ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (68)

و- سورة إبراهيم

11- ﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (38)

ح- سورة العنكبوت

12- ﴿ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (12)

ط- سورة الأحقاف

13- ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (26)

ى- سورة الذاريات

14- ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (42)

ك- سورة الطور

15- ﴿ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (21)

ل- سورة الممتحنة

16- ﴿ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (4)

م- سورة الملك

17- ﴿ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ آية رقم (9)

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن كافة الأفعال المنفية فى الآيات المذكورة متعدية. وبالإضافة إلى ذلك لم يحدث أن سبقت (ما) اللاحقة (شيئ) كى ينتج عن اتصالها (موش) كما يقول الافتراض. ولكن (شيئ) فُصلت فى كافة الآيات القرءانية المذكورة عن المسند، وسبقها باستمرار حرف الجر (من)].

وينتهى "أنيس" إلى القول:

{كل هذه النقط تسوغ الافتراض (الآخر) بأن اللاحقة (ش) لا صلة لها على وجه الترجيح بالاسم (شيْئ)}

ولكن من أين جاءت هذه اللاحقة كما أسماها "أنيس" فى رسالته التى أشرف عليها بروفيسور "جى. آر. فيرث" وشاركه فى هذا الإشراف "إيه. إس تريتون"؟

يمضى "أنيس" فى رسالته قائلاً:

{عند هذه النقطة نستطيع أن نطرح هذه الفرضية حول أصل هذه اللاحقة (ش) وهى فرضية أرى أنها تصلح على الأقل كتفسير مناظر. ربما [MIGHT وليس MAY] يكون أصل هذه اللاحقة (ش) مرتبطاً مع (ش) العبرية، وهذه بدورها مرتبطة بفعل سامى يعنى أن يكون} [6]

هنا أرى أن "أنيس" يستحق عظيم الثناء إذ قادته الحقائق اللغوية خلال إنتهاج منهج علمى صارم إلى النتيجة التى تقول إن اللاحقة (ش) لا صلة لها على وجه الترجيح بالاسم (شيْئ) وهذا ما تجهله وتتجاهله الثقافة السائدة فى مصر، وهذا الجهل والتجاهل هما اللذان لا يزالان يدفعان حتى اليوم "المتعلمين المصريين" وخصوصاً كبارهم بل أكاديميهم ولغويوهم على وجه أخص إلى (الافتاء) باطمئنان يبعث على الحيرة بأن الـ (ش) هى تحريف أو تصحيف لـ (شيْئ). ولكن النتيجة التى خلُص إليها "أنيس" فى رسالته بشأن هذه الظاهرة النحوية قادته، إلى جانب نتائج عديدة أخرى فى مجالات أخرى كالصوتيات والصرفيات إلى أن يقرر فى أول دراسة علمية موضوعية، نحّت العواطف جانباً، لما أدعوه بـ "اللغة المصري الحديثة" إلى القول فى مقدمة الرسالة:

{تلك التى يسمّيها الباحثون لهجة من لهجات العربية الكلاسيكية، قد تكون كذلك فيما يتعلق بالألفاظ ولكن هذه (اللغة) ينبغى النظر إليها على المستوى النحوى والصوتى كلغة مستقلة تضم هى ذاتها لهجات عديدة، الأكثر سيادة بينها هى لهجة القاهرة} ص VIII [7]

لكننى، مع ذلك، لم أستطعْ أن أملك نفسى من الدهشة أمام هذا السؤال: كيف انتهى "أنيس" إلى أن اللاحقة (ش) المصرية (لا صلة لها على وجه الترجيح، بالاسم أو بكلمة (شيْئ) العربية، ثم دار على عقبيه كى يبحث عن أصل هذه اللاحقة المصرية فى اللغة العبرية، شقيقة العربية بصفة خاصة واللغات السامية بصفة عامة؟ ويزيد حجم الدهشة كلما تذكّر المرء أن اللغة العبرية لم

يحالفها حظ العربية فى السيادة أو حتى الانتشار فى مصر حتى تـؤثر فى اللغـة المـصرية "المستقلة". حسب النتيجة التي انتهى إليها هو نفسه، تأثيراً عميقاً أى على المستوى النحوى ذاته.

حقاً اتصلت هذه (اللغة المصرية المستقلة) باللغة العبرية بشكل مباشر وبشكل غير مباشر أى عبر اللغة اليونانية القديمة. ولكنه اتصال محدود لا يؤدى إلاّ إلى تبادل أو استعارة بعض الألفاظ مثل كلمة (كفر) العبرية وعشرات الكلمات المصرية القديمة التى دخلت هـذه العبريـة. ولا يتبدد هذا الذهول إذا اكتشفنا أن السبب وراء اتجاه "أنيس" إلى البحث عن أصل اللاحقـة (ش) فى هذه اللغة السامية أو تلك راجع إلى تجاهل وأكاد أقول الجهل، الذى شارك فيه سيادته الباحثين الذين انتقدهم بقوة وبراعة عظيمتين، بالطبقة التحتية Linguistic substratum أى اللغة التـى كانـت سائدة فى مصر قبل وصول العربية – السامية إليها مـن غـرب آسـيا. ولكـن كيـف قبـل المشرفان الإنجليزيان على الرسالة ألا يعرف هذا التلميذ النجيب اللغة المـصرية القديمـة فى أى مرحلـة مـن مراحل تطورها، أى تلك اللغة التى تشكل الطبقة التحتية التى هبطت عليها من علٍ لغة وافدة؟

أمام هذا السؤال لا أجد سوى احتمالين لا ثالـث فى ظنـى لهـما: إمـا أن جامعـة لنـدن كانـت (تجهل) هى الأخرى مدى تأثير الطبقات اللغوية التحتية، وبينها "الغاليـة" التـى كانـت سـائدة فى الجزيرة البريطانية قبل وصول الأنجلو – ساكسونية، على اللغات الوافدة وإما أنها (تتجاهل) ذلـك أى (تسيّس) العلم. كيف؟

تهدد محاولة الإجابة بالخروج عن دائرة اللغويات. وفى سـائر الأحـوال أرى أنـه مـن المتعذر تفسير ظاهرة النفى فيما أدعوه بـ "اللغة المصري الحديثة" ويدعوه الآخـرون بـما شـاءوا مـن أسماء عامية، لهجة، انحراف ، تحريف، تصحيف إلخ دون الرجـوع إلى اللغـة المـصرية القديمـة بـصفته إحدى اللغات الحامية، تلك التى كانت تشكل طبقة تحتية سـائدة فى مـصر، وظلـت كـذلك حتـى القرن الخامس عشر الميلادى كما يذهب البعض[8]. والسابع غشر كما يقول آخرون[9]. ففى المرحلـة القبطية التى تعد أقرب منالاً كان النفى يجرى على هذا النحو:

س1	ص	س2
ش	أعرف	ما
ⲁⲛ	ϯⲥⲟⲩⲛ	ⲛ̄
ش	أكتب	ما
ⲁⲛ	ϯⲥϩⲁⲓ	ⲛ̄
ش	أقرا	ما
ⲁⲛ	ϯⲱϣ	ⲛ̄

وذلك فى مقابل البنية العربية فى مجال النفى التى تجرى على هذا النحو:

س	ص
ما	أعرف
ما	أكتب
لا	أقرا

وهكذا يتضح أن البنية النحوية القبطية فى النفى مختلفة عن نظيرتها العربية ومماثلة للبنية النحوية فى "اللغة المصري الحديثة". ولعل هذا هو الذى سوّغ لى إلى جانب تشابهات أخرى عديدة بين المصرية الحديثة والقبطية القديمة أن أفترض أنهما مرحلتان فى تغيّر أو تطوّر لغة واحدة، تتشابه مع/ و في نفس الوقت تختلف إلى هذا الحد أو ذلك عن بنات العمومة أى اللغات السامية فى العائلة الحامية – السامية وتتشابه تشابهاً أكبر إلى هذا الحد أو ذاك مع العاميات أو اللهجات التونسية والجزائرية والمراكشية إلخ أى تلك العاميات التى شكَّلت إحدى اللغات الحامية أى (البربرية) طبقتها التحتية. ولننصت فى هذا الصدد للشاعر التونسى (البرغوثى) يقول فى دور من نوع (بورجيلة):

روف روف

يا فاطمة ماتغرقي شى شقوفى[10]

ومعناه بالمصرى:

حنّى حنّى

يا فاطمة ما تغرقى شي المراكب بتاعتى.

غير أن الأمر من جانبى ليس أمر خصام مع اللغات السامية سواء أكانت العربى أو العبرى أو سواهما. ولكن الأمر أمر ***استقلال*** أراه رأى العين يفرض علي ضميرى ألا أنكره لـ "اللغة المصري الحديثة" كلغة حامية أى أفريقية دوون ***انفصال*** عن اللغات السامية وخصوصاً العربية بطبيعة الحال. فلقد أثرت العربية تأثيراً كبيراً فى جانب منه تغييراً بل وتطويراً لبعض سماتها النحوية والصرفية والصوتية والدلالية. وعلى سبيل المثال لا الحصر، أذهبت أداة التعريف العربية العامة (ألـ) التى توازى The فى الإنجليزية التصريف بشكل كامل أى جردت إلى الحد الأقصى أدوات التعريف القبطية الثلاث ⲠⲒ للمذكر و ϯ للمؤنث و ⲚⲒ للجمع بنوعيه، التى توازى، لسبب أو

لآخر، أدوات التعريف فى الفرنسية le, la, les وأصبح فى مقدورنا أن نقول الـ (سيد) الـ (سيدة) الـ (أسياد) والـ (سيدات) عوضاً عن ПIПНВ-ϯПНВ- ПIПНВ وأعود فألخّص فرضيتى على هذا النحو:

اللغة المنطوقة فى مصر أى لغة الحديث اليومى هى امتداد طبيعى للغة المصرية القديمة بمراحلها الثلاث الرئيسية الهيروغليفية والديموتيكية والقبطية وبهذه الصفة يجوز أن ندعوها بـ "اللغة المصري الحديثة" أى المرحلة الرابعة فى تطور لسان المصريين. وهذه اللغة مستقلة على المستوى النحوى والصرفى والصوتى، وفى أحيان كثيرة الدلالى عن سائر اللغات السامية وخصوصاً العربية والعبرية وإن لم تكن منفصلة كلغة حامية أى أفريقية عن هذه اللغات وخصوصاً فى الجانب الدلالى أى استعارة المفردات. وتحوير معانيها.

هوامش و مراجع:

(1) Egyptain Grammar. Sir Allan Gardiner. P. 3.

(2) Dictionnair Etymologique de la langue Copte. Werner Vycichl pp. X peeters 1983.

(3) العنصر السامى فى اللغة المصرية القديمة. عبد المنعم محمد حسن الكاروري. - المجلة العربية للدراسات اللغوية مج2 - ع2 - يونيو/ بؤونة 1982 عن معهد الخرطوم الدولى للغة العربية.

(4) "العامية فى ثياب الفصحى"، سليمان محمد سليمان. أستاذ اللغة العربية بالمعلمين العليا والكتاب عبارة عن بحث تقدم به سيادته لمسابقة مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 1950 - 1951 وأجازه المجمع.

(5) "لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة". سنة 1967 ص 190.

(6) The Grammatical characterisitcs of the spoken Arabic of Egypt. Thesis presented for Degree of Ph.d.

مخطوطة مضروبة على الآلة الكاتبة.

(7) المرجع السابق.

(8) Introduction to Sahidic Coptic. Thomas Lambdin. Mercer University Press 1983. P. IX

(9) المرجع فى قواعد اللغة القبطية. جمعية مينا العجايبى بالإسكندرية 1969 ص 31

(10) الشعر الشعبى التونسى محيى الدين خريف. الدار العربية للكتاب - ليبيا 1991

الفصل الثاني عشر

رداً على كتاب

"جغرافية التوراة فى جزيرة الفراعنة"

كان بوسعي أن أتجاوز هذا الكتاب كما أتجاوز كتباً مماثلة لا تصعد من المقدمات إلى النتائج، ولا تبدأ من المعلومات الموثقة والممحّصة والمعاصرة بمعنى المعاصرة للشخصيات أو الوقائع أو الأحداث التى تتناولها، وتسير وفق منهج علمى صارم إلى نتائج حتمية، لو لم يصدّر للكتاب أستاذ دكتور فى علم الآثار.

ولقد عوّدتنا مثل هذه الكتب أن يكتفى أصحابها بتقرير نشدانها لهدفٍ يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه هدف نبيل فالأهداف "النبيلة" -تبرر لأصحابها، فيما يبدو - انتهاكهم كافة الأصول و المبادئ و القيم، و تسوّغ لهم كافة الجرائم التي تقشعر لقسوتها و خساستها و دناءتها أبدان جميع البشر. والهدف "النبيل" الذى وضعه الكاتب نصب عينيه يتمثل فى إقناع قرائه بأن "المصريين عرب ساميون" ولو أن الكاتب يستخدم اسم "الفراعنة" كمرادفٍ للمصريين، فالفصل الذى يحمل عنوان "أصل المصريين" يبدأ هكذا: "الفراعنة عرب حقيقة سجلها "الطبرى" ... إلخ" والكاتب ينسب المصريين بذلك إلى حكامهم سيراً على نهج الساميين، وخصوصاً العرب فى شبه جزيرتهم الذين يسمُّون أنفسهم بالسعوديين، وهو نهج ينفردون به دون سائر البشر. فالإيرانيون لا يسمون أنفسهم، ولا يسميهم أحد الأكاسرة ولا الروس القياصرة ولا الرومان الأباطرة. ولو سرنا وراء ذلك النهج الشاذ بشكل مستقيم لانتهينا إلى عبارات مضحكة مثل اللغة الفرعونية بدلاً من اللغة المصرية القديمة وكذلك المرأة الفرعونية والثورة الفرعونية.

جور مغفور:

يبدأ الدكتور الأكاديمى المتخصص فى الآثار تصديره للكتاب بقوله:

"عندما تقرأ هذا الكتاب سيحاصرك إحساس بالدهشة من هول ما بين نتائجه وما استقر عليه علم المصريات من تباين يصل بدون مبالغة إلى حد التناقض التام".

ولكن كل هذا الهول لم يكن كافياً كى يقنع سيادة الدكتور الأكاديمى بالاعتذار عن تقديم الكتاب طالما كان الهدف المنشود "نبيلاً" على النحو الذى قرره كالتالى:

"من المفيد هنا التنويه إلى أن ما يطرحه المؤلف عن عروبة "الفراعنة" يتفق جزئياً مع العديد من الكتابات العلمية التى أشارت إلى وجود صلات واضحة بين الحضارة المصرية القديمة وشبه الجزيرة العربية كما وأن ظهور مثل هذه الأطروحات بصورة جديدة من شأنه أن يفيد فى تغذية حركة الجدل السياسى حول العروبة والشرق أوسطية بزادٍ جديدٍ من الموضوعات الخلافية التى نأمل أن توضِّح للعامة والخاصة والقاصى والدانى أن العروبة ليست مجرد طارئ فى تاريخ منطقتنا."

ومعنى قول الدكتور الأكاديمى أن المؤلف وإن كانت نتائجه تجور على الحقيقة المجردة، إلا أنه جور مغفور بالهدف المنشود، وهو نبيل بطبيعة الحال. ولست أدرى أى قيمة لهدف – أياً كان نبله – لا يقوم إلا على الأوهام، خاصة وأن الصلات بين مصر القديمة والمصريين القدماء – ولا أقول الفراعنة – وبين اليونانيين القدماء وكذلك الرومان القدماء لا تقل لا كماً ولا كيفاً عن "الصلات" بين المصريين وبين العرب وشبه جزيرتهم دون أن يزعم زاعم أن المصريين يونانيون أو رومان، و يُنصت له أحد. وفضلاً عن ذلك فإذا كانت الصلات التى تشير إليها *"كتابات علمية"*. على حد تعبير المقدم الفذ، بين شعب وآخر تؤدى إلى فقدان هوية أحدهما لصالح هوية الآخر. فالأولى أن يغدو العرب مصريين أو فراعنة. فالمصريون أسبق زمناً من الساميين عرباً وعبرانيين أى أن المصريين لا يصلحون أحفاداً لهم بحال من الأحوال وإن صلحوا جدوداً لهم بعد تجاهل حقائق التاريخ والجغرافيا والبشريَّات الطبيعية والاجتماعية فضلاً عن اللغويات.

كعب أخيل:

وإذا ما تجاوزنا التقديم إلى صلب الكتاب اكتشفنا أن الكاتب من نفس عيار المقدم سواء بسواء. وتكفى نظرة واحدة إلى فهرس المراجع كى نقف على أن الكاتب لم يرجع إلى أى مرجع من مراجع الدرجة الأولى كما لم يرجع سيادته إلى أى مرجع من مراجع الدرجة الثانية وأعنى بها تلك التى تستخدم لغة حية كالألمانية أو الفرنسية أو الإنجليزية فى تعاملها مع اللغات القديمة. والأنكى

أن مراجعه تضم كتابات يجهل أصحابها اللغات القديمة كما يجهلون بنفس القدر اللغات الحية، وتلك هى المراجع التى أدعوها بمراجع الدرجة الثالثة. وهى مراجع قد تكون كافية بحد ذاتها لمتعلم يحمل شهادة الابتدائية أو محو الأمية. ولكنها ليست كذلك بحال من الأحوال لمن يتصدى لعقد مقارنات واكتشاف تشابهات وتطابقات بين تلك اللغات إذ كان الأمر ليتطلب منه أولاً أن يلم بأبجديات اللغويات حتى يعرف قواعد القلب والإبدال والتماثل الأمامى والخلفى فلا ينزلق منه الأمر إلى ما يسميه اللغويون بالاشتقاق الفولكلورى. وهو ما حدث من سيادة المؤلف فى كتابه وعلى كر صفحاته حتى أصبح بمثابة "كعب أخيل" أى نقطة الضعف الرئيسية فى الكتاب. والاشتقاق الفولكلورى هو توهُّم وجود صلة بين تشابهات أو حتى تطابقات وقعت بالصدفة المحضة بين كلمات فى لغات بعيدة الواحدة عن الأخرى نحوياً وصرفياً ودلالياً. فليس هناك صلة بين "باريس" عاصمة فرنسا و"باريس" عاصمة الواحة الخارجة فى جنوب مصر ولا بين "ك س" وبين Kos الهندية. ويروى بعض خفيفى الدم من أولاد البلد نكتة تلعب على التشابه وقل التماثل بين فعل الأمر "وط" وأداة الاستفهام What فى اللغة الإنجليزى. ويشكِّل هذا الاشتقاق الأساس الذى تقوم عليه بصفة عامة ما يسمى "بالقافية" لدى الظرفاء من المصريين.

يقول سيادة المؤلف على سبيل المثال:

{وفى رأى المؤرخين أن عبادة الإله "أوزير" يرجع أصلها إلى بلدة "بوصير" ولا ندرى أية "بوصير" تلك التى أختصت بعبادة هذا الإله. هل هى بلدة "باصر" من بلاد "ذمار" باليمن أم بلدة "البصر" فى بلاد الحزن أم بلدة "الباسرة" بأعالى نجد؟ لكننا نجزم بأنها "بوسر" وهى بلدة فى مملكة "أوسان" اليمنية وردت فى نقوش النصر للملك "كرب آل وتر" الذى ضرب "بوسر" حتى كتسح "أوسان" ومرتوم.} (ص36).

وأستطيع أن أوجز ردى هنا فيما يلى:

1- بادئ ذى بدء لست أعرف أى مؤرخ، فضلاً عن عدد من المؤرخين، قال بأن بلدة واحدة هى "بوصير" اختصت بعبادة "أوزير". و في هذا الصدد تقول "فيرونيكا أينز":

{...فعبادة هذا الإله المصرى القديم سادت مصر من أدناها إلى أقصاها. ولما كان "أوزيريس" - أو "أوزير" بعد حذف أداة الإعراب اليونانية التى دخلت على الاسم - حاكماً قديماً نصر قتله أخوه "سيت" غيلة، ثم عاد إلى الحياة بمعجزة خارقة فلقد أصبح من هنا يمثل آمال

المصريين (فى البداية آمال الملوك ثم آمال المصريين العاديين) فى البعث والحياة الأخروية واحتاج الأمر فى ذلك العهد البعيد ثورة اجتماعية سارت بالفكر المصرى القديم نحو الديمقراطية كى ينعم المصريون العاديون بما ينعم به ملوكهم.}[1]

وبالتالى سادت الديانة الأوزيرية كافة أرجاء وادى النيل قبل أن تنتقل أصداؤها إلى الأمم والقبائل المجاورة لمصر.

2- عوضاً عن أن يستعين المؤلف بأحد الأطالس أو أحد القواميس الموثقة فى الجغرافيا أو كتابات الجغرافيين والرحالين القدماء مثل "هيرودوت" فى القرن الخامس ق.ع.م. (=ق.م.) أو "ديودور الصقلى" قرب نهاية القرن الأول أو "سترابو" نحو السنة الخامسة والعشرين ق.ع.م.(=ق.م.)، خلال بحثه عن موقع "بوصير" نراه يقفز إلى اللغة ويحاول الاستناد إليها وحدها فى "الجزم" بأن "بوصير" هى "بوسر" فى مملكة "أوسان" اليمنية. ولكن الجغرافى المشهور "أميلينو" Amélineau يخبرنا فى هذا الصدد بأن مصر تعرف خمس مدن تحمل كل منها اسم "بوصير" بخلاف المدن التى كانت تحمل هى الأخرى هذا الاسم، ولحقها الاندثار مثل "بوصير الأشمونين". وتلك التى كانت لا تزال باقية حتى عهد "أميلينو" على الأقل هى:

أ- "بوصير بنا" وتقع فى زمام سمنود وقد ذكرها أيضاً "يوحنا النقيوسى".

ب- "بوصير البدرشين" فى محافظة الجيزة بالقرب من "سقارة".

ج- "بوصير الملق" فى محافظة بنى سويف.

د- "بوصير الزاوية" فى محافظة بنى سويف أيضاً.

هـ- بوصير النخلة فى نفس المحافظة كذلك.

ويضيف العالم الكبير "إميلينو" قرية فى الفيوم تحمل نفس الاسم. وأستطيع بصفتى مصرياً- مصرياً أن أضيف "بوصير" الساحل الشمالى غربى مدينة الإسكندرية.

3- إذا ما عرفنا أن "بوصير" تعنى باللغة المصرية القديمة "بيت أوزير" جاز لنا أن نؤيد رأى من قال أن عبادة هذا الإله شملت كل أرجاء مصر. وإذا تصادف وجود الباء والسين أو نظيره المطبق الصاد فى أسماء بلدان يمنية أو نجدية فأمر عارض. ولا يستطيع عاقل و لا حتى نصف عاقل أن يقول أن "بوصير" التى نصلها فى محافظة الجيزة أو بنى سويف بالطريق البرى تقع فى اليمن أو فى أى بقعة أخرى فى شبه جزيرة العرب.

قارة جديدة:

وركونا إلى الاشتقاق الفولكلورى مضى المؤلف فى كتابه، الأمر الذى سبب لى إرهاقاً لم أخبره فى قراءاتى المتعددة. ولكننى استسمح القارئ الكريم عذراً فى التوقف لحظة أمام الفصل الذى حمل فى الكتاب اسم "أصل المصريين". فسيراً على نهجه فى الجزم بدأ فصله على هذا النحو:

"الفراعنة عرب حقيقة سجلها ورددها المسعودى وأكدها الفراعنة فى نقوشهم وفنونهم. فعند الطبرى (ولد لسام عابر وعليم واشوذ وأرفخشد ولا وذ وأرم وكان مقامه بمكة ومن ولد أرفشخد الأنبياء وخيار الناس والعرب كلها والفراعنة بمصر" (ص 30).

ويضيف:

"فالفراعنة من العماليق من نسل أرفشخد ولا وذ. وكان مقامهم الحرم وأكناف مكة والجامة ولسانهم الذى جبلوا عليه لسان عربى" (ص 30).

ويستطرد:

"ولود = لا وز، الأمر الذى يؤكد عروبة الفراعنة وساميتهم وأن جذورهم من الجزيرة العربية" (ص 30).

ولسوف أوجز تعليقى على هذه الفقرة على النحو التالى:

1- لم يكتب الطبرى ولا المسعودى ولا ياقوت ولا ابن الجوزى بل ولا ابن عبد الحكم، ولا سائر المؤرخين العرب عن تاريخ المصريين القدماء حرفاً واحداً يستحق عناء القراءة. فالقارة الجديدة وأعنى بها الحضارة المصرية القديمة لم تكن قد اكتُشفت بعد، ولم يكتب أحد عن تاريخ المصريين ولا لغاتهم ولا دياناتهم شيئاً يُعتد به قبل تسليم هذه الحضارة مفاتيح كنوزها للعلماء الغربيين المحدثين أى قبل أن يشرع "توماس يونج" و "جان-فرانسوا شامبيليون" فى فك رموز الكتابة المصرية فى الربع الأول من القرن التاسع عشر.

2- لا يزال أصل المصريين القدماء محل نزاع بين عدد من النظريات. ولكن ليس من بين النظريات التى يُعتد بشأنها ما يذهب إلى أن المصريين عرب. والنظرية الأرجح - إذا جاز لى أن أرجح نظرية فى هذا المجال - هى تلك التى تقول بأن المصريين حاميون شرقيون أو أفارقة شرقيون. وأستمد دليلى الأقوى على ذلك من اللغويات. فاللغة المصرية القديمة تنتمى إلى الفرع الحامى (الأفريقى) فى العائلة المعروفة باسم الحامية - السامية Chamito – Semitique أى أن

اللغة المصرية القديمة التى تستنكف مدارس مصر ومعاهدها وجامعاتها تدريسها للمصريين المعاصرين ترتبط بروابط أوثق مع اللغات البربرية والكوشية والتشادية من تلك التى تربطها باللغات السامية (الأسيوية) كالعربية والعبرية والأرامية إلخ.

3- اتسمت العلاقات التاريخية بين المصريين القدماء والأسيويين الغربيين والساميين منهم على وجه الخصوص والعرب والعبرانيين منهم على وجه أخص بالعداء شبه المستمر، وهو الأمر الذى انعكس فى أساطير العبرانيين وخرافاتهم المقدسة كما انعكس كذلك فى الصفات والألقاب التى حفظتها لنا الآثار المصرية القديمة، لأولئك الأعداء ويذكر "فوكنر" فى قاموسه أن المصريين القدماء وصفوا هؤلاء الأقوام الذين دأبوا على التسلل والإغارة على أرض مصر الخصيبة إلى أن تجرأوا وقادوا ضدها جيوش الغزو بهذه الصفات ولقبوهم بهذه الألقاب:

أ- الرحل. (F.110) منتو

ب- سكان الرمال . (F.175) حريو شاع

ج- جوابو الرمال (F.133) نيميو شاع

ويذكر التاريخ القديم حملات التأديب التى قادها ضد هؤلاء الأسيويين الغربيين فراعنة مصر العظام على رأسهم "تحوت – موسى" الثالث، بطل معركة "مجدو"المشهورة سنة 1484 ق.ع. م. وهى المعركة التى انتصر فيها المصريون القدماء تحت قيادة فرعونهم المجيد على تحالف الأسيويين الغربيين الذين احتشدوا بأعداد هائلة فى سهل "مجدو". وكان انتصاراً ساحقاً ماحقاً انعكس فى أوقات لاحقة فى أساطير العبرانيين و خراريفهم المقدسة وخصوصاً أسطورة "الهرمجدون" المشهورة.

4- يشكل المصريون أقدم قومية عرفها التاريخ إذ استطاعوا أن يقيموا دولة مركزية منذ مطلع الألف الثالث ق.ع.م.(=قبل عصرنا المعروف= قبل الميلاد) ويعرف الذين لا يعرفون سوى اللغة العربية التى اكتسبت صفة الفصحى فى الآونة الأخيرة أن القرءان ذكر "مصر" صراحة أى بهذا الاسم خمس مرات فيما لم يشر إلى الشعوب السامية إلا بصفتهم أقواماً وقبائل مثل "بنى إسرائيل" والأعراب أو العرب دون أرضهم أى دون البقعة الجيو – سياسية التى لم يعرفوها إلا فى أوقات لاحقة أى متأخرة تاريخياً. وغنى عن الذكر أن لوح/ صادود "ميرى – ان –= بتاح" يذكر،

لأول و لآخر مرة، بنى إسرائيل مع مخصص رجل وامرأة أى ناس ولـيس مخـصص الذى لا يعطيه الكتبة المصريون إلا للمستقرين فى بقعة محددة ومعناه أن الإسرائيليـين كـانوا وقـت ذاك فى طور الترحال.

5- لست أدرى السبب الـذى يـدعو المـصريين المعـاصريين سـواء إلى التنـازل عـن هـويتهم القومية أو تبنى الهوية القومية لأعدائهم التاريخيين أى الساميين عرباً أو عبرانيين. بل و لا أعتقـد أن تبنى المصريين المعاصرين لهوية العرب الساميين سيؤدى إلى إسقاط العبودية الحديثة عمن يسافرون منهم إلى شبه جزيرة العرب للعمل والإنتاج وأقصد بطبيعـة الحـال ذلـك النظـام المعـروف باسـم (الكفالة). وأبنى اعتقادي أو ترجيحى فى هذا الصدد على أن من يعتنقون إيمانـاً راسـخاً مـدعماً بـما يسمونه شجرة العائلة، بانحدارهم من "آل البيت" أى من العرب الأقحـاح، وينتـسبون إلى نقابـة لهم فى مصر تحمل اسم نقابة الأشراف ويتعالون على فلاحى مصر ويأنفون من تـزويج بنـاتهم لهـم ويقول مثلهم السائر: أرميها للتمساح ولا ياخدها الفلاح!"، هؤلاء يلقون فى شبه جزيـرة العـرب نفس المعاملة التى يخضع لها غيرهم من المصريين الشرفاء غير الأشراف.

وعند هذه النقطة أرى أن الوقت قد حان لإهمـال الكتـاب باشـتقاقاته الفولكلوريـة البائـسة والتحول إلى هدفه ذاته، ذلك الذى سوّغ فى رأى الأستاذ الأكاديمى المتخصص الذى قدّم للكاتب أن ينتهك الحقائق والمناهج والنتائج التى استقر عليها العلماء والمؤرخون، وبرّر له أن يـستمر يقـول فى كتابه "هذا رأى العلماء وفى رأينا كيت وكيت..." ففى ص 27 على سبيل المثال يقول سيادته:

"إن الاعتقاد السائد لدى علماء المصريات القطـرين أن "مينـا" قـام بتوحيـد الـوجهين القـبلى والبحرى والرأى عندنا أن توحيـد القطـرين هـو توحيـد لمصر الـسفلى ومـصر العليـا أى جزيـرة العرب!"

وفى ص 28 يعود فيقول: "هذا هـو رأى علـماء المـصريات فى خطـوات الاتحـاد التـى سـبقت "مينا" ورأينا أن كافة تلك الخطوات كانت فى جزيرة العـرب ... فالمملكـة الأولى والتـى عاصـمتها "باحدت" لم تكن فى الغرب ولكن فى الجنوب وتحديداً فى اليمن و"باحدت" ولا يمكـن أن تكـون دمنهور الحالية بل هى (حدت) = حدة"!

وفى هذا الصدد قد يتساءل البرج الأخير فى رأسى: أين سقط صعيد مصر بل وأين ذهب البحر الأحمر؟ ولكننى كنت أتمنى على سيادة المؤلف لو أنه قال طلباً لمزيد من الدقة: "هذا هو رأى علماء المصريات عن علم... ورأينا دون علم كيت وكيت".

ضرورة التميز:

أستطيع أن أوجز ردى على الهدف الذى سعى إليه المؤلف وأقرّه عليه مُقدمه الهمام فى عبارة واحدة: *ضرورة التميز*. ويفرض علي تفصيل الأمر أن أتوقف باستفاضة أمام تجارب الشعوب التى بدأت نهضتها الحديثة مع استشعارها لتميُّزها عن جيرانها. وليسمح لى القارئ الكريم أن أختار عفو الخاطر ثلاث تجارب وحسب هى تجارب اليابانيين والفنلنديين ثم الأسبان كى نلقى عليها نظرة موجزة:

أ- ظل اليابانيون يشكلّون من الوجهة الثقافية جزءاً لا يتجزأ من الأقيانوس الصينى حتى القرن العاشر م.ع.م.(=الميلادى) ثم بدأوا لأسباب عديدة ومتعددة، فى استشعار ملامح ثقافة قومية متميزة، تمثلت بشكل رئيسى فى ظهور طريقة مقطعية لكتابة لغتهم القومية، وهى الطريقة التى عرفت وقت ذاك باسم "كانا" ومنذ ذلك الحين بدأت كتابتهم تستقل شيئاً فشيئاً عن الطريقة الصينية التى تعتمد نسق فكرة – نقشة أو "إديو جراف" Ideograph. وأخذ المثقفون اليابانيون فى استنباط كتابة صوتية مقطعية بشكل حاسم؛ وإن استخدموا فى ذلك الرموز الصينية بعد اختصارها وإسناد قيم صوتية جديدة إليها. وانتهى الأمر بهم إلى وضع نموذجين هما "هيرا جانا" و"كاتا كانو" لكتابة لغتهم القومية بسلاسة، وهو ما يصفه العلماء بأنه "*الحدث الذى خلق التاريخ اليابانى الحديث*"، إذ بفضله ساد التعليم وانطلقت الحركة القومية اليابانية إلى آفاق أرحب. وفى خط موازى (موازٍ لمن يحب) بدأت فى الظهور الصيغة اليابانية الخاصة للديانة البوذية التى وفدت إلى البلاد من أعماق القارة الأسيوية. واعتمد اليابانيون مذهبين خاصين متميزين لهذه الديانة هما مذهبا "تنداى" و"سينجون". ومع استقلال الثقافة اليابانية فى سائر الميادين بوجه عام بدأت فى الظهور اليابان الحديثة التى نعرفها اليوم كأمة عظمى تملك ثانى أضخم اقتصاد على نطاق العالم.

ب- استمر الشعب الفنلندى يعيش كقبائل ممزقة تحت السيطرة الثقافية والسياسية الخانقة للأجانب حتى القرن السابع عشر م.ع.م.(=الميلادى) ولكن مشاعر الوحدة بدأت، ولأسباب لا مجال لتقصّيها فى الوقت الحاضر، تدب فى هذه القبائل بفضل شعرائها حتى شكل الفنلنديون قومية

مستقلة. وأخذت الجزيرة المطمورة تحت مياه الثقافة الأجنبية، تطفو كى تعانق الشمس. وفى خضم هذه الحركة الوثابة وضع القس ميخائيل أجريكولا (1510 – 1577م) أبجدية فنلندية خاصة انتهى منها فى سنة 1542

ومنذ ذلك الحين أخذ المثقفون الفنلنديون يبحثون عن تراثهم القومى من الأساطير والحواديت والأغانى، ويسجلونه ويشرحونه ويذيعونه بلغتهم التى لم تعد لغة عامية محتقرة بل لغة راقية متحضّرة تستطيع الوقوف رأساً برأس مع سائر اللغات الأوروبية "الفصحى". وها نحن نجد أنفسنا اليوم أمام أمة، وإن كانت صغيرة ومحاطة بالعمالقة من كل جانب، إلا أنها تحتفظ لنفسها بموطئ قدم راسخ تحت شموس الحرية والديمقراطية والعلمانية و حقوق الإنسان...إلخ.

جـ- قادت الملكة ايزابيلا الأولى (1415 – 1504) الصراع ضد آخر معاقل الغزاة المحتلين وسواء أكانوا عرباً أم متعربين حتى أعادت فتح "غرناطة" وبتعبير أدق حرّرتها بعد معركة مظفرة فى سنة 1492. وعندئذ كانت الحركة القومية الرائعة التى عرفت باسم ريكونكويستا Reconquista قد استكملت أهدافها بتحرير كامل التراب الأسبانى، وهو الأمر الذى لا يزال يبكيه شعراء عرب حتى اليوم باعتباره "ضياع الأندلس" ولكن الدور الذى لعبه المثقفون الأسبان فى إذكاء الروح القومية والإبقاء عليها حية متفجرة حتى ولو أدى ذلك إلى الانسحاب بها إلى قمم جبال "أستورياس" كان دوراً بارزاً. ولولا هذه الروح الخلاقة الوثابة التى استشعرت تميزاً عميقاً عن الغزاة المحتلين حتى على المستوى الدينى، لكانت أسبانياً قد أصبحت الآن عضواً فيما يسمى بـ "الجامعة العربية" وهذه منظمة هشة إذ تصل إلى قراراتها بالإجماع، لا الأغلبية، و تقف مثلما يقف سائر أعضائها حائرة بين الحجاب والخمار والنقاب والسدال كى تستجدى قوتها من الأجانب الذين يسرقون أكرر يسرقون ثرواتها الطبيعية الخرافية بالتواطؤ مع حكومات قفزت من المجهول كي تحتل سدة الحكم في بلادها أي أنها غير منتخبة انتخاباً حراً نزيهاً.

تلك هى ثلاث تجارب مختلفة الواحدة عن الأخرى ولكن يجمع بينها جميعاً بروز دور المثقفين فى استشعار التميز وعندئذ يكون النهوض الذى لا يستطيع أحد أن يتصوّر قيامه استناداً إلى درجة عميقة من الدونية القومية التى تصل إلى حد تبنى هوية الأعداء التاريخيين للوطن بل وغزاته ومحتليه ومستوطنيه.

و في هذا الصدد يقول عالم البشريات (=الأنثرولوجيا) المشهور "كلود ليفي شتراوس":

" لكي تتملّك الثقافة جوهرها الحقيقي و لكي تنتج شيئاً ذا وزن،، يتعيّن على الثقافة وأصحابها أن يؤمنوا بأصالتهم و حتى بتفوقهم، إلى حدٍ ما، على الآخرين. و حتى يحدث ذلك، فلن يكون في طوعها أي تلك الثقافة، بعيداً عن ضوء هذه الشروط ...، أن تنتج شيئاً أي شيئ من أي نوع.[2]

من صنع الخيال:

على أن أغرب فصل فى الكتاب هو ذلك الفصل الذى يوجّه فيه الكاتب تحية مستفيضة للبروفيسور "توماس طومسون" الذى يخبرنا سيادة الكاتب أن جامعة "ماركويت" فى "ميلواكى" بالولايات المتحدة طردته من منصبه كأستاذ لعلم الآثار لأن البروفيسور أوضح فى كتابه الأخير: "التاريخ القديم للإسرائيليين" أن مجموع التاريخ الغربى لإسرائيل والإسرائيليين يستند إلى قصص من العهد القديم (التوراة) من صنع الخيال. وسواء جاء طرد البروفيسور، إذا كان قد طُرد حقاً، لهذه الأسباب أو لأسباب أخرى، فإننى كنت أود من شغاف قلبى أن أوجه تحية مماثلة للكاتب ولمقدمه، لو لم يستند كلاهما إلى قصص من صنع الخيال هى الأخرى، فى محاولة مضحكة إلى حد الاجهاش بالبكاء و الانخراط في النشيج لنفى ما استقر عليه العلم والعلماء.

ولا يفوتنى فى الختام أن أقول أن الكتاب ينطوى على ميزة رائعة تتمثل فى وقوفه دليلاً حياً على المستوى الذى هبطت إليه الثقافة القومية للمصريين بعد أن تسلّم الأجانب والأمريكيون بصفة أساسية مسؤولية صوغ نسقيها التعليمى والإعلامى لفترة طالت حقاً.

مراجع:

(1)Egyptian Mythology,Veronica Ions, Newnes Books,1983,p.126

(2) Myth and Meaning, Claude-lévi Strauss, Schocken Books, New York, 1999.p.11

الفصل الثالث عشر

المصريون المعاصرون بين الشوفينية والدونية

"بين التعصب للذات والتعصب للآخر"

تعريف:

يقول العالم الكبير "هوجو شوشارد" يمثل التباس المصطلحات للباحثين ما يمثله الضباب بالنسبة للبحارة. ويزيد خطرهما معاً أى الالتباس والضباب بشكل مطرد كلما قل وعى هؤلاء وأولئك بوجودهما "[1]

وبناء عليه أرى ضرورة البدء بمحاولة ما نحو تحديد مصطلحىْ: "الشوفينية" و"الدونية". وفى هذا الصدد تشير الموسوعة البريطانية إلى أن "الشوفينية نزعة وطنية مفرطة لا تتفق مع قواعد المنطق. والمصطلح مشتق من اسم عسكرى فرنسى يدعى "نيكول شوفان" Nicole Chauvin الذى قنع بتقلد أنواط الشجاعة العسكرية وراتب هزيل مقابل التفانى والتدله الساذجين فى حب قائده نابليون" وسرعان ما أصبح "شوفان" نموذجاً لعبادة وتمجيد كافة الرموز العسكرية التى شاعت حول سنة 1815 بين المخضرمين من جنود نابليون. وفى وقت لاحق أصبحت "الشوفينية" تعنى كافة أنواع القوميات المتطرفة. وغدت تستخدم فى الدلالة على التحيز لـ/ أو التعلق الزائد عن الحد بجماعة أو بقعة من الأرض ينتمى إليها الشوفينى" [2] ويضيف قاموس "وبستر" إلى ذلك أن الشوفينية هى: "نزعة وطنية عمياء" [3] ويوضح قاموس "تشامبرز": أن الشوفينية ما هى إلا نزعة مغالى فيها بصورة لا معقولة من الفخر بالوطن، وينطوى ذلك على احتقار موازى (أو مواز) للأوطان الأجنبية" [4]. ويفضى بنا كل ذلك إلى أن نقرر أن "الشوفينية" تعنى:

- "الامتلاء بصورة غير موضوعية بالانتماء الذاتى سواء إلى وطن أو قضية أو جنس (ذكر / أنثى) أو عرق إلى حد الاستعلاء على سائر الانتماءات المماثلة للآخرين".

أما فيما يتعلق بمصطلح "الدونية" فلا أملك سوى مفهوم المخالفة، خصوصاً وأن الشعور بالدونية ينطوى على عقدة نفسية تسير على الفرد أكثر منها على الجماعة، و يعد الشعب المصرى. فى ظنى، واحداً من الجماعات البشرية القليلة، إن كان لمثل هذه الجماعات وجود، التى بدأ أبناؤها يستشعرون خلال السنوات الخمسين الماضية، على وجه الخصوص، دونية قومية واضحة ليس أمام المتحضرين، و هو ما قد يكون مفهوماً، و إن لم يكن مقبولاً، بل أمام المتخلفين وبالتحديد أمام البدو الرحل، رعاة الغنم والمعيز بصفة أساسية من سكان غرب آسيا أى الساميين سواء أكانوا عرباً أو عبرانيين. وعلى هذا الأساس تكون الدونية هى:

- "الامتلاء بصورة غير موضوعية بانتماء تالي(=تالٍ) أو لاحق أو مصطنع سواء لعرق أو دين أو أمة.. إلخ إلى حد ازدراء الانتماء الأصلى والفطرى".

ولعل الأمثلة على "الشوفينية" القومية أكثر من أن يحيط بها حصر ويتمثل أبرزها فى عالمنا المعاصر فى النازية الألمانية والفاشية الإيطالية والعسكرية اليابانية. أما الأمثلة على "الدونية" القومية فنادرة. ولا أكاد أعرف جماعة أخرى يستقر أبناؤها على كل هذا القدر من الإنكار والاستنكار لجدودهم الذين يقفون رموزاً قومية على هذه الجماعة سوى المصريين المعاصرين. ولعلنا نلاحظ جميعاً أن أبرز المتعلمين – ولا أقول المثقفين إذ أشك أن لهؤلاء وجود عندنا ـ لا يحتفون بأحد من جدودهم إلا بمن يشبهون منهم أو يشابهون أعداءهم التاريخيين، أى الساميين. وأسوق فى هذا الصدد مثال "أمين – حوتب" الرابع الذى تلقَّب فى وقت لاحق باسم "أخناتون" ولا يصفه مؤرخو العالم القديم بالفرعون المارق [5] دون أسانيد قوية. وهذه الحفاوة لا تستند إلا إلى الوحدانية التى دعا بها "أخناتون" ثم دعت بها وإليها الديانة الإبراهيمية بشعبها الثلاث: الموسوية والمسيحية والمحمدية أو ديانة الساميين على حد تعبير عالم البشريات "روبرتسون سميث"، رغم أن "أخناتون" كان بدعوته تلك، أول من نبذ التعددية أى تحول عن عبادة إله قومى يُعبد ويسمح لغيره من الآلهة بأن يُعبدوا مثله هو "أمون" إلى عبادة إله واحد أحد هو "أتون". وبذلك يكون "أخناتون" أول من عدل عن التسامح إلى اللاتسامح، وبذر بالتالى أول بذرة للتكفير فى العقل البشري. ومع ذلك كان حظه بين "المتعلمين المصريين" المعاصرين، من أدناهم إلى أعلاهم، أوفر من سائر الفراعنة: من بنى منهم ومن شيَّد، من حفر منهم الترع ومن خزَّن مياه الفيضان، من قاتل منهم الأعداء الذين عرفهم المصريون باسم "الأقواس التسعة" ومن استشهد منهم دفاعاً عن حمى

مصر العزيزة بل ومن أصدر منهم مراسيم أو شرائع الإصلاح. فكل هؤلاء موصومون بالكفر من جانب الساميين عرباً وعبرانيين. وقد يكون هذا طبيعياً من أعداء يستمدون المدد من آلهتهم على نحو ما فعلت قبلهم كافة الشعوب كاليونانيين والرومان. ولكن الشاذ البالغ الشذوذ، فى تصورى، هو وقوف "المتعلمين المصريين" - بمن فيهم من يُسمُّون أنفسهم بالمثقفين المصريين - إلى جانب أعدائهم وأحياناً كثيرة أمام أعدائهم فى دمغ جدودهم بالكفر، خصوصاً إذا ما تذكرنا أن اليونانيين المعاصريين وهم مسيحيون أرثوذكس كُمَّل، لا يصفون ولا يقبلون من أحد مهما على فى مدارج الإيمان أن يرمي أياً من حكامهم أو فلاسفتهم أو شعرائهم بالكفر أو التهرطيق. و نفس الأمر ينطبق بحذافيره على الإيرانيين إزاء جدودهم الأكاسرة.

القومية قبل الديانة:

وذلك راجع فى تصورى إلى أن هؤلاء الإيرانيين المعاصرين و أولئك اليونانيين المعاصرين بقيادة متعلميهم لا يعلون، ولم يعلوا فى أى لحظة من لحظات تاريخهم الانتماء الدينى، التالى واللاحق وربما المصطنع على انتمائهم القومى الأول والأصلى والفطرى فى آن واحد. و ننصت فيأتينا صوت مبعوث آية الله خومينى إلى بريطانيا فى أواخر الثمانينات حجة الإسلام "حسين بهراز": "***إيران أمى أما الديانة المحمدية فزوجتى، قد أطلق هذه لكننى لا أستطيع أن أطلق تلك***".

ولقد أشرت فى وقت سابق إلى أن الإيرانيين المعاصريين لا يزالون يتمسكون بثقافتهم ولغتهم القومية بل وباسم الإلاه الواحد أي "الوثني" - و لو أنني أتحفظَّ على هذه الصفة التي لا تعكس، في رأيي، سوى عمى العقل و بلادة الضمير معاً - فى الفارسية القديمة أى "خدا". ولا يستطيع أحد أن يحتج فى هذا المجال بالعدد الضخم من الألفاظ التى دخلت الفارسية من العربية فمثل هذا العدد. ومهما بلغت نسبته إلى الألفاظ الفارسية لم يستطع، وما كان فى وسعه، تعديل "بنية" Structure اللغة الفارسية التى كانت ولا تزال "آرية" وهذا هو أس الأسس وليس الكلمات.

وفضلاً عن ذلك لا يأنف الإيرانيون وغالبيتهم الغالبة مسلمون حسنو الاسلام - كما هو معروف - من إطلاق أسماء "الأكاسرة" الذين يوازون عندما الفراعنة سواء بسواء "كمبيز - داريوش - كورش" على أولادهم. و نعرف كلنا و يعيبنا أن نجهل أن الإيرانيين لا يزالون يحتفلون سنوياً حتى اليوم بذكرى "فيروز أبو لؤلؤة" الذي مزَّق بخنجره المسموم أمير المؤمنين "عمر بن خطاب" رضي الله عنه. ويذكر كثيرون منا ولا شك إصرار الوفد الإيرانى لمؤتمر الجريمة الدولية

الذى انعقد فى القاهرة سنة 1994، إلى حد التهديد بالانسحاب، على ترجمة توصيات المؤتمر وبيانه الختامى إلى اللغة الفارسية، لغة قوميتهم الإيرانية أى اللغة الأم لبلادهم دون الاكتفاء بالإنجليزية اللغة العالمية واللغة العربية، إحدى اللغات الخمس للأمم المتحدة، وفى نفس الوقت لغة القرءان أى هذه اللغة التى حملت وتحمل إليهم أحكام ديانتهم التى تعدهم بدورها بحملهم إلى الفردوس الموعود. أما إذا استنكف المصريون المعاصرون الذين يعتنقون المذهب السنى للديانة المحمدية مقارنتهم، على هذا النحو، بالشيعة الذين يشكك الأصوليون السنيون فى عقيدتهم، فإن حجتهم تهتز – أليس كذلك؟ – بمقارنتهم بالأتراك السنيين حتى من أتباع "نجم الدين أربكان" زعيم حزب "الرفاه" الأصولى، الذين استمروا يحتفظون بكافة خصائصهم القومية ولغتهم وحتى بالاسم الخاص بالإلاه الواحد" فى لغتهم التركية. كما سبق لى أن نوهت فى وقت سابق.

2- بدء الانهيار:

أنزل الأسيويون الغربيون وبالتحديد الفرس بقيادة الغازى أو الفاتح الأسيوى "كمبيز بن كورش" هزيمة قاسية بالمصريين تحت قيادة فرعونهم السيئ الطالع الذى فضَّل الاستشهاد على الاستسلام "بسماتيك الثالث" فى سنة 525 ق.ع.م ومنذ ذلك الحين بدأت مصر تدفع الجزية للأجانب – كما ذكرت فى الفصل الرابع – لكن هذه الهزيمة لم تكن سوى هزيمة عسكرية. حقاً استتبعت هدم ونهب معابد الآلهة المصرية كما شملت تدمير وتهشيم ونقل كنوز أخرى إلى بلاد الفاتحين الأسيويين الغربيين. وتتحدث الوثائق المعاصرة فيما يذكر "جاردنر" عن تدمير كل معابد آلهة مصر فى عهد "كمبيز". ويشير "هيرودوت" إلى أن "كمبيز" كان وحشاً يتسم بالقسوة وعدم التقوى وأن جنونه وصل إلى ذروته بقتل العجل المقدس "أبيس".[6] إلا أن هذه الهزيمة لم تمس روح المصريين وقت ذاك إذ استمرت الثقافة القومية لمصر أى عقلها ووجدانها حية متحفزة قادرة على المقاومة والاستمرار أى على الاتصال مع الماضى والانتقال إلى المستقبل عبر الأجيال اللاحقة. فداوم المصريون على تنفس روحهم وعلى التواصل شعراً ونثراً بلغتهم الخاصة، وفى عبارة أخرى استمروا يعبدون آلهتهم القومية.

وألقى شموخ الثقافة المصرية ورسوخها على الغزاة/ الفاتحين بظلال التأثير. فهناك أكثر من دليل على أن "داريوس" خليفة "كمبيز" (521 – 486 ق.ع.م.) اتبع فى حكمه لمصر مبدأ اصطناع شرعيته كفرعون يتابع تنفيذ مشاريع أسلافه الفراعنة الصاويين. فلقد واصل أعمال

التشييد التى بدأوها فى معابد آلهة المصريين. وترجع إليه إقامة معبد "أمون" الذى لا يزال قائماً حتى اليوم، بحالة جيدة. ويذكر أستاذنا "عبد العزيز صالح" مدرس المصريات بجامعة القاهرة *"أن الحكام الفرس لقَّبوا أنفسهم بألقاب الفراعنة الخمسة وسمُّوا أولادهم بأسماء مصرية بل وكتبوا وثائقهم باللغة المصرية القديمة إلى جانب لغتهم."*[7] كما أن الحكام الفرس أمروا فى أوقات لاحقة بإعادة الكنوز التى نهبوها من معابد الآلهة المصرية مرة أخرى إلى مصر. ويقول "أدلف إيرمان":

"كان استيلاء كمبيز" على مصر نكبة حقاً للديانة المصرية بالذات، ذلك لأن الفاتح أو الغازى الفارسى كان يقف من مصر وآلهتها موقف الساخر المحتقر. ولئن كان قد انتهب تماثيل الآلهة والكتب من المعابد، فمن المحقق أن ذلك لم يكن لأنه كان يعتبرها شيئاً مقدساً وإنما كانت عنده مجرد غنائم".[8]

ومع ذلك وقع اختيار الغازى/ الفاتح الفارسى على طبيبه الخاص من بين الكهنة المصريين وكان يدعى "أوزا – حر – رسنت" وهو الطبيب الذى ترك أعظم الأثر على "كمبيز". فعندما شكا إليه الأهالى من أن الأجانب من مختلف الأجناس يسكنون فى حرم المعبد أى معبد الإلهة "نيت" فى "سايس" مما يثير مقت المصريين الأتقياء، قام الملك الغازى بما لم يقم به الملوك الوطنيون المصريون أنفسهم، إذ أمر بهدم بيوت الأجانب، وأجبرهم على الإقامة خارج سور حرم المعبد. ويقول "ديودور الصقلى" الذى زار مصر بعد تلك الفترة بقليل، أن "داريوس" الأول أمر بهدم وحرق معبد الإله الأسيوى الغربى أو السامى "يهوه" فى جزيرة "اليفانتين" إكراماً لكهنة الإله المصرى القديم "خنوم"، الذين كانوا يُقدسون رمزه و هو "الكبش"، بينما لا يتورع أتباع "يهوه" عن ذبحه و أكله.

واستمر الأمر على هذا النحو، وإلى هذا الحد أو ذاك، عقب الغزو اليونانى بقيادة الإسكندر الأكبر وقيام الأسرة البطلمية التى حمل ملوكها، هم أيضاً، ألقاب الفراعنة الخمسة. وبدأ التأثر والتأثير المتبادل بين الثقافتين المصرية واليونانية، حتى بات يونانيون عديدون يعتقدون أن الآلهة المصرية ليست شيئاً آخر سوى آلهتهم الخاصة: فأوزيرس وإيزيس صارا "ديونيسيوس" و"ديميتر" و"حوريس" هو "أبو للو" و"سيت" إنما هو "تيفون".. إلخ بل و نشأت عبادة يونانية

مصرية مشتركة حول "سرابيس" الذى غدا الإله الرئيسى فى مملكة البطالمة وأصبحت الأيمانات الرسمية تنعقد على النحو التالى:

"باسم "سيرابيس" وإيزيس والآلهة الأخرى".

وبينما أخذت مصر تمصّر الآلهة اليونانية، أخذت عبادة الآلهة المصرية وخصوصاً "إيزيس" توغل فى جنوب أوروبا.

ولكن مصر بدأت فى التحول مع الشعبة الثانية من الديانة الابراهيمية عن عبادة آلهتها القومية أى عن دياناتها القائمة على التعدد أي عبادة أكثر من إلهٍ واحد، منذ أواسط القرن الأول م.ع.م.(= ق.م.)، وهو الأمر الذي يصفه "المتعلمون المصريون"، دون رادع من عقل مستقل أو وازعٍ من ضميرٍ يقظٍ، في ظل دونيتهم المترسّخة بـ "الشرك"، حيث يرون، في عماهم الحجري، أو انجرافهم مع الأهواء بعيداً عن الموضوعية، أن "الشرك" هو نقيض "الوحدانية"، و ليس "التعددية". و في سائر الأحوال هذا هو التحول الذى يتفق علماء عديدون على أنه يشكل بداية انهيار مصر، وبالتحديد بدء تحول الهزيمة العسكرية التى أنزلها بها الأسيويون الغربيون إلى هزيمة روحية تجلت بين "المتعلمين المصريين" على وجه الخصوص بالشعور بالدونية القومية. إذ كانت تلك هى المرة الأولى التى تقف فيها الثقافة القومية المصرية أمام ثقافة وافدة حقاً ولكنها مسلحة بالقداسة، تصم الفراعنة العظام، بصفتهم رموزاً قومية لمصر بأنهم "كفار". وعندئذ شرع المصريون يستشعرون شرخاً عميقاً فى عقلهم ووجدانهم بين ديانتهم "الجديدة" وبالتحديد الأجنبية وقوميتهم الموروثة. وثمة إجماع بين علماء المصريات – والإجماع نادر بصفة عامة بين من يستخدمون عقولهم – على أن الديانة المسيحية كانت وبالاً بصفتها الشعبة الثانية من ديانة الساميين أو الديانة الإبرهيمية على الثقافة المصرية والديانات المصرية بصفة خاصة، ولا يتسع المجال للتوسع فى إيراد ما أكده هؤلاء العلماء فى هذا الصدد. ويكفينا أن ننصت إلى أرفعهم شأنا وأعلاهم صيتاً. يقول "بريستد":

"...و لم ينقطع هذا التنافس(بين "رع" و "أوزير") قط إلاَّ عندما مُحيت الديانة المصرية في ختام القرن الخامس المسيحي."[9]

و يقول: "إيرمان"

"وعندما حلت المسيحية بأرض مصر كانت نذيراً بزوال الديانة المصرية"[10].

ويقول "ستيفين كيرك":

"اكتسحت الديانة المسيحية الديانة المصرية سواء فى صيغتها القومية أو صيغتها الهيلينستية والرومانية بحلول القرن الخامس الميلادى، و إن بقيت إشارات محدودة إلى الآلهة والإلهات القديمة بعد تقسيم الإمبراطورية إلى نصفين رومانى غربى وبيزنطى شرقى "(11)

ويقول : "رندل كلارك":

"متى تكلمنا عن مصر القديمة لا نضع فى اعتبارنا دنيا الفلاح التى لا تعرف التغيّر بل نفكر فى عالم الفراعنة ومن يدعمه من كهنة وكتبة وفنانين وهو عالم ظل محافظاً على سلامته حتى القرن الثالث الميلادى رغم الغزوات الأجنبية وهيمنة الإغريق السياسية ومن تلاهم من الرومان ولم يقض عليه وعلى كل مظاهره إلا المسيحية. و لا مناص من أن نستنتج أن الدين كان القلب الذى كانت الحضارة المصرية تنبض به، فلما توقف أو استبدل بآخر انهار بناؤها "(12)

و تقول "ماجي":

"نهضت المسيحية إلى السيادة في مصر القديمة خلال أواخر القرن الرابع أو الخامس م.ع.م. و حظرت الكنيسة المسيحية الطقوس "الوثنية" و أغمضت عينيها عن عمليات التخريب الواسعة النطاق التي وقعت للمراكز الدينية المصرية التقليدية "(13)

و يقول "ياروسلاف تشيرني"":

"و في النهاية و في عهد "ثيودوسيوس" Theodosius (395-339) أُعلنت الديانة المسيحية كالديانة الرسمية للإمبراطورية و حُرِّمت العقائد الوثنية برمتها. و لقد قام عامة المسيحيين المتحمسين بتدمير المعابد الوثنية، رغم أن أوامر الإمبراطور كانت الحفاظ عليها كأعمال فنية، و الاستفادة منها بإحالتها إلى مبانٍ إدارية كلما أمكن ذلك "(14)

و يقول "ويلكنسون":

"نبذ المسيحيون الأوائل الصروح الوثنية و قام المتزمتون من أمثال القديس "شنودة" بتدمير كثير منها. و كان "شنودة،" و هو راهب عاش في القرن الخامس من العصر المعروف، يسكن في دير أشبه بالقلعة في مصر الوسطى ابتناه نيافته من أحجار المعابد الوثنية القريبة." (15)

و تقول العالم الفرنسي المشهور "دومينيك فلبيل":

"لقد أبعدت المرحلة المسيحية و بعدها المحمدية (=الإسلامية) مصر دون رجعة عن ماضيها الفرعوني."(16)

و يقول "كامل غبريال" باشا:

"الديانة المسيحية ديانة أجنبية طردت الديانة المصرية القومية."(17)

ولعل العامل المتغير الوحيد الذى كان موجوداً فى حالة مصر التى تجرعت قدر الانهيار وإيران التى فلتت منه فى أواسط القرن السابع الميلادى هو الديانة المسيحية أى الشعبة الثانية من الديانة الإبراهيمية، وهو العامل الذى ساهم وجوده بدور بارز فى انهيار الثقافة المصرية وفى قلبها اللغة المصرية فى مرحلتها القبطية أمام ثقافة العرب وخصوصاً لغتهم، وأسهم غيابه فى احتفاظ الإيرانيين بلغتهم وأساطيرهم وأسماء آلهتهم وأكاسرتهم بل وبصيغة خاصة لديانتهم المحمدية وجعل إيران قادرة – ورغم كل ما نزل بها على أيدى الأصوليين الشيعيين: (الملالى)– على الوقوف حتى اليوم كقوة عظمى إقليمية مرهوبة الجانب لا تقدم مرتزقة من رجالها ولا جوارى من نسائها لأمراء الخليج ورعايا دويلاته.

ولعل لفظ "شعوبى" بمعناه الاصطلاحى – شبه الشوفينى – الذى ظهر إبان السيادة العربية على دولة الخلافة، وخصوصاً الأموية والعباسية، لم ينصرف على أقباط مصر مثلما انصرف على فرس إيران. وفى سائر الأحوال لا يعرف تاريخ الأدب في منطقتنا شاعراً اعتز بأصوله القبطية مثلما فعل "بشار بن برد" و "أبو نواس" بأصولهما الفارسية، رغم أنهما كتبا – كما هو معروف – باللغة العربية لغة السادة وقت ذاك.(18)

مسيحية و مسيحيون:

وغنى عن الذكر أن المسيحية شيئ والمسيحيين شئ آخر فلقد ظل المصريون المسيحيون – ورغم كل ما حدث – جزءاً لا يتجزأ من النسيج الثقافى القومى للبلاد وأستطيع أن أقول باطمئنان – ورغم غفلة "المتعلمين المصريين" فى هذا الصدد – أن القراءة الصوفية للديانتين المسيحية، تلك التي تلتف حول القديسين(الست "دميانة" و مار "جرجس" و "برسوم العريان" إلخ نماذج) والمحمدية التي تدور حول الأولياء(السيدة "زينب" و "الحسين" و "عبد الرحيم القناوي" إلخ نماذج) إنما تُشكِّل اليوم صخرة صلبة أمام التبشير البروتستانتى وفى قلبه الأصولية المسيحية، من

جانب، و التبشير وقل الترهيب والترغيب الوهابى وفى قلبه الأصولية المحمدية مما لا يتسع المجال للاستفاضة فيه فى الوقت الحاضر من جانبٍ آخر.

موسويون و لكنهم مصريون :

و نفس ما ينطبق على المصريين المسيحيين اليوم انطبق في الماضي القريب على المصريين الموسويين،(=اليهود) الذين شكَّلوا، هم أيضاً، جزءاً لا يتجزَّأ من صميم النسيج الثقافي القومي للمصريين. و من يتأمل معمار مستشفى "صيدناوي" في قلب "الكاهرا"، على سبيل المثال، يستطيع أن يهتدي إلى أن أصحابها لم يكونوا ينصبون خيمة لرعاة رُحَّل، و لا حتى لتجارٍ يتناوبون عبور المطرح صيفاً و شتاء، بل يبنون كمستقرين في وطنهم الذي لا يملكون لأنفسهم وطناً آخر سواه.

بين معاداة المصرية ومعاداة السامية :

"بت الرب مع "ابرام" عهداً قائلا لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير الفرات".

آية رقم الصحاح 15 سفر التكوين. العهد القديم

"أشكروا الرب الذى ضرب المصريين مع أبكارهم"

{Ⲟⲩⲱⲛϩ ⲙⲡⲟ̅ⲥ̅ ϫⲉ ⲫⲏⲉⲧⲁϥϣⲁⲣⲓ ⲉⲛⲁ ϧⲏⲙⲓ ⲛⲉⲙ ⲛⲟⲩϣⲁⲙⲓⲥⲓ ⲁ̅ⲗ̅}

الهوس الثانى. الابصلمودية المقدسة

"كذلك وأورثناها بنى إسرائيل"[19]

آية رقم 58 سورة الشعراء قرءان

يستحضر مصطلح معاداة المصرية Anti – Egyptainism المصطلح الموازى: معاداة سامية. ولا غرابة فى ذلك فالمصطلح الأول الذى أتحمل مسؤوليته كاملة يتناص مع المصطلح ثانى الذى يملك من الرسوخ مالا يملكه المصطلح الأول الذى يرى النور لأول مرة فى هذه سطور. ولكن ما الذى يجمع بينهما،علاوة على ذلك، وما الذى يفرق بينهما؟

حدد قاموس وبستر Webster المعادى للسامية على هذا النحو:

"ذاك الذى يكره أو يضمر مشاعر تمييز ضد اليهود"

و تعرِّف الموسوعة البريطانية معاداة السامية بأنها:

"كراهية اليهود وتتراوح بين النفور غير الحاد إلى الكراهية التى تعبر عن نفسها خلال أعمال العنف ولقد ظهرت معاداة السامية إلى هذا الحد أو ذاك حيثما حل اليهود خارج فلسطين"[20]

و تحدد نفس الموسوعة الأسباب التى تقف وراء نشوء واستمرار وتفاقم هذه الظاهرة التى بلغت حد إقامة مذابح لليهود وخصوصاً فى روسيا القيصرية و محارق لهم في ألمانيا النازية على هذا النحو:

"لم يحظ رفض اليهود لعبادة الأوثان بفهم واسع وجاء امتناع اليهود عن المشاركة فى عبادة الأباطرة كى يفسّر على أنه نقص فى الوطنية (والأولى الولاء ب.أ.) كما نظر المسيحيون الأوائل إلى اليهود باعتبارهم قتلة المسيح، وهو إدعاء ظل قائماً قرناً إثر قرن كى يبرر معادة السامية، بالإضافة إلى ما انبثق عن هذه المعاداة من أوهام وخراريف مثل ذبح الأطفال فى عيد الفصح اليهودى"[21]

ومع ظهور وازدهار الفلسفة الماركسية فى أواسط القرن التاسع عشر، أفسح الماركسيون مكاناً بارزاً فى تحليلاتهم التى أقاموها على نحو أو على آخر، على أسس علمية وفق المستوى الذى كان العلم قد حققه بطبيعة الحال وقت ذاك، لتفسير المسألة اليهودية حسب تعبيرهم الأثير. ونخص منهم فى هذا الصدد "كارل ماركس" و"أبراهام ليون" و"ناثان فاينشتوك" . وأكد الأخير بين الثلاثة الكبار فى الفصل الثانى الذى حمل عنوان "مغزى الصهيونية وأصولها" فى كتابه الموسوعى "الصهيونية ضد إسرائيل" Sionisme Contre Israel أن: القومية اليهودية، قبل كل شئ آخر، قومية منعكسة بمعنى أنها ظهرت كرد فعل دفاعى ضد البرجوازية الصاعدة التى سوّغت معاداتها للسامية عن طريق تمجيد المشاعر القومية. وأشار "ليون" إلى الظروف التى كانت تعيشها الجماهير اليهودية فى أوروبا الشرقية إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر بأنها *"وقعت تحت سندان الإقطاع المنهار ومطرقة الرأسمالية التى دخلت مرحلة الاضمحلال"*. وعلل ثلاثتهم المسألة اليهودية بـ "الوظيفة الاجتماعية – الاقتصادية التى استمر اليهود يقومون بها كوسطاء تجاريين وصيارفة ومرابين فى ظل اقتصاد طبيعى بصفة رئيسية". وقال "فاينشتوك" بـ "تشابه اليهود كأقليات مع أقليات عديدة مماثلة قامت بنفس الوظيفة فاكتسبت عداء الجماهير المحيطة واحتفظت فى نفس الوقت بخصائصها الثقافية واللغوية والدينية مثل الأقليات الألمانية فى البلدان السلافية والصينية فى بلدان جنوب شرقى آسيا والأقليات العربية أو المستعربة فى غرب أفريقيا."[22]

هـذه هـى ملامـح معـادة الـسامية وفـق مـصادر محايـدة، فالثلاثـة "مـاركس" و"ليـون" و"فاينشتوك" يهود، و قل من أصول يهودية، وإن كانوا قبل ذلك وفوقه علماء. ولكننـا نـستطيع أن نرصد فى هذا الإطار ذاته ملاحظتين أساسيتين:

الأولى: تتولد معادة الـسامية لأسـباب موضـوعية بـصفة رئيـسية قـد تفسّرها و إن كانـت لا تسّوغها ولا تبرّرها بطبيعة الحال.

الثانية: تنبع معاداة السامية بصفة دائمة من خارج دائرة اليهـود – الـساميين، وتـستهدفهم دون غيرهم.

فماذا عن معاداة المصرية؟

تتولد معاداة المصرية وتتفاقم وتـشتد دون أى سـبب واضـح – حـسب قـدرتي عـلى الرؤيـة بطبيعة الحال – قدّمه المصريون طوال تاريخهم الذى يمتد وراءهم فى واديهم أى داخل بلادهم أكثر من ثلاثة آلاف سنة ق.ع. م، أى أكثر من خمسة آلاف سنة من التـاريخ المـدون هـى عمـر لـوح أو "صـادود" نـارمر 3200 ق.ع.م. ، و دع عنـك التـاريخ غـير المـدون. وفـضلاً عـن ذلـك عمـل المصريون المعاصرون فى شتاتهم الخاص منذ أربعين سنة وتزيـد وأينـما حلـوا كفلاحـين نـشطين فى الغيطان وعمال حاذقين فى المصانع وحمالين أشداء فى الموانى وأطبـاء عظـام فى المستـشفيات وعلـماء أفذاذ فى معاهد البحث ومراكزه بل وجـوارى راضـيات خانعـات ذلـيلات فى البيـوت والقـصور والفنادق، أى أن المصريين، وعلى النقيض من اليهود ومن يماثلون اليهود، لم يتَّجهوا إلى التخـصص فى وظيفة اقتصادية – اجتماعية معينة، ولم يتعاطوا فى شتاتهم التسليف بالربا حتى يجروا على أنفسهم سخط الجماهير الشعبية أو البروجوزيات الصاعدة، فى البقـاع التـى كـان فيهـا لهـذه البرجوازيـات وجود أو صعود، وفضلاً عن ذلك لم يصوِّت منهم أحد حتى فى أى أسطورة من الأساطير لـصالح الإفراج عن لص من اللصوص دون "مسيح" حتى تُلصق بهم – ظلـماً وعـدواناً – جريـرة صـلبه، وعوضاً عن ذلك أظلَّت جميزهم الخالدة فى ضـاحية "الزيتـون" بـشمال القـاهرة العائلـة المقدسـة، وفتحت بلادهم ذراعيها لرحلتها التى بلغت ـ وفقاً للتقاليد ـ جنوباً "دير المحـرق" وغربـاً "وادى النطرون". وقبل السيد المسيح ربَّت مصر – وفقاً لأساطير اليهـود وقصـصهم المقدسـة "موسـى" عليه السلام فى قـصر فرعونهـا "عليـه الحـرب". واسـتقبلت "يوسـف" عليـه الـسلام "فـدخلها عبد"وشروه (أى باعوه) بثمن بخس (أى زهيد) دراهم معدودة (أى قليلـة) وكـانوا (أى إخوتـه)

فيه من الزاهدين"[23] ووصل فيها هذا العبد الأجنبى إلى منصب وزير الفرعون "عليه الحرب" أى نائبه. و"نزع فرعون خاتمه من يده وجعله فى يد "يوسف" وألبسه ثياب بُز، وجعل طوقاً من ذهب فى عنقه."[24]

وبينما وصلت معاداة السامية حد إقامة المذابح و المحارق لليهود فإن معادة المصرية التى بدأت منذ هزيمة فرعون "*عليه الحرب*" أمام "موسى" عليه السلام أى منذ نهاية العصور القديمة بصفة عامة توغل اليوم إلى حد فرض الإبادة الثقافية على شعب مصر، الذى يبدو أن كل جريرته أنه بنى حضارة عظمى، إن لم تكن الحضارة الأعظم فى الشرق الأوسط القديم، و بعبارتي الخاصة في أفريقيا المتوسطية، تلك الحضارة التى نهضت على أرض خصبة هي "هبة النيل" حسب "هيرودوت" فصارت مطعماً للرعاة الجياع فى غرب آسيا قديماً وللرأسماليين الصناعيين الأشد جوعاً مع تخمتهم وبشمهم على شاطئيْ الأطلنطى حديثاً. وانعقد إجماع هؤلاء وأولئك على وأد أى مقاومة وكل مقاومة يمكن أن يبديها المصريون بوأد هويتهم القومية خلال تأسيس عقلهم ووجدانهم فى الانقطاع لا الاتصال مع ثقافتهم القومية.

مصريون ضد مصريتهم :

لكن الأمر الذى يستلفت النظر فى الأمر كله أن معاداة المصرية لا تنبع من خارج دائرتهم هم. وهنا نكون قد وصلنا إلى ملتقى طرق: الجهل الفاضح والإهمال العمدى والعداء السافر لما أدعوه باستمرار بالقارة الجديدة أى الحضارة المصرية القديمة التى يتفق كثيرون على أنها صارت أثراً بائداً من آثار العالم القديم وحسب. وأمام ملتقى الطرق هذا لا يسعنا إلا أن نرسم حداً فاصلاً بين قسمين مختلفين إلى هذا الحد أو ذاك من المصريين فى موقفهما من تلك الحضارة: قسم يصف نفسه بالمتعلمين وقسم آخر يصفه هؤلاء المتعلمون ، باستعلاء واضح بالأمين وفى عبارة أخرى قسم انقطع عن هذه الحضارة وقسم آخر لا يزال يتصل إلى هذا الحد أو ذاك بهذه الحضارة التى ظلت مطمورة تحت بحار اللعن المقدس حتى بدأ العلم اكتشافها مع مطلع القرن التاسع عشر.

4- تعريب مصر، هل هو هدف استعمارى أنجلو – أمريكى؟

يرحل الشرير وتبقى شروره كى تعلن لكل من يفتح عينيه ويرى أنه مر من هنا. وهكذا رحلت بريطانيا عن مستعمراتها وتركت وراءها الحدود التى رسمتها ببراعة فائقة لا تزال تلقى

بثمارها اليانعة ليس فى حجر بريطانيا وحدها بل فى حجر دول التحالف الغربى بقيادة الولايات المتحدة، زعيمة الاستعمار الجديد، ذلك التحالف المعادى لما يسمى بدول العالم الثالث أى المستعمرات السابقة بصفة عامة. فلقد قسمت بريطانيا الأكراد إلى خمسة أقاليم، ألحق كل إقليم منها بدولة مختلفة. كما فتتت الصومال إلى خمسة أقاليم أيضاً ومزقت شبه القارة الهندية إلى دولتين أصبحتا الآن ثلاث دول. ولكن الحدود الأشد براعة، فى ظنى هى تلك التى رسمتها فى منطقة الشرق الأوسط. ولسوف نتوقف، وحسب أمام ما يخص مصر من هذه الحدود وأعنى المحاولة الخبيثة التى قامت بها بريطانيا بالمخالفة مع الجغرافيا الطبيعية ذاتها نحو نزع مصر من أفريقيا وبالتحديد من "أفريقيا المتوسطية" وضمها إلى آسيا، وفى عبارة أخرى: تعريب مصر. وهذا هدف استراتيجى وضعت أسسه وركائزه الأولى زعيمة الاستعمار القديم. ولسوف أمضى رأساً فى ظل المساحة المحدودة المتاحة، إلى تأمل النتائج التى أدى إليها هذا الهدف عوضاً عن إقامة الدليل عليه. إذ أن محاولة ذلك قد تستغرق وقتاً تضيع خلاله كل جدوى فى الاقتناع به أو قبوله. فلقد رضع "المتعلمون المصريون" منذ صباهم أن "مصر عربية" وبالتحديد جزء من الأمة العربية، وخلع ضرس للمتعلم أهون عليه من التنازل عن فكرة ما تعلمها مهما كانت بالغة الحمق شديدة الضرر معاً. ولقد تمثّلت إحدى أبرز النتائج التى أسفر عنها ذلك الإدعاء الأنجلو - الأمريكى على المستوى الثقافى فى أن وجدنا فى مصر ثقافة أجنبية وافدة من غرب آسيا تضطهد ثقافة مصرية محلية وطنية نابعة من أعماق أفريقيا، و متجهة نحو أوروبا. ثقافة تقوم على الأحادية أى نفى الآخر واستئصال المختلف ومحق المغاير إزاء ثقافة تقوم على التعددية والاعتراف بالآخر والتسامح مع المختلف وتفهُّم المغاير. ثقافة تدعو إلى الانقطاع عن التراث القومى لمصر تناهض ثقافة تتأسس فى الاتصال. واتضح الصراع بين الثقافتين بأشد صوره بروزاً فى المجال اللغوى. فلم تصبح اللغة العربية السامية أى شقيقة العبرية لغة الثقافة والتعليم أو حتى اللغة الرسمية للبلاد وحسب بل أصبحت أيضا اللغة الأم أى اللغة القومية للمصريين. كيف؟ لا أحد يدرى، اللهم سوى الكتاب المدرسى الذى يضعه الخبراء الأمريكيون لتلاميذنا و يتأسس عليه خطاب الإعلام. ومعنى ذلك أن الثقافة السائدة فى مصر أى تلك التى يسعى الأجانب المُغرضون بصفة أساسية إلى تسييدها فى بلادنا خدمة لأهدافهم الاستراتيجية فى المنطقة تقوم على محاولة شاذة لنفى الحقائق الثابتة وانتهاك المناهج العلمية والسباحة ضد منطق الأمور. فاللغة القومية على ما يعلمنا علم اللغويات

وبالتحديد فرعه المعروف باللغويات السيكولوجي، هى اللغة التى "تكتسب" Acquired أما اللغة التى "تُتعلم" Learned سواء فى المدرسة أو المعهد أو الجامعة فهى لغة أجنبية، وفضلاً عن كونها أجنبية فهى، فى حالة اللغة العربية، بالغة الصعوبة شديدة الفقر. ولعلى لا أبالغ إذا قلت أن تخلُّف المنطقة بأسرها راجع بالدرجة الأولى إلى هذه اللغة بالتحديد. فالتخلف فى حقيقته ليس أى شىء آخر سوى ضعف العقل أى جموده ورخاوة الوجدان أى غلظته.

وتقول العالم الكبير "لويزا روز نبلاط": "*أن التطور العقلى والعاطفى للطفل الإنسانى يتوقف على إتقانه للغة قومية*" [25] وعلى هذا الأساس شرع التربويون الأمريكيون، منذ وقت طويل، فى اعتماد اللغات القومية للجاليات المهاجرة إلى الولايات المتحدة كالصينية بالنسبة المهاجرين الصينيين والإيرلندية للأيرلنديين وهكذا كلغة التعليم الأساسى لأطفال هذه الجاليات، دون محاولة فرض اللغة الإنجليزية أو الأمريكية عليهم، فالتعليم الذى يستحق هذا الاسم يبدأ بترسيخ "ما يعرفه الطفل قبل أن يعطيه ما لا يعرف" [26]

ولكن لهؤلاء العلماء و الأولى الخبراء الأمريكيين معنا رأى آخر تماماً حيث يحلو لهم أن يسمونا مرة عرباً ومرات مسلمين دون أن يسمُّوا أنفسهم أنجلو - ساكسون أو مسيحيين. وهذه إحدى الملاحظات التى أبديتها أمام العالم الأمريكي "مورين ميرفى" خلال زيارتها الأخيرة لـ "القاهرة" فما كان منها إلا أن صمتت طويلاً قبل أن تقول: "عندك حق".

لغة قومية:

يعرف الطفل المصرى عند بلوغه الخامسة من عمره أى يكتسب عن طريق ذويه شيئاً ليس هيناً بل هو لغته القومية، التى ترميها الثقافة السائدة مرة باللهجة ومرة بالعامية ولكننى أدعوها بـ "اللغة المصري الحديثة" فى علاقتها مع اللغة المصرية القديمة بمراحلها الثلاث الرئيسية: الهيروغليفية والديموتيكية والقبطية مع قفز عمدى على الهيراتيكية التى نراها خطاً أشبه بالرقعة بالنسبة للأبجدية النبطية - العربية، وحسب وليس خطاً ومرحلة كغيرها من الخطوط - المراحل.

وفى ظل الانقطاع الذى تفرضه الثقافة السائدة فى مصر على المصريين المعاصرين مع تاريخ مصر القديم وقف القائم مقام محمد أنور السادات، الحاكم العسكري "المؤمن"، أى الكافر بجدوده من الفراعنة العظام، أمام "مناحم بيجين" رئيس وزراء إسرائيل المنتخب موقفاً لا يُحسد عليه وهو ينصت صامتاً إليه وهو يقول أن جدوده اليهود هم الذين بنوا أهرامات الجيزة دون أن

يملك عليه رداً. ولولا سيادة الثقافة العربية-السامية فى مصر لكانت المدرسة الابتدائى قد علَّمت أبناءها، وبينهم هذا الحاكم العسكرى متى بنى المصريون أهرامات الجيزة ومتى ظهرت القبائل السامية وبصفة محددة العرب والعبرانيون على مسرح الشرق الأوسط القديم. وقد يقول قائل أن الحاكم العسكرى لمصر ليس متخصصاً فى علم المصريات، ولو كان لرد. إلا أن المحير حقاً أن كافة "المتعلمين المصريين"، فى الوقت الحاضر يكشفون عن جهل أفضح وإهمال أشد عمدية وعداء أكثر سفوراً كلما أوغلوا – ويا للعجب العجاب – فى مدارج التعليم.

ولعله من الملاحظ أن الأكاديميين المصريين المتخصصين فى المصريات واللغويات ممن كان ينبغى عليهم أن يكونوا على رأس المدافعين عن الهوية القومية للأمة المصرية بما يملكون من علم زاخر ومعلومات مستفيضة ، هم أشد جهلاً بالمصرية من سواهم. وآيات وتجليات وإشراقات ذلك الجهل والتجاهل تستعصى على العد أو الحصر. وعلى سبيل المثال، ليس إلا. كتب أستاذ فاضل حاصل على الدكتوراه من معهد الآثار المصرية بجامعة القاهرة + دكتوراه أخرى من جامعة "براونشفايج" بألمانيا فى كتاب له بعنوان "تعليم الهيروغليفية" عن الإلاه "تحوت" رب الحكمة عند المصريين القدماء يقول بالحرف الواحد:

"المعبود تحوت الذى تخيله الوثنيون كإلاه للعلم والكتابة ثم صوَّروه وعبدوه فى معابدهم من دون الله "![27]

ترى ماذا يملك المرء أن يقول في وجه هذا الكلام الذي صدر عن "أكاديمي مصري" سوى:

لعل تلاميذ المرحلة الأساسية فى سائر بلدان العالم المتحضر وغير المتحضر على حد سواء، باستثناء منطقتنا بطبيعة الحال، يعرفون أن الحضارة المصرية بدياناتها وآلهتها وصورها ومعابدها سابقة فى الظهور فى الشرق الأوسط القديم[28] بألفى سنة في الحد الأدنى على ظهور الشعب الثلاث للديانة الإبراهيمية : الموسوية والمسيحية والمحمدية، وأن نبى اليهود "موسى" عليه السلام كان يتحدث المصرية القديمة فى مرحلتها الهيروغليفية وفقاً لحواديت العبرانيين المقدسة، وأن اسمه يعنى بهذه اللغة وعلى وجه الترجيح "ابن الماء" وعلى الأقل هذا ما يؤكده "بريستيد" حجة المصريات الكبير"[29] ويشير العهد القديم إلى أن "موسى" رجل مصرى الثقافة. واسم الإله الواحد – ولنصمت قليلاً عن الأحد – لدى أتباع الديانتين الموسوية والمسيحية أى بالعبرية ولهجتها الأرامية و هو "ايل" الذى نجده متضمناً فى أواخر أسماء أعلام كثيرة من قبيل "ميخائيل"

و"إسرائيل" و"جبرائيل" و "كرمل" إلخ كانت القبائل السامية قد تبنته خلال ترحالها، عن الشعوب التي جاوروها. وأن الديانة التى بشرت، لأول مرة ، وبشكل حاسم بـ "الله" كاسم عربى للإله الواحد الأحد الذى لا شريك له هى الديانة المحمدية فى أواسط القرن السابع من عصرنا المعروف(=الميلادى) ومعنى القول أن عبارة الأستاذ الدكتور الأكاديمى، أى "المتعلم المصرى" الكبير تفتقر إلى الحس التاريخى ضمن ما تفتقر إليه، ولا تعكس سوى معاداة غير مبررة وتكاد ألا تكون غير مفهومة للمصرية وفضلاً عن كل ذلك نابعة من داخل دائرتهم هم. وفى ذلك شذوذ لا أعرف له مثيلاً فى أى بقعة أخرى من بقاع العالم بأسره.

6- تحايا المصريين وتحية العرب:

اشتمت، بحسها المرهف، الروائية الهندية البارزة "نينا سيبال" الأستاذ السابق للأدب الإنجليزى بجامعة دلهى والوزير المفوض بسفارة بلادها فى "القاهرة" و الأولى الكاهرا فى أواخر الثمانينات أن "اللغة المصري الحديثة" كما أدعوها أو "العامية" كما يسميها غيرى، و مع أنها لم تكن تتحدثها أو حتى تعرفها معرفة كافية، تنفرد بين سائر اللغات واللهجات التي اتصلت بها خلال رحلاتها في مختلف أرجاء العالم، بعدد هائل من التحايا الرقيقة، الأمر الذى يعكس رقياً عميقاً وإحساساً مرهفاً بالآخر وكرماً روحياً دافقاً، مما لا يمكن أن نعزوه إلا إلى استقرار طويل المدى لحضارة عريقة.

وكانت هذه الملاحظة إحدى الملاحظات الذكية التى أبداها أمامى أجانب متحضرون غير مغرضين، وجعلتنى أنفصل قليلاً عن ذاتى القومية كى أتأملها عن مسافة ما. وعندئذ رأيت أن لغة المصريين المعاصرين دون سواهم فى المنطقة، و ربما في العالم، تحمل حقاً عدداً لا يحصى من تلك التحايا إلى الحد الذى يحتاج المرء معه إلى قاموس خاص. فإذا خرج المصرى من دورة المياه قوبل بالتحية التى تقول "شفيتم" وإذا توضَّأ قالو له: "من زمزم". وإذا ختم صلاته همس نحوه جاره فى المسجد: "حرم ن". ويرد المصرى على هذه التحايا على هذا النحو فى غالب الأحيان : "عفيتم"/ "جمع ن"/ "احنا والسامعين" على التوالى. وإذا حلق شعره قالوا له "نعيم ن". وإذا تكرع قالوا له: "صحة". وإذا صحا من النوم قالوا له : "نوم العافية". و يتساءل المصري-المصري برقته المشهودة: خير!، و هو التعبير الذي يوازي:

What's wrong?+What's up? Quoi de neuf? Etc.

وخلال زراعة الفلاحين المصريين للأرض وحصدهم المحصول وكيله وغدوهم ورواحهم فى الريف تتعدد تحاياهم على النحو التالى:

خلى عنه – عاش

ع البركة – يبارك فيك

عنه – قدها وقدود

عواف – يعافيك

سعيدة – سعيدة مبارك... إلخ.

ولا أدرى فى هذا الصدد السبب الذى دعانا إلى نسيان "جاى" بألف المد الخلفية أى المفخمة، المصرية الأصيلة لصالح باى Bye الإنجليزية أو أورفوار Au revoir الفرنسية أو سواها من تحايا الوداع الأجنبية. وتصل رهافة المصرى حداً يقول معه لمن ظن أنه يناديه ولا يكون قد فعل: "مااستغناش"

أما إذا نظرنا إلى التحايا الرئيسية الثلاث التى نجد ما يوازيها فى كافة اللغات الأجنبية المتحضرة على وجه الترجيح: صباح الخير ومساء الخير – تصبحوا على خير. فإننا نلاحظ أن هذه التحايا تعكس إحساساً حسيساً بمنازل الشمس، وما إذ كان الوقت ليلاً أم نهاراً، صباحاً أم مساء. وغنى عن الإشارة أن "اللغة المصري الحديثة" تتيح عند الرد مجالاً أرحب للتعدد. فالمصرى يستطيع أن يرد على "صباح الخير" بأكثر من رد واحد: صباح الفل. صباح الورد. صباح الندا. صباح القشطة. خير صباحين... إلخ.

وفى سائر الأحوال تشير هذه التحايا، ضمن ما تشير إليه إلى أن المصريين المعاصرين استمروا شمسيين فى مقابل الساميين وخصوصاً العرب منهم الذين ظلوا قمريين. وذلك على النقيض مما تقول به النظرة السياحية للأمور، من أن المصريين غيَّروا دينهم ولغتهم مرتين. فهذا قول سطحى يردده هذا "المتعلم المصرى" أو ذاك (ج. حمدان نموذجاً) فيرفعه أنصافهم إلى مرتبة المفكرين وأحياناً يُنزلونه منزلة الفلاسفة.

وتكشف هذه التحايا بطبيعة الحال فى أعماقها الجيولوجية عن طبقات تحتية: هيروغليفية وديموتيكية وقبطية، مما لا يتحمل المجال الاستفاضة فيه. وفضلاً عن كل ذلك تثبت هذه التحايا ومثيلاتها العديدة مما يعرفه لسان المصريين، وخصوصاً الأميون منهم، أن هؤلاء استمروا يعيدون

إنتاج أنفسهم خلال تنفسهم لثقافتهم القائمة على التعدد والانفتاح أى خلال الاتصال مع الحضارة المصرية القديمة، الأمر الذى يوفِّر إمكانية استمرار الشعب المصرى بصفته هذه أى بصفته مصرياً، قيد البقاء. وهو نفس الأمر الذى تفعله سائر الشعوب التى لم يفرض عليها أحد قدر الإبادة الثقافية أى الانقطاع تماماً عن ثقافتهم القومية. فالفرنسيون مثلاً يستمرون كشعب فرنسى نتيجة للاتصال الذى يقيمونه مع ثقافتهم القومية التى تحملها لغتهم بصفة رئيسية، تلك اللغة التى يصل حبهم لها حدود التقديس. ويعرف كثيرون أن الفرنسيين أصدروا قانوناً فى الآونة الأخيرة يمنع استخدام الألفاظ الأجنبية فى لغتهم القومية أى الفرنسية أى المنسوبة مثلهم إلى أرضهم أى هذه اللغة التى تناظر عندنا "اللغة المصري الحديثة"، لا لغة الغزاة الأسيويين ، وفى قلب هذه اللغة نجد تحاياهم. ولا يستطيع أحد أن يتصور توقفهم عن تحية بعضهم البعض الآخر بـ "بونجور" Bonjour و "بوانسوار" Bonsoir و "بونوى" Bonne nuit، مثلما لا يستطيع أحد أن يتخيَّل تنازلهم عن اسم الالاه الواحد فى لغتهم الفرنسية "ديو" Dieu، مهما دانوا بديانة وافدة عليهم من غرب آسيا، وحملوا السلاح دفاعاً عن مقدساتها خلال عصور الظلم و الظلام أى العصور الوسيطة.

ولقد استمر المصريون منذ الغزو العربى لبلادهم فى أواسط القرن السابع م.ع.م. ودخولهم فى الديانة المحمدية أفواجاً لسبب أو لآخر يستخدمون تحاياهم التى تستند إلى التعدد حتى تولى الأجانب المغرضون أي الأمريكيون فى أواسط الثمانينات مسؤولية الإشراف على صوغ نسقهم التعليمى أى وضع الكتاب المدرسى للتلاميذ بمصر. فلقد تجشم هؤلاء الأجانب المغرضون مشقة النبش فى أعماق تراث العرب الذى يسعون إلى تسييده فى مصر والمنطقة بأسرها، و ربما في سائر أرجاء العالم، حتى عثروا على ما أسموه بحديث شريف يقول فحواه : "*تحية الإسلام هى السلام عليكم*" وهو الأمر الذى نجح هؤلاء الأجانب خلاله فى الحط من شأن كافة التحايا المصرية فى ضربة معلم واحدة لا ينقصه الدهاء، و فى فرض دونية تصل إلى التكفير فى حدها الأقصى والسخرية والهزء فى حدها الأدنى على كل من يستخدم هذه التحايا التى لم ينكرها على المصريين الفقهاء والمفسرون والمحدثون و التابعون و تابعي التابعين الذين وطنوا فى مصر ولا الأزهريون أنفسهم الذين يشكِّلون فيما بينهم كتائب نشر و تعميم و فرض ثقافة الأسيويين الغربيين وبالتحديد "الساميين"، سواء فى مصر أو أربعة أركان الدنيا. وظل الأمر كذلك حتى وصل أولئك السادة

الأجانب المغرضون في مطلع ثمانينات القرن الماضي(إبان ولاية د. ف. سرور لوزارة "التربية والتعليم") إلى أرض "شبرد" القديم تحت بيرق خفاق: *تطوير التعليم فى مصر*. فأحط الأفعال كثيراً ما تُرتكب في ظل أنبل الأقوال. ولم يكن هناك هدف - بطبيعة الحال - لهؤلاء الأجانب المغرضين من وراء تقرير هذا الحديث، على تلاميذ مصر أى على عقلها القادم لا إشاعة التقوى والورع بين المصريين فى الدنيا الفانية، ولا إسكانهم فسيح جناته فى الآخرة الباقية، بل محو سمة - في تصوُّري - من سمات الشخصية القومية للمصرين. وفى نهاية المطاف حرمانهم ليس من أى نهوض قومى إلى بناء دولة عظمى تقود المنطقة بأسرها كما فعلت فى الماضى و حسب بل و الحيلولة دون وقف الانهيار المتفاقم للدولة الإقليمية العظمى التي كانتها مصر قبل الانقلاب الأمريكي في 23أبيب/ يوليو 1952. وأستطيع إيجاز القول على هذا النحو:

الأديان لا تحى وإنما اللغات هى التى تحيي. وليس هناك تحية خاصة بأى دين من الأديان. وإذا سلمنا جدلاً بأن "السلام عليكم" هى تحية الإسلام فما هى إذن تحية المسيحية؟ وهل هى: "بونجور" الفرنسية أم "جوتين مورجين" الألمانية أم "بوينوس دياس" الأسبانية أم "كالى ميرا" اليونانية ... إلخ.

حقيقة الأمر أن "السلام عليكم" هى تحية اللغة العربية أى تحية العرب، مسلمين ومسيحيين، سنة وشيعة شوافع وزيود بل ولا دينيين، وهى تناظر فى ذلك تحية الأشقاء الحقيقيين للعرب أى العبرانيين: "شالوم عليخم".

ولا عجب فى أن تكون تحية البدو الجياع الذين يعتمدون الغزو والإغارة مصدراً رئيسياً لهم فى كسب قوتهم هى "السلام عليكم" حتى يطمئن المخاطب منهم إلى أن سيف المتكلم مستكن فى جرابه أو غمده. وفى هذا الصدد يعيد البروفيسور "دونالد ريد فورد" إلى الأذهان نقلاً عن ثلاثة من علماء الآثار هم: "كى. أم كينيون" K. M. Kenyon و "إس. جيتين" S. Gittin و "دبليو. ديفر" W. Dever الذين أجروا سلسلة من الحفائر فى فلسطين عند مستويات الألفى سنة ق.ع. م. *"أن الأسيويين الغربيين كانوا يدفنون خناجر مع موتاهم، وخصوصاً أبطالهم كى يدافعوا بها عن أنفسهم فى العالم الآخر"*![30]

وغنى عن الذكر أن تحية اللغات جميعاً تتعدد بينما تتجه اللغتان العربية وشقيقتها العبرية إلى اصطناع تحية واحدة فى ولع الساميين التاريخى بالواحدية أو الوحدانية .

7- بين الفصحى الشامية والفصحى المصرية:

انعكست الدونية القومية التى تستبد بـ "المتعلمين المصريين" على وجه الخصوص، ويغـذِّيها خبراء أجانب مغرضون خلال مناحي ومجالات متعددة فى الثقافة السائدة فى مصر، أحدها المجـال اللغوى. ولسوف أقصر حـديثى فى هـذه الفقـرة عـلى انعكـاس هـذه الدونيـة عـلى اللغـة العربيـة الفصحى "المصرية" وأوجز ملاحظاتى على هذا النحو:

1- اتجه المتعلمون المصريون إلى تبنى الفصحى الشامية بصفتها أرقـى مـن فـصحاهم. وعـلى سبيل المثال أصبح "المتعلمون المصريون" فى الآونة الأخيرة يميلون من أدنـاهم حتـى أعلاهـم إلى جمع "نقطة" على "نقاط" وليس "نقط" لماذا؟ لأن "نقط" دنستها "اللغـة المـصري الحديثـة" التـى يصمونها بالعامية، عندما أدرجتها في صميم قاموسها اللغوي. فى حـين أن "نقـط" لا تقـل عروبـة ولا فصاحة حتى بمعيارهم هم عـن "نقـاط" الـسائدة فى "الفـصحى" الـشامية. فـإذا رجعنـا إلى قاموس "المنجد" الذى لا يشك أحد فى عروبته أو فصاحته لمؤلفه الأب اليسوعى الـذى لم يـشكك أحد فى ساميته أو إبراهيميته، فإننا نجد ما يلى:

"ج نقط ونقاط. يقال نقاط من الكلأ أى قطع متفرقة منه"

و في "كتـاب المـصاحف" لـصاحبه "أبي بكـر عبـد الله بـن أبي داود سـليمان بـن الأشـعث السجستاني نقرأ في ص: 159 ما يلي:

"*حدثنا عبد الله، حدثنا العباس بن الوليد قال أخبرني أبي قال، ثنـا الأوزاعـي قـال، سـمعت قتادة وكان عربيَّ اللسان يقول في هذه النقط* (و ليس النقاط. ب. أ) *لوددت أن الأيدي قُطعت فيه.*"

ولقد تسللت كلمة "قناعة" الشامية كى تزيح كلمة "اقتناع" الفصحى المصرية رغـم مغـامرة "المتعلمين المصريين"، والحال هكذا، بالدخول فى منطقة معتمـة مـن الالتبـاس حيـث أن للكلمـة معنى محدداً آخر يتضح فى المثل الذى كان سائراً بيننا يوماً ما "القناعة كنز لا يفنى" وأصبحنا نسمع مثل هذه العبارة: قناعتنى الفكرية تقوم على كيت وكيت"!

2- نحا "المتعلمون المصريون" ـ في ظل دونيتهم المزمنة ـ نحـو نفـى تـأثير صـوتيات "اللغـة المصري الحديثة" على الأسـماء والكلـمات المـستوردة مـن مختلـف اللغـات الأجنبيـة إلى الفـصحى المصرية. فمن يستشعر دونية قومية أمام جماعة معينة لا يستطيع استشعار عزة قومية أمام أى جماعـة أخرى. ومن يفرط فى نفسه مرة يكون قد فرط فيها للأبد. ولعلنـا نـذكر أن الأجيـال الـسابقة مـن

"المتعلمين المصريين" كانت تكتب "موزار" Mozart لماذا؟ لأن الـ "تسه Z ليست فونيماً مصرياً بل وليس حامياً سامياً، فاستعاضوا عنه بحرف "الزاى". ودع عنك اتفاق ذلك النطق مع النطق الفرنسى. فلذلك أسباب عميقة أستطيع إيجازها فى نطاق الاتفاق وليس السير فى الأعقاب. ولكن "المتعلمين المصريين" بدأوا يكتبون فى إجماع يبعث على الأسى ويحرك مكامن الحزن فى آن واحد: "موتسارت" ومبررهم فى ذلك بائس ذليل، لكنه يليق حقاً بمن يحتقرون جدودهم الفراعنة العظام أي أنفسهم: اللغة الألمانية تنطقه على هذا النحو!

و يُوغل احتقار الذات بين "المتعلمين المصريين" حتى يصل حدود محاولتهم تعطيش "الجيم"، و إخراج لسانهم في محاولة محكومٍ عليها مُسبقاً لإنتاج الثلاثة حروف المشهورة: (ث، ذ، ظ)

وعلى نفس المنوال عدلوا عن كتابة "دون كيشوت" إلى دون كيخوته" أى على نحو ما ينطقه الأسبان. وفى غمرة الدونية القومية نسى "المتعلمون المصريون" أن الأجانب ينطقون أسماءنا وكلماتنا التى يستعيرونها منا، بل ومن بعضهم البعض الآخر وفق عاداتهم اللغوية وعلى هذا الأساس نجد اسم مصر: Egipto, Agypten, L'Egypte, Egypt وكذلك القاهرة(=الكاهرا) EL cairo, Kairo, Le Caire, Cairo. ولم يلغ والأولى لم يتنازل أى منهم عن عاداته اللغوية كى ينطق على نحو ما ينطق المصريون اسم بلادهم أو عاصمتهم. و ليس هناك أي سبب آخر وراء التزام الأجانب بعاداتهم اللغوية سوى الاعتزاز-الذاتي:self-dignity، أي ما يفتقر "المتعلمون المصريون" إليه.

3- يسير "المتعلمون المصريون" في أعقاب غزاتهم و مضطهديهم و مستوطني بلادهم، أي العرب فيُحوِّلون حرف "الفاء" المثلث النقط V إلى "واو"، مثال: Vanilla/وانيليا، أي أنهم يستنكفون ـ في ظل دونيتهم المشهودة ـ عن تحويل هذا الحرف إلى "باء"، مثلما يفعل المصريون-المصريون أي المصريون الأميون، مثالVanilla/ بانيليا، Veranda/ براندة، Villa/ بيلا إلخ. ومعنى القول، من الوجهة اللغوية، يُفَضِّل "المتعلمون المصريون" ترجيع الحرف الأوروبي خطوة في أعماق الجهاز الصوتي، كما يفعل العرب، بدلاً من تقديمه إلى أطرافه، كما يفعل المصريون-المصريون الذين يتفقون في هذه النقطة أيضاً مع سائر البشر.

ولقد بالغ "المتعلمون المصريون" فى نفى ذواتهم وطمس قوميتهم فمالوا إلى نطق "برج إيفل" بـ"فاء" مثلث و"جيفارا" بـ "جيم" عربي و"المافيا" بـ "فاء" مثلث. رغم أن أصحاب تلك

اللغات ـ و يالعجب العُجاب ـ ينطقون "إيفل" بالفاء العادية و"جيفارا" بالجيم القاهرية و"المافيا" بالفاء العادية. ولم يشأ أولئك "المتعلمون" أن يسألوا أنفسهم إذا كنا سننطق كما ينطق الألمان مرة وكما ينطق الأسبان مرة وكما ينطق الفرنسيون مرة وكما ينطق ويكتب الشاميون مرات ـ أو ما نتخيَّل أن الأجانب ينطقونه ـ فماذا سيبقى إذن من المصريين المعاصرين؟

ويحضرنى فى هذا الصدد تجربة الهنود الذين فرضوا عاداتهم اللغوية الخاصة، عوضاً عن أن يلغوا خصوصيتهم، على نطقهم واستخدامهم للغة الإنجليزية حتى اعترف لهم اللغويون بلهجة هندية خاصة إلى جانب لهجاتها الرئيسية الأخرى كالبريطانية والأمريكية سواء بسواء.[31]

4- يميل المتعلمون المصريون باستمرار، فى ظل دونيتهم المعهودة، إلى التفاصح. وفى هذا الإطار عدلوا تماماً عن كلمة "سلفة" إلى "قرض" وعن "تلجلج" إلى تلعثم "وعن إمضاء" إلى "توقيع" . بل وعن "سوق القاهرة الدولى" إلى "سوق القاهرة الدولية"...إلخ ولم يكن لهذا العدول أى سبب موضوعى واضح. فـ "قرض" ليست أفصح من "سلفة" ولا "تلعثم" من "تلجلج" ولا توقيع من "إمضاء" إذ أننا نجد هذه إلى جوار تلك فى مختلف قواميس اللغة العربية كما نقابلها فى أمهات الكتب القديمة. و كانت سائدة بيننا في كتابات الأجيال الأسبق التي كانت تتمتع بنخوة قومية أعمق، والسوق كلمة يجوز فيها التأنيث والتذكير كما يقول "ابن سيده".[32]

وكل ما فى الأمر أن "اللغة المصري الحديثة" قبلت تلك الكلمات فى وقت أو فى آخر فألحقت بها قدراً جسيماً ـ فيما يبدو ـ من الدنس.

5- يرفض "المتعلمون المصريون" بإصرار مستميت استخدام توقيتهم الذى يبدأ بـ "توت" وينتهى بـ "مسرا"، وهو الأمر الذى لا يقدم عليه عرب أقحاح كالعراقيين والشوام فتراهم يثبتون أسماء شهورهم البابلية/ السريانية القديمة التى تبدأ بـ "كانون" الثانى وتنتهى بـ "كانون" الأول قبل الشهور الجريجورية، وبطبيعة الحال العربية – القمرية وتراهم يترجمون رواية " Light in August" للروائى الأمريكى المشهور "وليم فوكنر" إلى "نور فى آب"،[33] وهو الأمر الذى لا يخطر على بال أى متعلم مصرى أياً كانت درجة تعليمه كى يقدم على ما يوازيه، أى يترجم ذلك العنوان إلى {نور فى "مسرا"}. فمثل هذا العمل أفظع فى نظره من الكفر والزندقة والإلحاد جميعاً.

6- يصر "المتعلمون المصريون" على مد دونيتهم القومية على استقامتها، إلى ما لا نهاية، بحيث تغدو شاملة كاملة، أي أمام كافة الثقافات و اللغات القومية التي تتصل بالثقافة و اللغة المصريتين

بـأي طريقـة مـن الطـرق. فـتراهم يـشرعون في نبـذ "مطـار" لـصالح "مينـاء جـوي"، عـلى غرار Aéport/Airport/ ، و بذلك يُهدرون واحدة من الميزات البارزة التـي تتميـز، و تتفـوَّق بهـا "اللغات الحامية-السامية" حتى عـلى اللغـات الأوروبيـة، و أقـصد الـسابقة prefix أي "المـيم" المكاني، الذي نجـده في "منقبـاد" و "ملـوي" و "منـوف"، و عـلى الجانـب الآخـر في "مكتبـة" و "مطعم" و كذلك "مطار". و يمضون في طريقهم سادرين غـير عـابئين حتـى اخترعـوا في الآونـة الأخيرة: "ميناء بري" الذى استعصى على الحر الفقير أن يحدد له معنى حتى الآن!

هوامش ومراجع

(1) Language and change in the Arab Middle East Ami Ayalon. New York, Oxford Universty Press. 1987.

(2) Britannica V. III p. 142.

(3) Webesters Seventh New Collegiate Dictionary 1976.

(4) Chambers Twentieth Century 1972.

(5) See, Akhenaten: the Heretic King, Donald Redford,Princeton University Press.1984

(6) "مصر الفراعنة" تأليف ألان جاردنر ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم ص 397.

(7) حضارة الشرق الأدنى القديم تأليف د. عبد العزيز صالح.ص. 3134

(8) ديانة مصر القديمة. تأليف: "أدولف إيرمان" ترجمة ومراجعة عبد المنعم أبو بكر وأنور شكرى ص 369.

(9) "فجر الضمير"، "جيمس هنري بريستد"، ت. سليم حسن. ص 313

(10) "إيرمان" مرجع سابق ص 1 من المقدمة.

(11) Ancient Egyptian Religion. Stephen Quirke p. 180.

(12) الرمز والأسطورة فى مصر القديمة. رندل كلارك ص 14.

(13) Chemical and Archaeological Evidence for the destruction of a Sacred Animal Necropolis at Ancient Mendes, Egypt by: Magee, M.J., Wayman,M.I.&Lovell,N.C Journal of Archaeological Science,23:485-492,1996.

(14) الديانة المصرية القديمة. تأليف: "ياروسلاف تشيرني. ت. أحمد قدري. ص 208 دار الشروق.

(15) "The Complete Temples of Ancient Egypt" by Richard.H. Wilkinson,p.29

(16) علم المصريات. دومونيك فالبيل. ت. لويس بقطر ص 51.

(17) مجلة "الكاتب المصري" مجلد 6 القاهرة 1947، و ذلك ضمن مقال باسم "فلسفة للحياة و ديانة للضمير" بقلم "سلامة موسى".

(18) يقول الشاعر الكبير بشار بن برد (مولى بنى عقيل) ما وصفته بنت الشاطئ فى جريدة الأهرام يوم 14/ 7/ 1994 بـ "إعلان شعوبى" وعلى سبيل المثال وحده:

هل من رسول مخبر

عنى جميع العرب

من كان حياً منهم

ومن ثوى فى الترب

جدى الذى أسمو به
كسرى وساسان أبى
كم لى وكم لى من أب
بتاجه معتصب
لم يسق أقطابٌ
يشربها فى العلب
ولا أتى حنظلة
يثقبها من سغب
ولا حدا قط أبى
خلف بعير أجرب.

ويقول الشاعر العظيم أبو نواس وعلى سبيل المثال بطبيعة الحال، فى قصيدة يقول مطلعها:

دع الأطلال تسفيها الجنوب
وتبلى عهد جدتها الخطوب

ما يلى:

أعاذلتى أقصرى عن بعض لومى
فراجى توبتى عندى يخيب.
تعيبن الذنوب وأى حر
من الفتيان ليس له ذنوب.
فهذا العيش لا خيم البوادى
وهذا العيش لا اللبن الحليب.
فأين البدو من إيوان كسرى
وأين من الميادين الزروب.
غررت بتوبتى ولجت فيها
فشقى اليوم جيبك لا أتوب (دار صادر بيروت ص 5، 236).

(19) عودة "الهاء" فى أورثناها" على مصر أمر لا مجال للجدال فيه كما يتضح من سياق النص، وهو الأمر الذى ينعقد عليه إجماع المفسرين والمؤرخين العرب. يقول المقريزى شيخ المؤرخين العرب فى خططه الجزء الأول ص 23، على سبيل المثال:

"وقالت طائفة ممن صرفها (أى مصر) أراد مصر فرعون بعينها وأستدلوا بما في القرءان من أن الله تعالى أورث بنى إسرائيل ديار فرعون وآثاره"

(20) Britannica V.1 p. 448.

(21) Ibid.

(22) Sionisme Contre Israel Chapitre 1.

(23) سورة يوسف. قرآن.

(24) العهد العتيق. سفر إصحاح أية رقم 43.

(25) Literature as exploration. Intr. Luisa Rosenblatt.

(26) حديث خاص مع الحر الفقير لـ "أخبار الأدب" القاهرية الأسبوع الأخير من أبيب - يوليو 1994 ص 24.

(27) تعليم الهيروغليفية" تأليف م. م. حماد. ص 12.

(28) فجر الضمير. جيمس هنرى بريستيد. ت. سليم حسن ص 15 حيث يقول: ".. وأن ندرك الأهمية العظمى للحقيقة التاريخية الثابتة وهى أن الإنسان قد سما إلى تصورٍ خلقيٍ عالٍ (فى مصر بطبيعة الحال. ب. ق) قبل أن تظهر الأمة العبرانية فى عالم الوجود بألفى سنة."

(29) المرجع السابق.ص 376

(30) Egypt. Canaan and Israel in ancient times. Donald Redford.Princeton University Press. P. 83.

(31) The Indianzation of English. Braj. B. Kachru. Oxford University Press. 1983.

(32) نقلاً من جانبى عن المقريزى الخطط. الجزء الثانى ص 94.

(33) "نور فى أب" (Light in Angust) ترجمة توفيق الأسدى منشورات وزارة الثقافة السورية سلسلة روايات عالمية 1994.

الفصل الرابع عشر

3 دفاعات عن "اللغة المصرى الحديثة"

أعترف فى البداية إن العنوان بصياغته دي بينطوى على درجة م الغموض تزيد شوى وتقل شويتين حسب الخلفية العلمية لكل مستمع ومدى قرب ولا بعد الخلفية دى عن اللغويات Linguistics، اللى هو علم دراسة اللغة البشرى، وهو فى رأيي، أرقى علم بين العلوم الإنسانية بمعنى أنه أقرب العلوم دى للعلوم الطبيعية من زاوية تحديده لموضوعه بشكل حاسم ووصوله حسب منهج صارم لقوانين خاصة بعد ما مر بمراحل طويلة طويلة من طرح الفرضيات وصياغة النظريات.

لاكن الغموض النسبى دا ح يخف شوى شوى - ودا وعد منى - كل ما نمشى سوا ويَّ المحاضرة دى اللى أحب أسمِّيها رحلة فى فضاء اللغويات بمصطلحاته شبه الرياضى يعنى المصطلحات اللى بتهتم بالعلاقات بين الأشياء أكثر م الأشياء فى حد ذاتها. وفى الفضاء دا الواحد مننا ح يقدر يتخفف من وزنه، يعنى من عواطفه ومشاعره وتحيزاته وبديهياته، وخصوص ن القومية منها والدينية. يعنى زى الواحد مننا ما بيسلم بأن $5^3 = 125$ من غير لا زعل ولا فرح، بادعيه إنه يسلم برده من غير لا زعل ولا فرح فى فضاء اللغويات بأن حالات الإعراب، إعراب الأسامى بالتحديد فى اللغة اللاتينى ستة وهى:

فاعل	Nominative
منادا	Vocative
مضاف	Genetive
قابل	Dative
مفعول	Accusative
مجرور باللام	Ablative

وخمسة فى اللغة اليونانى هى هى اللى فى اللاتينى ناقص الحالة السادسة حالة المجرور باللام أى Ablative و3 حالات فى اللغة العربى هى الرفع والنصب والجر. ومعنى كدا إن اللاتينى واقفة م الزاوية دى ورا اليونانى، والاتنين واقفين ورا العربى. يعنى اللغة العربى أرقى م اللاتينى فى النقطة دى. واللغة اليونانى أرقى م اللاتينى واليونانى طالما كنا متفقين ع المعيار اللى بنستمده م اللغويات التاريخى Diachronic Linguistics حسب توصيف "دى سوسير" De Sussaure فى المجال دا، اللى هو ببساطة: اللغات الأقل إعراب أكتر رقي.

وباترجا عند النقطة دى ما نفرح ش للغة العربى وإلا ح نزعل لما نعرف أن "اللغة المصرى الحديثة" حسب توصيفى الخاص وكذلك اللغة العبرى أرقى م الثلاث لغات: اللاتينى واليونانى والعربى. طالما كنا موضوعيين طول الوقت وبنقدر نلتزم بالموضوعية لحد النهاية ونقدر نمد المعايير الموضوعي على استقامة واحدة بادام اللغتين دول المصرى والعبرى لغتين غير مُعْربين Non – inflexional Languages ، يعنى بيتخلصو م الإعراب من أصله. يعنى تلاميذهم عمرهم ما يقابلو في كتابهم المدرسي سؤال زي دا:

"*إعرب ما تحته خط*"!

و دا سر سهولتهم و سرعتهم فى تحقيق الغاية المنشودة م اللغة بشكل عمومى، وهى التواصل والتفاهم بين البشر.

مرجوعى للعنوان اللى وعدت فى البداية غموضه يخف بمرور الوقت. ليه العنوان دا بالتحديد؟

السبب كامن فى التلات تهم، اللى الثقافة السايدة بتحاول ترسَّخهم زى ما يكونو ثلاث بديهيات خلال التعليم والإعلام. و"المتعلم المصرى" بيرضعهم فى المدرسة والجامعة والأصح قبل المدرسة وبعد الجامعة. وبطبيعة الحال الحر الفقير ما عند هوش بديهيات بديلة ع شان يشيل القديمة ويحط مطرحها الجديدة. وكل ما فى الأمر، ح يحط تساؤلات جد قدام البديهيات/ التهم دى. وبعد كدا جايز جواب معقول بشكل نسبى يظهر لنا – منه لنفسه – ع السؤال دا:

ليه "اللغة المصرى الحديثة"؟

و بكدا يكون معنى العنوان اللى ورد فى الأول بان فى الآخر.

أول تهمة/بديهية:

اللغة دى اللى بنتكلمها دى وبنكتسبها من مزغرنا وبنعيش بها و وياها حتى واحنا نايمين يعنى بنحلم بها أحلامنا دى: عامية.

تانى تهمة/بديهية:

اللغة دى اللى هى أول لغة المصرى بيسيطر عليها ولا يحتاج لها ش لا مدرس ولا مصحح ويقدر ينحت فيها أى لفظ عفو الخاطر ويشتق فيها أى صيغة من غير ما حد، أى حد، يقول له لا غلط ولا عيب: لهجة من لهج اللغة العربى المشهورة بالفصحى.

تالت تهمة/بديهية:

اللغة دى اللى المشارقة بيعشقوها والمغاربة بيموتو فيها بتفتت المنطقة اللى الأجانب خدو، ولا قصروش على تسميتها مرة الشرق الأدنى Near East ومرة العالم العربى Arab World ومرة العالم الإسلامى Muslim World ومرة رابعة اللى احنا داخلين عليها من أوسع البيان: الشرق الأوسط Middle East. وفى كل مرة بنقبل التسمية الأجنبى بسعادة وامتنان. و"المتعلمين"، وعلى رأسهم الأكاديميين يشمَّرو وينزلو يثبتو بأكتر المناهج "علمية" وأشد التحليلات "موضوعية" إن المصريين، على سبيل المثال، عرب وأبهاتهم عرب وحتى الفراعنة ذات نفسهم كانوا عرب فى عرب، ويصبح تراث العرب هو تراثنا ولغتهم هى لغتنا. وساعة الأجانب ماسمو المنطقة دى الشرق الأوسط واتضح "للمتعلمين المصريين" أن الأجانب بيتكلمو جد، المتعلمين المصريين سبقو بعض فى إثبات إننا شرق - أوسطيين. ولحق باحث كبير فى الفولكلور وسبق وكتب فى جريدة "الأهرام" عبارة "تراثنا المصرى العربى والعبرى - السامى"[1] وبطبيعة الحال كل اللى لفت نظرى فى العبارة دى "نا" ضمير المتكلم الجمع فى حالة المضاف فى "تراثنا" Unsere Erschaft. وأول ما أبدى أحول التهمة/ البديهية لسؤال:

ياترا لغتنا دى عامية؟ بمعنا هل هى لغة العوام والأميين والجهلة والسفلة؟

فى الأول نلاحظ أن كل دى أحكام قيمى Jugements du Valeur يعني خارج نطاق العلم، و ما هى ش أحكام موضوعية Jugements du fait. والحقيقة اللغة اللى بنتكلمها دى ما هى ش لغة العوام وبس ولا الأميين لوحدهم ولا الجهلة والسفلة دون ن عن غيرهم. اللغة دى

بيتكلمها والأصح بيضطر يتكلمها أساتذة الجامعات فى محاضراتهم. واللغة دى هى الوحيدة اللى يقدرو يعبرو بها عن نفسهم، وعن علمهم من غير ما يغلطو فيها أى غلط من أى نوع سوا كان نحوى ولا صرفى ولا صوتى ولا دلالى. وزيادة على كدا من غير ما يشغلو أى مساحة من عقلهم بالتفكير فى قواعدها قبل ما يتكلموها وأكتر من كدا، هى اللى شيخ كبير زى "متولى شعراوى" بيشرح بها معانى النص المتقدس الأولانى للديانة المحمدية:القرءان، والنص المتقدس التانى لنفس الديانة: الحديث، و دول مكتوبين باللغة العربى. و يمكن دا سر من أسرار انتشار صيته دون ن عن كل الشيوخ الأزهريين اللى زيه. وهى اللغة اللى دايم ن تسعفنا فى فهم وتفهيم اللغة العربى "الفصحى" للغير. و د. أحمد درويش هو اللى كتب يقول:

"حكى لى مرة تلميذ صغير أن مدرس اللغة العربية الفصحى وهو يشرح لهم بيت عمرو بن كلثوم فى معلقته وهو يخاطب "عمرو بن هند":

تهددنا وتوعدنا رويداً: متى كنا لأمك مقتوينا

وقد حاول أن يبسط لهم معنى الشطر الأخير "بالعامية" قائلاً أن معناه: "ما كناش خدامين عند أمك".[2]

وبالتالى تكون عبارة زى عبارة د. "ح. عطية":

"كان بيرم" يسمو باللهجة العامية مقترباً بها من اللغة العربية "الفصحى".[3]

شديدة البؤس لخلوها من أى معنى. فاللغة التى بنتكلمها دى واللى "بيرم التونسى" كتب بها شعره ونثره لغة زى أى لغة ثانية ، فيها عاميتها وفيها هى ذاتها فصاحتها. وما أنساش عند النقطة دى أشاور على عبارة "دانتى الليجيرى Danti Alighieri (1265- 1321) Vulgari eloquentia أى فصاحة العامية.

وع الجانب التانى يبقا وصف اللغة العربى بـ "اللغة الفصحى" وصف غير علمى وغير متحدد وينطوى يادوب على حكم قيمى، خصوص ن إذا بصِّينا ولقينا المصطلح دا: "لغة فصحى" بيحاول ينقل معنى المصطلح الأجنبى Standard Language ومعناه اللغة – النموذج ي اللغة المعيار. واللغة دى بتكُون فى الأصل عبارة عن لهجة وسط لهج بينها وبين بعضها تفاهم مشترك بس أصحاب اللهجة دى رفعوها وسيّدوها على مختلف اللهج الثانية فى دايرة لغوية متحددة وخدوها لغة قومية لهم زى لهجة لندن بالنسبة للغة الإنجليزى ولهجة باريس بالنسبة للفرنساوى

ولهجة موسكو للروسى ولهجة قريش بالنسبة للغة العربى ولهجة الكاهى – را اللى بيكتبوها بالغلط: "القاهرة" بالنسبة للغة المصرى. ودا الوقت نرجع لسؤالنا: ياترا لغتنا عامية؟

محاولة الجواب تحتاج نعرف فى الأول معنى عامية والتعريف يكون دايم ن – زى ما هو معروف – بذكر الصفات الجوهرية للشىء، للمسمّى، للمفهوم... إلخ يعنى ما يكفى ش أقول – زى ما قلت فى الفقرة الأخرانية – أن اللغة العامى ما هى ش لغة العوام ولا لغة الأميين، ع شان ما فى ش هناك تعريف بالسلب. يعنى عبارة : "القلم هوش بحر" ما بتوصل ش حاجة تستاهل الإنصات.

مضطر أترجم مصطلح العامية – الظاهر – للغة أجنبى متحددة زى الإنجليزى : Slang لاجل بس نخلصه م الرجرجة والرهرطة والفشكلة بتاع لغتنا الرسمية وفى ضى اللغويات نقدر نحدد أطر العامية دى ع النحو التالى:

أ- لغة غير طبيعية بتتشىُ فى وسط متعين، قايم على أساس اجتماعى ى جغرافى ى مهنى وساعات عرقى Racy وساعات تانية عمرى وساعات تالية جنوسى بمعنا Gender. ازاى؟

طبيعة اللغات نتولد نلقاها موجودة فـ "نكتسبها" ودى تبقا لغة أم Mother tongue عند الإنجليز وlangue maternelle عند الفرنساويين. ودى هى اللغة القومية للواحد مننا، يعنى اللي "بنكتسبها" ي "نتعلمها" فى المدارس على إيدين مدرسين و دى تبقا لغة أجنبية.

لاكن" العامية" لغة مجموعة م الناس يبتكروها، بمعنى ياخدو قرار يعملو لنفسهم لغة ما حدش يفهمها غيرهم . فلغة الحرامية، مثل ن، الواحد العادى يمكن يسمعها لا كن ما يفهم هاش وكذلك لغة "السّاغة" وفى السجون تلاقى لغة خاصة زى اليمك والعروسة والإيراد نظير العدس وعمود الجلد والمساجين الجداد، وعلمى زى خرطوش فى المصريات اللى العلما بيقصدو به المستطيل اللى إسم/ أسامي الفرعون بيتنقش جواه، وجغرافى زى لغة مدن الكنال الثلاثة بور سعيد والإسماعلية والسويس، اللى بنلاقيها مليانة تعبيرات وكلمات أجنبى زى "أليسطا" و"إستبينا" و"بمبوطى"... إلخ ومهنى زى تعبير المحامين: ادى له إعلان أمريكانى بمعنى إعلان غير حقيقى، وكلنا يعرف تعبير "على عوض" اللى العربجية ألف عفريت وعفريت بيركيهم كل ما ينحدف عليهم. ومعنى كدا إن التعبير معروف داخل دايرتهم جنب الهامش القريِّب أوى منهم. وعمرى زى الشبان الإنجليز اللى تحت العشرين Teenagers ما بيسمو "الرجبى" Rugby الـ

ولو أن الكلمة دى اكتسبت درجة م الشيوع خرَّجتها سنِّة من دايرة اللغة الخصوصي Rugger لدايرة اللغة العمومى (الإنجليزى - النموذج Standard English) وقياس ن على كدا تلاقيهم يقولو Wagger Pagger bagger ويقصدو بها Waste paper basket وعندنا نلاحظ عبارات زى دى: كبَّر الجمجمة . حلوة طحن. أصله بيئة... إلخ والأساس العرقى بيتجلى فى "لغة" الغجر ودى عبارة عن "لغة" خاصة يقصدو منها تتفهم داخل دايرتهم العرقى و بس. يعنى لو حد سمع عبارة زى: "سباح صرصر، سير خرخر" ماهو ش ح يفهم إن معناها: "صباح الخير" حقاش ي يكون منهم ى قريِّب أوى منهم. يعنى مصطلح "سيم" و"رطان" يكونو أقرب وأدق "للغة الخاصة" دى. وعند النقطة دى أحب أشاور على لغة خاصة تلامذة كفر زغير ريح قرية كبيرة اسمها "سرس الليان" فى المنوفية "اخترعوها" فى ردهم ع السخرية اللى كانوا بيلاقوها من زمايلهم السرساويين فى مدارس "سرس الليان" كدفاع نفسى فى إطار مقاومة هجوم من برَّاهم، يعنى كانوا يتكلمو ويّ بعض، مثل ن، زي كدا:

نئت يالوه ما تيج ش هيل البصح؟

ومعناها:

انت ياوله ماجيت ش ليه الصبح؟

والقانون بسيط: البدء بالحرف الساكن التانى م الكلمة وى تثبيت كل الحروف - الصوايت.

ب- لغة حية فصيحة لمَّاحة، والأصح أكتر حياة وأشد فصاحة وأحد حرفنة م اللغة السايدة ذاتها. واللغة دى بتسعى للوصول لثلاث درجات بأبعاد مختلفة: الجدة والحيوية والحميمية. إزاى؟

اللغة العامى دى الناس بيتكلموها فى حياتهم اليومى وبيستريَّحو أكتر كل ما يقرَّبو منها، ع شان قربهم منها بيرفع لهم القناع المجتمعى، اللى اللغة السايدة شايلة جزء كبير منه، عن وشوشهم. وعلا أى حال الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا (1819 - 1901) اللى عصرها مشهور بالرصانة والتوقير، كانت بتتدايق من رئيس وزراءها "وليم جلادستون" (بشنس / مايو 1898 - كياك / ديسمبر 1909) ع شان كان بيتكلم بينه وبينها زى ما يكون بيخطب فى اجتماع عمومى.

واللغة العامى دى هى اللى ممكن توصَّل لنا خفة دم وظرف الكتاب الكلاسيكيين اليونان والرومان زى أرستوفان ونيناندر وبلاوتوس وتيرينس، و "حكايات كانتربيرى" بتاع تشوسر والكوميديات بتاع شكسبير *واللغة العامى اللاتينى Vulgar Latin هى اللى مدت اللغات*

الرومانسية الحية زى الفرنساوى والأسبانيولى والبرتغالى والطليانى بكلمة راس la testa و معناها الأصلي: قدرة فخار، فلقينا La tête فى الفرنساوى وla testa فى الطليانى على سبيل المثال. لاكن كلمة راس فى اللاتينى – النموذج كانت Caput فى حالة الفاعل وcapitis فى حالة المضاف و دي الكلمة اللي مدتنا بكلمة زي capital. واللغة العامى اللاتينى هى اللى مدت اللغة الإنجليزى بكلمة salary بمعنا مرتب. و دى كانت فى الأصل Salt money يعنى البدل اللى العسكرى الرومانى كان بيقبضه ع شان يشترى به ملح.

ج- اللغة العامى دى، فى حقيقتها، رد فعل للسيادة اللى اللغة المجتمعى الرصينة المتنشية بتحاول تفرضها ع الكل. إزاى؟

اللغة العامى بتضرب بجدورها فى مرحلة قديمة قبل- تاريخى لما الأرواحية Animism كانت هى الديانة الشايعة بين البشر، ومعروف إن الديانة دى قايمة ع الإيمان بأن كل شىء بيملك مظهرين:

"مظهر خارجى موضوعى نقدر كلنا نرصده بالحواس بتاعتناعلى هيئة صفات وأبعاد وأشكال متحددة ومظهر ولاّ مخبر داخلى حقيقى ما نقدرش نشوفه، إحنا الناس العاديين، ودا يبقا الروح. المرحلة دى انتهت بطبيعة الحال، و يادوب للساع عايشة فى بقع زغيرة زى جنوب السودان على سبيل المثال لاكن القاعدة بتقول: اللى بينتهى ما بينتهى ش خالص (مع شكر واجب في الصدد دا لواضع أسس الكيميا في العصر الحديث: "لافوازيه"). والحقيقة فضل لنا منها "المجاز" Figures of speech الاستعارة والكناية والتشبيه... إلخ يعنى الشاعر اللى بيقول: "قولو لعين الشمس ماتحماشى" بيسمح لنا موش بس نعيش طفولتنا الخاصة، لاكن كمان طفولة النوع البشرى اللى الإنسان كان بيفترض فيها إن الشمس زيها زيه لها روح وإرادة: تحما وساعات ماتحماش "لاحسن غزال البر صابح ماشى"

المرحلة دى هى وعكسها يعنى تشيىء العاقل بيشكلو نبع أساسى من منابع العامية. يعنى المصرى اللى بيقول: رايح أعدل "الطاسة" ولاّ "كنت باضرب حجرين" بيسافر بنا لمرحلة الأرواحية. أما وظيفتها يعنى وظيفة العامية فتنطوى على عملية تغذية مرتدة Feed – back للغة القومية السايدة. فالعامية الإنجليزى هى اللى إدت اللغة الإنجليزى – النموذج كلمة قوية زى Hurly – burly (زيطة وزمبليطة) وhurdy – gurdy (أرغن الشحاتين) وكل الكلمات

والعبارات المشابهة اللى اللغوين بيسموها Onomatopea يعنى اللى بتشابه أصوات الطبيعة زى شخشخ. بخبخ. صوصو. نونو... إلخ.

ومعنى القول أن اللغة العامى مشروعة وما تستحق ش أبدن الحكم القيمى اللى الثقافة السايدة فى مصر بتحدفه عليها تملى: لغة ركيكة وعاجزة. وواحدة ست قالت عليها فى رسالة لنولان درجة الدكتوراة من جامعة إسكندرية: *لغة استعمارية* ، خبط - لزق يعنى الاستعمار ذات نفسه هو اللى بيتبناها، و بالتالي فاللي بيدعو لها يبقا مشكوك في وطنيتهم!!!

أرجع وأقول: "اللغة المصرى الحديثة" - حسب توصيفى الخاص - بتنطوى على مستوا خاص اللى هو المستوا العامى بمعنا الـ Slang. والحقيقة اللغة الفرنساوى بتحتفظ بتسمية جميلة ودقيقة والأدق دقى اللى هى: La Langue Verte بمعنا اللغة الخضرا يعنى اللى للساع ما طابت ش. وبطبيعة الحال، موش كل تمرة، الشجرة الطراحة بتشيلها بتطيب، ساعات تقع وتتنسى قبل ما تطيب، وبطبيعة الحال ما تلحق ش تنضم فى الحالة دى للغة - النموذج.

لاكن قولان إن "اللمح" (=لغة مصري حديثة)عامية وبس بينطوى على حكم غير علمى وغير موضوعى وضرر أشد الضرر فى نفس الوقت زى بالظبط ما نقول عن اللغة الإنجليزى إنها "الكوكنى" Cockney ونسكت. يعنى فى المنطقة دى الحر الفقير بيعمل، فى الحقيقة، قفزتين فى قفزة واحدة: بيدافع عن "العامية" فى حد ذاتها. وفى نفس الوقت بينفى عن "اللمح". كونها عامية وبس.

ولمزيد من الشرح: "اللمح" تعرف كلمة "قعر" فى دلالتها الجنسية أى نعم. ودى عامية ما فى ش كلام. لاكن تعرف تعابير تانية، الست المصرية تقولها لما تكون مضطرة تستخدمها فى وسط اجتماعى بينها وبينه كلفة زى: "تحت منى" والراجل برده يقول نظير لها، في الغالب تورية، لما يكون مضطر للإشارة للمنطقة دى فى وسط اجتماعى مماثل: العساكر دكو الشومة فى "يكرم إخواتى".

وقبل ما انتقل للسؤال التانى أحب أقول إن استخدامى لعبارة "اللغة العامية" كان مجازى. والأصح كنت أقول "اللغوة العامية" ع شان العامية مالهاش بنية نحوية مستقلة عن اللغة النموذج فى مجتمعها، اللى هى لهجة "الكاهرا".

السؤال التانى:

ياترا "اللمح" لهجة من لهج اللغة العربى اللى اكتسبت اسم "الفصحى" فى الفترة الأخرانى؟

فى مطلع شهر بؤونة/ يونيو سنة 1990 ظهر في جريدة "الأهرام" مقال للدكتورة م. دوس. من قسم فرنساوى بجامعة "الكاهى - را" سألت فيه السؤال دا: ليه بنقول العامية لهجة وما هى ش لغة؟

وح أنقل جوابها زى ماورد على لسانها والأصح من قلمها بالحرف الواحد:

"نعنى بمصطلح اللهجة مجموعة من الاستخدامات اللغوية Parlers تجمع فيا بينها صفات مشتركة فى مجال الأصوات ونظام الصرف والنحو والمعجم وعموماً ما تكون اللهجات مشتقة من أصل مشترك وهذا هو الحال بالنسبة للهجات العربية التى ترجع كلها إلى العربية القديمة".

واضح لنا كلنا الشبورة اللى بتلف الفقرة م الألف للياء: ياترا ما فى شىء فرق عندها بين العامية واللهجة، مهما كان طفيف؟ وياترا بتضمنّ لسان المصريين بين اللهج العربية اللى بترجعها - بأمان وطمان - للهجات العربية القديمة؟

على أى حال تعريف الأستاذة الدكتورة لمصطلح اللهجة "الاستخدامات اللغوية التى... إلخ" ينطبق لا زيادة ولا نقصان ع اللغة وبالتالى يعجز عن توضيح أى فرق بين دى وديكهات. وعلا كدا يلزمنا بادام عايزين نفرق بين الاتنين نهتدى لمعيار متحدد نتسند له فى التفريق بين صنف م "الاستخدامات اللغوية التى..." نقدر نقول عليه: الصنف دا لغة. وصنف تانى نحكم عليه بأنه لهجة. والحقيقة المعيار دا موجود، موش موش موجود. لاكن نقول إيه للكسل العقلى بتاع الأكاديميين المصريين، المعيار دا نشا وى نشو اللهجويات Dialectology وهو: مقبولية التفاهم المتبادلL'intelliligibilité mutuelle وفى عبارة أوضح: مدى قدرة الإنسان ع التفاهم وى إنسان تانى. وكل ما درجة التفاهم دى تقل، نكون بنبعد عن مركز الدايرة لحد التفاهم ما ينعدم خالص مالص وفى اللحظة دى نكون سيبنا نطاق دايرة الاختلاف اللهجوى، ودخلنا دايرة الاختلاف اللغوى. ولمزيد م التوضيح: أبناء اللهجة الصعيدى على سبيل المثال بيقدرو يتفاهمو وى أبناء اللهجة المصراوى نسبة لمصر العاصمة اللى بقت و بتبقا لغة المصريين القومية، بدرجة تزيد و لاً تقل م الوضوح، والعكس صحيح. ولاكن لو واصلنا الابتعاد، وطبيعة الحال ماهوش الابتعاد الجغرافى لوحده، لحد ما نوصل لدرجة انعدام التفاهم خالص مالص نكون سيبنا نطاق اللهج اللى بتقدر تتفاهم وى بعضها ودخلنا نطاق لغة تانية زى النوبى (قبلى) والسيوى (غربى) والبجاوى (قبلى شرقى). لاكن درجة التفاهم داخل كل لهجة فى حد ذاتها ما هى ش واحدة. فالجرجاويين

بيختلفو، داخل اللهجة الصعيدى عن الأسايطة فى "استخداماتهم اللغوية" ودول ودول عن السوايفة. والحقيقة فيه باحث شاب لاحظ وجود اختلافات لهجوية فى "الاستخدامات اللغوية" داخل محافظة المنوفية بين قرية كبيرة اسمها "سرس الليان" وبين كفر زغير ريح منها. ودى اختلافات تشمل الصوتيات phonetics فالكفراويين بيمليو لاستخدام الـ Front a فى المواضع اللى السرساويين بيستخدموا فيها الـ Back a. ودا واضح فى نطقهم مثل ن ليوم الأربع وهو يوم السوق الأسبوعى عندهم. يعنى الكفراويين بينطقو حرف "الرا" فى الأربع مترقق والسرساويين بينطقوه متفخم زى اللغويين القدام ما كانو بيقولو.

والكفراويين بيميلو لحذف "الرا" اللي بيسبق النون: جرن – جن، فرن – فن. لاكن النون بتتحول فى اللحظة دى لحرف تانى أنفى قريب منه اللى هو الـ "ŋ" اللى بنلاقيه فى فعل sing الإنجليزى وsigne عند الفرنساويين وعند النوبين فىkong (=وجه/ واجه). و دا بيجري على لسان الكفراويين على سبيل التعويض عن "الرا" اللى بيحذفوه.

وفى مجال الدلالات والمعجم نلاقى الكفراويين بيختلفوا عن السرساويين حسب الجدول الجاى:

الكفراويين	السرساويين
القنا	التركيب
الحلوفة	الكباس
يروى	يسقى
المحشى	الكباب
شلفة	شنفة
الوقافة	العصا
العزال	الشوار
يخلَّع (الدرة)	يخرَّع
يقطَّم (لكاليك الدرة)	يقصَّف... إلخ

والباحث الشاب لاحظ كمان إن الدايرة اللهجوية السرساوى بتنطوى هى ذاتها على فروق دقيقة والأصح دِقى، وكذلك الأمر بالنسبة للدايرة اللهجوية الكفراوية بالنسبة لنطق بعض

الصوايت، وفى نسق التنبير Stress والتنغيم Intonation والأمر بطبيعة الحال ماهوش مقصور لاعلى مصر لوحدها ولا على لهجها دون ن عن غيرها م اللهج. فالأمر معروف فى كل اللغات وكل اللهج فى ربوع الدنيا اللى بتطلع عليها الشمس. وهنا يحق لنا نشاور لمصطلح الـ Idiolect اللى نقدر نترجمه "اللغوة" بمعنا "الاستخدامات اللغوى" الخاصة بكل فرد فى حد ذاته. فاللغة زى البصمة تمام، عمومى، كل البشر بيحوزوها ويستقلو كل واحد منهم بصورة خاصة وطبعة خصوصى منها. ودا السر اللى بيخلينا نتعرف على إصحابنا على خط التليفون قبل ما ينطقو أساميهم طالما كنا لقّاطين لـ "البصمة اللغوى" بتاعتهم.

أرجع وأقول: فى مصر لهجة سايدة على كل لهجها هى لهجة "الكاهرا". وفى النقطة دى اللهجة دى بتوازى لهج العواصم الكبيرة فى كل بلدان الدنيا. وبطبيعة الحال كل اللغات القومية فى الوقت الحاضر عبارة عن لهج بالنسبة للغات أم يعنى الأسبانيولى والطليانى لغات، مافى ش كلام، لاكن فى نفس الوقت لهج بالنسبة للغة اللاتينى. وكذلك الأمر بالنسبة للإنجليزى والهولندى والفلمنكى فى علاقتهم باللغة الأم:Western Germanic.

ومعنى الكلام إننا نقدر نفسر كل الظواهر فى اللغات البنات، اللى كانت فى يوم الأيام لهج، ي بالرجوع لأصل فى اللغة الأم ي بالاستهداء بقوانين التطور والتغير فى اللغات دى، زى ما باقول باستمرار. فهل ياترا نقدر نطبّق الكلام داع "اللغة المصرى الحديثة" زى ما باسميها ولا "اللهجة/ العامية" زى الثقافة السائدة ووراها الدكتورة الأكاديمية ما سمتها بالرجوع للمصدرين دول: اللهج العربى القديمة ، ولاً قوانين التغير و التطور فى اللغات بصفة عمومى، والحامية - السامية بصفة خصوصى؟

السؤال دا: الحقيقة، عمّال أسأله من مدة طويلة وفى كل مرة أسأله أتوسّع فيه شوى بعد شوى فى كتاباتى المنشورة، ودى نماذج م الصيغ اللى سألت بها سؤالى الأساسى دا:

- ليه "اللمح" بتميل لحططان أداة الاستفهام فى الآخر - وسيب ك دا الوقت م البلاغة - عكس العربى اللى بتميل لحططانه فى الأول؟

مثال

رايح فين؟ إلى أين أنت ذاهب؟

- وليه "اللمح" بتميل لحططان اسم الإشارة بعد الاسم المتشار له بدل ما تحطه قبله زى العربى.

مثال

الواد دا　　　　　　　　　　هذا الولد

-وليه بتثبت العدد وى المعدود غير العربى اللى ماشية حسب قاعدة التوافق العكسى؟

مثال

تلات صبيان　　　　　　　　　　ثلاثة صبية

وفسرت الظواهر اللغوى دى زى ظواهر غيرها كتير بالرجوع، و بس، للغة المصرى القديمة فى مرحلة ولاً فى التانية من مراحل تغيرها/ تطورها م الهيروغليفى للديموتيكى للقبطى، والمرة دى باضيف السؤالين دول:

- ليه "اللمح" بتبنى زمن المستقبل باستخدام فعل "راح" كفعل مساعد ومجزوؤه "ح" بدل "السين" و"سوف" فى العربى؟ مثال: ح أكتب

ليه اللغة ولا اللهجة دى بتستخدم فعل قام كفعل مساعد؟ مثال:

جا يقف "قام" وقع.

حقيقة الأمر إننا ما نقدرش نفسَّر الظاهرتين دول لا بالرجوع لأى أصل لا فى العربى "الفصحى" وفى أى لهجة م اللهج العربى القديمة، ولا بالاستئناس بقوانين تطور/ تغير اللغات. وماقدمناش إلاً الرجوع للطبقة التحتى Substratum اللى كانت سايدة قبل مجى اللغة العربى من غرب آسيا فى أواسط القرن السابع م.ع.م.(=الميلادى)

بالنسبة للظاهرة الأولانى "اللمح" ورثتها م اللغة المصرى القديمة فى مرحلتها القبطى حسب العالم الكبير "فيرنر فيسيكل"

Ⲛⲁ (sb) Forme atone auxiliare du 1er futur (SB). J'irai. Litt. Je Vais aller.(4)

وبطبيعة الحال، اللغة القبطى هى المرحلة التالتة - فى تصورى الخاص - بعد الهيروغليفى والديموتيكى, و "Ⲛⲁ" دى كانت فى الأصل بمعنا راح بالمركب وكانت بتتكتب بمخصص مرْكب زى كدا: ([hieroglyphs]) وفى وقت لاحق الفعل دا بقا يدل ع المرواح بصفة عمومى سيان بالنهر و لاً البر. وبقينا نقدر نقول فى القبطى:

ح أكتب　　　　　　　　　　ϯⲛⲁⲥϩⲁⲓ

ح أقرا ϯⲛⲁⲱϣ

ح أتعلم ϯⲛⲁϭⲓⲥⲃⲱ

ح أعلم ϯⲛⲁϯⲥⲃⲱ

وبخصوص الظاهرة التانية "اللمح" ورثتها عن المرحلة الأولانى م اللغة المصرى القديمة اللى هى الهيروغليفية ودى قلم صحيح يعني خط/ كتابة زى النسخ بالتقريب بالنسبة للعربى. لاكن فى نفس الوقت مرحلة من مراحل اللغة المصرى القديمة (اللمق) ونقدر نقرا عند عمدة اللغة المصرى الهيروغا : ة" ألا، جاردنر".

The finite Verb – forms compounded with( ) "stand – up", "arise occur only in main clauses and always carry the action which is being described one step further in.

قام سمع He rose up and heard [5]

والعالم العظيم "جاردنر" لاحظ كمان أن فعل "قام" فى الهيروغليفى بدا يفقد معناه الأصلى ويكتسب وظيفة الفعل المساعد لحد ما الفعل دا ما بقا يظهر من غير المخصص بتاعه اللى بيشاور لحركة القيام.

ومعنا القول أن الظاهرتين النحويين دول ما لهم ش تفسير غير فى "اللمق" وبالتالى يكون المنطقى تبقا "اللمح" بنتها طوالى. يعنى إذا كانت "اللمح" لهجة، وهى فعل ن كدا بمنظور خصوصي، تبقا لهجة بالنسبة لـ "اللمق" وبالتالى علاقتها زى علاقة الفرنساوى باللاتينى، والإنجليزى بالألمانى.

وحسب قانون الاتصال بين اللغة الأم واللغة البنت. ونظرن لوجود الفعل المساعد دا "قام" فى الهيروغليفى "ووجوده فى "اللمح" يبقا الفعل دا كان موجود، بالاحتمال، فى المرحلتين الديموتيكى والقبطى بوظيفته دى.

وبطبيعة الحال "اللمح" أثرت فى اللغة العربى "الفصحى" بجلال قدرها فى النقطة دى وى نقط كتير غيرها، وفرضت فعل "قام" كفعل مساعد فى صميم بنيتها وبقينا نسمع ونكتب: "قام الرئيس فلان الفلانى بافتتاح الكوبرى العلان العلانى".

وبالتالى نبص نلاقى عندنا لغة عربى "فصحى" صحيح ولاكن مصرى.

السؤال التالت:

ياترا "اللمح" اللى بيسمُّوها عامية مرة ولهجة مرة بتفتت المنطقة اللى الأجانب - يبارك فيهم - كل شوى يسمُّوها لنا اسم شكل؟

أبدى دفاعى فى التهمة/ البديهية دى بسماع شهادة الشهود. وشهودى من "أهلها".

الشاهد الأولانى:

اسمه "عصام محفوظ" كاتب مسرحى لبنانى ساب لنا شهادته مكتوبة منشورة فى مقدمته لمسرحيته اللى كتبها بعنوان "الزنزلخت" ودى بتقول بالحرف الواحد:

"... العمل المكتوب بالعامية سينحصر فى إطاره المحلى بعيداً عن الجمهور العربى الواسع. ينطبق هذا على كل كتابة بالعامية فى كل الأقطار العربية باستثناء مصر التى كانت عاميتها الوحيدة بين العاميات المفهومة على النطاق الواسع بسبب انتشار الفيلم المصرى بحواره العامى، وكذلك الأغنية المصرية منذ أكثر من نصف قرن" (6)

الشاهد التانى:

اسمه "حسن دلدول" مخرج ومنتج تونسى وعضو لجنة التحكيم فى مهرجان القاهرة والأصح "الكاهى - را" الدولى السابع عشر، وشهادته جات ضمن رده ع السؤال اللى اتسأله وح أنقلها برده بالحرف الواحد:

- الفيلم التونسى ليه مابينتشرش على المستوا العربى؟

- يوجد إقبال من المهتمين العرب بالسينما على الأفلام التونسية فى قاعات العرض الخاصة ولكن تواجهنا صعوبات فى نشر السينما التونسية فى السوق العربية لصعوبة اللهجة التونسية. وقد خطوت خطوة جديدة بدبلجة فيلم "شيش خان" باللهجة المصرية وهذه أول تجربة من نوعها سوف نجربها كمحاولة لتوزيع الفيلم التونسى فى الأسواق المصرية والعربية"(7)

دول شهادتين واحدة م المشرق والتانية م المغرب نقلتهم زى ماهم رغم تحفظاتى على وصف الشهادة الأولانية لـ"اللمح" بالعامية، ووصف الشهادة التانية لها باللهجة بمعنى لهجة من لهج اللغة العربى. ولاكن الأخطر م الوصفين دول فى نظرى هو عجز الشهادتين، اللى بيعكس عجز الثقافة فى مصر والمنطقة المحيطة، عن تفسير سر سيادة "اللمح" فى "المنطقة العربية" ولولا الاحتجاج المحتمل للمتعلمين المصريين لكنت أقول بالفم المليان "*المنطقة المصرى*" اللى بتتمتد م

الخليج للمحيط. والحقيقة الكسل العقلى بيساهم، فى رأيي، مساهمة رئيسى فى حجب الواقع اللغوى، ويخلِّى المتعلمين وعلا راسهم الأكاديميين يفسَّرو السيادة دى بانتشار الأفلام والأغانى المصرى. وبالتالى بيرتكبو - بكل أطيافهم - خطأ منهجى قديم: تحويل التتابع الزمنى لتتابع سببى.

صحيح العربيات بتمشى بعد الإشارة ما تنور أخضر، بس دا ماهوش سبب مشيانها بدليل إن الإشارة دى بتنور أخضر وعربية من بين العربيات دي تعصلج ما تمشى ش. وبطبيعة الحال السبب هنا كامن فى البنية الداخلى للعربية ماهوش فى اخضرار الإشارة ونفس الأمر ينطبق ع "اللمح".

زى ما قلت قبل كدا، لو الأفلام والغناوى دى بلغة معربة صعبة ما كانت ش صادفت أى حظ لا م الزيوع ولا الانتشار. وفى رأيي إن السبب الحقيقى أن كل اللهج "العربى" فى المشرق وفى المغرب ماشية فى طريق التطور/ التغير، و "اللمح" بترسم لهم الصورة اللى ح يبقو عليها لو اتطورو أكتر وبعبارة أوضح كل اللهج العربى ماشية فى طريق التحول م التركيبية للتحليلية وبتصبح كل مدا "غير معربة" - Non-inflicted. ودا سر تأثُّرها ببعضها أكتر من تأثرها باللغة العربى الكلاسيكى "الفصحى" رغم اعتماد اللغة العربى دى لغة رسمى ولغة العلم والتعليم ولحد كبير الإعلام، وخلى على جنب الجهاد فى سبيلها اللى بتقوم به كتايب التصحيح المتدججة بأسلحة وذخيرة الرفع والنصب والجر و الجزم... إلخ.

وعلى سبيل المثال اللهج "العربى"على يمين مصر وعلا شمالها لقطت التطور اللى وصلت له "اللمح" فى اسم الموصول "اللى"، اللى لغتنا دى قدرت تجرده للحد الأعلا اللى ما بعدوش حد، وخلاها تقف فى النقطة دى بالذات قدام لغات عالمية زى الإنجليزي الأصلي(البريطاني) اللى للساع بتحتفظ بأربع حالات له والفرنساوى إللى بتحتفظ بست حالات أساسى. وهنا يمكن حد يسأل سؤال مشروع.

و ليه ماتكون ش "اللمح" هى اللى خدته م اللهج العربى؟

والرد ببساطة إن "المصرى" فى مرحلتها الديموتيكى عرفت اسم الموصول العام يعنى قبل ظهور اللغة العربى باكتر من ألف و خمسميت سنة ع الأقل.

وبطبيعة الحال اللغة القبطى عرفته و دى أقدم م اللغة العربى بألف سنة. ونقابل فى "الصلاة الربانى".

أبونا اللى فى السما.

Ϫⲉ Ⲡⲉⲛⲓⲱⲧ ⲉⲧϦⲉⲛ ⲛⲓⲫⲏⲟⲩⲓ

و"فيسيكل" بيقول. {اسم ولا ضمير الموصول ЄT يوازى فى الفرنساوى Qui-que-lequel etc) ونقدر بطبيعة الحال نفك etc ونكمل {laquelle-les quelles-lesquels+auxquels} [8]

ودا الوقت بادام اللى بنتكلمها دى ماهى ش عامية وبس وبادام ماهى ش لهجة من لهج اللغة العربى الكلاسيكية القديمة. أمال تبقا إيه بالتحديد؟

جوابى الخاص:

دى لغة مستقلة فصيحة تقدر تعبر تعبير علمى وفنى وأدبى راقى وتقدر تنزل لأى مستوا اجتماعى وتعبر عنه برده.

لاكن إيه التعريف العلمى لمصطلح "اللغة" اللى رددناه وبنردده دايم ن؟ فيه – زى ماهو معروف – تعاريف عديدة ح أختار منها أكملها من وجهه نظرى وهو التعريف الأكتر شيوع ف القواميس المتخصصة والمواسيع وكتب التدريس بس ح ادخل عليه تعديل زغنون وبالتحديد ع الكلمة الأخرانى.

A language is a system of arbitrary vocal symbols by means of which a social group co- operates. [9]

ومعناه بالمصرى:

"اللغة نسق م الرموز الصوتية البشرية، الجزافية اللى أن جماعة اجتماعية بتتواصل/ بتتفاهم Communicates بها وى بعضها".

وبطبيعة الحال أهم كلمة فى التعريف دا هى نسق. فالنسق هو اللى بيفرق اللغة البشرية عن كل اللغات اللى العلما بيعرفوها للحيوانات والحشرات فى البحر والبر والجو. تانى كلمة فى الأهمية هى جزافية، يعنى اليونانيين ما يعرفوش "الشين" وكل "شين" يقابلوها يحولوها لـ "خا" والفرنساويين ما يعرفوش "الها" والأسبان بينطقو "الجيم" "J" "خا" والألمان ما يعرفوش "الجيم" ويكتبو Ja وينطقوها "يا". وما نقدرش نغلّط حد منهم ولا نصححه . نفس الأمر يمشى والأصح يوجب يمشى ع المصريين وشقاقات هم – شقاقات هم النوبين والسيويين والبجاويين (علا سبيل الترجيح) ما يعرفوش الحروف البين – أسنانية Inter – dental زى الـ "ظ" و"ذ" و

"ث" وبتشكّل بالنسبة لهم مناطق صعبة، وهم بيتعلمو اللغات الأجنبى اللى تعرفها زى اللغات الأوروبية واللغات السامية زى العربى. ومافى ش حد يحق له، بالمرة، لا يفرض عليهم يطلّعو لسانهم فى إنتاجها ولا يشتم عليهم ولا على لغتهم القومية يعنى اللغة الأم بالنسبة لهم.

وفى ضى اللغويات تعتبر "اللمح" المرحلة الرابعة فى تطور لغة المصريين م الهيروغليفى للديموتيكى للقبطى. و "اللمح" لغة تحليلى Analytical زى كل اللغات الحية المعروفة م العبرى للأسبانيولى. يعنى بتحدد وظيفة الكلمة فى الجملة بتاعتها بموضعها فى الجملة دى، ودا سر سهولتها وسرعتها يعنى عكس العربى اللى بتحدد وظيفة الكلمة فى الجملة بتاعتها بإدخال تغيير سوا كان بالحذف م الكلمة ولاّ بالإضافة لها. وفى النقطة دى العربى بتشبه اللاتينى واليونانى ودى لغات تركيبى Synthetical. ودا سر صعوبتها وبطيانها.

وبطبيعة الحال "اللمح" ورثت جانب كبير من تحليليتها دى م التحليلية بتاع اللغة القبطى اللى هى حسب توصيفى المرحلة التالتة فى تغير/ تطور لساننا.

و"منير برسوم" شارح القداس الباسيلى[10] بيبلغنا إن الأسامى اليونانى اللى جدودنا الأقباط استعاروها فى لغتنا القبطى بصفة عمومى، وفى القداس "الباسيلى" بصفة خصوصى، ترجع لصيغة واحدة اللى هى صيغة الفاعل Nominative وثبّتوها على صورة واحدة، ونفس الأمر حصل مع الصفات و وى الأفعال اللى خدوها م الصيغ المصدرى زى "صموئيل كامل عبد السيد"ما بيقول لنا، يعنى م الصيغ اللى بتخلّى الفعل "جامد" ما يتصرف ش. بس كانوا فى اللغة القبطى بيضيفو لها الـ السابقة: Prefix ϵp القبطى بمعنا "يعمل" ي "يصنع".

أما ع المستوا الصرفي فـح اكتفي فى الحيز الديق دا بالوقوف قدام خاصيتين اتنين يا دوب:

1 - التلزيقية:

اللغة القبطى تلزيقية Agglutinative ع المستوا الصرفى غير العربى اللى هى لغة تدميجية Incorporatating، و بتعبير اللغويين بتوعنا "اشتقاقية". وكل جدودنا الأقباط ما كانو يحتاجو أفعال جديدة، كانو يجيبو أسامى بالمعانى المقصودة ويضيفو عليها أفعال مساعدة، وبالطريقة دى كانو يلاقو عندهم الأفعال المطلوبة زى اسم ϕϵ بمعنا "شفة" فلما عازو فعل "باس" عملو إيه؟ جابو فعل "ϯ" ومعناه "إدى" وحطوه زى سابقة ع الاسم، لقيو عندهم ϯϕϵ بمعنى حرفى "إدا" شفة يعنى: باس.

والأمثلة على كدا ماهاش لا عد ولا حصر. وننصت نقوم نسمع أستاذنا "أيوب فرج أيـوب" يشرح المسألة أكتر ويقول بالعربى "اللى ترجمته للمصرى:

"عايزين مثل ن فعل "يعلّم" ندّور عليه ما نلاقى هـوش فى اللغـة. لاكـن المـصرى (القبطـى) بيبص يلقا عنده كلمة علم c̄Bω يقوم يضيف لها الفعل ϯ = ادى – يدى. قمنـا لقينـا عنـدنا فعـل يعلم ="يدى علم" طيب و يتعلم بمعنا "خد علم"على نفس النول نسجوها من c̄Bω + ϭı = خد علم.: ϭı c̄Bω وبالطريقة دى لقينا عندنا:

Ϲp عمل +ϯoⲩωıNı نور = ϵpoⲩωıNı= نوّر

Ϲp عمل +ϣopπ أولاني = ϵpϣopπ = سبق

Ī جا + ϵBoλ برا =ĪϵBoλ = خرج

Ī جا + ϵϨoⲩN جوا =ĪϵϨoⲩN = دخل[11]

علما–ت– القبطيـات بيقولـو اللغـة القبطـى انقرضـت. إمتـا؟ بيختلفـو. لاكـن بيتفقـو عـلى انقراضها. بس اللى الحر الفقير لاحظ أن العملية الصرفى دى ما انقطعت ش فى "اللمـح" وميـزّت اللغة دى عن اللغة العربى السايدة فى مصر كلغة رسمى ولغة العلم والتعلـيم – وبالتـالى عـن كـل لهجها، وخصوصى فى المشرق. إزاى؟

نبص نلاقى اللغة "المصرى" بتاخد فعل وتحطه على و الأحـسن تلزقـه في فعـل تـانى نلاقـى عندنا فعل رباعى على وزن "فعلل" شايل المعنيين المنفصلين مثال:

خرب + خرق = خربق

وفى قاموس "سقراط سبيرو"[12]– ودا قـاموس مـصرى – إنجليـزى نكـشف نقـوم نلاقـى "سبيرو" ترجم فعل "خرق" زى فعل "خربق" يعنى بفعل واحد اللى هـو pierce ومعنـا كـدا أن اللغة الإنجليزى ذاتها و بجلال قدرها عاجزة أكرر عاجزة عـن خلـق فعـل واحـد يـوازى الفعـل المصرى، ويلزمها زى ما يلزم "العربى" فعلين ع شان تنقل معنا الفعل المصري الواحد دا.

فالخرق جايز يكون بهدف التحسين زى خرق الصدفة المدورة اللى ح تبقا زرار. لاكن الخربقة لازم تكون: خرق وى تخريب.

وما أنساش فى النقطة دى أقول أن فعل "خربق" صحيح موجود فى اللغـة "العربـى" لاكـن ماهوش ناتج عن الفعلين المذكورين عاليه خرب + خرق وبالتالى معانيه العربـى بعيـدة عـن المعنـا المصرى. ونفتح قاموس "المنجد" نلاقى خربق: أسرع فى المشى – الشيىء: قطعه، الثـوب: شـقه –

النبت : اتصل بعضه ببعض. اخرنبق: لطئ (لصق) بالأرض: - انقمع انقماع المريب. الخربـق (ن): جنس زهر من فصيلة الشقاريات ورقه كلسان الحمل أبيض وأسود وهو سـم للكـلاب والخنـازير ..." والخرباق": المرأة الطويلة العظيمة[13].

وغنى عن الذكر أن "اللمح" تعرف آلاف الأفعال المتكونة بالـشكل دا لاكـن فى ضى المـساحة المحدودة دا الوقت ح أكتفى بقايمة قصيرة فى المجال دا:

جرجر + تعب = جرجب

نخر + خرب = نخرب

خطا + خرف = خطرف

خرر + نبش = خربش

قرط + قطف = قرطف

فل + عس = فلسع (بقلب عس)

هرا + بدد = هربد

حف + نتف = حنتف

قرط + قطم = قرطم

قرط + قمط = قرمط

برد + جلخ = بردخ

سؤال بلاغى استنكارى عند النقطة دى ممكن حد يسأله؟ وإيه يعنى؟ و ردى:

دى إمكانية ماهى هينة للى عايز يشوف قبل ما يحكم. والحر الفقير شـاف عـلى أد مـا قـدر قـام لاحظ فى ضى معرفتـه المحـدودة بـالقبطى والأكـتر محدوديـة بـالهيروغليفى واليونـانى واللاتينـى وبعدين حكم الحكم دا:

"أعظم ثروة المصريين يملكوها – ويمكن المشارقة والمغاربة معاهم – هى "اللمح"، بصفتها أبرز ملامح ثقافة مصر اللي هي أرقى ثقافة قومية في المنطقـة،.، دا لـو اكتـسبو الـوعى الموضـوعى المتحدد بواقعهم المادى والمعنوى الاتنين سوا"

نبص نلاقى لازمنا فعلين وبالتحديد كلمتين: "حل شفرة" قدام فعل زى Decode ولاكـن كل ما نستخدم كلمتين قصاد كلمـة واحـدة الأجانـب بيـستخدموها نتـأخر عـن ركـب الحـضارة

الإنسانى، خلينا نقول "فيمتو – تانية"، ولاكن مجموع الأجزاء دى ح تكون تانية ودقيقة وساعة ويوم وشهر وسنة وقرون. فى حين نقدر نشغَّل الإمكانية اللى عندنا وتحت منخيرنا بس معظمنا ع الأقل ماهوش شايفها، ونكوِّن فعل بنفس الطريقة وعلى نفس الوزن الصرفى و بدل ما نقول "حل شفرة" نقول" "حشفر" كذا... وبطبيعة الحال الفعل دا ح يرسم تبسيمة وجايز دحكة فى الجو. ولاكن دى هى الضريبة اللى كل جديد بيدفعها ويتنه يدفعها لحد ما يسود.

2-نبذ مورفيم الجمع "ات":

بنلاحظ كلنا – ويوجب علينا – إن "اللمح" بتميل للهروب من مورفيم جمع المؤنث السالم "ات"

عربى	مصرى
ملاية – ملايات	ملاية – ملى
بطانية – بطانيات	بطانية – بطاطين
ملحوظة – ملحوظات	ملحوظة – ملاحيظ
نضارة – نظارات	نضارة – نضاضير

والسر فى الميل دا كامن فى الاتصال بين "اللمح" واللغة القبطى اللى كانت بتحط علامة/ مورفيم الجمع بنوعينه المتدكر والمتونت وسيان كان فى حالة التعريف ولا التنكير فى أول الكلمة عكس العربى اللى بتحط العلامة/ المورفيم دا فى آخرها مثال:

فاطمة – فاطمات

وخلُّونا نبصع الجدول دا:

أنا (أكون) الراجل	Ⲁⲛⲟⲕ ⲡⲉ ⲡⲓⲣⲱⲙⲓ
احنا (نكون الرجالة	Ⲁⲛⲟⲛ ⲛⲉ ⲛⲓⲣⲱⲙⲓ
أنا (اكون) راجل	Ⲁⲛⲟⲕ ⲟⲩⲣⲱⲙⲓ ⲡⲉ
احنا (نكون) رجالة	Ⲁⲛⲟⲛ ϩⲁⲛⲣⲱⲙⲓ ⲛⲉ

وفى ضل ميل "اللمح" للهروب زى ما قلنا م الـ "ات"، لقينا عندنا مورفيم زايد. لاكن "اللمح" ما رمت هوش. عملت به إيه؟ حاولت توقَّفه،على مستوا اللاوعى يعنى الوجدان قدام

اللاحقــة اليونـــانى "ology" الــلى بتــدخل فى تكــوين أســامى علــوم كتــير زى بــشريات Anthropology، وقبطيــات Coptology و مــصريات Egyptology. و كــذالك اللاحقــة الحديثة ics /ique وبقينا مدفوعين نقرا فى اللغة العربى "الفصحى" المصرية كلمة "مصريات" من غير ما نفهم الستات المصريات. لاكن مهمة المثقفين المصريين كانـت فى المنطقـة دى يحوِّلـو الـدافع الأعما لهدف واعى منشود. الكلام دا لو كان لهم وجود أى وجـود فى المجتمـع المـصرى. يعنـى لـو كانو موجودين فى النقطة دى لكانو بطَّلو يمشو ورا المشارقة ساعات و ورا المغاربة سـاعات وهـم بيترجمو Linguistique، مرة فقه اللغة ومرة علم اللغة ومرة الدراسات اللسانية ومرة الدراسـات الألسنية ولكانو مشيو ورا جدودهم وترجموها "اللغويات": زى الحر الفقير ما بيعمل.

بس اللى يشم فى الكلام دا أى ريحة شوفينى يكون بيتهيَّأ لـه يـا دوب، ومـوش معنـى كـدا إن الشوفينية عندى شر مطلق – المقصود ما هوش مانمشى ش ورا حد – لاكـن مانمـشى ش ورا أى حد. الفرق محدود لاكن خطير. يعنى مانمشى ش وراء المشارقة ولا المغاربة فى الغلط. لأننـا بكـدا نتخلا عن مسؤولية مزدوج: مسؤوليتنا تجاه نفسنا ومـسؤولتنا تجـاه جيراننـا فى اكتـشاف الطريـق الأصح.

ودليلى على موضوعيتى، شوفانى إن لغتى "اللمح" استفادت – موش مـا اسـتفادت ش – ع المستوا الصرفى من لغة العرب الساميين شـقـقا–ت– العبرانيـين نتيجـة لـدخول العـرب مـصر فى أواسط القرن السابع م.ع.م. (=الميلادى) نقول إيـه: غـازيين ولا فـاتحين ؟عـلى أى حـال الاتنـين معناهم واحد لو ترجمناهم ، مثل ن، للإسبانيولى Conquistadores.

اللغة القبطى كانت بتعرف ثلاث أدوات للتعريف زيها زى الفرنساوى le – la – les يعنـى واحـدة Ⲡⲓ وواحـدة للمتونـث Ϯ والتالتـة للجمـع بنوعينـه Ⲛⲓ. ولاكـن "اللمـح" اتخلَّـت عـن التصريف فى النقطة دى وجرَّدت أداة التعريف للحد الأعلا تحت تأثير – ما انكرش – اللغة العربى وبدل ماكنا بنقول:

السيد	ⲠⲓⲚⲎⲂ
السيدة	ϮⲚⲎⲂ
السادة/السيدات	ⲚⲓⲚⲎⲂ

يعني بقينا نستخدم زى ما هو واضح أداة تعريف واحدة بدل تلات أدوات في لغتنا القبطي فى الحالات التلاتة اللى هى "الألف و اللام": "الـ"

أرجع وألخص حديتى:

"اللمح" ماهى ش عامية لفصحى وافدة من غرب آسيا و لا لهجة من لهج العربى، يعنى مانقدرش نفسَّر لا كل ولا معظم ظواهرها بالرجوع للهجة دى ولا اللهجة ديكهات من لهج اللغة العربى القديمة فى شبه جزيرة العرب. وتفسير ظواهر "اللمح" كامن بالدرجة الرئيسي فى "اللغة المصرى القديمة" بمراحلها التلاتة الهيروغليفى والديموتيكى والقبطى. و "اللمح" لغة تحليلية ع المستوا النحوى. يعنى بتعرف الفاعل وتحدده أربع وعشرين قيراط من غير ما ترفعه بأى أداة من أدوات الرفع المشهورة في "اللعق"، وكذلك الأمر بالنسبة للمفعول من غير ما تفتحه والمضاف من غير ما تجره. و"اللمح" دى هى أهم ثروة يقدر شعب مصر وجايز كمان أى شعب من شعوب المنطقة المجاورة يملكوها فى الوقت الحاضر - زي ما قلت قبل شوي زغيّرة- لأن:

"A child intellectual and emotional being depends on his developing the full possession of his native language" (14)

ومعناه بالمصرى:

"النمو(=الوجود) العقلى والعاطفى للطفل بيعتمدعلى مدا اكتسابه للسيطرة الكاملةعلى لغته القومية".

و"اللمح" مضطهدة (بفتح الها)زى الثقافة المصرى ما هى مضطهدة وكذلك شعب مصر، والشعوب المجاورة فيما عدا شعب واحد اللى هو الشعب الإسرائيلى. بس الاضطهاد هنا أمره عجيب وغريب: صادر من جزء م الشعب المصرى ذاته اللى هم المتعلمين بتوعه - وانس قولة مثقفين - اللى سلِّمو عقلهم - وجايز وجدانهم هو راخر - للآسيويين الغربيين ، ومصبوب قصدى الاضطهاد داع الجزء الأكبر منه، اللى هم الأميين اللى للساهم مشحونين بوجدان راقى متحضر للساع قايم ع التعدد وبالتالى احترام الغير والتسامح مع المختلف عنهم.

ومعنى القول إننا قدام آخر الخنادق فى مصر والمنطقة المجاورة: ى المتعلمين المصريين يتبنُّو وجدان الأميين المصريين ويأسسو عليه عقل مصرى - إنسانى خالص، ي الإبادة الثقافية لواحد من أعظم الشعوب اللى عمّرت الشرق الأوسط القديم، و دي خسارة للمصريين و كل سُكان المنطقة.

وفى الختام باتذكر سطر من شعر الشاعر الكبير "أحمدى خانى" (1650 – 1707) بيوصف ملحمته "ممى وألان" اللى كتبها بنفس اللغة اللى بيحلم بها، اللغة الكردى:

لو الجنينة دى ما كانت ش ريانة

فهى – ع الأقل – كردى.[15]

وقبل ما أسيب كو ألخص كل اللى قلته فى عبارة واحدة وفى نفس الوقت دعوة:

- اكتبو – يامصريين – زى ما بتتكلمو!

هوامش ومراجع:

(1) جريدة الأهرام 17 بشنس – مايو 1996.

(2) جريدة الأهرام 25 طوبة – يناير 1998 ص 10.

(3) "إحتفالية بيرم و شعر العامية" يوم السبت 22برمهات/ مارس 1996

(4)La Dictionnaire etymologique de la lanque copte Werner Vycichl P.136

(5) Egyptian Grammar. Allen Gardiner. P 389-191.

(6) "الزنزلحت" عصام محفوظ دار الفكر الجديد بيروت. لبنان ص . ص 3181/ 11.

(7) بانوراما. جريدة مهرجان القاهرة السينمائى الدولى السابع عشر. كياك – ديسمبر 1993 ص 5.

(8) Vycichl.Ibid,p.47

(9) Language and Linguistics. John Lyons Cambribge Unviersity press 1981 p4.

(10) القداس الباسيلي. مخطوط بخط اليد.

(11) الدهب. تأليف أيوب فرج أيوب

(12) An Arabic – English Vocabulary of the colloquial Arabic of Egypt. Cairo, Lonodon. 1895.

(13) كتاب الواضح فى علم العربية. تأليف: أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى الأندلسى المتوفى 379 هجرية ص 299.

(14)Literature as exploration,the Introduction by Luisa Rosenblatt.

(15) ممى وألان. أحمد خانى. ترجمة. د. عز الدين مصطفى رسول دار الثقافة والنشر الكردية الجمهورية العراقية 1984.

الفصل الخامس عشر

مأساة اللغة القبطية فى مصر

استفتاح:

ينقسم "المتعلمون المصريون"، وعلى رأسهم أكاديميوهم، إلى قسمين رئيسيين إزاء اللغة القبطية: الأول يجهلها حجرى الجهل، بل ويزيد على جهله بها، استشعاره قشعريرة الخوف من الوقوع فى الإثم، تسرى فى بدنه كلما طرقت العبارة أذنيه. القسم الثانى يعتقد اعتقاداً راسخاً أنها إرث خاص انحدر إليه من الزمن القديم، لا لشيء إلا لتحمل إليه صلواته وقداساته وأدعيته وأوراده وقناديله وثيوتيكياته وإبصالياته إلخ. وما دام الأمر كذلك جاز له أن يتصرف فى إرثه هذا كيفما شاء، مثلما يتصرف فى سائر ممتلكاته، سواء بالاستئثار أو "التوظيف" لخدمة أى أغراض قد تطرأ على رأسه. كما جاز له أيضاً استخدام أى لغة أخرى سواء أكانت جنوب -أوروبية أو غرب -أسيوية فى أداء هذه الشعائر الدينية التى تعد أتباعها، دون سواهم بطبيعة الحال، بالخلود فى الفردوس إلى أبد الآبدين. وجاز له أيضاً أن يترك، أمر النظر التاريخى Diachronic فيها للأجانب، طالما لا يمسون ما تحمله هذه اللغة من تراث دينى خاص، من قريب أو بعيد، وما بالك إذا ما عزفوا على هذا الوتر، على نحو ما شرعوا يفعلون، بشكل بارز، خلال النصف الأخير من القرن العشرين، الأمر الذى كاد أن يقصرها عليه وحده، دون أى تراث أدبى أو فلسفى أو قانونى آخر.

(1) اكتشاف حديث:

يرجع الفضل الأول إلى القس الألمانى اليسوعى "أثاناسيوس كيرشر" فى الكشف فى القرن السابع عشر خلال كتابيه الجريئين: "الرائد *Prodromos*" و"لغة مصرية مستعادة *Lingua aegyptiaca restituta*"، أمام العالم المتحضر، ولأول مرة عن وجود لغة مستقلة عن اللغتين اليونانية والعربية، يستخدمها المصريون الذين يدينون بالمسيحية فى أداء شعائرهم الدينية.[1] وسرعان ما وفر اكتشاف ونشر العديد من المخطوطات التى كتبت بهذه اللغة المكتشفة حديثاً

للباحثين الذين تميزوا بالصبر والدأب، إمكانية درس اللغة القبطية التى تأخرت طويلاً فى الخروج من غياهب النسيان.

ولكن القرن التاسع عشر هو الذى شهد صعود هذه اللغة تحت دائرة الضوء، بل واكتسابها أهمية لم يتوقعها أحد مطلقاً، خلال الكشف عن كنوزٍ ظلت حتى ذلك الوقت مجهولة. فلقد استفادت دراسات الكتاب المقدس (الإنجيل والتوراة بصفة عامة)، والتاريخ الكنسى والدنيوى والجغرافيا والآثار ، كل بدوره من المنابع التى وفرتها النصوص القبطية. ويبدو أن هذه المنابع لم تكن منهكة بحال من الأحوال، فلغة المصريين لم تكشف عن كل كنوزها، فى سائر مراحلها، سواء فى لفائف البردى أو رقائق الجلود أو أنسجة الكتان. ولا تكاد تمر سنة واحدة دون أن يصل إلى علم العلماء اكتشاف وثيقة جديدة ما. وفى هذا الإطار يأتى الاكتشاف المثير لنصوص أو مخطوطات "نجع حمادى" التى توصف أحياناً بأنها "مكتبة غنوصية" كاملة نظراً لما تتضمنه من كتابات عديدة فى هذه الفلسفة الدنيوية أى غير الدينية فى سنة 1945. وكان فلاح مصرى يدعى "محمد على السمان" قد عثر عليها مخبأة فى جرة من الخزف عند جبل الطارف بالضفة الشرقية لنهر النيل شمالى قرية "حمرادوم" قرب "فرشوط" فى منطقة "نجع حمادى". ويقدر العلماء هذه المخطوطات بما يصل إلى 1240 صفحة، تبقى منها نحو 1156 صفحة [2]. ولكن اكتشاف عالمى "القبطيات" فيرنر فيسيكل" و"وليم وورل"، قبل ذلك بنحو ست سنوات أى فى سنة 1939 لقرية تسمى "زينيا"، تضم عدداً من الأشخاص فى عائلات معينة، لا يزالون يتحدثون اللغة القبطية فى حياتهم اليومية لا يقل إثارة.[3]

ومنذ القس الألمانى "كيرشر" تمثلت الأعمال النحوية الرئيسية التى نشرت عن اللغة القبطية فى أعمال "توكى" Tuki و"بيرون" Peyron و"شفارتسيه" Schwatrze. ولقد كتب كل من "توكى" و"بيرون" أعمالهما باللغة اللاتينية – لغة الثقافة والعلم وقت ذاك مكان ذاك – أما العمل الثالث فكتبه صاحبه باللغة الألمانية – أى العامية وقت ذاك مكان ذاك – كى تقدِّم جميعها خدمات جليلة فى سبيل درس اللغة القبطية. ولقد مثَّل عمل "شفارتسيه" الذى ظهر فى سنة 1850 أكبر تقدم ملحوظ حتى ذلك الوقت. ولكن "اشتيرن" (1880) هو الذى فض أسرار هذه اللغة. إذ بينما يرجع الفضل للعمل الأول فى بناء المبادئ الرئيسية للنحو، مع غزارة هائلة فى ضرب الأمثلة التى ضمنت الدقة ورسخَّت الحجة لهذه المبادئ، نجد أن دراسة "اشتيرن" انصبت على اللهجتين

الرئيسيتين: الصعيدية والبحيرية ، وانتهج فيها منهجاً أكثر كلاسيكية وأكثر مما يطيقه المبتدئون فى المدارس أو المعاهد العامة، تلك التى كانت الدراسة متوجهة إليهم. لكنه وضع الأساس لجانب جديد فى اللغة القبطية، أعنى بذلك صوتياتها. كما سعى إلى "ربط اللغة البنت: القبطية باللغة الأم: المصرية القديمة".[4]

واستمر درس اللغة القبطية ونشر مخطوطاتها فى العالم المتحضر حتى نشأ عندنا والأدق عندهم علم جديد اسمه "القبطيات" Coptology وهو العلم الذى لا يقتصر على درس اللغة وحدها، بل يمتد ليشمل نطاقاً عريضاً من الفنون التشكيلية والتطبيقية وأعمال السحر والفلك والتنجيم والمنسوجات والأيقونات والطرز المعمارية والزخارف والعادات والتقاليد. ولما كانت هذه الدراسة المتواضعة منصبة على وضع اللغة القبطية فى مصر، فإننا نعود إلى مجراها الرئيسى.

شهدت سنة 1904 نشر القس "أليكس مالون" لكتابه المعروف باسم "النحو القبطى" Grammaire Copte فى بيروت عاصمة لبنان، وهو العمل الذى يعتبر الأول من نوعه فى اللغة الفرنسية، وهو النحو الذى انصب على اللهجة البحيرية، ولكنه لم يهمل اللهجة الرئيسية الأخرى تماماً: اللهجة الصعيدية، إذ عقد فصلاً مستقلاً لها فى آخر الكتاب تحت عنوان " Abregé de la Grammaire Saidique" أى "موجز النحو القبطى - الصعيدى". وهو الكتاب الذى اعتمد عليه بصورة شبه كاملة كتاب "المرجع فى قواعد اللغة القبطية" الذى نشرته جمعية "مارمينا" العجايبى بالإسكندرية فى ستينات القرن العشرين، واستمر يعتمد عليه العديد من الكتيبات المتراوحة الحجم التى أخذت تظهر فى مختلف أنحاء مصر بين الحين والآخر. كما يدرسه الطلبة فى القسم المصرى فى كليات الآثار.

وجاءت سنة 1939 كي ترى صدور "A Coptic Dictionary" أى "قاموس قبطى" لصاحبه العالم البريطانى "كرام" ، وهو القاموس الذى أعيد طبعه فى سنوات 1962، 1972، 1979، فى المدن والعواصم التالية: أكسفورد، لندن، جلاسجو، تورونتو، ملبورن، ويلنجتون، كولالومبور، سنغافورة ، جاكرتا، هونج كونج، طوكيو، دلهى، بومباى، كلكتا، مدراس، كراتشى، نيروبى، دار السلام، وكيب تاون. ولا عجب فالقاموس أصبح بمثابة عمدة قواميس اللغة القبطية، حيث ضم ثلاثة آلاف و308 جذور لغوية، فضلاً عن الاشتقاقات المنبثقة من كل جذر على حدة. ولو أن هذا الرقم لا يشكل، إذا ما قورن بعدد الجذور فى اللغة المصرية فى مراحلها

الأقدم، سوى "ندعة من محيط" ، على حد تعبير المرحوم الدكتور "شاكر باسيليوس" أستاذى و أستاذ اللغة والآداب القبطية في معهد الدراسات القبطية فى كاتدرائية الأنبا رويس بالعباسية. إلاّ أن القارئ الحصيف يلاحظ، مع ذلك، غياب مدن مصر التى تنتسب إليها هذه اللغة ، بين المدن والعواصم المختلفة التى اهتمت بطبع القاموس، وهو غياب أمر من العلقم تحت لسان كل مصرى – مصري. ويزيد فى مرارته افتقار مصر إلى أى قاموس آخر يضاهى أو يدانى هذا القاموس أو حتى يستحق هذا الاسم. ولكن المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة نشر باللغة الفرنسية فى سنة 1964 Complements au Dictionnaire Copte de Crum. أى "استكمالات لقاموس كرام" من تصنيف" رودولف كاسر" فى كتيب متوسط الحجم بلغ 134 صفحة. (5)

وفى سنة 1983 نشر العالم الكبير "فيرنر فيسيكل" قاموسه الرائع " Dictionnaire etymologique de la langue copte" أى "قاموس اشتقاقى للغة القبطية"، وهو القاموس الذى تتبع فيه صاحبه الكلمات القبطية إلى أصولها الهيروغليفية والديموتيكية، مقارناً اللغة المصرية القديمة فى مراحلها المختلفة بشقيقاتها فى المجموعة الحامية من بربرية وتشادية وطوارقية وبجاوية وهاوسية من جانب، وببنات عمومتها فى المجموعة السامية من عربية وعبرية وأثيوبية وسريانية إلخ من جانب آخر، وذلك فى إطار العائلة الحامية – السامية أو الـ Chamito – semitique (6)

هذه فى حدود علمى، وهى حدود لا أستطيع إلا الاعتراف بأنها متواضعة أبرز العلامات، وقل علامات بارزة على طريق درس اللغة القبطية. وعلى أى حال هو طريق طويل وحافل بالآلاف المؤلفة من الدراسات والأبحاث والقواميس والموسوعات فى شتى لغات المتحضرين والذين بسبيلهم إلى الأخذ بأسباب التحضر فى رقعة تمتد من طوكيو حتى نيويورك ومن استكهولم حتى ملبورن. وفى ضوء هذه الأعمال الفذة توصّل علماء القبطيات إلى رصد 18 لهجة مختلفة لهذه اللغة التى أخذ العلماء يعيدون بناءها نحوياً وصرفياً وصوتياً من واقع الآثار المدونة التى انحدرت إليهم من الزمن القديم، بصفة أساسية، تماماً مثلما فعلوا من قبل مع الهيروغليفية والديموتيكية ، ولكن المجال لا يتسع هنا إلا لذكر اللهجات الرئيسية والفرعية – الرئيسية، وهى كما يلى حسب أرجح الآراء:

فى مصر السفلى:

1- البحيرية.

2- البشمورية.

3- المنوفية.

فى مصر العليا:

4- الصعيدية.

5- الإخيمية.

6- الأسيوطية. (أو الأخميمية الفرعية)

7- الفيومية . (دون لثغة)

8- الفيومية (مع لثغة اللام بدل الراء)

ⲗⲱⲙⲓ = ⲣⲱⲙⲓ

9- لهجة جزيرة "إليفانتين" وما حولها فيما قبل العصر القبطى، والأدق السابق للمسيحية فى مصر.[7]

(2) ولادة مبتسرة:

جاءت ولادة اللغة القبطية، تلك التى تسلمناها، مكتوبة، تحت إلحاح الأميين المصريين الذين لم يكونوا ليعرفون سواها كلغة لحديثهم اليومى وأداء معاملاتهم الحياتية، أى لغتهم القومية. فلقد تاقوا منذ القرن الثانى م.ع.م. إلى فهم آيات الكتاب المقدس بعد تحولهم على أيدى الكاروز الأول مرقس الرسول، حسبما يجرى الاعتقاد[8]، عن دياناتهم المصرية إلى الديانة الجديدة[9] ووقت ذاك لم يكن ذلك الكتاب المقدس متوافراً فى مصر على وجه الترجيح إلا فى اللغة اليونانية التى أتقنها "المتعلمون المصريون" مثلما يحاولون دائماً ، مع سائر لغات الغزاة. وصاروا يتباهون بأنهم يتحدثونها فى حياتهم اليومية كأهلها سواء بسواء، و"*كانت هى (أى اللغة اليونانية) لغة التخاطب بين المثقفين والرهبان*".[10] وأدى إلحاح الأميين المصريين على نقل البشارة المسيحية إلى لغة يفهمونها بـ "المتعلمين المصريين" إلى ترجمة الأناجيل على وجه الخصوص، وأسفار العهدين، القديم والجديد، بصفة عامة من اليونانية إلى لغة الأميين المصريين وقت ذاك: القبطية ، وهو الأمر يرقى إلى حفظ هذه اللغة بل وإنقاذها من الاندثار.

ولكن مترجمى الكتاب المقدس من بين "المتعلمين المصريين" حرصوا كل الحرص على الابتعاد قدر المستطاع عن الألفاظ والعبارات المصرية، تلك التى تذكِّر هؤلاء الأتقياء الجدد

بالديانات القومية للمصريين، أى الديانات التى اندمغت لأول مرة، وعلى أيديهم دون سواهم، واستمرت تُدمغ ، منذ ذلك الحين، بالوثنية. وهذا حكم قيمى Jugement de Valeur، لا يعني العلماء في قليلٍ أو كثير. و لكن "المتعلمين المصريين" نجحوا خلاله فى إحداث أول وأخطر إنقطاع للمصريين مع ثقافة/ حضارة الجدود: المصريين القدماء. فخلال ترجماتهم، على مدى أجيال، للكتاب المقدس استنكف "المتعلمون المصريون" أى القادة الروحيون لشعب مصر وقت ذاك، أن يستخدموا، على سبيل المثال لا الحصر، كلمة "كا" ورمزها الهيروغليفى(𓂓) (ذرعان مفتوحان) أو "با" ورمزها الهيروغليفى(𓅽) وهما كلمتان مصريتان قديمتان قدم الزمان عند نقل كلمة "الروح" إلى اللغة القبطية، لأنهما قد تصرفان الورع عن ورعه، بل وأشاحوا، حتى ، عن كلمة Ⲙⲓϥⲓ القبطية أى "نفس" ، التى قد تعنى "الروح" ، ولكن دون ارتباطات "وثنية". وفضلوا الإبقاء على الكلمة اليونانية كما هى، (Πνεγμα)وإن أدخلوا عليها أداة التعريف القبطية فى صيغة المذكر Πι. كما أنهم تركوا اسم الإله – الرب θεος / kyria في اللغة اليونانية ينازع اسم الإله – الرب فى القبطية أىⲪⲛⲟⲩϯ فى الصلوات العديدة وخصوصاً القداسات الثلاثة المشهورة: الجريجورى والباسيلى والكيرلسى. ولكن الأمر لم يقتصر على إدخال هذه المفردة أو تلك العبارة إلى اللغة القبطية بل بلغ حدوداً لا مجال لتقصيها فى هذا الحيز الضيق.

وتقول الموسوعة البريطانية تحت عنوان "الأدب القبطى" : "*معظم كتابات القبطية على وجه التقريب دينية*"، وترجع إلى القرن الثانى م.ع.م. عندما بدأت اللغة القبطية، "آخر" (والقوسين من عندى) مرحلة من مراحل اللغة المصرية القديمة تستخدم كلغة أدبية حتى تدهورها فى القرنين السابع والثامن الميلاديين. وهى تضم إلى جانب الترجمات التى تمت من اليونانية الكتابات الأصلية للآباء اليونانيين ومؤسسى الرهبنة الشرقية بالإضافة إلى نصوص أخرى تلقى الضوء على المراحل الأولى للغنوصية والمانوية داخل الكنيسة المسيحية، والكتابات الأصيلة الأولى باللغة القبطية عبارة عن خطابات كتبها القديس "انطونيوس المصرى" أول الآباء الصحراويين. وخلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين كتب العديد من الرهبان ورجال الدين باللغة القبطية كالقديس "باخوم". و يعد القديس "أثاناسيوس" (293 – 373م) أول بطريرك يستخدم اللغة القبطية إلى جانب اللغة اليونانية فى عظاته التعليمية"![11]

جاءت، إذن، فى تصورى، ولادة اللغة القبطية مبتسرة. فلقد أرادها الأميون المصريون، أن تكون أيضاً لغة ديانتهم، إلى جانب كونها لغتهم القومية، فكانوا لها أماً، ونهض بها "المتعلمون المصريون" بترجمة البشارة المسيحية إليها، فكانوا لها قابلة. وبين الأم والقابلة جاء الجنين مبتسراً لم يرضع ما ينبغى لكل جنين أن يرضع من دم الأم ومن نخاعها. إذ أننا نطيل النظر، ونمنِّى النفس، ولكننا لا نعثر فى هذه اللغة المصرية على حكمة المصريين، لا شعراً ولا نثراً، لا أمثالاً ولا واوات ولا نكتاً ولا قوافى، بل ولا الأسماء التى لا يزال الفلاحون يستخدمونها فى فلاحتهم، كالأنافة والأنتوت والبسخة أى بسخة المحراث إلخ. كما لا نكاد نعثر فيها على مئات بل آلاف الكلمات والتعابير غير العربية التى لا تزال تجرى على لسان المصريين المعاصرين، تلك التى ترجع، على وجه الترجيح، إلى الطبقة التحتية التى كانت سائدة قبل مجئ اللغة العربية من غرب آسيا. مثال: بس، بشويش ، تكاتيك، اشلبدة، بهاريز، وحوى، أيوحا، خرا (لعبة بالكرة الشراب)، شوباش إلخ. والسبب فى ذلك، فى ظنى راجع إلى أن ما دُوِّن من هذه اللغة لم يكن سوى ما يعني الديانة المسيحية على وجه العموم. إلا أن ذلك لا ينبغى إن يقلل البتة من شأنها فى نظرنا، طالما ظلت بمثابة الكوبري الوحيد الذى نملكه إذا انعقد عزمنا على أن نقيم "اتصالاً" بين حاضرنا وماضينا الأقدم، وهذا أمر لا غنى عنه إذا كان لنا أن نصوغ مستقبلنا بأيدينا، فى منطقة الشرق الأوسط الحديث، والأجدر والأقرب إلى الحقيقة الجغرافية – البشرية فى شمال شرق أفريقيا، وجنوب البحر المتوسط، و بتعبيري الأثير: "أفريقيا المتوسطية".

وهنا نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام هذا السؤال: كيف يكتشف العلماء لغة لم تندثر يوماً، بل وظلت حية على الأقل فى أداء الشعائر الدينية فى الكنيسة المصرية. واستمرت السلالم (القواميس) والمقدمات (الأجروميات) تظهر لها فى مصر، بين الحين والآخر على أيدى أولاد العسال (منتصف القرن الثالث عشر) وابن الدهيرى (1250م) وأبو البركات شمس الرئاسة (نحو 1300م) وغيرهم.

لننصت إلى الأب "متى المسكين"، وهو يلقى بعض الضوء على هذا السؤال المشروع:

"وكما هو معروف إذا بدأت لغة فى الاندثار بدأ فى الحال ترتيب القواميس لها. وهكذا منذ بدء القرن العاشر بدأ نوع من المحاولة لتسجيل اللغة القبطية ومعانيها فى قواميس باللغة العربية.

وبمضى الوقت كثرت الكتب وكثر معها المؤلفون والمعلّمون وكثر معها ومعهم اضمحلال الأصول الأولى بسبب تعدد الآراء والنطق حتى أصبحت اللغة القبطية غير اللغة القبطية ".[12]

(3) عمر مقصوف:

يتفق علماء القبطيات على أمرين اثنين:

(أ) اندثار اللغة القبطية كلغة للحديث اليومى بين المصريين.

(ب) كانت المرحلة الأخيرة فى تطور ولمن شاء فى تغير اللغة المصرية القديمة.

إلاَّ أنني استمسح القارئ الكريم فى التوقف، وحسب، أمام الأمر الأول. وبادئ ذى بدء أود أن أشير إلى أن اتفاق أولئك العلماء ينتهى عند الاندثار، لكنهم يختلفون حول التاريخ الذى اندثرت أو زالت فيه هذه اللغة والأولى هذه المرحلة من لسان المصريين. فبينما يرى البروفيسور "توماس لامبدين" أن هذا الإندثار حدث بحلول القرن الخامس عشر، وفى عبارته الخاصة: "*لا نستطيع الجزم بالمدى الزمنى الذى استغرقته هذه العملية (انحسار القبطية بصورة تدريجية أمام زحف العربية) إلا أننا نطمئن إلى الافتراض الذى يقول بأن القبطية كفَّت، بحلول القرن الخامس عشر عن الاستمرار كلغة قومية للحديث اليومى فى مصر، وبذلك انتهى استمرار تدفق النصوص المكتوبة، الذى دام أكثر من أربعة آلاف سنة* ".[13] وينقل عالم القبطيات "فيرجوته" عن المؤرخ العربى المشهور "المقريزى" أن "المصريين المسيحيين، ظلوا يتحدَّثون القبطية، دون سواها حتى القرن الخامس عشر على وجه التقريب. و ينسب "فيرجوته" إلى الآب الجزويتى "فانسليب" Vansleb الذى زار مصر فى القرن السابع عشر أنه قابل "مصرياً عجوزاً كان لا يزال، لدهشته، قادراً على التعبير عن نفسه باللغة القبطية".[14] ويسود اعتقاد عام أن هذا الاندثار حدث خلال حكم الفاطميين وبالتحديد، الحاكم بأمر الله (996-1021) الذى أمر بقطع لسان كل من يُضبط وهو يتحدث القبطية. وسواء أكان ذلك أسطورة أو واقعاً فإنه لا يخلو من مغزاه. غير أن الموسوعة البريطانية تقدر أن "القبطية استمرت قيد الحياة أى لغة للحديث اليومى فى مصر "حتى القرن السابع عشر على الأقل".[15]

على أى حال زالت القبطية كلسان للمصريين، و لم يشكل العامل العربى فى هذه الصيرورة إلا عاملاً مساعداً وحسب، وفقاً لتصورى الخاص. فكافة العوامل الخارجية لا تستطيع إلا أن تكون عوامل مساعدة فى أى صيرورة تدخل على أى ظاهرة ، بما فى ذلك الظاهرة اللغوية، أما

العوامل المرجحة فهى تلك الداخلية. وتتناسب قوة العوامل الخارجية، بصورة طردية مع ضعف العوامل الداخلية. فلقد اندثرت اللغة العبرية لأسباب عديدة، قد يكون من بينها الشتات والاضطهاد و المجازر و المحارق، لكنها عادت لتطل برأسها تحت اسم "اليديشية" وسط الناطقين باللغة الألمانية، ثم إلى الانبثاق مرة أخرى لأسباب داخلية فى الحالتين، من بينها بل على رأسها، استمرار القومية العبرية بطابعها شبه القبلي، فى أرض إسرائيل الحالية. ولقد غزا العرب ، فى أواسط القرن السابع من عصرنا المعروف(= الميلادى)، أى فى نفس الوقت على وجه التقريب الذى غزوا فيه مصر، بلداً مثل إيران، دون أن ينجح هذا الغزو فى دحر لغتها الإيرانية أمام زحف قامت به فى ظل الغزو، ولا شك، اللغة العربية هناك مثلما قامت به فى أرض "إيزيس" أو "تا-ميرى".

وفى هذا الصدد يشير: "لويس عوض" إلى أن "أقباط مصر حين واجهوا مشكلة الاختيار بين الوحدة القومية فى اللغة أو الانشقاق القومى باللغة آثروا الوحدة على الانشقاق".[16] غير أن هذه العبارة لا تحاول سوى رصد رأس قمة الهرم وحسب، بينما تترك جسم الحقيقة التى شرعت تتأسس فى مصر اعتباراً من أواسط القرن السابع. فالأصح أن الأقباط وأقصد المصريين وقت ذاك، اختاروا، تحت قيادة متعلميهم عكس ما اختاره الإيرانيون عندما واجهتهم ضرورة الاختيار بين ديانتهم وقوميتهم، وبعبارة أوضح: اختار الإيرانيون بقيادة متعلميهم بطبيعة الحال، والأولى الانتليجنسيا الإيرانية وقت ذاك، أن يتمسكوا بقوميتهم أى لغتهم وثقافتهم وتاريخهم وأبطالهم وشرف أكاسرتهم الذين يوازون فراعنتنا على وجه الترجيح، فيما لم يتنازلوا للغزاة العرب إلا عن ديانتهم وحسب، عندما دخلوا فى دين الله أفواجاً. ولو أن قوميتهم عادت كى تطبع الديانة الجديدة بطابعهم الخاص. و لقد حافظ الإيرانيون تحت ظل قوميتهم، مثلاً، على استمرار الاسم الإيرانى العريق للإله الواحد، أى "خدا" حتى اليوم، أى أنهم يقولون "بنام خدا" عوضاً عن "باسم الله". وهذا هو السبب الأعمق وراء الفروق التى قامت ولا تزال قائمة، بين مصر وإيران إزاء نزعة العروبة، فى العصور الوسيطة والحديثة على حد سواء.

(4) عود على بدء:

شهد القرن المجيد، أى القرن التاسع عشر، قرن التنوير والأنوار، إلغاء الجزية أى ضريبة الرأس عن المصريين المسيحيين على يدى خديوى مصر العظيم "إسماعيل" باشا. و لو أن هذا

المصلح الفذ، الذى اجتذب غضب بريطانيا فى الماضى ، وهو غضب تنامى حتى وصل إلى حد خلعها له عن عرش مصر، استمر يستثير سخط النسقين التعليمى والإعلامى على حد سواء فى مصر فى الوقت الحاضر. غير أن هذا القرن ذاته عاصر، ويا لها من مفارقة، عودة قادة روحيين للمصريين، وبتعبيرنا الأثير، "متعلمين مصريين" إلى تعميق الانقطاع الذى نجح آباؤهم فى إحداثه مع الحضارة/ الثقافة المصرية القديمة. وكان ذلك على عهد البابا "كيرلس" الرابع، الذى يحمل لأسباب أخرى قد تكون أو لا تكون وجيهة، لقب "أبو الإصلاح" (1854-1861)، و ذلك خلال الدعوة إلى قيام اتحاد بين الكنيستين الأرثوذكسيتين: القبطية واليونانية ، تلك التى لم يكتب لها أى نجاح على أى حال. إذ التقط "عريان أفندى مفتاح"، أستاذ اللغة القبطية فى المدرسة البطريركية التى أنشأها هذا البابا نفسه، الإشارة ، وتحمَّس للتقريب بين النطقين القبطي واليونانى، و"*ذلك عن طريق إهدار النطق القبطى بقياسه على النطق اليونانى الحديث. وكان يظن بذلك أن الأقباط وقد نسوا لغتهم لابد لهم، وقد أخذوا حروفهم أصلاً عن اليونانية، أن يعودوا إلى اليونانيين الذين لا يزالون يتكلمون لغتهم لمعرفة أصوات الحروف اليونانية وتطبيقها على الحروف القبطية*".[17] ويمضى د. إميل ماهر كى ينقل إلينا ما كتبه أحد تلاميذ المعلم عريان، وهو القمص "عبد المسيح المسعودى البرموسى" فى كتابه "الأساس المتين فى ضبط نطق لغة المصريين" (1888) ما يلى:

"*حيث أن المصريين استعملوا أحرف اليونان وشيئاً من كلماتهم ... فبناء على ذلك رأى عريان أفندى... بفكره الثاقب ورأيه الصائب نطق بعض الحروف القبطية بالرجوع إلى أصلها اليونانى*".

ويصف د. إميل ماهر ما فعله عريان أفندى، بحق، بأنه "*خطأ فاحش وجريمة فى حق التراث القبطى.*"[18] وفى ظل هذا النطق الحديث الذى اخترعه "عريان أفندى" يلاحظ المرء أن اللغة القبطية أصبحت تضم حروفاً بين – أسنانية Interdental كالذال "ذ" والثاء "ث"، مما لم تعرفه الأبجدية المصرية القديمة، وفقاً للعالم الإنجليزى العظيم "ألان جاردنر"[19]، ولا تعرفه لغة المصريين فى الوقت الحاضر، بل ولا تزال تُشكِّل، أى هذه الحروف، مناطق نطق وعرة أمام التلاميذ المصريين عند تعلمهم اللغات الأجنبية التى تعرف مثل هذا النوع من الحروف كاللغات السامية والهندو – أوروبية.

و يتضح مدى "خطأ" ما أقدم عليه "عريان أفندى" إذا تصورنا مثلاً أن تنجب ألمانيا إبناً "ثاقب الفكر، صائب الرأى "مماثلاً كى يطلب من بنى جلدته أن يكفوا عن نطق حروف لغتهم الألمانية ، كما يفعلون فى الوقت الحاضر، وينطقونها كما نطقها الرومان، بمعنى إسقاط القيم الصوتية الجديدة التي أسندها الألمان لتلك الحروف، لمجرد استعارتها من أصحابها الأصليين، أى يكفوا عن نطق الـ "J" "ياء" و"Z" "تسه" إلخ، وينطقونها كما كان يفعل الرومان القدماء!

حقاً يقود د. ماهر حركة نشطة فى سبيل العودة إلى النطق القديم للهجة البحيرية التى تعتمدها الكنيسة المصرية الوطنية بدلاً مما يسمى بالنطق الحديث الذى أقحم حروفاً غير مصرية، علاوة على الحروف بين-الأسنانية، على اللسان المصرى، وهو الأمر الذى يلقى بظلال ثقيلة من الشك على صحة هذا النطق "الحديث"، وخصوصاً إذا ما عرضناه على النطق المصرى القديم، المرجح، ولسان المصريين المعاصرين، المؤكد ، بل واللهجة الصعيدية للغة القبطية نفسها، فهذه الأنماط الثلاثة من النطق المصرى الأصيل لا تعرف مثل ذلك النوع من الحروف الأجنبية. إلا أن حركة د. ماهر تلك، لا تزال ضعيفة . لكن أهم ما يؤدى إليه مسعاه، إذا ما حالفه النجاح، هو تضييق الفجوة المصطنعة بين نطق ما يسمى باللهجة البحيرية وبين ما يسمى باللهجة الصعيدية التى سادت مصر العليا وشرق مصر السفلى ذاتها، وفقاً لعلماء، وسادت مصر بأسرها حسب علماء آخرين. ولا غرابة فى ذلك فهى اللهجة التى نشأت فى عاصمة مصر الثقافية وقت ذاك أى "طيبة"، فى أرجح الآراء، حتى أن البعض يطلق عليها اسم "اللهجة الطيبية". ولقد ارتقت هذه اللهجة حتى أصبحت بمثابة لغة أدبية "معيارية" أو "standard" لمصر بأسرها. وظلت كذلك حتى القرن العاشر م.ع.م. (=الميلادى) على وجه التقريب، قبل أن تفسح المجال أمام ما يسمى بـ "اللهجة البحيرية"، كى تنهض كلغة أدبية ودينية، وفقاً للبروفيسور "لامبدين". [20] و صحيح أن هناك من يرى أن اللهجة الصعيدية تلك" نشأت بجوار "منف" و امتدت إلى شرق الدلتا. [21] إلاَّ أن هذا القول لا يقودنا إلى نتيجة بعيدة عن تلك التى تقودنا إليها النشأة الطيبية لها. فالمدينتان ظلتا عاصمتين سياسيتين، لمدتين طويلتين لمصر واستمرتا عاصمتين ثقافيتين لها لمدتين أطول. بل و يدعم ما يذهب إليه عديد من العلماء من أن هذه اللهجة المسماة بالصعيدية سادت أرجاء مصر، بما فى ذلك شرق الدلتا، فى وقت أو فى آخر بصفتها لهجة إحدى العاصمتين الحضريتين لمصر. و فى سائر الأحوال لا تعرف أى لهجة قبطية سواء الصعيدية أو البحيرية القديمة أو أى لهجة أخرى،

مثل تلك الحروف التى أدخلها "عريان أفندى" على لسان المصريين، كما سبقت الإشارة. ونقرأ ما كتبه "أيوب فرج إبراهيم"، الأستاذ بالكلية الإكليركية فى كتابه "الذهب" Ⲡⲓ Ⲛⲟⲩⲃ تحت عنوان "اللهجة الصعيدية":

"اللهجة الصعيدية كالبحيرية فى لفظ الحروف، غير أن بعض الحروف فى البحيرية لا تستخدم إطلاقاً فى أى كلمة من الكلمات الصعيدية مثل حرف θ فالصعيدية تستخدم حرف: Ⲧ بدلاً منها، فكلمة: ⲉⲑⲃⲉ البحيرية (لأجل) تصبح فى الصعيدية ⲉⲧⲃⲉ."[22] وبالتالى يرجُح عندنا، إلى جانب شواهد عديدة أخرى، مدى القرب النسبى لما يسمى باللهجة الصعيدية من اللغة المصرية فى مراحلها الأقدم، من ناحية ، والمرحلة الأحدث التى نعيشها، نحن المصريين ، فى الوقت الحاضر: "اللغة المصري الحديثة".

(5) ملامح المأساة:

أطلت أمام القارئ الحصيف، دون شك، إرهاصات ما نقصده بمأساة اللغة القبطية فى مصر. ولكننا نستطيع أن نوجز ملامح هذه المأساة فيما يلى:

1- جهد "المتعلمين المصريين" المعاصرين فى درس ونشر اللغة القبطية، لغة آبائهم المباشرين، وسواء أكانوا من أتباع الديانة المسيحية أو المحمدية، لا يكاد يتجاوز الصفر إلا قليلاً. ففيما عدا المحاولة التى قام بها باحث جاد، لا يعيبه سوى تبنيه النطق الجديد للهجة البحيرية، و هو "أقلاديوس لبيب" عند انحناءة القرن الحالى نحو وضع قاموس قبطى (لم تكتمل في حدود علمي؟) لا نكاد نعثر على أى محاولة أخرى جادة فى هذا الصدد. ومنذ كتاب "اللغة القبطية" لصاحبه "جرجس فيلوثاؤس" الذى طبع فى القاهرة سنة 1916 لا نصادف سوى كتاب "قواعد اللغة القبطية" لصاحبه د. "جورجى صبحى" فى سنة 1925. وأدى بنا هذا الإهمال الجسيم للغتنا القبطية إلى تولى الأجانب مسؤولية درس ما ينبغى أن ندرسه نحن قبلهم، أو أن يكون لنا، على الأقل، رأى ما إلى جانب آرائهم. وفى ظل هذا الوضع الشاذ أخذنا نصادف بين الحين والآخر من يطرح علينا نظريات لا تستند إلا إلى الحدس وحده، دون أدلة علمية حاسمة. أحد هؤلاء هو "فيرجوته" الذى سبقت الإشارة إليه. فالرجل الذى سعى إلى إعمال المناهج اللغوية الحديثة وخصوصاً منهج " دى سوسير" الفذ الذى يستند إلى التفريق بين المنظور التاريخى والوصفى للغة عند درسه للغة القبطية ، يقول أن اللغة المصرية "انبثقت من "سامية مبكرة" -proto

"semitic"[23]. وحقيقة الأمر ، فى تصورى ، أن هذا القول لا يخرج عن كونه ضرباً من ضروب التخمين، لا تقوم عليه لا أدلة قوية ولا حتى قرائن مقبولة. فالقول بوجود "سامية مبكرة" يصادر على المطلوب كما يقول المناطقة. فالعالم لا يعرف لغة سامية، مثلما يعرف على سبيل المثال "لغة سنسكريتية"، ترجع أقدم نصوص مدونة بها إلى 1800 ق.م. وقد وضع لها ابنها "بانينى" نحوها قبل العصر المعروف(=قبل الميلاد) بحوالى خمسة قرون. أما مصطلح سامى فى المجال اللغوى فلقد صكه عالم اللغويات الألمانى "إى. إيل شلوتسر" A.L.Schlôzer (1781) عندما وجد تشابهات قوية بين مجموعة اللغات التى تحدثت بها الأقوام التى كانت تقطن في غرب آسيا، فافترض بالتالى إمكانية أن تكون تلك اللغات قد انبثقت عن "سلف" مشترك أسماه اللغة السامية، وهذا السلف منسوب، كما هو واضح إلى "سام" ابن نوح ابن "لامك" و"نينيث" عليهما السلام، اللذين ورد ذكرهما فى القصص الدينى أو التقاليد الأسطورية التى أنشأها الساميون القدماء.[24] ومعنى ذلك أن اللغة السامية هى بعينها المرحلة المبكرة، ليس لسامية بل للغات التى قبل العلماء إدراجها تحت هذا المصطلح. وإذا كان "فيرجوته" يقول هو نفسه، أن "اللغة المصرية (القديمة) التى ولدت (كما يقول) من "سامية مبكرة" قد تطورت وفق قوانين مستقلة حتى وصلت إلى القبطية"[25]فما هى الضرورة العقلية التى تجعلنا نواصل الافتراض بانبثاق ما تطور وفق قوانين مستقلة أى ما هو مستقل، مما لا تربطه به صلات قدر ما تفصله عنه افتراقات؟ وألا توجب علينا هذه الصيرورة/_المستقلة_ أن نبحث عن صلة هذه اللغة في مجموعة أخرى من اللغات التي أصبحنا نعرف أنها تحمل تشابهاتٍ أكبر معها كالبربرية و السيوية و البجاوية و النوبية و التشادية و الكوشية، أي مجموعة اللغات التي درج العلماء على جمعها تحت الفرع الحامي من العائلة الحامية-السامية؟ وفى سائر الأحوال يوفِّر علينا هذا الطريق قدراً كبيراً من مشقة مواصلة الافتراض، دون مسوغ كاف، بأن اللغة المصرى "قد" ترجع فى أصلها البعيد، ليس إلى السامية المفترضة بل إلى سامية مبكرة أى أشد إيغالاً فى سكة الافتراض، وكأننا أصغر عقلاً من نمل "بافلوف".

حقاً لا يزال الجدل دائراً منذ وقت طويل حول هذه النقطة بين العلماء. إذ ينتصر بعضهم لانحدار اللغة المصرية القديمة، وفى إطارها اللغة القبطية، من أصول سامية مثل الألمانيين "أدولف إيرمان" و"كى. زيته" والأمريكى "دبليو. أولبرايت" ، ويقول آخرون بانتمائها إلى الفرع الحامى، من العائلة الحامية – السامية، التى يفضل "جى. إتش. جرينبيرج" وعدد آخر من العلماء

الأمريكيين وراءه ، تسميتها بالـ "الأفريقية – الأسيوية". وهذه تسمية أكثر توفيقاً، لابتعادها عن الأسماء التى وردت فى التقاليد الدينية للساميين، ولكن يعيبها أنها أشمل مما ينبغى، إذ يسمح نطاقها، فى ظل هذه التسمية، بضم لغات بعيدة من عمق آسيا كالصينية، وأخرى فى أعماق أفريقيا كالبانتو. وبين العلماء الذين يقولون بانتماء المصرية إلى الفرع الحامى من هذه العائلة نجد كلاً من "إى. نافيل" و"إف. ليكسا" و"جى. موللر" و"فريدا بينك" و"إى. زيلز" ، فضلاً عن كل من العالمين، الفرنسى : "جى. لوفيفر" الذى كتب يقول: *"تستند اللغة المصرية، بصفة رئيسية، على طبقة أفريقية تحتية، اخترقت وعدَّلت التأثيرات السامية القوية، الأمر الذى تبدو معه هذه اللغة المصرية لغة أفريقية تحمل طابعاً سامياً أكثر من كونها لغة سامية لحقها التحريف"*[26]، والإنجليزى سير "ألان جاردنر" الذى أكَّد على "ضرورة تصنيف اللغة المصرية بعيداً عن المجموعة السامية".[27] وبطبيعة الحال هناك فريق يختار "الوسط الصحيح" Juste Milieu، على نحو ما يدعو المنطق الأرسطوى، حيث يميل هذا الفريق إلى تصنيف اللغة المصرية بشكل مستقل عن كل من الفرعين الحامى والسامى فى العائلة الحامية – السامية. وبعض هؤلاء، مثل "إيه. إن. تاكر" يقترح إسماً جديداً لهذه العائلة اللغوية هو "الإرترية"، حيث يقارن البحر الأحمر بجسم لفراشة، يمتد جناح لها فى جزء من آسيا (غربها)، وجناح آخر كى يشمل جزءاً من أفريقيا (شمال شرقها)[28] إلا أن المحزن حقاً أن "المتعلمين المصريين" المعاصرين منفصلون تمام الانفصال عن هذا الجدل الدائر حول "لغتهم". فليس لهم فيه رأى ولا اقتراح بل ولعلهم لا يدرون أنه دائر أصلاً.

ويواصل "فيرجوته" نهجه الخاص كى يقول : *"اللغة القبطية هى اللغة المنطوقة – المكتوبة لمصر المسيحية"*.[29] وهذا القول ينطوى كما هو واضح، على خطأين، أحدهما منهجى والآخر معلوماتى. ويتمثل الخطأ الأول فى مدى مشروعية قصر أى لغة على الفترة الزمنية التى تبنى خلالها الناطقون بها ديانة ما، وحملت بالتالى كتابها المقدس وصلواتها. وإذا سلمنا جدلاً بأن "القبطية هى لغة مصر المسيحية" فما هى لغة ألمانيا المسيحية على سبيل المثال، وهل هى اللغة اللاتينية "الفصحى" أم اللغة الألمانية "العامية"، وبالتحديد لهجة "بافاريا" التى ترجم إليها الكتاب المقدس الأصولى المشهور: "مارتن لوثر" مع مطلع القرن السادس عشر؟

الخطأ الثانى، المعلوماتى، يكشفه للعيان ما يلى:

(أ) تحدث المصريون وكتبوا باللغة القبطية قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام ذاته. ويعرف العلماء نصوصاً مدونة بهذه اللغة، تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، أو على الأقل هذا ما يقرره البروفيسور "لامبدين" على هذا النحو:

"جرت محاولات خشنة وغير منتظمة لكتابة اللغة المصرية بالأبجدية اليونانية منذ ما يرجع إلى القرن الثالث ق.م.[30]

(ب) لا يزال المسيحيون مستمرين قيد الحياة فى مصر فى عدة ملايين، تصل فى أعلى تقدير إلى 12 مليون نسمة وفى أقله إلى 6 ملايين ، بينما تلاشت اللغة القبطية كلغة حية أى لغة الحديث اليومى بينهم، وحتى صلواتهم انتقلت فى شطرها الأعظم إلى اللغة السائدة كلغة للعلم والتعليم بصفة عمومية فى مصر.

(ج) خدمت اللغة القبطية كوسيلة اتصال، مثلما تفعل كل اللغات، أغراضاً أخرى غير دينية ، وأحياناً حملت أدباً هرطقياً، كالغنوصية Gnostocism التى *"تناقض أفكارها المسيحية وتهدف إلى تقويض الإيمان المسيحى"*[31] والمانوية Manichaeism التى *"تعد الجناح الأكثر تطرفاً فى التقاليد الغنوصية الفارسية، وهى من الهرطقات"*.[32]

والخطآن اللذان يرتكبهما هنا "فيرجوته" ينتميان إلى نفس نوع الخطأ الذى يكمن فى نسبة اللغة، والأدق "لغتنا" دون سواها إلى الأبجدية التى تكتب بها. ونقرأ على سبيل المثال عند عالم المصريات "فيسيكل" أن *"الشهر ϩⲁⲑⲱⲣ يسمى باللغة العربية "هاتور"*.[33] وعلى هذا النحو نسب "فيسيكل" كلمة أصيلة، كانت فى الأصل اسم إلهة مصرية مشهورة، من اللغة المصرية إلى الأبجدية العربية النبطية الأصل التى تصادف أن كتبت وتكتب بها هذه "اللغة المصري الحديثة" فى الوقت الحاضر. وهذا معيار لا يطبقه أحد من الأوروبيين، سواء أكان عالماً أو أحد العوام على اللغات الأوروبية. فلا يوجد بينهم من يقول أن اللغة الألمانية أو السويدية أو الدانمركية لاتينية لمجرد كتابتها بالأبجدية اللاتينية. ونحن نعرف أن اللغة التركية كانت تُكتب قبل "أتاتورك" بالأبجدية العربية ثم انتقلت كى تُكتب بالأبجدية اللاتينية دون أن تفقد اسمها: التركية، لا لصالح العربية فى الماضى ولا اللاتينية في الحاضر. و هذه أخطاء من النوع الذي لا يحتمل أي تفسير آخر سوى واحدٍ من اثنين: إما أن أصحابها "يجهلون"، وهو أمر مستبعد أو أنهم "يوظِّفون" علمهم

لأغراض خاصة تنأى به عن الحيدة والموضوعية، أى عن روح العلم، وهو الأمر الأقرب إلى مقتضيات المنطق.

لكن الغريب حقاً أن "آراء" من هذا القبيل لم تجتذب منذ الإفصاح عنها فى سبعينات القرن العشرين نقداً من أحد من "المتعلمين المصريين"، وذلك فى حدود علمى بطبيعة الحال. بل وكانت الإشارة الوحيدة التى صادفتها فى هذا المجال، "إشادة" لا لبس فيها ولا مراء، فى سنة 1994 . بالرجل: فيرجوته"[34].

(2) أدى قصر اللغة القبطية على أن تكون لغة طقوسية للديانة المسيحية إلى إثقالها بالموقف السامى والأولى الإبراهيمى من الديانات والثقافات والعادات والأبطال التاريخيين لشعب مصر. مما لا يتحمل المجال الإفاضة فيه هنا. وعلى غرار ما أثقل "المتعلمون المصريون" لغتهم القبطية فى الماضى بالألفاظ وحتى البنى النحوية اليونانية فى ظل السيادة السياسية لليونان، خلال العصور البطلمية ثم الثقافية لهم إبان العصور الرومانية، يعود هؤلاء "المتعلمون المصريون"، إلى إثقالها فى الوقت الحاضر بالبنية النحوية العربية. فنقرأ على سبيل المثال فى سلسلة "اتكلم معانا" ⲥⲁϫⲓ ⲚⲉⲙⲁⲚ تحت عنوان "فى البستان" Ϧⲉⲛ Ⲡⲓϭⲱⲙ [35]هذا هذا السؤال ، على سبيل المثال:

3	2	1
Ⲫⲁⲓ?	ⲡⲉ	ⲟⲩ
هذا	يكون	ماذا
ماذا	يكون	هذا؟

وهذه بنية عربية تضع أداة الاستفهام رقم (1) بينما تميل البنية القبطية إلى الجريان على هذا النحو.

3	2	1
Ⲟⲩ?	Ⲡⲉ	Ⲫⲁⲓ
ماذا	يكون	هذا
هذا	يكون	ماذا؟
دا	يبقا	إيه؟

أى وضع أداة الاستفهام فى آخر السؤال. ولعل هذه هى نفس البنية التى تعرفها "اللغة المصري الحديثة" ـ اللمح ـ كما هو واضح أعلاه، أو العامية المصرية كما يدعوها "المتعلمون المصريون" الأفاضل، اقتفاء لمواقع أقدام الأجانب، وأكثرهم علماء أجلاء ولكن بعضهم ليسوا، بكل تأكيد،

كذلك. كما أدى هذا القصر، أى قصر اللغة القبطية على أن تكون لغة طقوسية إلى الاحتفال بما يسمى باللهجة البحيرية، وحدها – ودون سائر اللهجات الأخرى – بصفتها "اللغة القبطية" رغم أن هذه اللهجة لم تصادف الانتشار الذى تمتعت به اللهجة الصعيدية والأولى "اللهجة الطيبية" أى لهجة عاصمة مصر فى سائر أرجاء "كيمى"، كما سبق أن قلنا. ولقد أطلقت الدروس التى تنشرها مجلة "العالم القبطى" زناد نقد وجيه فى هذا الصدد من البروفسيسور "إل. إس. بى. ماككول"، مدير الدراسات فى جمعية الآثار القبطية على أساس أن تلك الدروس تعامل "اللهجة البحيرية" وكأنها "لغة معزولة". وأضاف أن هذه اللهجة عبارة عن "*لهجة متأخرة لا يتأتى فهمها إلا عن طريق فهم الكيفية التى تطورت خلالها الصيغ والأشكال القبطية*".[36]

خلاصة:

والآن ما هى القبطية ؟ وكيف نستطيع تجاوز مأساتها فى مصر؟

تعد اللغة القبطية تلك التى أطلق عليها جدودنا المصريون الذين تحدثوها فى حياتهم اليومية اسم ϯⲁⲥⲡⲓⲛⲣⲉⲙⲛⲕⲏⲙⲉ، فى رأيى الخاص بمثابة المرحلة الثالثة فى تطور لغة المصريين، وبذلك تنهض ككبري عظيم يستطيع وصلنا بالمرحلتين الأكثر غنى، أى الهيروغليفية والديموتيكية. ولقد كتبها جدودنا الأقباط بالحروف اليونانية، التى تعد حروفنا وقد عادت إلينا بعد أن كان اليونانيون قد أخذوها منا، عبر الفينيقية. ولقد أضاف جدودنا سبعة أو ثمانية حروف من الديموتيكية لم يجدوا رموزاً مماثلة لها فى الأبجدية اليونانية. ويتعيَّن علينا، نحن المصريين المعاصرين، وسواء أكنا مسيحيين أو لم نكن، أن نجهد أنفسنا، مثلما يفعل الأجانب على الأقل فى درسها، ووضع القواميس والأجروميات لها بل والكتب الدراسية. ولما كانت اللهجة الصعيدية أو ما استقر العلماء الذين لا يخدمون سيداً آخر سوى العلم، على أنه كذلك. هى "*الأقدم والأغنى والأنقى*"[37]، جاز لنا أن نلح فى المطالبة، المرة تلو الأخرى، بتدريسها، كمادة أساسية، لتلاميذ مصر، دون إهمال مقارنتها بمختلف اللهجات الأخرى، بطبيعة الحال، وذلك بعد تخليصها، قدر المستطاع، من وقر تراثين أجنبيين وافدين، أحدهما من جنوب أوروبا وآخر من غرب آسيا.

هوامش ومراجع:

(1) Grammaire Copte. Alexis Mallon. p. VII.

(2) "الأدب القبطى" . القس شنودة ماهر إسحاق . ص 67.

(3) Grammaire Copte. Tome Ia. J.Vergote. 1973. p. 1
(4) Mallon . Ibid. p. VIII. "La Langue Fille a la langue mère...".
(5) Complements au Dictionnaire Copte de Crum. Rodolphe Kasser. Le Cairo. 1964.
(6) Dictionnaire etymologique de la langue Copte. Werner Vycichl. 1983.
(7) Vycichl. Ibid. p. XI "Dialecte d' Elephantine de l' epoche pre – copte. Survivances dans noms propres en trancriptions grecques, des emprunts meroitique et vieux – nubien.
(8) Bulletin de la Societe d'archeologie copte. p. 151 "Cetres la teadition designe St. Marc comme premier predicateur et fondateur de l'Eglise d' Alexandrie, mais rien ne le prouve" Wassif Botrous – Ghali.

(9) وصف "كامل باشا غبريال" هذه الديانة بأنها "أجنبية" ، وفقاً لما يخبرنا به "سلامة موسى فى مقال له بعنوان "فلسفة للحياة وديانة للضمير" بمجلة "الكاتب المصرى" عدد بؤونة/ يونيو 1947 ص 279

(10) الرهبنة القبطية . متى المسكين ص 562

(11) Britannica . V. 3 p. 616.

(12) الرهبنة القبطية . مرجع سابق. ص 651

(13) Introduction to Sahidic Coptic. Thomas Lambdin. 1983, p. ix.
(14) Grammaire Copte. Vergote. Tome Ia 1983. p. 10.
(15) Britannica. V. 4. 391.

(16) "مقدمة في فقه اللغة العربية". لويس عوض. هيئة الكتاب. ص 27
(17) سلسلة "إتكلم معانا"Caxi Neuan للشماس الدكتور "إميل ماهر". الكتاب الأول. ص 8
(18) إميل ماهر. مرجع سابق. ص 10

(19) Egyptian Grammar,Sir Allan Gardiner,p.27
(20) Ibid, Lambdin p.vii
(21) Ibid,Vergote lui-même a écrit: C'est (Le Sahidique) parler natural de la region située entre Heracleoplis et Memphis et s'etendait peut-être jusque dans le Delta oriental;devant très tôt une langue écrite et littéraire,il se diffusa comme tel à travers L'Egypte entière."p.2
(22)Ibid,p.245
(23) Ibid, Vergote,p.vii

(24) الكتاب المقدس. سفر التكوين. الإصحاح الخامس. ص. 15

(25) Ibid,Vergote,Tome Ia,p.vii
(26) Ibid,Vergote,p.6
(27) Ibid,Vergote,p.16
(28) Ibid,Vergote,p.15
(29) Ibid,Vergote,p.10
(30) Ibid,Lambdin,p.vii

(31) "الأدب القبطي". القس شنودة ماهر اسحاق 1998 ص 60
(32) المرجع السابق ص 61

(33) Ibid, Vycichl,p.291

(34) Bulletin de la la Societé d'archeologie copte,Tome xxxiii,1994.p.153."L'Egypte et les Coptes,identité perdue et retrouvé".Wassif Boutros Ghali. "Nous devans à Vergote les theories de la langue égyptienne,..."

(35) Ibid,Ⲥⲁϫⲓ Ⲛ̀ⲉⲙⲁⲛ

(36) Le Monde Copte,p.52

(37) "الأدب القبطي". د.إميل ماهر. ص 180

الفصل السادس عشر

حفاير لغوية تحت تعابير مصرية

"We can make new borders, we can make new regimes, we can make peoples.".
cia director: George Tenet (1)

"إحنا تقدر نصنع حدود جديدة ونقدر نصنع نظم جديدة ونقدر نصنع شعوب"

جورج تينيت: المدير السابق للمخابرات المركزية الأمريكية

إشكال الاسم:

للإسم أهمية كبيرة ، الثقافة السايدة فى مصر فى الوقت الحاضر ما بتقف ش عندها، لا كتير ولا قليل. وجايز قوى تقلل من حجمها، رغم إن الاسم [2] عند جدودنا المصريين اللى هو باللغة المصرى القديمة فى مرحلتها الهيروغليفى( ) وفى مرحلتها القبطى peN: وفى رأيي الخصوصى ، الاسم بيحدد الانتماء ونوع الانتماء فى نفس الوقت. يعنى إذا قلنا إحنا مصريين يبقا قلنا فى – ذات الوقت إن احنا بننتمى لمصر وبننتمى لأرض، والأدق لكيان جغرافى – سياسى geoplitique متحدد. ومعنى القول بننتمى لإيه ونوع الانتماء دا. ودا نفس نوع الانتماء بالنسبة لكل القوميات المستقرة – المتحضرة. واظن دا إشكال محسوم، فى نطاق معرفتى بطبيعة الحال، بالنسبة لكل القوميات والجماعات القومية، فى كل بلدان الدنيا. الإيرانيين منسوبين لـ "إيران" والروس لـ "روسيا" واليابانيين لـ "اليابان" والصينيين لـ "الصين" والكوريين لـ "كوريا" إلخ، وحتا الأمريكان لـ "أمريكا". والسر ورا استعمالى لحرف "حتا" وى الأمريكان بالذات كامن فى الحقيقة اللى بتقول إن اسم "أمريكا"، اللى هو اسم مكان، متاخد من اسم شخص اللى هو "أمريجو". [3] لاكن الحقيقة دى ما تغيرش لا كتير ولا قليل، م الحقيقة الأكبر: الأمريكان منسوبين هنا زى كل القوميات لأرضهم، وحتاً السكان الأصليين للعالم الجديد، اللى عرفناهم لمدد طويلة باسم الهنود الحمر: Red Indians ، الأدب الاجتماعى – الثقافى بدا يسميهم "الهنود الأمريكيين":

American Indians [4]، ومعنا كدا إن النسبة للأرض طالت حتى اللي وجودهم سبق ظهور الاسم دا بآلاف السنين. و واضح لنا بطبيعة الحال الأساس اللى القوميات دى بتستند عليه وبتنسب له: الأرض وبتعبير أدق، لحقيقة جيو – سياسية.

و زى كل القوميات المستقرة – المتحضرة المصريين فضلو يتنسبو، بمعنى هم ينسبو نفسهم وغيرهم ينسبوهم، لأرضهم. ومعروف لنا كلنا، ويوجب يكون معروف، إن المصريين سمُّو بلادهم أسامى كتير [5]، بس الاسم اللى استمر وياهم لحد اليونانيين ما غزو، مصر، وسيِّدو الثقافة اليونانية فى "تا– ميرى"، فى ضل الترحيب المعهود من يم "المتعلمين المصريين" بكل الغزاى وأى غزاى، كان "كيميت" اللى صبح "كيمى" KHMЄ نتيجة لعوامل التعرية اللغوية اللى بتاكل أواخر الكلمات مثال: // طازج = طازة //، // ماشج = ماشة // ، // "فيروزج = فيروز//، // "فالوزج = بلوظة// ، // "نيلج"=نيلة// ...إلخ. وبطبيعة الحال المصريين تنهم ينسبو نفسهم لـ "أرضهم" بالطريقة دي: PMNKHMЄ و معناه بـ "اللمح": "الناس بتاع مصر". و الوضع تنه ماشي على دا الحال لحد الانقلاب العسكرى الأمريكي فى 23 أبيب – يوليو 1952. وهنا فقدت مصر اسمها لأول مرة فى تاريخها واسمها بقا "العربية المتحدة". [6] ولما "البكباشى الملهم" راح و"القائمقام المؤمن" جا، بقا اسمها "مصر العربية". و"المتعلمين المصريين" قبلو تغيير اسم مصر، اللى ورد فى الكتب المتقدسة التلاتة: "العهد القديم"/ "التوراة" و"العهد الجديد"/ "الإنجيل" و العهد الأخير "القرءان". وعلا سبيل المثال الاسم دا، فى حقيقته الجيو – سياسى: مصر، ورد فى القرءان 24 مرة بالكنية زي "القرية" والمدينة إلخ، وخمس مرات بشكل صريح [7] فى حين ما ذكرش لا العبرانيين ولا العرب إلا بصفتهم أقوام: بنى إسرائيل، يهود، عرب، أعراب إلخ، يعنى بصفتهم منسوبين لـ "شخص والأدق لـ "عرق" ethnos باليونانى. زيد على كدا إن لوح/ صادود "ميرى – ان – بتاح" لما ذكر بنى إسرائيل، لأول وآخر مرة فى تاريخ اللغة المصرى القديمة إداهم مخصص ناس: راجل وست وتحتهم تلات شرط [8].

وكلنا عارفين ، ويوجب علينا ما نجهل ش، إن اسم : Arabia ونظيره فى الفرنساوى : L'Arabie والألمانى: Arabien والأسبانيولى: Arabia إلخ، ما لهم ش نظير فى اللغة العربى. فالعرب، بصفتهم بدو رحالين، زى شقڨاتهم العبرانيين، بينسبو الأرض للشخص ى الأشخاص، وبالتالى لغتهم تعرف، بالمقابل، "بلاد العرب" و"وادى الدواسر" و"كفر عازار" إلخ.

واتأسس على تغيير الاسم بتاع مصر تسمية المصريين، المستقرين – المتحضرين، بالعرب. وبدينا نلاحظ إن بعض "المتعلمين المصريين"، الأكتر تعرُّب، بيقولو ويكتبو: "الشعب العربى فى مصر"(د.ع. عبد الرحمان نموذج)، يعنى "المتعلمين المصريين"، سيان كانو دريانين ولا ماهم ش دريانين ابتدو يحوِّلو تنسيب المصريين م "الأرض" لـ العرق"، يعنى الفلاح المستقر بيتحوِّل على ايديهم الشريفة لـ "بدوى رحَّال"، و دا بيشيل في طياته، احتمالات إنهاء وجود أكبر واحة منقولة في العالم اللي هي مصر. فالعلاقة بين "البنية-التحتي" و "البنية-الفوقاني"، ماهي ش علاقة ميكانيكية زي "الماركسيين المصريين" البؤساء-السعداء ما فهمو م "الماركسية". و تسييد "بنية-فوقانية"، خلال تكنولوجيات عصر "ماركس" ما عرف هاش، يقدر يأدي، بكل بساطة، لإنهاء وجود "بنية-تحتي"، مهما كان عمرها.

السؤال اللى يتعيِّن علينا نواجهه دا الوقت: هل التحويل دا، اللى نقدر نسميه "تعريب المصريين" ما لهوش معنى ولا له؟ وإذا كان له معنى، هو إيه؟

العالم الأمريكى العظيم "لويس هنرى مورجان" بيقول:

"خبرة الإنسانية كشفت خلال تطورها عن نهجين للإدارة، وإحنا هنا بنستخدم كلمة "نهج" بالمعنا العلمى. النهجين دول عبارة عن تنظيمين متجددين ومنتظمين للمجتمع. التنظيم الأولانى والأقدم هو التنظيم الاجتماعى اللى قايم على أساس العشاير والبطون والقبايل. والتنظيم التانى والأحدث هو التنظيم السياسى اللى بيستند للأرض.

فى ضل التنظيم الأولانى، نلاقى مجتمع عشايرى اتخلَّق، الإدارة فيه بتتعامل وى الأشخاص من خلال علاقتهم بالعشيرة والقبيلة، والعلاقات دى بتكون شخصية بشكل كامل.

وفى ضل التنظيم التانى نقابل مجتمع سياسى اتأسس، الإدارة بتتعامل فيه وى الأشخاص من خلال علاقتهم بالأرض يعنى من خلال انتماؤهم للقرية والمركز و(المديرية) والدولة. والعلاقات دى علاقات محلية، قايمة ع الانتماء لمحل الإقامة، بمعنا محل السكن.

النهجين دول مختلفين، الواحد عن التانى بشكل أساسى. الأولانى يرجع للمجتمع القديم والتانى يرجع للمجتمع الحديث"[9]

معنا القول إن النتيجة الحتمية اللى المعلومات المحايدة دى والموضوعية دى والمتوثقة دى تقودنا لها، فى النقطة دى، فى ضل منهج علمى صارم ما تخرج ش عن: تعريب مصر والمصريين هو فى حقيقته فرض عودة المصريين لمرحلة ورا المرحلة الاجتماعية – الثقافية اللى نجزوها خلال

تاريخهم الطويل اللى بيعتبر أطول تاريخ مستمر فى العالم وبعبارة تانية: فرض التخلف ع المصريين. و"المتعلمين المصريين" بيقبلو التسمية الجديدة دى وقبلوها، بسعادة توصل ساعات ماهي ش قليِّلة لمرحلة "النرفانا". و واضح حططاني تعبير "المتعلمين المصريين" بين قوسين، سيان فى الورقة دى ولاً بقيت كتاباتى. والمعنا واضح: التشكيك فى وجودهم كـ "انتليجنسيا". يجوز عندنا متعلمين وعندنا مصريين لاكن "متعلمين مصريين"، فى الوقت الحاضر، بمعنا "انتليجنسيا مصرية" أمر، فى تصورى ، مطروح للتساؤل Controversial.

إشكال الاسم بينمد ويتشعب ويتجدر لحد ما يكوِّن قدامنا حالة فريدة بنقابلها، إحنا المصريين، لأول مرة، فى تاريخنا الطويل واللى يقهر، هو عدم قدرة "المتعلمين المصريين"على رؤية الحالة دى اللى بتميز واقعهم الاجتماعى – الثقافى وبالتالى عجزهم عن توصيفها : حالة فرض الإبادة الثقافية Cultural Genocide، بمعنا فقدان الهوية القومية، لأمة تاريخها بينمد على الأقل خمس – ت – آلاف سنة م التاريخ المتدون، يعنى لأقدم أمة فى التاريخ والعالم، فضلت عايشة فى ذات نفس البقعة الجيو – سياسية. وجايز أوى "جولدا مائير" رئيس وزرا – ت – إسرائيل ماكانت ش تقصد أي حد تانى، غيرنا، لما كتبت فى كتابها "حياتى" Mi Vida: "عبقرية الأمة اليهودية كامنة فى قدرتها ع الاحتفاظ بهويتها القومية رغم تشتتها، فى حين فيه أمم ما سابت ش أرضها وفقدت هويتها القومية".

بطبيعة الحال مصطلح : "الإبادة الثقافية" مصطلح مستقر فى العالم شرقه، شماله وجنوبه[10]، ولو أنه نادر الورود، لو كان بيورد م الأصل، فى كتابات "المتعلمين المصريين". ودا اللى بيخلى مناهج "الإبادة الثقافية"، اللى بتبتدى م الكتاب المدرسى، تمشى فى الواقع الثقافى المصرى مشيان السكينة فى الزبدة، يعنى من غير أى مقاومة معاكسة، بالمعنى.

وعلا سبيل المثال فرض الاستهجان، فى كتب وزارة "التربية والتعليم" فى مصر على تعددية تحايا المصريين: "صباح الخير" و"مساء الخير" و"تصبحوعلى خير" و"سعيدة" و"نهارك أبيض" و"نعيم ن" إلخ نظير "وحدانية" التحية السامية سيان عند العرب ولا العبر: "السلام عليكم" بالنسبة للأولانيين و"شالوم عليخم" بالنسبة للتانيين.[11]

قطع ولا وصل:

كل الكائنات الحية متحاوطة، من كل جيهة، بكائنات حية تانية ، يعنى بعدويين محتملين. والجسم الإنسانى بيشبه المجتمع فى نواحى كتير. فإذا سلمنا بإن كل جسم، متحاوط بعدويين م النوع دا فالعوامل الداخلية، هى اللى بتحدد دور العوامل الخارجية ، يعنى تقدر تحيِّدها وتقدر تقزِّمها وبطبيعة الحال ما تقدر ش إلاَّ تضخمها. والمعروف إن الفيروسات والميكروبات وحتا الفطريات ما بتقدرش تهزم وتفنى إلا الجسم، اللى مقاومته الداخلية ضعيفة. وإذا نقلنا القياس دا، وكل قياس دايم ن بيكون مع الفارق: Mutatis Mutandis، لحالتنا الخصوصى: الأمة المصرية، ح نلقا تعريب مصر والمصريين ما كان ش ممكن يتم بالطريقة السهلة، وع شان أكون سادق أكتر، الناعمة، اللى بيجرى بها، فى الوقت الحاضر، لو المصريين كانو متصلين بحضارتهم/ ثقافتهم المصرية القديمة، زى كل الأمم ما هى قوية باتصالها بثقافتها القومية. ولو رجعنا لتشبيهنا المجتمع بالجسم الإنسانى تكون الثقافة القومية للأولانى هى جهاز المناعة بالنسبة للتانى. ومعنا القول إن القطع Discontinuity/rupture، إذا كان هدف مستهدف لعدويين مصر يبقا الوصل Continuity/continuité يكون هدف مستهدف لـ "الانتليجنسيا المصرية"، دا لو كان لها وجود.

و في إطار القطع المفروض ع "المصريين المعاصرين"، بشكل شبه منتظم من ألفين سنة، وبشكل منتظم، من خمسين سنة، لقينا اللغة المصرى الحديثة، "اللمح" حسب توصيفى الخصوصى، بتنزل من كونها "لهجة" dialect من لهج اللغة العربى اللى وفدت من غرب آسيا فى أواسط القرن السبع – ت – اشر لـ "عامية" slang. وبطبيعة الحال "اللمح" لا كانت "لهجة"، زى الثقافة السايدة فى مصر ما قالت فى النص الأولانى م القرن العشرين ولا بقت "عامية زى نفس الثقافة دى ما بقت تقول فى النص التانى منه. فالزعمين دول، بيخلطو، مع شديد الأسف، بين العلم والسياسة ، وتكون النتيجة إننا نلاقى نفسنا قدام علم متزيِّف pseudo-science. فالمنهج العلمى يفرض ع اللى قالو وبيقولو بهم، يفسرو معظم ظواهر "اللهجة" دى ولا "العامية" دى، ي بالرجوع للهجة من لهج اللغة العربى و ي الرجوع لقوانين التطور ولا التغير اللى بتحكم صيرورة الظاهرة اللغوية فى مصر.[12]

أكثر من كدا فى ضل القطع دا بينا وبين جدورنا لقينا "متعلمين مصريين" بيقبلو تفسير اسم "الفيوم" بأنه تحوير لـ "ألف يوم"، و"دمنهور" بـ "الدم نهور" و"شطانوف" بـ " Chateau neuf" و"النيل" بأنه اسم يونانى: "Nilos" و"كيميا" بأنها كلمة عربى!!!

والورقة دى، ح تحاول زى عنوانها ما بيدل، تقوم بعملية تنقيب تحت عدد محدود ، بحكم ديق الوقت م التعابير المصرى Egyptian Idioms، اللى بتبان، فى ضل القطع المعرفى بين المصريين وبين لغتهم المصرى القديمة واقفة زى شواشى من غير جدور، ودى أول مرحلة من مراحل نسيانها، وبالتالى بتصب فى هدف محي القومية المصرية. يعنى فرض "الإبادة الثقافية" ع المصريين المعاصرين، زى ما سبق لى القول. وبطبيعة الحال الأمر يحتاج قاموس يرصد لسان المصريين المعاصرين، بس اللى ينقطعو له ع شان يصنَّفوه يكون عندهم، جنب تخصصهم فى اللغويات، إلمام كافى باللغة المصرى القديمة فى مراحلها المختلفة، و فوق كل دا اعتزاز قومي و قومي عندي ما بتشاورش بأي حال إلاَّ على قومي مصري، يعني، بكل وضوح: موش قومي عربي. لاكن أهمية الورقة دى، لو كان لها، كامن فى راس السهم اللى بترسمه قدام الباحثين، وبعبارة تانية فى سكة البحث اللى بتشاور عليها، من غير لا غرور ولا تواضع متزيِّف.

وبالتالى الورقة دى بصفتها دى، داخلة فى نطاق "اللغويات" وبالتحديد فى فرع الدلالات فى النطاق دا: Semantics. لاكن بتركزعلى نماذج من التعابير المصرى. يعنى ما هى ش بتتناول لا كل التعابير فى "اللمح" و لا كل الكلمات ولا كافة أسامى الأشخاص ولا كافة أسامى الأماكن. لاكن دا ما ينفى ش إن كل المجالات دى تحتاج قاموس والأدق قواميس متخصصة، يصنفها ناس ممتلكين مناهج وأدوات، وقبل المناهج والأدوات، روح: نشدان الحقيقة، جنب الاعتزاز بقوميتهم المصرية، زي القول ما سبق. وإذا حصل دا، جايز أوى الثقافة السايدة فى مصر تتحول للاعتراف بإننا، احنا المصريين المعاصرين، عايمين على وش بحيرة مصري، إحنا و يمكن كمان سكان المنطقة اللى بريطانيا سمتها لنا "العالم العربى"، و"المتعلمين المصريين" مشيو، عادتهم ولا ح يشتروها، ورا أى تسمية المنطقة بتتسماها.

وح اصنف تعابيرى تحت تلات تصانيف. الأولانى: تصنيف تحته كلمة مصرى. والتانى: تحته أسطورة برده مصرى. والتالت: تحته بنية برده برده مصرى.

(أ) تعابير تحتها كلمة مصرى:

(1) راجل له "شنة ورنة":

يعنى إيه "شنة ورنة"؟ وهل يصح ندوَّرعلى معانيها فى اللغة العربى، بافتراض إن لغة المصريين المعاصرين ح تكون إيه غير لهجة ي عامية للغة اللى وفدت من غرب آسيا فى أواسط القرن السابع من عصرنا المعروف (=بعد الميلاد)؟

نرجع لقاموس معتمد فى اللغة دى زى قاموس "المنجد" لصاحبه الآب "لويس معلوف" اليسوعى العربى – السامى، نلاقيه بيقول:

شن شناً... الماء على الشراب: صبه متفرقاً. [شن وأشن الغارة عليهم: وجهها عليهم من كل جهة. وشنت القربة: خلقت ويبست] [١٣]

وفى نفس القاموس نلاقى:

رن رنيناً وأرن: رفع صوته بالبكاء. رن وأرن إليه: أصغى إليه . ورنت وأرنت القوس: صوتت. رن وأرن واسترن لكذا: التهى به.

رنن القوس: جعلها ترن [... ترنيناً وترنينة] صاح.

الرنة الصوت عموماً أو هى خاصة بصوت القوس ونحوه.

الرنين: الصوت مطلقاً أو الصوت الحزين.

الرنن: الماء القليل. شىء يُصبح فى الماء أيام الصيف.[١٤]

هل قرَّبنا، ولو سنّة، من المعنى، بتاع التعبير المصرى اللى نقدر نرصده "م الناحية الوصفى، حسب منهج "سوسير" نقول: راجل صيته عالى.

حقيقة الأمر ما نقدرش نشم، حتا، الشم، أى ريحة للمعنا دا فى اللغة العربى. لاكن هل نقدر نقابله فى "للغة المصرى القديمة"

كلمة "شن" هى "خرطوشة"، يعنى الدايرة ، اللى اسم الفرعون/ الملك بينكتب فيها، والأدق أسامى الفرعون وألقابه، ودا السر في إن الدايرة دى بتتمدد، لحد ما تبقا مستطيل، ع شان تقدر تستوعب كل اللى بينكتب، وكانت بتنكتب كدا (F.p.268)

وكلمة "رن" هى اسم باللغة المصرى القديمة، زي ما القول سبق في أول الفصل اللي بين إيدين القراي الكريم.

خلاصة القول إن التعبير المصرى دا معناه: راجل له خرطوشة واسم ينكتب فيها، يعنى : صيته عالى.

(2) – ح ادى بُقّين (فى الندوة، المؤتمر، فى الحلقة الدراسية إلخ).

فى البداية "ح" هى "راح"، بعد عوامل التعرية اللغوية ما عملت عملها فى أول الكلمة. ودليلى على كدا إن الكلمة، بشكلها الكامل كانت مستعملة فى النصوص المسرحية اللى وصلت لإيدينا من بداية القرن العشرين، وإن استخدامى مطرح ديكهات ما تغيَّرش، لا قليل ولا كتير. من دلالة الفعل دا اللى بيساعدنا فى تكوين زمن الاستقبال فى "اللغة المصرى الحديثة،" (=اللمح) زى ما كان بيقوم بنفس الوظيفة دى فى اللغة المصرى القديمة. مثال:

ϯnaβωk/ϯnaι/ϯna ⲙoϣι

أنا ح أروح، أنا ح آجى، أنا ح أمشى ع التوالى.[15]

"المتعلم المصرى" الكبير اللى قال إن "الحاء" بتتبادل وى "السين" فى العربى ما كانش ممتلك أدوات كفاية للموضوع اللى بيخوض فيه.[16]

أما فعل "أدي" فدا فعل مصري قديم (V.p.209)

نيجى لـ "بق". وهنا اللغوى يجسد الجيولوجى، فطبقات القشرة الأرضية بتنطوى على مادة متكونة من عناصر ملموسة تقدر تساعده فى الكشف عن نفسها: يقيسها ويحللها ويوصفها بشكل متحدد، أكتر م المادة اللغوى اللى ساعات، ما هى ش قليلة، بدل ما تساعده تعاكسه وتزوغ منه. فهل يا ترا كلمة "بق" جاية من bocca، الطليانى والأسبانيولى، ولا جاية من "بوق" فى العربى بعد تقصير الحرف الصايت الطويل: Voyelle: U. لاكن سيان الكلمة كانت، فى أصلها أوروبى ولا أسيوى – غربى. فمعنا الكلمة فى "اللمح" إنمد وشمل معنى اللغة العربى ما تعرف هو لها ش، اللى هو ، قول ونطق وحديث. دا جنب فم. والعالم البريطانى العظيم سير "ألان جاردنر" بيقول فى قاموسه الزغير كلمة(): معناها : mouth, spell, utterance[17] ونعرف من سير "والاس بادج": إن الكلمة تعنى، كمان : Chapter فصل فى العبارة اللى بتقول ()و معناها : الفصل دا[18]

ومن قاموس "رايموند فوكنر" نعرف إن الكلمة بتعنى كمان : speech بمعنا: حديث ، كلام ، خطبة.[19]

و واضح لنا كلنا، بطبيعة الحال، إن المعنا دا ماهوش موجود فى اللغة العربى لكلمة : فم، ولا حتا لمترادفتها: ثغر، فو.

بس نقدر نلاحظ إن المعنا دا موجود فى مقابل كلمة: فم، فى عدد م اللغات الأجنبية .على سبيل المثال موجود فى اللغة الإنجليزى – الأمريكانى، جنب معناها المادى الأولانى: فم.
talk, loud, empty , boastful talk or an innclination to such: That man is all mouth. [20]

(3) - **بالدراع:**

حرف الجر عربى، وكلمة "دراع" متاخدة(و موش متحرَّفة) من كلمة "ذراع" العربى. دا كل اللى فى جعبة الثقافة السايدة فى الوقت الحاضر فى مصر. لاكن ليه التعبير Idiom دا ماهوش موجود فى العربى، لا وجود حرفي و لا مجازي، مع وجود الكلمتين اللى بيتكون منهم فى اللغة دى؟ وأكتر من كدا، لما ننقل التعبير للغة العربى ليه بيفقد معناه طوالى. فتعبير "عائش بالذراع" ما يفيدش، أبدن، المعنا المصرى لما نقول: عايش بالدراع، واخد الدنيا بالدراع إلخ.

حقيقة الأمر إن "اللمح" لما استعارت كلمة "دراع" م العربى دخَّلت عليها تغييرات متحددة لاجل تسكِّنها فى بنيتها ، هم:

* حوِّلت الحرف الساكن البين – اسنانى "الذال" لنظيره المصري: "الدال".

** ثبتت شكل الكلمة ، بمعنا سكِّنت حرفها الأخرانى: العين . ومابقاش عندنا لا...عٌ ولا... عاً ولا...عٍ.

*** حوِّلت جنوسة gender الكلمة من المتونت اللى كانته فى العربى للمتدكر فى المصرى.

**** عدلت، والأدق ضافت للمعنا العربى معنا مصرى ودا اللى وفَّر للكلمة الجديدة تدخل على حرف الجر "بـ"، وفى اللحظة دى تكوِّن تعبير، يعنى تشكيل لغوى جديد معناه بيتجاوز نطاق المعانى الفردانى لأجزاؤه.

بطبيعة الحال المستشرقين والمستعربين، ووراهم، زى العادة، "المتعلمين المصريين" وخصوصى المتخصصين – الأكاديميين منهم، ما رصدوش، التغييرات دى. وع شان حديتى يكون أدق: الأولانيين ما رضيوش. والتانيين ما قدروش يرصدوها، يعنى يشوفوها، وبالتالى لا دول ولا

دول فسَّروها، يعنى قالو لنا: حصلت ليه؟ واكتفو بالقول اللى بيعكس كسل عقلى، من يمة و دونية قومية من يمة تانية يا دوب: دى انحرافات وتحريفات وتصحيفات ...إلخ . وبكدا يكونو اتفقوعلى تجاهل الطبقة اللغوية التحتى Linguistic Substratum، يعنى اللغة المصرى اللى كانت موجودة فى مصر قبل اللغة العربى ما تيجى من غرب آسيا، وبالتحديد المرحلة القبطى، يعنى المرحلة التالتة، بعد الهيروغليفى والديموتيكى، من تطور لسان المصريين. ومعنا القول إن المصريين دكَّرو كلمة "دراع" موش لأنهم خدو قرار جماعى م المالح للشلال، بالانحراف عن الكلمة العربى اللي لسانهم، و لا لسان أبهاتهم و لا لسان جدودهم عرفها. لاكن لسبب تانى خالص ومتحدد: "دراع" بالقبطى: شوبش ϣⲱⲡϣ متدكر. ودا ينطبق على كل الكلمات العربى اللى المصريين موش انحرفو عن، لاكن مشيو فى سكتهم بشكل مستقيم اللى هى سكة مصري أصيلة. ودا السر، فى تصورى ، ورا تغيير جنس الكلمة فى "اللمح"، ودا حصل بشكل منتظم وى كلمات كتير، زى طريق، (ϩⲟⲟⲩⲧⲛ) سوق (ϣⲛⲁⲩ)، كبد (ⲙⲁⲟⲩⲥⲉ)...إلخ. يعنى تغيير جنس الكلمة هنا ماهوش ماشى أى كلام، ع شان نوصفه بالانحراف. لاكن ماشى حسب قانون تأثير الأصيل autochtone ع الوافد. فالأصيل اللى هو "اللمح" ضافت على معنا الكلمة العربى معنا مصرى متحدد: قوة، force، حسب "فيسيكل".[21] وبالتالى اتوفر عندنا الأساس اللى قام عليه التعبير رهن الحديث، فى "اللمح". و"بقا" عايش بالدراع" = عايش باستخدام العافية والقوة "وبطبيعة الحال التعبير دا بياخد أشكال كتير، زى " "بياخد حقه بدراعه" إلخ.

(4) — إى ش معنا :

دا تعبير مصرى بنستخدمه كتير فى حياتنا اليومية فى الوقت الحاضر، وكنا بنستخدمه أكتر من نص قرن، وخصوصى فى الشكل الشعبى المشهور، والأدق اللى كان مشهور و المعروف باسم "القافية". والشكل داح أرجع له بعد شوى.

بس السؤال بتاعنا دا الوقت: هل نقدر ندوَّرعلى أصل التعبير دا، بدام الثقافة السايدة فى مصر بتفطَّمنا إن "اللمح" ي "لهجة" من لهج اللغة العربى ي "عامية" لها؟

يعنى هل نقدر نرجَّع التعبير المصرى دا لأصول عربى، وبالتالى نقول إن معناه الاشتقاقى: ماذا يكون معنى كيت أو كبت؟ زى ما "متعلم كبير" هو د. أحمد أمين ما كتب يقول، دا لو ذاكرتى ما خانتى نى ش؟

فى عبارة تانية : هل : "إى ش معنا" ؟ "معناها: "إيه معنا" ، اللى هى تترجيم صحيح، ما فى ش كلام، لـ "ماذا يكون معنا"؟ هل لو حد سأل: إى ش معنا العولمةGlobalism ؟ نقدر نرد عليـه: يعنى العالم بقا قرية زغيرة:. ولا السائل ح يكون هنـا واقـف مـستنى رد عـلى سـؤاله، تمـام زى مـا يسأل: الساعة كام؟ والمسؤول يرد عليه: اللغويات بيعتبر فرع م العلوم الإنسانية ، زى الفرنساويين ما بيسمُّوها ، ولا العلوم الاجتماعية زى الأنجلو - ساكسون ما بيسمُّو نفس العلوم.

واضح لنا، كلنا، إن التعبير المصرى : "إى ش معنا" ما يساوى ش أبدن، ولا حتا يقرَّب مـن: إيه معنا؟ ولا من: ماذا يكون معنى؟

حقيقة الأمر السكة الأقرب و الأضمن، سكة الطبقـة التحتـى Linguistic Substratum، يعنى اللغة اللى كانت سايدة فى مصر آلاف السنين، قبل وفود اللغة العربى، هى سكة السلامة، اللى كانت ح ترجعنا واحنا عارفين إيه معنا التعبير المصرى اللى ورث المعنـا الـلى كـان سـايد للتعبـير فى اللغة الأصيلة: المصرية، فى مرحلتها القبطى. فالتعبير المصرى دا معناه: ليـه؟، زى مـا كـان التعبـير القبطى:? ⲟⲩ ϫⲉ [22]

التعبير دا اشتغل فى شكل مصرى شعبى اسمه "القافيـة"، الـلى انخفـا، فى نطـاق معرفتـى فى الوقت الحاضر فى مصر. والشكل دا عبارة عن مباراة بين بطلين فى سرعة البديهة وسـعة القـاموس اللغوى. الأولانى يطرح طرح. والتانى يرد يقول: إى ش معنا؟ يقوم الأولانى يـرد رد مبنـى عـلى جناس pun يعنى بكلمة لها أكتر من معنا. وكل طايفة كل لها أبطالها. ففى "قافيـة الـسواقين" كـان الأولانى يقول:

- لما تدخل البيت...

التالى كان يرد:

- إى ش معنا؟

يقوم الأولانى يرد:

- يبقا "فيتيس"(منvitesse)=(فيه تيس)

و واضح ، موش عايزة لا مناهدة ولا مداحلة، إن "كلمة" قافية" هنا يعنى على لسان المصريين بتدل على معنا، الكلمة فى لغتها الأصلية اللي هي "اللعق" ما تعرف هوش.

ب- تعبير تحته أسطورة مصرى:

(1) – بنت قمر 14

ما فى ش نكران إن الكلمات، كل الكلمات، فى التعبير دا عربى، وبالتحديد من أصل عربى. لاكن التعبير يفضل مصرى، بمعنا إن اللغة العربى ما عرفت هوش، طول عمرها الطويل، وما تعرف هوش إلا منقول عن "اللمح". والسؤال الإجرائى اللى ح نبتدى بـه هنا ع شان نقرَّب م الموضوع هو: ليه موش قمر 15، خصوصى والشهر العربى، فى الغالب الأعم 30 يوم موش 28؟

حقيقة الأمر إن الديانة المصرية والأولا، الديانات المصرية، عقيدتها، ع العكس م الديانات، والأولا الديانة السامية، ما هى ش متصاغة فى نص متقدس ثابت، لاكن ديانات مفتوحة للتغيير الدائم خلال التجربة اليومية للمصريين، وبالتالى بتقدر تنتقل من طور للتانى باستمرار حسب المؤثرات التاريخية، الداخلية والخارجية. وبعبارة تانية مع الديانات المصرية نلاقى نفسنا قدام ديانة صحيح، لاكن ديانة نسبية، ما هى ش مطلقة. وعالم المصريات "فيرونيكا أيونز" بتقول فى النقطة دى:

"الديانة المصرية بصفتها ديانة بتتجسد فى أداء شعاير متعينة، موش فى عقيدة جامدة، بتقدر تستمر قيد الحياة بس عن طريق بحث المؤمنين الدايم عن صيغ تأويلية جديدة".[23]

وع الأساس دا نلاقى "أوزيريس" يتحد فى الأزمنة المتقدمة، وى "رع" ويبقا إلاه شمسى فى التعبير المصرى القديم المشهور : "*أوزير سيف ، رع دووا*" ومعناه بـ "اللمح": "أوزيريس هو الماضى و"رع" هو المستقبل" ونلاقيه هو هواه يتحد فى الأزمنة المتأخرة ، وبالتحديد فى العصر البطلمى وى القمر ويبقا إلاه قمرى فى التعبير المعروف: "أوزير أعح" اللى بيساوى بـ "اللمح" "أوزير هو القمر". ولو أن الرحَّال اليونانى : "ديودور الصقلى Diodoros Sicilus اللى زار مصر قرب نهاية القرن الأولانى م.ع.م. (=للميلاد) بيحكى يقول: إن "أوزيريس، عند المصريين هو الشمس و"إيزيس" هى القمر". ومعنا حديث "ديودور" هنا إن الصيغتين، القديمة والجديدة اتزامنو لوقت طال ولا قصر. وبالتالى يبقا استغراب "بادج" لقول "ديودور" دا ما لهوش محل طالما إن الديانات المصرية نسبية تقبل الاختلاف، وتسيب أسطورة دينية قديمة تتزامن وتتعايش وى

صيغة نقيضة تانية لنفس الأسطورة ، لا تنفيها ولا تحرَّمها ولا تجرَّم اللى بيقول بها. ومعروف إن الأسطورة اللى الناس تسدقها بتبقا ديانة، والديانة اللى الناس تشكك فيها بتبقا أسطورة.

قصر الكلام: أوزيريس" بقا فى مرحلة متأخرة ، يعنى أقرب لنا م الناحية الزمنية، إلاه قمرى. ومعروف إن "سيت"، أخوه، فى الأسطورة الأصلية قطع جتته 14حتة. لاكن لما الأسطورة الأوزيرية اتعدلت ، وبمعنا تانى إتوسَّعت فضلت محتفظة بالرقم 14. وحكت إن "ست"، اللى خد شكل خنزير برى بياكل القمر فى 14 قطمة.[24] ، ودا نفس الرقم اللى القمر بياخده من إيام ع شان يوصل للتمام ويبقا بدر، يعنى ابن 14 يوم، وهنا يبقا وصل أبها وأحلا أيامه والأصح لياليه. ودا السر ورا التعبير المصرى دا، فمعنا: بنت قمر 14 يعنى بنت فى قمة حلاوتها وبهاءها.

(2) – نبع الزلال.

جايز كلنا، لاكن بالتأكيد بعضنا، شاف وسمع ظاهرة "المداحين الجوالين" اللى كانو دايرين طالعين نازلين فى ربوع الريف المصرى، مديح، وخصوصى فى سيدنا النبى "محمد"، ألف صلاة عليه. وفى نفس الوقت ، بيعيدو إنتاج المصريين، يعنى عمالين يوفرو إمكانية استمرار المصريين على أرض مصر، بصفتهم مصريين ، تمام زى طايفة "الحكاواتية" فى بلدان أمريكا اللاتينية، وطايفة "المغناواتية – الرقاصين" فى ولايات الهند، وطوايف "المسرحيين الشعبيين " فى ربوع الصين إلخ ما كانت بتعمل وى شعوبها، وللساع لحد الوقت بتأدى نفس الدور. وبطبيعة الحال الظاهرة دى انكمشت، وبلاش أقول انتهت فى مصر. بس الحر الفقير للساع فاكر سطرين روعة، سمعهم فى صباه:

كف النبى نبع الزلال منه.

روا جيش العطاشا والمؤمنين منه!

و احنا نعرف فى تراث الساميين، عرب وعبر، اللى ضرب الحجر بعصايته، ولو أنه متربى فى مصر، قامت عينماية انفجرت تحت الضربة، ونعرف الطفل اللى ضرب الأرض بكعبه، ولو إن أمه جارية من مصر، حسب قصص/ حواديت الساميين: عبر وشقيقا – ت – هم العرب، قامت عين "زمزم" اتفجرت تحت ضربة كعبه. لاكن مين دا اللى الزلال نبع من كفه، غير إلاه مصرى لحم ودم.

أنقل عن عالم المصريات "أدولف إيرمان" ترجمته لنص هو ترنيمة مصرى قديم بيقول:

"ترقد الأرض قاطبة على "أوزيريس" الميت. وتزلزل الأرض زلزالها إذا تحرك، ويجرى النيل من عرق أصابع يديه"[25]

(3) تحت الجناح

"اللمح" تعرف تعبير "تحت الجناح" ونلاقى المصريين يقولو "خدنى تحت جناحك" فى دلالة واضحة، للوجدان المصرى، ع الحماية والرعاية والحنية والدفا والعفا إلخ من أين جا لنا التعبير دا، اللى ما وردش لا على لسان ولا قلم حد فى المنطقة، حقاش يكون واقع تحت تأثير الثقافة المصرية؟

عالم المصريات سير "والاس بادج" كتب يقول، وح انقل "بادج" عن طريق "لويس بقطر":

"الطبيعة الجنائزية للإلاه "سوكار"، واضحة سواء فى "متون الأهرام" أو "متون التوابيت" أو "كتاب الموتى". ويتميز "سوكار" (=سقر ب. أ.) بأنه صاحب قارب أحد طرفيه على شكل رأس غزال. والجزء الأوسط يحتوى صندوقاً أو نعشاً فيه جسد "أوزيريس" وفوق هذا الصندوق يحلِّق صقر يحمى بجناحيه أوزيريس".[26]

وعالم المصريات "أيونز" بتشرح صورة فى كتابها تقول:

"الإلاه" أمون"على هيئة كبش لابس التاج المتلوت. وفوقه الإلاهة "إيدجو" ي "بوتو"على هيئة حية متجنِّحة ، وعلا راسها قرص الشمس،على استعداد لحمايته: "أمون" زى ما بتحمى الفرعون".[27]

ولما الجناح عند الطير كان هو الدراع عند الإنسان، شفنا "إيزيس" فى المتحف المصرى بـ "الكاهرا"، فاردة دراعينها فى تمثالها المنحوت م الخشب ومتغطى بالدهب تحمى بهم الفرعون "توت-عنخ-أمون". و"إيزيس"، هنا، واحدة من أربع إلاهات بتحمى وتحرس موميا-ت-الفرعون ومواعينه الكانوبية.[28]

وع شان كدا نقدر نقابل فى "اللمح" التعبير دا اللى بيشاورعلى فيضان المشاعر الرقيقة اللى الآلهة فى مصر القديمة كانت بتمنحها، باستمرار ، للبشر سيان فى الدنيا ولا العالم السفلى.

(4) – من عينى:

نطلب طلب من مصرية (ولاً مصرى) تقوم تقول لنا: من عينى. ولما الثقافة المصرية كانت قايمة ع التعدد، فجايز دا السبب الأغوط فى التنوع الكبير فى الأشكال اللى بيدوها، عفو الخاطر، لتعابيرهم وتحاياهم. فنلاقى من بين المصريين اللى تقول: "من عينى دى وعينى دى". ونلاقى اللى تقول: "عينى". ونلاقى اللى تشاورعلى عينها اليمين وبعدين الشمال، وهى بتقول: "من عينى دى قبل دى" واللى تشاورعلى عينيها الجوز، عين بعد عين إلخ.

لاكن السؤال دا الوقت: ليه العين بالذات، ما هى ش المنخيرعلى سبيل المثال؟ وطبيعة الحال تمثيلى بالمنخير مستندع التعبيرالعربى، الموازى للتعبير المصرى، اللى سمعته بودانى فى دول الخليج، وشفتهم وهم بيقولوه، باللغوة بتاعتهم:

-على خشمى!

وهم بيشاوروعلى منخيرهم.

هل السر ورا التعبير المصرى: من عينى، راجع للأسطورة، اللى كانت جزء ما يتجزأش م الديانة الأوزيرية، اللى بتحكى عن الشاب الشجيع "حوريس" لما نزل العالم السفلى، يزور أبوه أوزيريس"، وما لقاش معاه أى حاجة يهديها هاله، قام قلع عينه اداها له ع شان يشوف بها فى الضلمة الكحل بتاع العالم السفلى؟ يعنى هل "العين" دى بتشبه عين الابن المتقدس "حوريس" اللى ما اترددش وقلعها من محجرها إداها لأبوه؟ فمع الغلاوة، اللي ما حدش يقدر ينكرها، بتاع العين، غيرشي الغالي عمره ما يغلاع الغاليين. و بالتالى يبقا المصريين – المصريين يعنى المصريين – الأميين، بيعيدو إنتاج سمة من سمات ثقافتهم/ حضارتهم كل ما يردو الرد الجميل دا ، اللى بيصاحب، تملى، كرمهم الروحى العالى، اللى يندر نلاقى له نظير عند الساميين: سمة تقديس الابن لأبوه، والتقديس، زى ما هو معروف، فى جانب كبير منه، حب ومعزة واحترام. إن أى بنية ثقافية تحاول ترسخ عند المصريين المعاصرين لصراع الأجيال، بدل اتصالهم، بتساهم فى محو سمة غالية من سمات الشخصية المصرية القومية بمعنا مكون أساسى من مكونات الشخصية المصرية: تقديس الجيل الأصغر للجيل الأكبر بأرقى معانى كلمة "تقديس".

والسؤال بصيغة تانية : هل دى "عين حوريس"؟

على أى حال "عين حوريس" كانت مالية حياة المصريين، أساطيرهم، حواديتهم، أشعارهم، حكمهم، ورسوماتهم ونحوتاتهم وحتا الكسور فى حساباتهم. والأروع إن "العين" استمرت مالية لغة المصريين المعاصرين، دون ن عن كل لغات ولهجات المنطقة:

- عينها عليه.
- عينه منها
- عينه فيها.
- عينى فى عينك كدا.
- حسك عينك.
- لك عين تقيمها.
- بص لى بعين أبص لك بالاتنين.
- القلب ولا العين؟
- عينى بترف.
- حبة عينى.
- يسرق الكحل م العين.
- جا يكحلها عماها.
- بهاية عينك.
- الواد فتح فى ابوه.
- عينيها تندب فيهم رصاصة.
- بربش كدا.
- عينه صفرا
- .. وعين اللى شافوك ولا صلوش ع النبى.(رقوة منوفي)
- ليلى يا عين = افرحى (ⲗⲏⲗⲓ) يا عين.

إلخ.

ج- تعابير تحتها بنية مصرى:

- ليل ونهار:

بطبيعة الحال الكلمتين والأدق التلات كلمات اللى بيكونو التعبير المصرى دا، منحدرين م اللغة العربى. لاكن السؤال دوغرى اللى يقيم راسه قدامنا هو: ليه "اللمح" بتقدم الليل، تملى، ع النهار؟ وجايز كلنا ملاحظين، وخصوصى اللى سافرو مننا بلاد العرب إن ليلة الخميس، عندنا احنا المصريين هى الليلة اللى صباحيتها الخميس. لاكن عند العرب هى الليلة اللى بتبتدى بعد مغرب يوم الخميس.

عالم المصريات "فيرنر فيسيكل" بيقول:

"عند المصريين الليل بيسبق النهار. ووصل لإيدينا نص كتبه موظف عاش فى الأسرة التمان – ت – اشر لرئيسه بيقول فيه: موش أنا محسوبك اللى بيسمع أوامرك ليل ونهار؟"

و"فيسيكل" بيضيف إن "اللمح"، بتقول: "ليل ونهار" وما بتقول ش أبدن "نهار وليل". ويأكد إن اللغة القبطى والأدق المرحلة التالتة من تطور لسان المصريين، عرفت نفس بنية اللغة المصرى القديمة.(29)

أطرف ما فى الأمر إننا ما بنختلف ش فى النقطة دى عن العرب وبس، لاكن فى نفس الوقت عن الإنجليز، والفرنساويين والألمان، اللى بيتفقو وى العرب فى: تسبيق النهار ع الليل:

Day and night
Jour et nuit
Tag und Nacht

وبطبيعة الحال، ما فى ش أى تهريم قيمى للاختلاف دا، يعنى لا دول أحسن من دول ولا أنبه ولا أرشد، بس الاختلاف موجود، ويلزمنا نعترف به، ونحترمه، سيان كان اختلافنا عن الأجانب ولاّ اختلاف الأجانب عننا.

سؤال مشروع ومشروع بس فى ضل الوضع الراهن للثقافة فى مصر، اللى بيهدف لمحي القومية المصرية بفرض التعريب ع المصريين: هل اكتشافاتنا اللى نتجت عن الحفاير اللغوية المحدودة دى، ح تخلينا نحضنها فى وجداننا، بصفتها مصرية أصيلة، يعنى نفتخر بها ونأكد عليها ونستخدمها فى حديتنا وكتابتنا، ولاح تخلّينا، ع النقيض من كدا، نعافها ونتبرا ونشمئز منها لنفس السبب: كونها مصرية أصيلة، و احنا، زي الاستراتيجية الأنجلو-أمريكية ما بترسَّخ "عرب-إسلاميين"؟

هوامش ومراجع:

(1) The Independent of 4 th of November 2000

(2) العناصر السبعة دى هى، فى أرجح الآراء: الـ "با"، الـ "كا" ، الـ "رن" ، الـ "آخ"، الـ "شـو"، الـ "خيـت" ، والـ "إب".

(3) هو Americus Vespucci "أمريكو فيسبوتشي" (1451 – 1512): تـاجر ومغـامر طليـانى ومستكـشف ، أمريكا اتسمت باسمه.

(4) Mythology edited by Richard Casendish Rizzoli. New York 1980.

(5) المصريين القدام، جدودنا سمو بلادهم أكتر من اسـم زى: "تـاوى" ومعنـاه : الأرضـين و"إيـدبوى" ومعنـاه: الضفتين و"تا – ميرى" ومعناه: الأرض الحبيبة.

(6) اسم مصر فى ضل الوحدة مع سوريا يعنى فى الفترة من 1958 لحد 1961 كان الإقليم الجنـوبى، يعنـى مـوش حتى "الإقليم المصري" وبعد الانفصال اسمها فضل ولا بقا "العربية المتحـدة" يعنـى مـن سـنة 1961 لحـد مـوت "البكباشى الملهم" فى 1970، وبعده بشوى، لحد القائمقام ما غيَّر الاسم لتانى مرة لـ "مصر العربية".

(7) أ – ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ البقرة: ٦١

ب– ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ يونس: ٨٧

ج– ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ الزخرف: ٥١

د – ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ ﴾ يوسف: ٢١ .

هـ– ﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ يوسف: ٩٩ .

(8) لوح/ صادود "ميرى – إم – بتاح" يرجع للأسرة التسع – ت – اشر.

(9) The Ancient Society. Henry Lewis Morgan. Library of Congress Catalog. 1974.

(10) مصطلح "الإبادة الثقافية" ظهر، لأول مرة ، خلال ولاية "مختار أمبو" لمنظمة اليونسكو" ، دا لـو ذاكرتـى مـا خانتى ش. والمصطلح رسخ بعد كدا فى الأدب التربوى. واذكر فى الصدد دا كتاب "الإبادة الثقافية فى مناهج التعليم الأفريقية – السوداء" لمؤلفه: ى. بى. يوخانان.

Cultural Genocide in Black African Curriculums. By Y. B. Jochanan

(11) راجع الفصل الثالث عشر من الكتاب.

(12) المرجع السابق في أماكن متفرقة.

(13) قاموس "المنجد" طبعة 1927.

(14) المرجع السابق.

(15) Dictionnaire Etymologique de la Langue Copte . Werner Vycichl. peeters. 1983.

(16) "مقدمة فى فقه اللغة العربية. لويس عوض ص 116.

(17) Egyptian Grammar. Sir Allan Gardiner. P 577.

(18) The Book of the Dead. Wallis Budge. Routledge & Kegan Paul Ltd p. 104.

(19) Concise Dictionary of Middle Egyptian . Griffith Institute. 1981.

(20) Webster's Encyclopedic Unabridged Dictionary of the English Language. 1994.

(21) Vycichl . Ibid. p. 268.

(22) Complements au Dictionnaire Copte de Crum. p. 72.

(23) Egyptian Mythology. Veronica Ions. Newes Books. 1983.

(24) Osiris * The Egyptain Resurrection . Wallis Budge. p. 20.

(25) ديانة مصر القديمة، نشأتها وتطورها ونهايتها فى 4 آلاف سنة. تأليف: "أدولف إيرمان". ترجمة: د. عبد المنعم أبو بكر، د. محمد شكرى. وزارة المعارف العمومية. إدارة الثقافة والترجمة. مصطفى البابى الحلبى . دون تاريخ. ص 50.

(26) تأملات فى الأدب المصرى القديم" تأليف: لويس بقطر 1250.

(27) Ions. Ibid p.91

(28) *Die pharaonen: Herrscher und Dynastien im Alten Agypten*. Peter Clayton. Bechtermunz Verlag. 1995. p. 129.

(29) Vycichl.Ibid.p.347.

الفصل السابع عشر

حولين الفرق/الفروق بين "اللمح" و بين "اللعق"[1]

"الكلام تمثيل لتجارب الذهن"

أرسطو

حجب الواقع:

الملاحظ الأروب يقدر يرصد إزاي "المتعلمين المصريين"، مفتحين عينيهم لاكن شبورة خراريف، بيسموها ساعات "ثوابتنا" و ساعات تانية "عاداتنا و تقاليدنا" و ساعات تالتة "متقدساتنا" حاجبة عنهم واقعهم الروحي و بالتالي المادي الاتنين سوا. و خلِّي التاريخ القومي للمصريين المردوم عليه في الوقت الحاضر على جنب. و ح اضرب على كدا مثال واحد:

عامل إيه؟

كل المصريين، بالتقريب. بيقولو لبعض، كل ما يقابلو بعض: عامل/ عاملة/ عاملين إيه؟

بس مين مننا اللي بيوصف الكلمتين دول وصف علمي، و يقول دول:

(1) تحية.

(2) أشهر تحية بين المصريين، بمعنى أكتر التحايا بتاعتهم تردد على لسانهم؟

الجواب: في حدود علمي، ما في ش حد بالمرة؟

يعني أد إيه مألوفة و في نفس الوقت و نتيجة لطبيعة النسقين التعليمي و الإعلامي ما حد ش شايفها م اللي بيستعملوها ذات نفسهم!

و السبب، بطبيعة الحال، إن النسقين دول، يعني المصنعين الرئيسيين اللي بينتجو لنا "المتعلمين المصريين" المعاصرين، ما بيقولوش عليها "تحية"، مع إنها بتوازي عند الإنجليز:

How do you do?

و دي "التحية" اللي بيترجموها تملي في الكتاب المدرسي و غير الكتاب المدرسي: كيف حالُك(بضم اللام)؟ و موش "عامل إيه؟"، اللي هي ترجمة أقرب لروح "التحية" الإنجليزي اللي

بتستعمل فعل مناظر لإسم الفاعل عندنا: "عامل". و دا دليل جديد على إننا ما احناش شايفينها على حقيقتها: كونها "تحية" مصرية أصيلة.

و بتوازي في المعنى عند الفرنساويين:

Comment allez vous?

و عند الألمان:

Wie geht es Ihnin?

و عند الأسبان:

Que tal estas?

و أتمنى ما يجي ش يوم عليَّ أندم فيه اللي كشفت، بالطريقة دي عن البديهي، و شفت اللي تحت منخيري، لاكن محجوب عني، و قلت عليه "تحية"، لما "الأصوليين العروبيين"[2] هم و "الأصوليين الاسلاميين" يكتشفو، وراي، إنها "تحية" فعل ن، و هنا يهبو هبة "راجل" واحد لاجل يعملو وياها نفس اللي عملوه وي اخواتها من تحايا المصريين، زي: "صباح الخير" و "مساء الخير"، و "تصبح/ تصبحي/ تصبحو على خير": تكفير كل اللي يسيبها توْرد على لسانه!

السؤال اللي ح يلح دا الوقت على دماغ "المتعلمين المصريين" في تصوُّري: إيه اللي يخليك تقول ع "التحية" دي ماهي ش عربية، و كل الكلمات اللي بتتكون منها عربي:/ عامل/ إيه؟

و هنا نكون دخلنا موضوع المحاضرة من أوسع البيبان. و أول ما ابتدي أحب أدخَّل تعديل بسيط ع العنوان بحيث يكون "إيه هي طبيعة العلاقة بين "اللمح" و بين "اللعق"؟

و عند النقطة دي أحب أشاور على إن "اللمح" لغة مستقلة عن "اللعق"، لاكن ماهي ش منفصلة، لا عن "اللعق" و لا عن أي لغة و لاَّ لهجة تانية، في الدنيا، "اللمح" بتتصل بها لسبب و لاَّ التاني.

صحيح "اللمح" خدت م "اللعق" كلمات كتير أوي، بالزوف، زي ما بيقولو، لاكن حطتها في بنيتها الخصوصي، ع المستوي النحوي و الصرفي و الصوتي و الدلالي إلخ، و من ضمن اللي "اللمح" خدته م "اللعق" الكلمات بتاع العبارة دي. فلو نقلناها نقل مسطرة ـ على سبيل التجريب ـ من مصري لعربي، يعني لو "فصَّحناها" من "عاميتها" و لاَّ أقول "ركاكتها" ـ ع شان بس "المتعلمين المصريين" ينسجمو ـ و رميناها بصياغتها الجديدة: ماذا عملت؟ على شخص عربي صرف، بمعنى عربي ما اتعرضت ش لتأثير "اللمح"، ماهي ش ح تنقل له معناها، في "اللمح"،

يعني، ح يبص على أطرافه يشوف عمل إيه و يقول لك. لاكن، موش ح يرد، بالترجيح، الـرد الـلي إحنا المصريين كلنا بنستنظره لما نرميها: كويس/ ماشي/ قرفان إلخ و السبب ورا إنهـا مـا نقلـت ش للعربي معناها عند المصريين راجع لاحتياجها تترجيم كامل م "اللمح" لـ "اللعـق، يعنـي للمعنـي الكلي، و موش بس للمعاني الجزئية بتاع الكلمات المفصولة: إي ش لونك؟ و دا اللي بنعمله كـل مـا نترجمها لأي لغة أجنبية تانية، غير "اللعق".

و قبل ما أنتقل لنقطة جديدة أحب أقول إن "الحـر الفقـير"، الـلي اتعـرَّض لـنفس التعلـيم و متعرض للساع لنفس الإعلام، ما كان ش في الأرجح، ح يعرف إن "عامل/ عاملة/ عـاملين إيـه؟ تحية في الأساس، لولا إحساسه بالنقص، و بالتالي قدر و الأدق حاول يكمِّـل الـنقص دا، فـدرس، اللي المدرسة نسيت تدرِّس هو له: "اللغة القبطي"، الـلي بتـشكل في رأيـه المرحلـة التالتـة في تطـوَّر لسان المصريين قبل المرحلة الرابعة اللي بنمر بها في الوقت الحاضر اللي باسميها "اللمـح". و خـلال الدراسة دي عرفت إن "عامل إيه"؟ دي تحية تحت منها طبقة قبطية، زي الطبقات الجيولوجية:

ⲁⲕ ⲉⲣ ⲟⲩ?

و تحليل التحية القبطي دي هو:

الألفا: ⲁ = علامة الفعل في الزمن الماضي التام(=الماضي الأولاني)

الكبا: K = ضمير الشخص التاني(المتخاطب) ؛دا متصل و في حالة المفعول.

الفعل: ⲉⲣ فعل متجرد بمعنى "عمل" منحدر من فعـــــل مصري أقدم اللي هو:

(Crum.p.83) ⲓⲣⲓ(). ⲉⲓⲣⲉ(). ⲓⲗⲓ

و هنا أحب ألفت النظر لسمة في البنية النحوية: ترتيب الكلمات في المرحلـة التالتـة: القبطـي، هو نفسه في المرحلة الرابعة: المصري، و بالتحديد أداة الإستفهام اللي هي: "إيه" بتميـل عـلى لـسان المصريين المعاصرين، تيجي في آخر، موش في أول السؤال، تمـام زي نظيرتهـا: ⲞⲨ، القبطـي، و دا بعد 14 قرن من غزو/ فتح/ دخول العرب مصر، و نصف قرن من تلقين التعليم المزيِّف/ المزيَّف و الإعلام الأشد تزييـف ع اليـدين، للمـصريين بـإنهم عـرب. و داع العكـس م البنيـة النحويـة لــ "اللعق": اللي بتميل لحططان أداة/ علامة الإستفهام في الأول: ماذا تعمل/ عملت؟

أفتكر دا ملمح من ملامح العلاقة بين "اللمح" و بين "اللعق". لغتنا تاخد كلمات م "اللعق"، لاكن تصبها في بنية/ قالبstructure مصري، و في نفس الوقت نقدر نشوف فيه فرق بين دي و ديكهات.

لغتين مستقلين:

المحاضرة دي، بحكم، حاجات كتير، من بينها الوقت، موش ح تسمح لي أقف بتوسُّع معقول، قدام أكتر من نقطة واحدة في العلاقة بين "اللمح" و بين "اللعق".

النقطة دي هي نقطة طوبولوجية يعني في مجال الطوبولوجيا Typology

جايز كلنا، لاكن بالتأكيد بعضنا، عارف إن اللغة العربي(= لغة القرآن و الشعر الجاهلي)، بتشبه اللغة العبري شبه كبير، و "السلام عليكم" قريبة أوي من "شالوم عليخم"، و لاَّ موش كلام؟ نفس الأمر بنلاحظ نظيره، و خصوصي اللي اتصلو مننا بدراسة اللغات الأوروبية الحديثة، في قرب اللغة الإنجليزي م الفرنساوي، بس الإنجليزي أقرب أكتر للألماني. و الفرنساوي أقرب للطلياني و الأسباني. و دا الأساس اللي علما -ت- اللغويات بنو عليه فكرة تنسيب اللغات دي لعيلة لغوية واحدة.

القرابة دي بين اللغات الأوروبية، اللي بدت تتضح، و تاخد شكل علمي، وي الدراسات الجادة اللي بداها المستشرق الإنجليزي المعروف السير "وليم جونز"، و علن عن خلاصتها في سنة 1786م.ع.م. قدام الجمعية الأسيوية Asiatic Society : *السنسيكريتية هي أم اللغتين اليوناني و اللاتيني*. و العلما، بعد السير "جونز" واصلو نفس الجهود في سبيل اكتشاف السمات اللي رسَّخت صلات القرابة بين اللغات دي، لحد ما لقينا قدامنا "عيلة لغوية" شايلة اسم "الهندو-الأوروبية Indo-european. و ح اضرب مثال واحد في الصدد دا:

إتفاق الكلمة السنسيكريتي:as-ti وي الكلمة اللاتيني: es-t وي الكلمة القوطي:is-t و التلاتة بيدلو على فعل الكينونة is في الانجليزي زيد على كدا اختصار الجدر اللي انحدر منه الفعل لـ s لاجل يبقا علامة الجمع في التلات لغات.

بعد كدا العلما واصلو الطريق و حددو العيل و فروع العيل اللي بتنتمي لها اللغات البشرية، زي الهندو-أوروبية، و الحامو-ساميةHamo-semitic، و الصينو-تبيتية إلخ و بطبيعة الحال، الجدل بين اللغويين للساه داير لحد دا الوقت حولين أسامي و حدود العيل دي و مدي بعد و لاً

قرب اللغة دي و اللغة ديكهات الواحدة من أختها من ناحية و م العيلة دي و لاَّ العيلة ديكهات من ناحية تانية. و دا تفصيل المجال ما يسمح ش به دا الوقت.

بس اللي يهمنا في الموضوع دا، بالترجيح، إن "اللمح" اللي باعتبرها بنت "القبطي"، و حفيدة "الديموتيكي" و الحفيدة الكبيرة لـ "الهيروغليفي"، و دي صحيح خطوط، زي المناهج التعليمية عندنا ما بتقول، لاكن و كمان مراحل phases في تطور لسان المصريين، و دا اللي المناهج دي بتنسى تقوله لتلاميذها، و بالتالي بتحطهم في مُشكل ممشكل مع البحث العلمي الجاد، سيان في مصر و لاَّ براها، دا من يمة، م التانية بتستزرع مسافات واسعة بين التلات مراحل دي، بدل ما تسعى لتسييقهم، بمعنى حططانهم في سياق يبرز علاقات البنوة بينهم.

غيرشي البحوث اللغوي خدت اللغويين في سكك، و طافت بهم في آماد، ما كانت ش ع البال، و لا حتى بالهم، هم نفسهم لحد ما بصو لقو قدامهم سمات، ماهي ش قليِّلة بحال م الأحوال، بين لغات ما في ش بينها أي قرابة، و لا حتى بالنسب.

و دا اللي فرض ضرورة استعارة المنهج الطوبولوجي، م الرياضيات Mathematics، وبالتحديد م الهندسة Geometry لنطاق علم اللغويات. و اللغويين بدو يهتمو بالتقسيم الطوبولوجي دا، و يعلَّو شانه لحد ما طغاع التقسيم القديم، اللي كان قايم ع القرابة، في الأول داخل نطاق العيلة الهندو-أوروبية، و بعدين في كل العيل اللغوية التانية. في ضل الأسس العمومي اللي اللغويات بناها:

"اللغات كلها متشابهة، و بمعنى م المعاني، مختلفة الواحدة عن التانية. و البحث الطوبولوجي، بينشد، بصورة لزومية، الكشف عن الثوابت، طالما الأنواع كانت بتتميز بالنسبة لأساس مشترك." زي "جلبرت لازار" ما قال. (La linguistique Vol.34.1998)

لغات تركيبية و لغات تحليلية:

واحد من أهم التقسيمات الطوبولوجية هو تقسيم اللغات بين تركيبية Synthetic وتحليلية Analytic. التصنيف الأولاني: بيضم لغات، جايز تكون بينها قرابة و جايز ما تكون ش بينها أي قرابة من أي نوع، لاكن بتشترك، مع كدا، في تحديد وظيفة الكلمة في جملتها، و الأدق منطوقها Utterance عن طريق تدخيل تغيير ع الكلمة، سيان بالحذف و لاَّ بالإضافة، و لاَّ باختصار صايت voyelle يعني بتعديل كميته إلخ، و دي هي اللغات الأولانية: التركيبية.

التصنيف التاني: بيضم لغات، برده جايز تكون بينها قرابة، و جايز أوي ما بينها ش أي قرابة من أصله، لاكن بتشترك في تحديد، الوظيفة دي عن طريق ترتيب الكلمات Word Order و دي وظيفة ضرورية، للغات، و إلاَّ ما تبقاش لغات في الأصل لو ما حددت ها ش، يعني ما توصَّل ش حاجة م الشخص الأولاني: "المتكلم" للشخص التاني: "المتخاطب"، و سيبك دا الوقت م الشخص التالت: "الغايب".

التصنيف الأولاني اللي بيضم اللغات التركيبية، بيندرج تحته لغات كتير، على راسها السنسيكريتية. و دي لغة كانت بتشتغل بتمان نهايات لحالات إعراب الإسم، لكل حالة، نهاية مختلفة. الحالات دي:

Nominative
Accusative
Genitive
Vocative
Dative
Ablative
Locative
Instrumental

مع رحلة التطور، و لاَّ التغير، على رأي بعض اللغويين الأمريكان نهايات حالات إعراب الإسم السنسيكريتي دي، بدت تنزل، يعني اللغات- البنت بدت تتخلى عن نهايات حالات متعينة، اليونانية القديمة نزلت بهم لخمس نهايات، اللي هم نهايات الحالات من 1-5، و اللاتيني نزلت بهم لستة، و الألماني لاربعة، و الإنجليزي الأمريكاني قربت توصل لقمة التجريد: نهاية واحدة لكل الحالات. أما الإنجليزي "الأصلي" فللساع للإسم فيه نهايتين لحالتين من حالات الإعراب: الإسم متجرَّد+ الإسم وي إلـ S بتاع الملكية يعني المضاف. فاللغة الأمريكاني تقدر تقول: CIA man و المعنى يكون كامل و واضح، غيرشي الإنجليزي "الأصلي" بتميل لتفضيل: CIA's man

السؤال دا الوقت هو: هل تقليل عدد نهايات حالات بيكون ع حساب الدقة في توصيل المعنى؟

الجواب: طبع ن لأ. ع شان اللي بيقل هو النهايات لاكن الحالات من فاعل و مفعول و مضاف إلخ، بتنّها زي ما هي. و كل ما في الأمر إن اللغات اللي بتتخلى عن النهايات دي بتبتكر وسايل تانية أسهل. و زي ما قلت في سياق تاني، و ح أقول دا الوقت: اللغة البشرية بتستقل دون ن عن كافة مظاهر الثقافة، بالتحوُّل م الصعب للأقل صعوبة يعني للأسهل. و الوسايل التانية الأسهل في المجال دا بتشمل أدوات الجر من ناحية و الأفعال المساعدة من ناحية تانية. فاللغات-الحفيدة زي الإنجليزي استبدلت نهاية حالة الأدواتي عند جدتها السنسيكريتي instrumental بـ أداة/ حرف جر زي by/with و نهاية حالة المكاني Locative (للساع موجودة في التركي لحد دا الوقت، بـ in/at و عاير و ناير على كدا.

***

و دا الوقت لو اتحولنا لـ"اللعق" ح نلاقيها، بتشتغل حسب تلات نهايات اللي هم الرفع والنصب و الجر (=الخفض) ، للحالات المعروفة: الفاعل و المفعول و المضاف، و دي هي نفس الحالات اللي اللغة الأكادية، أقدم لغة سامية متْدوِّنة، كانت بتشتغل بها من أكتر من تلات -الاف سنة ق.ع.م. يعني قبل تشعُّبها لبابلية في الجنوب و أشورية في الشمال.

و هنا أحب أقول إن اللغة موضوع مفتوح، و دايم ن يغري أي حد يدخل فيه، و يفتي على راحته، من غير لا إحم و لا دستور، خصوصي و اللغة محط استعمال كل البشر، بالتقريب. و في الإطار دا نلاقي هناك اللي "يفتي"، مع كونه راجل معدود بين المحترمين، بإن اسم "أمون" مشتق من مادة "أمن"! و "حور" من مادة "حر" و "دمنهور" عبارة عن تحريف لعبارة "الدم نهور"!!!. و فيه في مصر اللي يسمح لنفسه، من غير منطق يردعه، و يتكلم عن "لغة تالتة" تعتمد على تسكين أواخر الكلمات. و بعض الأدبا إتكرمو و كتبو بها كتابات منشورة. لاكن أي لغوي لما يتأمل في الكتابات دي، يلاقيها "عربي ركيك" يادوب. ع شان الإعراب داخل في بنية "اللعق"، و من غير الإعراب ح يصعب، و جايز يستحيل، علينا نحدد الفاعل م المفعول م المضاف م الحال م النعت. و دا السبب في إن ترتيب الكلمات في "اللعق"، و في كل اللغات الداخلة في التصنيف الطوبولوجي دا حر free: فلو خدنا مثال لاتيني زي:

Deus creavit hominem.
Creavit Deus hominem.
Hominem creavit Deus.

Creavit hominem Deus.

الإلهُ (=أمون)خلق الإنسانَ [3]

خلق الإله(=أمون) الإنسانَ

الإنسانَ خلق الإلهُ(=أمون)

خلق الإنسانَ الإلهُ(=أمون)

الأربع جمل دول بمعنى واحد، مع إن الترتيب بتاع الكلمات التلاتة مختلف في كل واحدة عن أختها. و السبب إيه؟

الجواب: اللي بيحدد لنا الفاعل م المفعول هنا، موش مطرح الكلمة في جملتها، لاكن نهاية متعينة الـ us في آخر Deus بتعني إن الكلمة فاعل بصرف النظر عن مطرحها في الجملة، وكذالك الأمر وي em في الـhominem اللي بتعني إن وظيفة الكلمة في الجملة دي هي مفعول، بصرف النظر عن ورودها في الأوَّل و لاّ في الوسط و لاّ في الآخر. لاكن لو بصِّينا للغة تبع التصنيف الطوبولوجي التاني: اللغات التحليلية، زي بنت من بنات اللاتيني قول الفرنساوي، ح نلاقي الوضع اختلف. إزاي؟ نشوف:

Dieu cré l'homme.
L'homme cré Dieu

"أمون" خلق الإنسانْ.

الإنسانْ خلق "أمون".

و لو حبينا نبعد عن الحسك و الشوك، و ضربنا مثال أأمن، ح نلجأ للمثال التالي:

ضرب عليٌ محمداً = محمداً ضرب عليٌ

لاكن في "اللمح" ترتيب الكلمات، و كل اللغات الداخلة في التصنيف الطوبولوجي دا متقيِّد restricted، بمعنى أي تغيير يدخل ع الترتيب دا يعمل تغيير مناظر في المعنى.مثال:

محمدْ ضرب على.

على ضرب محمدْ.

طيب "اللغة المصري القديمة"(=اللمق)، اللي هي الجدة الكبيرة لـ "اللمح" اتخلصت م العمل بموجب نهايات متحددة للحالات، بالنسبة للإسم إمتا؟

الجواب: قبل التاريخ!

كام واحد دا الوقت ح يرميني بتهمة الشوفينية(=التعصب لمصر)؟

و هدفي من سؤالي دا، ما يزيدش و لا يقل عن تحويل سيادته/ سيادتهم للبروفيسور "أنطونيو لوبرينو"- بجامعة كاليفورنيا، ع شان هو اللي قال كدا، في كتابه Ancient Egyptian p.51 وبالتالي يبقا سيادته أحق مني بتهمة التعصب عمياني لمصر، موش كدا و لاَّ إيه؟

و على أي حال أي حد جاد يقدر يتأكد، لوحده إن الراجل الأمريكاني دا ماهوش متعصب لمصر القديمة، و لا حاجة من دي، لو الحد الجاد دا اتملِّك معرفة بسيطة، المدرسة المصرية، كان مفروض توفرها له، دا لو كانت بجد، "مدرسة مصرية"، باللغة المصرية القديمة، في مرحلة و لاَّ التانية من مراحلها المختلفة. مثال من(كتاب الميتين/ الطلوع للنهار/

و معناها: الروح/ لـ/ السما/ البدن/ لـ/ الأرض.. و هنا نقدر نلمس إن ("با"/ الروح)، ثابتة، ما بتتغيرش، زيها زي ("بيت"/ السما)، سيان الكلمة جات في أول الكلام و لاَّ بعد أداة/ حرف جر. و بعبارة تانية، لا المصري القديم و لا العبراني الحديث، و لا كل الناطقين باللغات التحليلية وجهو لتلاميذهم السؤال دا: *إعرب اللي تحته خط*. و دا لسبب متحدد: اللغات التحليلية لغات غير معربة، ع العكس م اللغات المعربة، اللي تلاميذها، يعني متعلِّمينها بيضطرو يسمعو السؤال دا من معلمينهم. زي التلميذ المصري، اللي النسق التعليمي في مصر بيفرض عليه مع شديد الأسف يتعلم لغة أجنبية و فوق كدا، عِسْرة ع الفهم: "اللعق"، تحت وهم، مع أشد شديد الأسف: دي لغته القومية، مع إنها ما عادت ش لغة قومية، بمعنى لغة أم، حتى بالنسبة للعرب في شبه جزيرتهم. و لو انها للساع لحد دا الوقت لغة شعائرهم و طقوسهم و مناسكهم الدينية، سيان كانو من أتباع الشعبة الأولانية: الموسوية و لا الشعبة التانية: المسيحية و لا التالتة: المحمدية م الديانة الإبراهيمية(="ديانة الساميين" بتعبير "روبرتسون سميث").

تطور و لاَّ تغير:

طيب هل التحول دا، اللي نقدر نرصده، على مر الزمن، من لغات تركيبية للغات تحليلية، بيشكِّل تطوُّر؟ و لاَّ هو يادوب تغيُّر، يعني انتقال من حال لحال، من غير الإنتقال دا ما ينطوي على مؤشر سيان لقدام و لاَّ لورا؟

السؤال البريء دا بيحطنا في قلب مشكل عويص، بيتصل، بصورة متينة، بأخلاقيات العلم، بشكل عمومي. و في الأول أحب أقول إن الجاليات العلمية، و الحر الفقير، بيفضَّل الترجمة دي للعبارة الأجنبية Les communautés Scientifiques، بتسعى من عصر النهضة لحد دا الوقت، في كل مجال نوعي من مجالاتها المتعددة، لإنتاج معارف قابلة للنقل لكل أعضاءها و خاضعة لسيطرتهم:communicables et controlables par tous.

لاكن ورا عملية الإنتاج دا للمعارف دي، عند اللغويين، نلاقي هدف منشود هو الحفاظ ع التنوع اللغوي، و دا هدف بيوازي، عند البيولوجيين، الحفاظ ع التنوع البيولوجي، و نلاقي اللغويين و البيولوجيين، بيقاومو انقراض اللغات البشرية و الأنواع البيولوجية، ع التوالي. وبطبيعة الحال "اللمح"(=المصري الحديثة) مترشحة، هي و كافة اللغات/ اللهجات المشرقية و المغربية للمصير اللي يحزِّن دا، نتيجة مباشرة لفرض لغة تركيبية غير قومية صعبة و عاجزة و ركيكة ع المنطقة اللي هي "العربي الكلاسيكي". و دا بالتحديد، اللي "المتعلمين المصريين" موش شايفينه، وبالتالي، جهودهم، بدل ما تقاوم الإنقراض، بتطالب به و تدعمه و تستبسل في سبيله. فكل لغة ما ترقاش للغة رسمية، لغة الدواوين، و المؤسسات و التعليم إلخ، بتكون متهددة بالمصير دا، وبعبارة عالم لغوي، اسمه غايب عني دا الوقت، وردت في جورنال:"La Linguistique:

Une langue ne survit que si elle est une langue officielle pour un nombre important de locuteurs.

و دا السر ورا مطالبة/ إصرار/ نجاح الناطقين باللغات القومية/ اللغات الأم، زي البنغالية في بنجلاديش، و "الأمازيغية" في "الجزاير" و "الكردية" في العراق إلخ في مجال اعتماد لغاتهم الأم/ القومية لغات رسمية في أوطانهم.

و بطبيعة الحال، و قبل ما أنسى: التنوع اللغوي، ما بيأثرش بالسلب، بأي حال م الأحوال، ع الوحدة العقلية و الوجدانية للبشرية، لاكن بيزيدها غنى و خصوبة، و دول أساس الخلق والإبداع. و في ضي المفهوم دا باطالب بالحفاظ على اللغة "السيوية" في غرب مصر، و "النوبية" في جنوبها و "البجاوية" في قبلي شرقها، فالحفاظ ع اللغات دي هو في حقيقته حفاظ على تنوع الروافد بتاع الثقافة المصرية، و تدعيم لوحدة المصريين، فما في ش أي وحدة متينة من غير تعددية عريضة. و بكدا أكون ضميت صوتي للغويين العالميين اللي بيرفعو من وقت طويل زعقتهم: "هوي لقتل اللغات!"

"*Halte à la mort des langues!*" Luis-Jean Calvet, *Le Marché aux langues*.Plon,2002.

مرجوعنا لسؤالنا: تغير و لاَّ تطور؟

في رأيي تحول اللغات من "تركيبية" لـ "تحليلية" بمرور الزمن، يُعتبر تطور. و أكبر دليل عندي، دا الوقت، على كدا هو:

* مافي ش لغة اتحولت من "تركيبية" لـ "تحليلية" و رجعت تاني "تركيبية". و نقدر نقيس الظاهرة دي على ظاهرة موازية في البيولوجيا: الصابع السادس في الإيد البشرية. فالطفرة mutation دي، حسب العالم الكبير "فريدريش ليوبولد وايزمان"(1834-1914)، "سايدة" dominantكصفة موروثة، بتنتقل من جيل للتاني بصفتها دي، يعني موش recessiveو بالتالي ح تطلع من دايرة الشذوذ الراهنة، و تبقا "القاعدة" في المستقبل، و بكدا نقدر نحكم عليها بإنها تطوُّر.

و في ضي الأخلاقيات العلمية أحب أعيد للأذهان لمحة عن "العنصرية اللغوية" Le racisme linguistique اللي كانت سايدة، بصورة نسبية في أواسط القرن التسع-ت-اشر. وفي ضيها اللغويين كانو بيقولو إن اللغات المقطعية و التلزيقية isolantes et agglutinantes(= سموها غير معربة و في وقت لاحق "تحليلية) لغات بدائية.(ما تقدرش تشيل الإنجازات الروحية بتاع الحضارة. و في ضل النظرة دي "جويوم دي همبولدت"Guillaume de Humboldt كتب في سنة 1827عن اللغة الصينية، و دي لغة معروفة بمقطعيتها:

"اللغة الصينية في رأيي، من غير أي شك، متدنية لحد كبيرtrés inferieure كأداة للتفكير، بالنسبة للغات اللي وصلت لحد إعطاء درجة متحددة م الكمال لنسق مناظر لخصوصيتها".

و دي نظرة، بقت صدامة في الوقت الحاضر، و ماهاش تفسير معقول غير قياس اصحابها، وبينهم الأخين "شليجل"Schlegel لكافة اللغات ع النسق الهندو-أوروبي اللي حطوه من غير سند علمي موضوعي على راس عملية التطور اللغوي.

و بطبيعة الحال، اللغويات اتجاوز النظرة العنصرية دي. و اللغة الصينية شالت، زي ما احنا كلنا شايفين، إنجازات روحية عالية لحضارة إنسانية راقية. زيد على كدا إن "60٪ *من المنشورات العلمية بتشيلها لغة ماهي ش بعيدة أبدن، عن اللغة الصينية*".(و المقصود هنا اللغة الإنجليزية، والمشترك بين اللغتين اللي الكاتب بيلمح له هو السمة التحليلية).

السؤال اللي جايز يطوف حولين دماغ "المتعلمين المصريين" دا الوقت ـ و لو انه خارج الموضوعoff-topic ـ هو: أمال، يعني، لما "اللمق" اللي هي "لسان المصريين" راقية، من زاوية التطور عن اليوناني و الألماني و الإنجليزي- البريطاني حالنا، ماله، ما يسر ش لا عدو و لا حبيب؟

جوابي ع السؤال دا عبارة عن سؤال كبير: و هو إحنا أصل ن مصريين، بمعنى هل رفعنا لغتنا الأم، على سبيل المثال، لمنزلة لغتنا الرسمية؟ و لأَّ ع شان ما احنا شايلين باسبور أخضر؟ و اللي مستغرب يتطلع يشوف لما كنا "مصريين-مصريين" كنا فين و الدنيا دي كلها كانت فين؟

لاحظنا سوا، إن اللغات بتكون تركيبية، زي السنسيكريتي، و بمرور الوقت بتتحول تبقا تحليلية خلال مراحل بنسميها ساعات لهجات و ساعات تانية لغات-بنات إلخ. و ع شان كدا درجة التحليلية اللي بتكتسبها اللغة دي و لاَّ اللغة ديكهات، ماهي ش واحدة. ففيه لغات تركيبية عن لغات و لغات تانية تحليلية عن لغات. يعني كل ما يزيد عدد نهايات حالات الإسم(و كذالك الأمر وي الصفة و الفعل و بقيت أجزاء الكلام) كل ما تزيد تركيبيتها، و العكس بالعكس.

و بكدا يكون الرد ع السؤال بتاعنا عن الفرق/ الفروق بين "اللمح" و بين "اللعق" هو: أول هام الأولانية تحليلية و التانية تركيبية، و الأدق الأولانية أكتر تحليلية عن التانية، تاني هام عايز محاضرة تانية.

ملاحيظ:

(1) "اللمح" إختصار "اللغة المصري الحديثة". و "اللعق" لـ "اللغة العربي القديمة" و دول في رأيي إسمين علميين للي "المتعلمين المصريين" بيسموهم "العامية" و "الفصحى" ع التوالي، ورا الخبرا ـ و موش العلما ـ الأجانب. و على أي حال موقف "المتعلمين المصريين"، و قبلهم الخبرا الأجانب بيتعارض وي نص "الإعلان العالمي للحقوق اللغوية" الصادر في لشبونة في سنة 1996، بصورة صريحة ع المساواة الكاملة بين جميع لغات البشر.

(2) "إدريس شاه" الصوفي الكبير كتب يقول: "*بعد الديانة المسيحية جات الديانة المحمدية، و العربي الهزيل، أكال السحالي اكتسح بلاد "كاس جمشيد" المتقدسة. و التقاليد الفارسية الشاعرية اللي فارس القديمة عرفتها بقت في خبر كان.*" و بعبارة "إدريس شاه" نفسه:

"After Christianity, Islam came.And the lank Arab,a lizardeater,overwhelms the land of the grail of Jamshid, and the Persians' idyllic traditions of old gone. "The Sutis"p.?,

(3) أحب أعيد هنا إن الإيرانيين بيترجمو البسملة في الديانة المحمدية كدا: "*بنام خدا باخشوانده مهربان*" من غير إيمانهم ما ينقص شعرة لاستعمالهم إسم الإلاه الإيراني القديم(=الوثني عند أتباع الديانةالإبراهيمية) اللي هو "خدا".

الفصل الثامن عشر

"اللمح": اللغة القومية للمصريين المعاصرين

"جايز اتكلم لغات متعددة، بس فيه لغة واحدة باعيش فيها."

ميرلو بونتي

"فينومولوجيا الإدراك"

1-1 أهمية اللغة البشرية:

للغة البشرية أهمية، ما تُعلاش عليها أهمية تانية، في تمكين الإنسان من رؤية العالم على ما هوَّ عليه و تطويره في اتجاه مرسوم بشكل مُسبق، و بعبارة أدق، رصد معطياتdata وحقايقfaits و أبعاد العالم، dimensions سيان كان خارجي و لاّ داخلي، كخطوة ضرورية لرسم صورة موضوعية، يعني صورة واقعية، زي ما هي في الواقع، و في نفس الوقت غير واقعية بمعنى زي ما ح تبقى عليه في المستقبل، يعني شوفان الساكن و تحته المتحرك في ذات الوقت. و دا تمهيد لوضع تصوُّر عمومي للي ح يكون عليه "الموجود" في الوقت الحاضر. و هنا يكون علينا ي نساعده لو كان ح يخدم استمرارناour survival ي نقاومه، لو كان ح يأدي لانقراضنا.

و لما الجدل كان هو اللي بيحكم المسيرة دي من موضوعة:thesis لنقيض الموضوعة:-anti thesis لتضفيرة:synthesis، فاللغة بتقوم في المسيرة دي بدور "الخازن-المراكم-الناقل" لنواتج رؤى البشر، في نطاق كل جماعة لغوية كمرحلة أولانية، و بتعبير أنثروبولوجي: المنظومة الثقافية القومية، من شخص لشخص، عن طريق نسق فونولوجي:phonologique، يعني ع المستوى الأفقي، و من جيل لجيل، عن طريق الكتابة بشكل رئيسي، يعني ع المستوى الرأسي. و في الإطار دا البروفيسور "ألان جاردنر"، صاحب "النحو المصري"Egyptian Grammar، اللي علما-ت-المصريات بيعتبروه "عمدة اللغة المصرية القديمة"، في مرحلتها الهيروغليفي، و بعبارة تانية المرحلة اللي العلما دول رسيو، من بدري على تسميتها "المصرية الكلاسيكية"، المعروفة عندهم بـ "المصرية المتوسطة"The Middle Egyptian بيقول:

"الاكتشافين اللي الإنسان اتوصَّل لهم، بشكل متتابع، الواحد ورا أخوه، و لو ان المسافة اللي فصلت الأولاني عن التاني، مسافة كبيرة هم:

أول اكتشاف هو فن الحديت(=الكلام) و تاني اكتشاف هو فن التدوين(=الكتابة). والاكتشافين دول بيشكلو المرحلتين الرئيسيين اللي الإنسان مر بيهم في طريقه الطويل باتجاه الحضارة. فاستخدام الإنسان للأصوات المنطوقة بشكل مفهوم خلاَّه يتبادل أفكاره و رغباته و استفساراته، وي زملاته م البشر. أما التدوين اللي قام على نفس الأساس، فاستبدل الرموز الصوتية برموز مرئية، و بالتالي وسَّع نطاق الاتصالات بتاع الإنسان على مستوى الزمن والمكان، الاتنين سوا"[1]

2-1 خاصية من خواص النوع البشري:

الدراسات اللي اللغويين الأمريكان، بالذات، عملوها في النص الأولاني م القرن العشرين، بتثبت إن "اللغة المنطوقة"، خاصية بتخص الإنسان دون ن عن كل الأنواع التانية اللي عايشة معانا على ضهر الكورة الأرضية.

و الطريف إن "آل كيلوج"(=أبوكيلوج):Les Kellog، و دول لغويين معروفين، فشلو، هم الاتنين، في سنة 1939في "تعليم" القردة-الشامبانزي اللي سموها "فيكي":Vicki، اللغة الانجليزي، مع إنهم كانو مربينها وي أطفالهم، اللي قدرو "يلقطو" بطبيعة الحال لغتهم الأم. و في وقت لاحق "آل جاردنر"، ظنو إن عجز "فيكي" عن لقطان اللغة البشرية، راجع لعدم قدرتها ع التحكم في مخارج الألفاظ و بالتالي إنتاج الكلمات. و ع شان كدا اتجهو لتعليم القردة "فاشوك" لغة الصنج-الخرس(=الصم-البكم). و دي المحاولة اللي فشلت هي روخرى.

و الحقيقة إن كل المحاولات اللي جرت في السبيل دا، وضَّحت عدم قدرة القرود، مهما كانو قريِّبين مننا(خريطة الجنوم بتأكد اشتراكهم معانا إحنا البشر، في 99٪ م الجينات) على استعمال النسق اللغوي بشكل خلاَّق: تخليق تعبيرات جديدة ما طرقت ش ودانهم قبل كدا، و داع العكس من قدرة أي طفل بشري.

معنى القول إن "الاكتساب اللغوي بيفترض وجود جهاز تشريحي و عصبي-فسيولوجي: un equipment anatomatique et neurophysiologique، و مع عمل الجهاز دا، عند الشخص البالغ، نص الكورة، و بتعبير أقل دقة، بدرجة بسيطة، لاكن أكتر فاعلية،

الفص الشمال م المخ، بيحدد، بصورة غلابة، العملية اللغوية لشبه مجملquasi-totalité اليميناويينdroitierss و غالبية العسراويين، الأمر اللي بينفي و جود علاقة ظاهرة بين التجنيب اليدويlatéralisation manuelle و التجنيب اللي يخص القدرة اللغوية".[2]

2- 1 ضرورة اللغة الأم:

لـ"اللغة الأم" ضرورة مزدوجة للفرد و المجتمع في نفس الوقت. فبالنسبة للفرد، "اللغة الأم" هي اللي بتتكفِّل بنقل الطفل من "كائن طبيعي"، و بلاش نقول "حيوان" لـ"كائن ثقافي" والأحسن "إنسان"، يقدر يستوعب اللي راكمته جماعته البشرية طول عهودها و ارتحالاتها واحتكاكاتها. و دا الأساس اللي يقدر يضيف عليه إبداعاته. و كلنا عارفين إن البشرية ما عرفت ش عباقرة صُنج كتير، لاكن نظير كدا عرفت آلاف العباقرة العمي. يعني "الودن" أهم بكتير في عملية تكوين/ تخليق الإنسان، و المسار العصبي-السمعي أعقد بمراحل من نظيره البصري. والبروفيسور "ماريا مونتسيري" بتقول:

"إذا الطفل فقد القدرة دي (آلية اكتساب لغة أم) و ما اتمكن ش يسيطر على لغته القوميةLangue Nationale(و دا مصطلح يوازي بالتقريب مصطلحنا المرغوب: لغة الأم. ب.أ.) بصورة تلقائية فمعنى كدا إن الطفل دا موش ح يقدر يقوم بأي عمل فعَّال في عالم البشر. والأكتر من كدا، ما كناش ح نلاقي عندنا حضارة من أي نوع." [3]

أما بالنسبة للمجتمع و الأدق الجماعة البشرية، فاللغة بتعتبر قوة تماسك a cohesive force[4] و كل اللي يرتبط بالتماسك دا م التضحية في سبيل رموز الجماعة البشرية دي (حتة قماش مرفوعة على صاري نموذج) للايمان بالذات الفردية و الجماعية (المروءة و الشهامة نموذجين) للتفاني في الفعل و التحقق و الانجاز، بالنسبة للدول/ القومية و الجماعات القومية داخل الدول دي.

و جايز ع شان كدا، يعني في ضي الدور المزدوج دا للغة القومية/ اللغة الأم، بالنسبة للفرد والمجتمع، نلاقيها عرضة للإستهداف: الهجوم و القمع، و رميها، في حالة اللغة القومية للمصريين المعاصرين، "بصفات تحط من شأنها، بين اللي بيتكلموها، كلغة أم، ذات نفسهم" زي البروفيسور "نيلوفر حائري" أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة "جون هوبكنز" بالولايات المتحدة ما لاحظت في كتابها الروعة "لغة متقدسة و أهالي". و المقصود باللغة الأم/ اللغة القومية، بطبيعة الحال، هو

"اللغة المصري الحديثة" (=اللمح)، حسب تعبيري الخاص، و لو ان سيادتها سمتها: "اللغة العربية المصرية"[5].

و دا الوقت إيه المقصود بمصطلح "اللغة الأم"؟

أهمية السؤال دا كامنة، بصفة رئيسي، في مستوى الثقافة السايدة في مصر. الثقافة دي اللي بتفطّمنا إن "اللغة الأم"Muttersprache بالنسبة للمصريين المعاصرين هي "الفصحى". وبطبيعة الحال، العالم المتمدن و العالم اللي بيعافر لاجل يتمدن يعرفو أكتر من ستة آلاف و700 لغة مختلفة، حسب إحصاء "معهد سمرSummer للغات"، [6] من بينها الانجليزي والصيني و الهندي و الأمازيغي و الكردي إلخ، لاكن ما يعرف ش لغة اسمها "الفصحى". و واضح إن المقصود، بطبيعة الحال، بعد مروه خلال منشور "المبالغات البدوية" المشهورة عن الأعراب، هو اللغة العربية، لغة القرءان و الحديث النبوي و الشعر "الجاهلي" و الأموي و العباسي إلخ، دا من يمة، من يمة تانية مافي ش لغة نقدر نوصفها بإنها فصيحة - و سيبنا دا الوقت من مبالغة أفعل التفضيل - ليه؟

ع شان اللي نقدر نوصفه بالفصاحة هو الإنسان الناطق باللغة دي و لأ اللغة ديكهات، زي "سحبان وائل" اللي مشي في المثل العربي اللي بيقول "أفصح من سحبان وائل". و أظن ما في ش حد عاقل يقدر يقول إن أي شاويش في الجيش الملكي البريطاني يملك فصاحة "وليم شكسبير" لمجرد إنهم بيتكلمو و يكتبو بنفس اللغة الانجليزي!

و المعنى المقصود، في تصوري من تأكيد الخبرا الأمريكان، و وراهم "أكاديميينا" على إن"اللغة العربي"، اللي بيسمُّوها و يوصفوها بالفصيحة، و في الغالب الأعم "الفُصحى"، هي "اللغة الأم/ اللغة القومية" للمصريين المعاصرين هو: اللغة اللي "مفروض" تكون لغة أم/ لغة قومية بالنسبة لهم. بس "المفروض" حاجة و "الموجود" في الواقع حاجة تانية. وحجيتنا هنا وصفية، يعني علمية و موضوعية:descriptive ما هي ش لا إرشادي و لا وعظي:prescriptive، يعني ما لهاش لا دعوة و لا مدعوة بـ "المفروض".

2-2 الاكتساب:

شاورت أكتر من مرة في دراساتي المنشورة و غير المنشورة، على حدين سوا، على إن الفرق الجوهري بين اللغةالأم/ اللغة القومية و بين اللغة الأجنبية كامن في ***"إكتساب"*** اللغة الأولانية

و"***تعلُّم***" اللغة الأخرانية. و حقيقة الأمر إن البحوث و الدراسات الحديثة حولين القدرات الإدراكية المبكرة للمولود، رسيت بنا من بداية البداية على إن "الكائن البشريL'être humain متزوِّد من لحظة الميلاد بنسق متخصص للتعامل وي الأصوات البشرية(=الكلام)... و الأطفال الرُّضع بيكشفو عن حساسية مبكرة للغاية للاختلافات بين المدخول اللغوي و المدخول غير اللغوي(في ودانهم). زيد على كدا إنهم بيكشفو عن حساسية، من مزغرهم لخصايص متعينة للغتهم الأم." [7] و جايز النسق دا هو اللي خلى البروفيسور "مونتسيري" تقول ـ وي علما كتير تانيين ـ بوجود "إستعدادات فطرية عند المولود للتعامل وي الرموز اللغوية، و إلاَّ الطفل الرضيع اللي اهله ساكنين جنب محطة سكة حديد كان طلع، بدل ما يتكلِّم، يصفَّر!". و بالتالي فالاكتساب اللغوي بييجي نتيجة لـ"تفاعل بين مقتضيات معرفية عمومية: contraintes cognitives générales و قدرة حواسية-حركية عموميةsensori-motrice générale و لوازم لغوية وضرورات بيئية." [8]

و قريِّب خالص صادفت باحث فرنساوي جاد، هو "بينيدكت بواسون" اللي بتقول إن البحوث الحديثة بتثبت إننا بنبتدي "نكتسب" لغتنا الأم، واحنا أجنة في بطون أمهاتنا، فالجنين 1-بيقدر يتعرَّف على كل تغيُّر يدخل ع الأصوات اللي بتطرق ودنه. 2-بتصدر عنه استجابات تفضيلية لصوت الأم. [9]

و في الصدد دا "نعوم تشومسكي" بيقول:

"الطفل السوي بيكتسب المعرفة بتاعته(و اللغة البشرية بتعتبر نسق معرفي على درجة ملحوظة م التركيب) نتيجة لتعرُّضه بشكل خفيف، و من غير تمرين خصوصي، للغة أم. وهنا يقدر من غير ما يعمل مجهود بالمعنى، يستخدم بنية مشربكة م القواعد الخاصة و المبادئ الموجهة في سبيل نقل أفكاره و مشاعره للغير، و دا الأمر اللي بيخليه يولِّد جواهم أفكار جديدة و إدراكات و أحكام ذكية." [10]

و بطبيعة الحال القدرة على "استيعاب اللغة القومية/ اللغة الأم بتسبق قدرة الطفل الرضيع على انتاجها بوقت طويل.

أواخر خمسينات القرن الماضي شهدت فتح في دراسة الاستيعاب اللغوي. و الفتح دا جا نتيجة من نتايج ظهور أدوات نظرية و منهجية جديدة. و دا اللي اتضح وي بزوغ فرع جديد في

"السيكولوجية المعرفية" هو علم "السيكولوجيا-اللغوي التطوري" Psycholinguistique developpementale. و دا الفرع اللي "اعتمد في نفس الوقت على التحليلات اللغوية و النتايج اللي علم "البيولوجيا-العصبي" :Neurobiologie اتوصل لها، و نماذج الذكاء الصناعي، و دا الأمر اللي زوِّد الفرع دا بمعطيات سلوكية قعدت تزيد غنى و تنوُّع كل شوي، عن التطور(=النمو) اللغوي عند الأطفال."[11]

2-3 مراحل متجانسة:

المعطيات و النتايج و الكشوفات اللي "السيكولوجيا-اللغوي التطوري" اتوصَّل لها، بتحط إيدينا على تجانس ملحوظ في الزمن و النظام اللي بيمشي بهم ظهور المراحل الرئيسية للاكتساب اللغوي عند الانسان. فكل الأطفال في كل بقع العالم المعروف "بيكتسبو"، في ضل الظروف الطبيعية، أساسيات النسق اللغوي بتاع لغتهم الأم leur Langue maternelle في وقت قُصيَّر بصفة نسبية. و تشكيل النسق اللغوي دا بيبتدي من أواخر السنة الأولانية من عمر الطفل الرضيع، مع إنتاج أول كلمات مفهومة و وظيفية ما بين 4-5 سنين. ففي السن دا الطفل بيقدر، في حقيقة الأمر يتقن أساسيات نسق صوتي و بالتحديد فونولوجيphonologique، و يعرف بدرجة أقرب كتير م الصحة معاني و شروط استعمال آلاف الكلمات و يستخدم بصورة صحيحة، معظم الصيغ الصرفية و النحوية للغته. و دا موش معناه إن مرحلة الاستيعاب بتنتهي عند النقطة دي.

2-4 الطفل و اللغة الأم:

البحوث اللي "مهلر"Mehler، هو و زملاته، عملوها، بتشاور، بصفة ملحوظة، على إن الأطفال الرُّضع يقدرو يفرَّقو بشكل مُرهف بين المنبهات اللغوية المختلفة، الواحد عن التاني: يستجيبو بشكل مختلف لأصوات لغتين زي الفرنساوي و الروسي من ناحية، ويكشفو عن تفضيل أصوات لغتهم الأم من ناحية تانية."[12]

و خلُّونا نسمع اللي د. "ليلى أحمد" ذكرته في المجال دا:

"ما اتوفرت ش في مصر كلها مدرسة واحدة كنت أقدر أروحها ع شان اتعلم بين جدرانها القراية و الكتابة بلغتي القومية يعني اللغة الأم: Mother Tongue بالنسبة لي، يعني اللغة اللي باتكلمها في البيت، و كل الناس بيتكلموها في "الكاهي-را" (=القاهرة)، أقصد اللغة اللي باتكلمها بطلاقة ما يُعلاش عليها، و نلاقيها غنية بعدد ضخم م المفردات المشحونة بإيقاعات موسيقية

*وطبقات صوتية للساها قادرة تلمس مني شغاف القلب، بصورها و ألغازها و فوازيرها و مقاطع غناويها، اللي لعبنا على ايقاعاتها ألعاب طفولتنا. ومافي ش أي سبب تاني يسوّغ الامتناع عن تحويل اللغة "العربية-المصرية" للغة كتابة، خلاف **الأسباب السياسية**.* (التأكيد من عندي.ب.أ.) *والوضع دا يتوازى بالتقريب وي وضع الطلاينة و لاّ الفرنساويين لو لقو نفسهم عاجزين عن الكلام بأي لغة تانية سوى الطلياني ي الفرنساوي، ع التوالي، و مع كدا يبصو يلاقو نفسهم مجبورين يكتبو باللغة اللاتيني، و بس ما في ش غيرها."*[13]

2-5 المران بالنسَيان:

التيارات الحالية في البحوث حولين الإدراك اتحولت يم اكتشاف، العلما بيسموه ـ ساعات ـ "المران بالنسَيان" L'apprentissage par oubli ففي واقع الأمر كل الأطفال قادرين بصورة كمونية على لقطان كل التباينات الفونوتيكية المستعملة في اللغات البشرية المنطوقة حولين منهم. فالطفل الياباني يقدر يلقط، على سبيل المثال، التباين بين "الرا" و "اللام"، و دا اللي بيشكل صعوبة كبيرة للبالغين اليابانيين. ليه؟

ع شان التباين دا ما بيأثرش على معاني الكلمات في اللغة الياباني، يعني بعبارة تانية، ما بيشكل ش جزء م النسق الفونولوجيphonological للغتهم. و نفس الأمر بيحصل عند الطفل الرضيع الأسباني، اللي يقدر يميِّز بين الحرفين "س" و "ز"، يعني بين حرف الصفير المهموس و نظيره المجهور. مع إن الفرق و الأدق التباين بينهم بيسقط من لسانه لما يكبر، يعني لما ينضم، ككيان ثقافي جديد للجماعة الأسبانية. و عندنا نلاحظ إن الطفل الرضيع بيقدر ينطق حرف "p" في الشهور الأولانية من عمره، لاكن الحرف الشفوي المهموس دا يشكل له صعوبة كبيرة، و بعبارة اصطلاحية "منطقة وعرة" لما يكبر. و كذالك الأمر وي حرف "الثاء"، اللي بيقدر ينطقه بسهولة ملحوظة، و زيد على كدا، يميل لتحويل كل "س" يصادفها لـ "ثا". و دا بيتضح على سبيل المثال في رد الطفل على التحية دي: "إزيك". فيكون رده بالترجيح: "اللاه يثلمك".

لاكن بمجرد استيعابه للنسق الفونولوجي بتاع لغته الأم، تلقاه يكشف عن عجز واضح ومشروع عن نطق الحرف دا، و يجبر مدرس العربي يزعق فيه:

ـ طلّع لسانك في "الساء"، و يكون بيقـصد الـ "الثا"، الـلي مـا بيـشكل ش جـزء م النـسق الفونيمي للغة المصريين المعاصرين، زيـه، بـالظبط، زي "الـلام" عنـد اليابـانيين و "الـسين" عنـد الأسبان.

و بالطريقة دي الأطفال يفقدو قدرتهم اللي كانو بيحوزوها في رضوعتهم(لو سمحتولي أغلط و انحت الكلمة دي على وزن طفولتهم)، و بعبارة أدق الأطفال بيتحركو يم اختيار التباينـات الـلي بترتبط بلغتهم الأم، و بس، و بالتالي ينتقلو م "المرونة" الفطرية، خلال النسَيان، لاكتـساب بنيـات أشد جمود لاكن أكتر فاعلية.

3-1 بين اللغة القومية و اللغة الأم:

مافي ش فرق كبير بين المصطلحين، بس السياق هو اللي بيميل بالواحـد يـم المـصطلح دا و لاّ المصطلح دوكهات. فالمصطلح الأولاني مقبول أكتر ع المـستوى الـسياسي-الاجتماعـي، والتـاني ع المستوى العلمي اللغوي. فالفرنساوي لغة أم و في نفس الوقـت لغـة قوميـة بالنـسبة للفرنـساويين وكذالك الأمر بالنسبة للروسـية بالنـسبة للـروس و الـصينية بالنـسبة للـصينيين...إلـخ. و لـو أن المصطلح التاني: اللغة القومية أقدم(من ايام الثورة الفرنساوي المجيدة، بالنسبة للغـة الفرنـساوي) لاكن ما دخل ش نطاق الحقايق المستقرة، اللي بتشاورع الامتداد الجغرافي الاجتماعـي للغـة دي إلاّ وي بدايات القرن العشرين.[14]

و دي علي أي حال، اللي الطفل "بيكتسبها"، زي ما اتضح لنا، قبل ما ينتظم في مدرسة. يعني الأطفال في بلاد الدنيا الواسعة بيرُوحو المدرسة، و هو "مـلاَّك" لجـوهرة أد إيـه نفيـسة، الـلي هـي لغتهم القومية/ لغتهم الأم. و يتعيِّن ع المدرسة، لو كانت تستحق الاسم دا، "تأكد عند الطفل "اللي اكتسبه" و "إتملِّك زمامه" يعني اللي يعرفه قبل ما تعلمه اللي ما يعـرف هـوش."، زي البروفيـسور "مورين مورفي" ما قالت مرة. لاكن المدرسة في بلادنا ـ وكافة دور التعليم عندنا ـ بتحـوِّل التلميـذ من "مالك" للغة أم(=لغة قومية) لـ "سادن" (=خدام) للغة أجنبية.

و الحقيقة "اللغويين بيتفقو، بصفة عمومي، عـلى إن المحـاولات الأولانيـة لــ "فهـم معـاني الكلماتcomprehension de mots، بتحصل في سن يتراوح ما بين تمانية و عـشر ـ ت ـ اشـهر، وفي نفـس الوقــت الأطفــال بيبتــدو يــستجيبو لأوامــر و نــواهي متعينــة. في حــين إن إنتــاج الكلماتproduction de mots بييجي في وقت لاحـق. و بعـد كـدا الكلـمات التقليديـة تبتـدي

تظهر، بصفة عمومي، في سن يتراوح ما بين 11 و 13 شهر. أما "تفجُّر الكلمات" explosion du vocabulaire، حسب تعبير اللغويين السيكلوجيين فبيحصل في سن يتراوح 18 و 20 شهر" [15]، و هنا نلاحظ ملاحظتين: التعميم الزايد La sur-généralisation ، لما الطفل يسمِّي كل حيوان بيمشي على اربعة "كلب"، و التخصيص-الزايدLa sous-généralisation، لما يقصر كلمة "شبشب"ع الشبشب اللي أمه بتلبسه.

و في الفترة دي نقدر نلاحظ إن الأطفال بيقدرو ينتجو لغة خصوصي اللغويين السيكلوجيين بيسموها "اللغة التلغرافية:Langue télegraphique، و دي بتتميِّز بالخلو من الكلمات الوظيفية(أدوات الجر و العطف و الأفعال المساعدة و الضماير المفصولة إلخ). في البداية الجملة/ المنطوق بتتكون من كلمة واحدة، مثال: "مم"(و تعني "أنا جعان"/ عايز آكل) و في سن عشرين شهر، الطفل الرضيع، و دي سمة شبه-كوكبيةquasi-universelle، بيبتدو يعبَّرو عن رغباتهم باستعمال كلمتين اتنين، مثال: " encore gâteau و pas pain عند الفرنساويين وعندنا: "تلب باب"، و معناها بالتقريب، "فيه كلب واقف ع الباب". أما بداية بسط قواعد النحو الحديث:grammaticalisation فبتيجي في وقت لاحق.

و اللغويين السيكلوجيين لاحظو إن الطفل بيستعمل في الفترة دي "القياس" على نطاق واسع. فالطفل الفرنساوي يقدر يغلط و يقول:Ils sontaient، بدل الصح عند الكبار: Ils etaient، و يقدر يغلط و يقول: J'ai prendu و دا قياس على.,J'ai repondu etc. J'ai rendu,J'ai vendu,J'ai défendu بدل الصح عند البالغين:J'ai pris . والطفل الانجليزي يقدر يغلط و يقول:I goed، قياس على I divided و كل الأفعال اللينةweak verbs ، الأكتر شيوع في اللغة الإنجليزي، بدل الصح:I went و يقدر يقول:gooses بدل:geese، قياس ع الصيغة الأكتر تردد ع اللسان الإنجليزي. و عندنا الطفل يقدر يغلط و يجمع "ولد" على "ولاديد"، قياس على صيغة "مفاعيل"، زي "مناديل" و "مواويل" و "دلاديل" إلخ، و دي صيغة أكتر تردد بينا من صيغة الجمع التانية: "أفعال"، زي "أولاد".

من كل اللي فات، يا هل ترى نقدر نوصل للنتيجة دي، اللي الحر الفقير شايفها حتمية؟:

"اللغة اللي الخبرا الأمريكان، و وراهم "الأكاديميين المصريين" ـ و القوسين هنا بهدف التحفظ ـ بيسمُّوها "عامية"، هي اللغة القومية/ اللغة الأم للمصريين المعاصرين. و بالتالي يكون

دول و دوكهام، رسَّخو و سيِّدو خرافة م الخراريف اللي مالية حياتنا و واقعنا الحي لحد الزرار، ومترعماهم فوق م الزرار."

طيب لو اتفقنا بشكل موقَّت ع الأقل إن الاسم دا: "العامية" غير صحيح، فيا هل ترى إيه الإسم الأصح لها؟

2-3 في أسامي اللغة القومية/اللغة الأم

للإسم أهمية كبيرة، فالاسم هو اللي بيورينا الأشياء، و لولا الاسم ما كناش شفنا اللي موجود تحت عينينا. فالفقر اللي بعض اللغات بتعاني منه، في أسامي الألوان، زي "اللعق"، على سبيل المثال، ما بيعني ش لا اكتر و لا أقل، من كون اصحابها ما هم ش شايفين ألوان متحددة، و جايز الشبكية بتاعتهم بتقدر تلقط ذبذباتها، لاكن يتنهم عاجزين عن شوفانها، لحد ما يوصلو، بعون حد و لاَّ محدود، لاسم/ أسامي، مثال: "موف"mauve، "طوبي"، "عسلي"، "بصلي"، "سُكري"، "هافاني"، و دي أسامي الألوان اللي "اللمح"، خلَّقتها من قريِّب.

و بطبيعة الحال، البنية الثقافية بتحدد مفهوم/ صورة اللي بنشوفه. فأمة تقدر تشوف "كيان إنساني" بس ما تقدر ش تسميه غير "حُرمة"، و أمة تانية مجاورة تقدر تسميه "ست". و أظن الفرق واضح بين الاسمين بدرجة كافية، تعفيني من تضييع أي وقت في الوقوف عنده.

حقيقة الأمر، اللغة المنطوقة في مصر، اللي المصريين المعاصرين بيستعملوها في أداء كافة طقوس حياتهم اليومية، سيان في أماكن العمل، من غيطان و ورش و اسواق و دور تعليم إلخ، حظْيت بعدد م الأسامي جايز يعزع الحصر. من بين الأسامي دي، الذاكرة تقدر تستعيد الجاي:

"المصرية الدارجة"Colloquial Egyptian {"شارل عيسوي"1954}[16] "العربية المصرية المنطوقة"Spoken Egyptian Arabic {"هيلاري وايز"1975} [17]، "العربية الدراجة"{"طاهر عبد الحكيم"1986}[18] "العربية المصرية"{"ويلسون بشاي" 1959}[19] "اللهجة المصرية/ العامية المصرية"{د.نفوسة زكريا 1980}[20] "العربية" {قاموس أكاديمية "ريال" الأسبانية 1992} [21] {"العربية الحديثة"دونالد ريدفورد 1995}[22] {"عربية مصر المنطوقة"”Spoken Arabic of Egypt {د."إبراهيم أنيس" 1941}[23] {"العربية المصرية الدارجة"Egyptian Colloquial Arabic{"مرقص حنا" 1967}[24]، {"العربية المنطوقة"”Spoken Arabic"كريستين برستاد" 2000}[25]، {"العامية المصرية"/ "اللهجة

العربية العامية" د.أحمد عيسى 1939}، [26] {"العربية المصرية" "ريتشارد هاريـل" 1957} [27]، "العربية الدارجة/ العربية المـصرية د."توفيـق بـرج" 1992} [28] {"لهجـة القـاهرة العربيـة" La dialecte arabe du Caire "فرنر فيسيكل" 1990} [29].

و دا الوقت، نقدر ندخّل تقسيم أولي ع الأسامي دي، بالطريقة دي:

(أ) أسامي "الأكاديميين المصريين" ـ و القوسين للتحفظ ـ سمّوها للغة القومية للمصريين.

(ب) أسامي "الأكاديميين الأجانب" سمُّوها لنفس اللغة دي.

تاني تقسيم نقدر ندخله ع الأسامي دي هو:

(أ) أسامي بتميل لاعتبار لغة المصريين المعاصرين "لهجة".

(ب) أسامي تانية بتميل للنظر لها بصفتها "عامية".

بس على أد الأسامي دي ما بتختلف، كل إسم عن أخوه، على أد ما بتتفق على وجود "إتـصال" بين اللغة دي، سيان سموها "لهجة" و لاَّ "عامية" و بين اللغة العربية الكلاسيكية(القديمـة). و دا سليم، ففيه "إتصال"، موش ما في ش، و الأدق فيه درجة م "الإتصال" بين اللغتين. بـس الدرجـة دي، زادت في إطار الثقافة السايدة في مصر لحد ما طسمت، عن طريـق التجاهـل، "إتـصال" تـاني أهم و أغمق و اكتر منطقية، اللي هو "الإتصال" بين اللغة الحية دي ـ أيـان كـان اسـمها ـ والطبقـة التحتية:Linguistic Substratum، اللي كانت موجودة ع اللسان، يعني متعاشـة في مـصر، قبـل "اللعق" ما تدخلها وي الغزاي/ المستعمرين/ المستوطنين العرب في أواسط القرن الـسابع م.ع.م.، و هي المرحلة التالتة من تطور لسان المصريين: اللغة القبطي.

على إن "التجاهل" دا، ما هوش عن سهو و لا جهل، و دا في تصوري الخصوصي، اللي بيفرق {الأكاديميين الأجانب} عن "الأكاديميين المصريين"، ودا بافتراض حسن النوايا، بطبيعـة الحـال، عند ولاد بلدي.

في حوار بيني و بين باحث لغوي هولندي شاب، مش فاكر اسمه دا الوقـت، سـنة 2002في "جمعية الكاهرا للغـويين"، و دي جمعيـة بتـضم صـفوة "الأكـاديميين المـصريين" المتخصـصين في اللغويات، في جامعات مصر م جامعة الكاهرا لحد "الجامعـة الأمريكيـة" ـ والقوسـين للـتحفظ ـ سألت بكل أدب:

ـ ما انت ش شايف فيه صلة بين "العامية"(=اللمح) و بين اللغة القبطي؟

بصيت لقيته اتنرفز جامد و قال بحسم:

ـ ما في ش أي صلة من أي نوع بين لغة ميتة زي القبطي و بين لغة حية زي "العامية"؟

و بطبيعة الحال ردي ما اتأخرش كتير على سيادته:

ـ غريب من باحث شاب، حتى لو كان هولندي، لما يجزم بالشكل دا في أي قضية تنطرح، لأول مرة قدامه!

و مديت إيدي على دورية ألماني كانت موجودة معاي بالصدفة، اسمها *Der Islam*[30]، وسألت:

ـ عدِّيت ع الفصل دا في العدد دا م الدورية دي؟

و فتحت الدورية ع الفصل اللي كتبه البروفيسور "فيرنر دييم" بعنوان: " Studien Zur Frage des Substats im Arabischen، و في الفقرة نمرة 37 البروفيسور "دييم" وقف قدام "الطبقة القبطية في لهجات مصر".

و كان اللي حصل: سيادته نزل عليه سهم "أمون"، لا نطق و لا شهق. و ح ارجع للموضوع دا في وقت لاحق.

1-4 هل لغتنا القومية(=اللمح) ي لهجة ي عامية للغة العربي(=اللعق)؟:

"اللمح" هل هي "لهجة"، زي الخبرا البريطان، ما قالو في النص الأولاني م القرن العشرين، و لأَّ "عامية"، زي الخبرا الأمريكان ما قالو، في النص التاني منه، و للساع لحد دا الوقت بيقولو في بحوثهم، اللي أقدر أقول إن الحر الفقير متابعها لحد يعني شبه معقول؟

في البداية أحب أعيد للأذهان إن حدود "اللهجة" بتتداخل، في أوقات ما هي ش قليِّلة، وي حدود "العامية". و ع الأقل دا اللي البروفيسور "سيميون بوتر" بيشاور عليه بوضوح بالطريقة دي:

"العامية و اللهجة بيتلاقو و يختلطو وي بعض في "كوكنيّ" العاصمة "لندن""[31]

تمام زي الاستعمار البريطاني ما اتداخل وي الإستعمار الأمريكاني، الأشد شراسة لمصر، فالأولاني هو اللي بدا تعريب مصر، و التاني هو اللي كمِّل عليه، و إذا رفعنا مصطلح "تعريب" واستبدلناه بمصطلح أدق: "تسييم" مصر، ح نلاقي نفسنا رسينا على إن الهدف بتاع الإستعمارين القديم و الجديد كان واحد.

4-2 بنيتين دلاليين مختلفين:

"اللهجة"، و كذالك "العامية" بيشيلو اختلافات كمية عن اللغة الأم. الاختلافات الكمية دي بتدور في نطاق الدلالات، و ساعات، ماهي ش قليّلة في نطاق استعارة المفردات و التعبيرات، زي اللي كان سايد بينا في وقت م الأوقات: "ألسطا"، "ألاجا"، "إستبينا" إلخ. واللفظيات:Phonetics، زي اللي بنقابله في الإنجليزي: .I won't,I shan't,I can't etc

لاكن لما الأمر عندنا كان داير في نطاق أوسع، و الاختلافات كيفية، ع المستوى النحوي والصرفي و الفونولوجي و الدلالي، يبقا احنا قدام لغتين موش لغة واحدة، بمعنى لغة أم اللي هي "اللعق" و بنتها: "لهجة"، زي الخبرا البريطان، بصورة رئيسية، ما قالو، و لاَّ لغة قومية ، اللي هي برده "اللعق" و مستوى من مستوياتها: "عامية"، زي الخبرا الأمريكان، بصفة أساسي، ما قالو وللساع بيقولو لحد دا الوقت. و ع الأقل دا اللي أستاذنا د. "إبراهيم أنيس" ذكره في رسالته لنولان شهادة الدكتوراة من جامعة "لندن". و دي الرسالة اللي ما ظهرت للنور في مصر يعني ما اترجمت ش عندنا من بؤونة/ يونية 1941، لحد تاريخه، لسبب أظن القراي/ السامع الكريم يقدر يخمنه لنفسه بسهولة كافية. و دا الوقت ننصت لأستاذنا "أنيس":

"دا اللي يمكن يكون عليه الحال فيما يتعلق بالألفاظ. لاكن يتعيَّن علينا النظر للغة دي(="اللغة العربية المنطوقة في مصر"، حسب توصيف سيادته، و "اللمح"، حسب الحر الفقير) ***كـ لغة مستقلة ع المستوى النحوي و الفونولوجي و اللفظيات(الفونوتيكا). و اللغة دي لها بحد ذاتها لهجها المتعددة الأكتر سيادة بينها هي لهجة "الكاهرا***"(التأكيد من عندي.ب.أ.)[32]

الاختلافات الأكتر عمق و الأشد جذرية و الأغوط منطقية إتناولتها في دراساتي وبحوثي، المنشورة و غير المنشورة، على حدين سوا، و لو سمحتو لي ح أقف لحظات قدام الاختلافات الدلالية بين اللغتين. و قبل ما اخوض في الموضوع أحب أشاور بطرف صباعي ع العبارة البليغة بتاع البروفيسور "جون ليونز":

"لكل لغة بنيتها الدلالية."[33]

في البداية أحب أسأل:

ـ يا هل ترى "أبو" في التعبير المعروف في "اللمح": "حسن أبو علي" هي "أبو" في التعبير المعروف في "اللعق"، اللي بيقول: "أبو عمار"؟ و دي كنية الرئيس الفلسطيني الراحل "ياسر عرفات"

نرجع نسأل: مين "أبو" مين في التعبير المصري، و بطريقة تانية أوضح: "مين ابن مين؟"

ح نلاقي الجواب بالفم المليان:

ـ لأ. "حسن" هو اللي "إبن" علي، موش "أبو" علي، زي "المتعلمين المصريين"، ما هم راسين أربع و عشرين قيراط.

من زاوية تانية: "هل عمار "إبن" ياسر؟

الجواب:

ـ أيوا "عمار "إبن" ياسر. و بالتالي نقدر بكل بساطة، نكني "ياسر" بـ "أبو" عمار.

أمال إيه المقصود بـ "أبو" في التعبير المصري؟

بطبيعة الحال تحديد الوظيفة النحوية للكلمات في الجملة/ المنطوق، هو اللي يساعدنا في رسم المقصود و تعيين المعنى: و هنا نبص نلاقي بين "أبو" و "علي" موش علاقة مضاف ومضاف إليه، زي ما هو الحال في الجملة/ المنطوق بتاع التعبير العربي، لاكن علاقة أداة ملكية و الاسم المملوك، بمعنى "بتاع علي". و بطبيعة الحال الكلمة الوظيفية function word "بتاع"، مقبوليتها: son acceptabilité منخفضة، لعدم شيوعها، و جايز و لا حتى ورودها في "اللمح"، من ناحية، ومن ناحية تانية عدم وجودها في "اللعق"، لا هي و لا أي بديل لها. ففي "اللعق" نقدر نكوِّن عبارة من مضاف و مضاف إليه، للدلالة على صيغة ملكية، زي:

"وردة البستان".

لاكن ما نقدرش ننتج جملة/ منطوق نحوية صحيحة و واضحة، بدرجة كافية، من مضاف ومضاف إليه، لو الاسمين(=المضاف و المضاف إليه) كانو من أسامي العلم، زي "حسنُ علي".

لاكن التعبير الموازي في الألماني، و كل اللغات اللي خطت خطاوي واسعة في اتجاه التحليلية، بالاعتماد على أدوات ملكية مفصولة، مقبوليته عالية، مثال:

Friedrisch von Hügel

(الفيلسوف الحداثي و اللاهوتي الألماني المعروف)

و العلاقة النحوية دي، بتاع "اللمح" بتتضح أكتر لما نقابل تعبيرات من نوع:
"أبو شقرة"، "أبو فروة"، "أبو لاسة حرير" إلخ.

و بطبيعة الحال، دراستي للغة المصري القديمة في مرحلتينها الهيروغليفي و القبطي ساهمت في تمكيني من رؤية العلاقة النحوية، و خصوصي في المرحلة القبطي، فعندنا في المرحلة دي نقابل أداة الإضافة: ⲚⲦⲈ، اللي بتوازي في الفرنساوي: de و في الألماني:von و في الإنجليزي:of. ومعروف إن الأداة دي ما لهاش نظير في "اللعق"، و بتستبدلها، بعلاقة "المضاف و المضاف إليه". "كتابُ محمد". و معروف مرة تانية، إن حركة "اللعق" يم "التحليلية" خلّقت أداة مفصولة، اللي هي: "حق" في اللهجة الحجازية، مثال: الكتاب حقي(=كتابي).

بس الطريف إن "اللمق"، في مرحلتها القبطي بتعرف ضمير ملكية: ⲠⲞⲨ (=بو بتلات نقط تحت "البا") و معناه يوازي "بتاع" {في حالة جمع الشخص التالت(=الغايب في نحو "اللعق"}

أرجع و اسأل:

هل كلمة "دغدغ" في "اللمح" هي هي "دغدغ" في "اللعق"؟

الجواب الصريح: لا.

إكمن "دغدغ" عندنا جاية من مصدر تاني غير "دغدغ" عندهم، بالتالي المعني هنا غير المعنى هناك. إزاي؟

"دغدغ" في "اللمح" بتندرج في تصنيف صرفي مهم للغاية، وزنه هو "فعلل"، و ناتج في الغالب عن تكرار الحرفين بتوع الفعل الثنائي، مثال: لملم، شمشم، مصمص، بصبص إلخ

بس "دغدغ" هنا نتج عن تكرار حرفين "اللمح" قدرت تستخلصهم من "داغ" في التعبير المصري المعروف: "جاب داغه". فلقينا عندنا فعل جديد، يكشف عن معناه على لسان idiom المصريين المعاصرين في العبارة اللي بتقول:

ـ دغدغ دماغه بخرزة الفاس/ بإيد الهون/ بالشومة إلخ

أما كلمة "دغدغ" في اللعق" فمعناها:

"...الدغدغة تجميش في مواضع من البدن كأخمص القدم و الإبط يهيج له الضحك."[34]

يعني كلمة "دغدغ" في "اللعق" توازي في المعنى في "اللمح" عندنا إيه؟

ح ازعل أوي لو ماجاني ش رد صح.

و بطبيعة الحال اختلاف البنية الدلالية بين اللغتين دول: "اللمح" و "اللعق"، اللي الخبر الأنجلو-أمريكان، راسهم و ألف سيف ليفرضو علينا تصورهم بإنهم لغة واحدة، واضح وعريض. و يحتاج قاموس خصوصي مصري-عربي، لاكن اسمحو لي أسوق قدام منكو قايمة قُصيَّرة أوي في ضل ديق الوقت و المطرح:

- بطح في "اللعق" = رمى ع الأرض. في "اللمح"=عوَّر في الدماغ
- سخط " " = كره .... " " = حوّل من حالة لحالة أقل: طويل/ قصيَّر، جميل/ قبيح، حي/ حجر إلخ

* شن " " = "وجه الغارة على قوم من كل جانب، و بطبيعة الحال كلنا عارفين في "اللمح" "الصوت المكروه اللي بيطلع م المنخير.

* شنب في "اللعق" = برد فهو "شانب و شنب" و كلنا عارفين في "اللمح" الشنب اللي ساعات نربيه و ساعات ما نربي هوش.

- ريم في "اللعق" "نوع م الغزلان، و أصل الكلمة "رئم"، لاكن "ريم" في "اللمح" عكارة فيها لزوجة على وش أي سايل زي المية.
- ربرب في "اللعق" = قطيع من بقر الوحش. في "اللمح"= تختخ.

5-1 ضرورة التنوع الثقافي:

في بداية الحديث ذكرت إن العالم يعرف في الوقت الحاضر ست آلاف و 700 لغة، بس اللغويين بيحذرو من احتمالات انقراض تلات-الاف لغة خلال القرن الحالي: الواحد والعشرين، أتمنى بطبيعة الحال، "اللمح" ما تكون ش بينهم. و مع كل كدا، ففيه أسباب تخلي الواحد يحط إيده على قلبه، و دا في ضل اللي الأجانب المُغرضين بيعملوه فينا، بسهولة، ما تقل ش عن سهولة قطع السكينة للزبدة، نتيجة مباشرة لسيادة و الأدق لتسييد "ثقافة سامية" أقل تطوُّر و أقل تحضُّر في مصر من يمة، و ترحيب/ قبول/ لامبالاة "المتعلمين المصريين" بالسيادة دي.

و يكفي ني في المجال دا أشاور على موقف "المتعلمين المصريين" من "المشروع القومي"(أكيد موش القومي المصري) لمحي أمية الأميين، و دا المشروع اللي بيوازي، في التطبيق الحالي، محي "الهوية القومية" للمصريين بصفتهم دي، يعني بصفتهم مصريين، وبعبارة تانية فرض الإبادة الثقافيةCultural genocide على أقدم أمة في التاريخ الإنساني: الأمة المصرية.

فاللغويين بيعرفو إن محي الأمية، اللي الفرنساوي بتسميه، بصورة واضحة، ما فيها ش لا لبس و لا التباس:alphabetisation، و بعبارة فنية أكتر، "حشفرة الكلمة/ الجملة المكتوبة، يعني تمكين "الأمي" من حل الشفرة اللي الكلمة/ الجملة بتنطوي عليها:decode، يعني تحويله من عاجز عن/ لقادر على قراية المكتوب، يعني من illiterate لـ literate. ومعنى القول: لو الهدف من محي الأمية هنا كان برئ و نزيه و وطني، زي الدعاي ما بيعلنو، لكانو علّمو "الأمي" يكتب ويقرا:

ـ أنا إنسان/ أنا مصري/ أنا قناوي/ أنا فلاح إلخ

لاكن لما يبتدو و ينتهو بتعليمه يقرا و يكتب:

ـ أنا عربي!

تبقا المسألة حوّدت بعيد عن هدف محي الأمية، و دخلت دهليز تاني خالص، جايز يبان لـ"المتعلمين المصريين" حاجة، و هو في جوهره حاجة تانية.

و بطبيعة الحال محاولتي في الحفاظ ع "اللمح" بتصب في إطار الدفاع عن حق المصريين المعاصرين في الاستمرار كأمة مستقلة متميزة، يتنفّسو ثقافتهم القومية، و يعتزو بوطنهم ويتصلو بجدورهم في وادي النيل و أفريكا المتوسطية، بدل المحاولة اللي بيرعاها الأجانب المغرضين، في سبيل "إكساب" المصريين المعاصرين ثقافة و لغة و هوية عدوينهم التاريخيين م العرب الساميين سكان أسيا غرب(=غرب أسيا)، اللي هي ثقافة و لغة و هوية أقل تطوُّر.

و محاولتي في السبيل دا، اللي بدت تظهر للناس في سنة 1985، يعني من ربع قرن و يزيد على هيئة دراسة، بعنوان "اللغة المصرية الحديثة"[35] بتصب في ضرورة "التنوع الثقافي" اللي بيعتبر في تصوري الخصوصي "البنية التحتية" اللي بيقوم عليها أي خلق و كل إبداع في أي مجال من مجالات النشاط الانساني.

فخلال كتابتنا باللغة القومية/ اللغة الأم بتاعتنا ح نكون اتحولّنا من سدنة (=خدم وحشم) للغة متقدسة لـ "ملاك" للغة دي، حسب تعبير البروفيسور "حائري".[36]

و في الصدد دا ننصت للمستشرق و الأدق المستعرب السويدي المعروف "إنجفار ريدبيرج" في "إي-ميل" شخصي بعته للحر الفقير يوم 9 طوبة/ يناير 2005:

"لاكن الحق معاك ـ بالتأكيد ـ في إن فرض اللغة العربية المدونة أخّر التطور في ميادين كتير في مصر."[37]

في نفس الصدد نقرا اللي كتبته المؤرخ المصري المعروف د. "ليلى أحمد" بعنوان "الثقافة العربية لمحي الأمية" اللي جاي بعد ترجمته:

"م الغريب بدرجة ملحوظة إن نشر و فرض الثقافة العربية دي في إطار محي الأمية بياخد بصورة متزايدة و منتظمة شكل نوع م الامبريالية الثقافية و اللغوية... و دا بيجري تحت اسم التعليم و الوحدة العربية و توحيد أمة العرب. و لما مسيرة الثقافة العربية دي من محي الأمية كانت ماشية بصورة تابتة و عنيدة، ما تعرف ش لا هوادة و لا رحمة في كافة أجزاء العالم العربي، فالثقافات المحلية بتتعرض، بصفة مستمرة للإستئصال، و بالتالي فقدراتها في الإبداع الثقافي و اللغوي بيبقا محكوم عليها بالصمت غير المكتوب. و احنا منتظر مننا نسقف لكل دا بدل ما نحتج عليه، زي ما كنا ح نعمل لو الأمركان داير حولين أي إمبريالية و لاّ أي سيطرة سياسية تانية غير دي."[38]

2-5 اللغة القومية و الأجانب:

مرّينا على ضرورة اللغة القومية/ اللغة الأم لاصحابها، اللي هم في حالتنا دي "المصريين المعاصرين"، لاكن الضرورة دي بتصادف قصادها أهمية ما تقل ش عن الضرورة دي في درجة حدتها بالنسبة للأجانب بشكل عمومي و المغرضين منهم بشكل خصوصي. و أظن الحر الفقير، موش ح يكشف سر خطير لما يذكر في المقام دا إن فريق علمي وصل مصر، في سنة 1974، من جامعة "كاليفورنيا". و اللي حصل اتصل بي وسيط يعرض عليّ أشتغل، مع الفريق دا، نظير مبلغ خيالي(25 ضعف مرتبي في الوقت دا)، في جمع المفردات و التعبيرات من جميع كفور و نجوع مصر و بطبيعة الحال كافة المدن في طول مصر و عرضها. و اللي حصل و اللي كان سألت الوسيط د. "س. صبحي": اللي الفريق دا ح يجمعه بمعاونة الناطقين الأصليين باللغة القومية/ اللغة الأم ولهجها المختلفة دي ح يتنشر، كمان في مصر، ولا بس في أمريكا؟

الوسيط راح و رجع بالجواب دا:

ـ لأ. موش ح يتنشر، في مصر، ع شان المشروع دا يخص جامعة "كاليفورنيا".

ردي اللي يعرفوني يقدرو يخمّنوه و يومها اتصورت إن جميع "المتعلمين المصريين" ح يرفضو زيي لاكن الريح ياما خانت عشم المراكبي.

اشتغل وي الفريق دا عدد كبير م "المتعلمين المصريين" مكّنه م الخروج من مصر باتنين مليون مفردة و تعبير مختلف من كافة دخانيق مصر، حسب الشاعر "أحمد اسماعيل"، اللي للساع حي يتنفس. و أكيد أكيد الدمعة فرت وقتها من عينين "غفيرة مصر".

3-5 هل لغتنا القومية ممزقة للمنطقة؟

الطرح بتاعي اللي بيقول: "اللمح" هي اللغة القومية/ اللغة الأم، الحقيقية للمصريين المعاصرين، ما بيعني ش بحال م الأحوال، إن الطرح بتاعي إنعزالي زي "المتعلمين المصريين" ما بيروَّجو، بالعكس دا طرح توحيدي. إزاي؟

ع شان {*"اللمح" ماهي ش حكرع المصريين فـ "العامية المصرية" و بالتحديد "الكاهرية" (بالكاف و موش بالقاف) ما عادت ش حكرع المصريين لوحدهم، فهي في الوقت الحاضر اللهجة الأولانية بعد "الفصحى" في كامل الوطن العربي. و طبع ن الفضل في دا راجع لريادة الانتاج الدرامي المصري: مسرح سينما، مسلسلات تليفزيونية، دا غير الانتاج الموسيقي الغنائي.*}

خمنو كدا الكلام بتاع مين؟

على أي حال ما هوش بتاع الحر الفقير، لاكن لشاعر و روائي تونسي من "صفاقس". وكتب الكلام دا في دورية مصرية.[39] و زي ما احنا شايفين الشاعر و الروائي التونسي شاف صح، يعني استخدم المنهج الوصفي، بصورة خلاقة، لاكن لما جا يحلل الأسباب ما كان ش على نفس الدرجة في التشخيص. و دا جايز السر في ترديده لأسباب رايجة في الثقافة السايدة، من غير تدقيق كافي. فالسبب الأغوط في انتشار "اللمح" في المنطقة اللي بريطانيا سمّتها "العالم العربي"، كامن في رقي اللغة دي بالنسبة للغات/ اللهج في المنطقة، و بعبارة تانية "اللمح" رسمت للغات/ اللهج دي الصورة اللي ح يكونو عليها لو غادرو المرحلة اللي عايشينها في الوقت الحاضر. و اسوق في المجال دا مثال م الفونوتيكيا:phonetics : تحويل الصائتين المدموجين:diphthong (aw) لصايت بسيط(o)، مثال:

وقف يا اسمر عندي إلك كلام،

هالبنت ياللي بيتها <u>فوْق</u> الطريق...إلخ

دا الوقت بدينا نسمع في الفضائيات م اللبنانيين نطق كلمة "اليوْم" العربية القديمة، زي المصريين يعني كدا: "اليُوم". فالعرب ي إما يتنهم واقفين مطرح ما هم ي يتحركو لقدام، يعني في النقطة الصوتية دي، ما في ش أي احتمال تاني، سوى إن الصائتين المدموجين دول يتحوِّلو للأسهل: صايت بسيط، يعني للصورة اللي "اللمح" كانت وصلت لها قبل كدا بوقت طويل. وعاير و نابر على كدا في كافة الظواهر اللغوية و الثقافية. و بطبيعة الحال، اللغة البشرية بتتغير بصفة عمومي، حسب قانون ماشي، ع العكس م القوانين اللي بتحكم مسيرة ، كافة المظاهر التانية بتاع الثقافة: من مركب لأقل تركيب يعني للأبسط.

و البروفيسور "حائري" كانت أوضح و أشمل:

{العربية المصرية(=اللمح) بقت "اللغة المشتركة": Lingua Franca في العالم العربي خلال كافة التعاملات الشفوية }(40)

و دا الوقت الأسئلة اللي كانت واقفة ورا الدراسة القصيَّرة دي، بصفة رئيسي هي:

(1) هل "اللمح" لهجة و لاَّ عامية، زي الخبرا البريطان و الأمريكان ع التوالي ما قالو، وبيقولو وراهم ـ مع كل الأسف ـ اللي بيسمو نفسهم أكاديميين بعد رجوعهم من بلاد برا متبرمجين ع العداوة للعلم و القومية المصرية في وقت واحد؟

(2) هل لـ "اللمح" صلة باللغة المصري القديمة؟ و إذا كانت فيه صلة فإيه طبيعتها؟

(3) هل لـ "اللمح" باللهج/ اللغات في المغرب العربي، و الأدق أفريكا بحري) من ليبيا لحد مراكش؟ و برده إيه طبيعتها؟

(4) هل لـ "اللمح" صلة باللهج/ اللغات في المشرق العربي، و الأدق غرب آسيا، وإيه طبيعتها؟

(5) هل للغات/ اللهج عن يميننا و عن شمالنا صلة بالطبقات اللغوية التحتية، و هل وجود صلة بين طرفين العلاقة دي هو اللي يفسَّر لنا وجود تشابه بين "اللمح" و بين لهج/ لغات غرب أسيا و تشابه أكبر وي لهج/ لغات شمال شرق أفريكا؟

دي أسئلة على جانب كبير م الأهمية، في تصوري، لاكن للساع محتاجة بعد الدراسة دي، اللي رسمت يادوب، سهم للإتجاه الأسلم، لجهود و جهود من أبناء مخلصين للعلم من يمة، ولمصر، أعظم حقيقة سطعت في أفريكا المتوسطية في الزمن القديم، من يمة تانية.

إيبولوج

و دا الوقت أحب أسأل يمكن لتاسع مرة: هل القبح اللي موجود في الواقع بتاعنا، اللي ما بقاش يسر لا عدو و لا حبيب، ماهوش موجود في حقيقة الأمر في دماغنا، إحنا "المتعلمين المصريين"، اللي كان م المفروض علينا نحط نفسنا على راس أمتنا (المصرية بطبيعة الحال) في مسيرتها في اتجاه المستقبل بين كل الأمم و كافة الشعوب م الفرنساويين لحد البنغاليين، بالاستناد لكل العناصر الحية في ماضيها القديم؟

و إذا كنا إحنا المصريين بننفرد باحتقار لغتنا القومية/ لغتنا الأم،(٤) في إطار احتقارنا الشامل أكرر إحتقارنا الشامل ـ لثقافتنا القومية و رموزها و مظاهرها(نصب الموالد، زيارة القبور، التبرك بالأسلاف، الاحتفال بالسبوع بتاع المولود و اربعين المتوفي و طلوع التلات خمسان. نماذج) فهل للاحتقار دا صلة/ صلات بالدونية القومية اللي مغوِّلة، و بتغوَّل أكتر و اكتر كل مدى، في علاقة طردية وي نجاح الخبرا الأمريكان و حلفا-ت-هم المحليين في توسيع و تغميق و تجدير فرض الثقافة السامية بوشها الأشد تخلف: العربي في مصر؟ و هل للإحتقار دا و الدونية دي صلة/ صلات بدرجة القبح دي اللي بننفرد احنا المصريين المعاصرين بها بين الأمم المتقدمة والمتخلفة على حدين سوا؟

مراجع و هوامش:

(1) *"Egypt of the Pharaohs"*,Sir Allan Gardiner, Oxford University Press, 1974.p.19.

(2) *"Nouveau Dictionnaire Encyclopédique des Sciences du Langue"*,Oswald Ducrot&Jean-Marie Scheffer,Editions du Seul,1999.

(3) *"العقل المستوعب"*. تأليف: ماريا مونتسيري. دار لوجوس، ص 16

(4)*Britannica*,V 22,p.583.

(5)*"Sacred language,OrdinaryPeople"*,Nilofer haery,Palgrave,Macmillan,2000 "Classical Arabic is considered to be "pure" and this purity extends beyond the language itself and is articulated also in terms of moral virtue.By contrast lacking a historical relation with Islam or more generally with a nonmundane sphere of activity, Egyptian arabic is criticized as too permissive, promiscuous,even in comparison. Nevertheless, it is also the mother tongue of the very people who disparage it.",p.38.

(6) *Le Marché aux Langues*,Louis-Jean Calvet,Plon,2002.p.109.

(7) *Comment la parole vient aux enfants?*edition Odile Jacob,1996..

(8) *Nouveau Dictionnaire*,Ibid.

(9)*Reflections on Language*,Naom Chomsky,Pantheon Books,1975,p.4.

(10)*Nouveau Dictionnaire*,Ibid,p.507.

(11)*Nouveau Dictionnaire*,Ibid,p.511.

(12)*A Border Passage*,Leila Ahmed,Penguin Books,1999, pp.282/3.

(13)*Les Langues et Nations*,Daniel Baggioni,EditionsnPavot,Paris,1997,p.77.

(14)حديث خاص وي الحر الفقير.

(15)Nouveau Dictionnaire,Ibid, p. 513

(16)Egypt at Midcentury, Charles Eissawi,p

(17)Spoken Egyptian Arabic,Hilary Wise,Publications of the Philological Society XXVI, 1975,Basil,Oxford, Blackwell.

(18)*"الشخصية الوطنية المصرية: قراءة جديدة لتاريخ مصر"*. دار الفكر للجراسات و النشر و التوزيع. ص 102.

(19)*The Coptic Influence on Egyptian Arabic*, Willson Basta Bishai, Baltimore 1959(a manusript)

(20)*"تاريخ الدعوة إلى العامية في مصر"*. د. نفوسة زكريا. دار المعارف. 1980طبعة تانية.

(21)*Diccionario de la Lengua Española*, Adobe,del ar.(=Arabe).

(22)"Egypt,Canaan and Israel in Ancient Times,The American University of Cairo Press,1995.p.57.(the modern Arabic-speaking population).

(23)The Grammatical Characteristics of th the Spoken Arabic of Egypt, June 1941,University of London,S.O.A.S.Thesis presented for the degree of Ph.D.

(24)"Egyptian Colloquial Arabic, Morcos Hanna, Mouton,1967.

(25)"Spoken Arabic", Kristen Brustad,Georgetown University Press, Washington,D.C. 2000.

(26)قاموس "المحكم". أحمد عيسى بك.مكتبة مصطفى البابي الحلبي 1939.

(27)"*Egyptian Arabic*", Richard Harrell, Washington.D.C. October 1957.

(28)Ägyptisch-arabisch für ausländer.D. Tawif Borg,Hamburg, 1992.

(29)Dictionnaire Etymologique de la Langue Copte, Werner Vycichl.

(30)Der Islam,Band 56 Heft 1 Begründet von C.H. Becker.1979.

(31)"Our Language",Simion Potter,Pelican Books,p.134.

(32)The Grammatical Characteristics of the Spoken Arabic of Egypt.)A photocopy of a typed script,Ibrahim Anis,p.VIII(An independent language which even has several dialects the most dominating of which is that of Cairo.)

(33)John Lyons,p.55.

(34)قاموس "المنجد" الأب: "لويس معلوف اليسوعي" الطبعة الخامسة. بيروت.

(35)دورية "مصرية" العدد التامن. كياك/ ديسمبر 1985.

(36)Haery,Ibid, p.39.

(37)A personal email from the Swedish Arabist "Ingvar Rydberg.

(38)Ahmed,Ibid,p.282.

(39)دورية "أخبار الأدب" يوم 10أبيب/ أغسطس 2003.

(40)Haery,Ibid,p.139.

البروفيسور "حائري" شافت، بالاستناد لعلما و باحثين تانيين، إن "يرواسيا"Eurorasia (آسيا+أوروبا) ما طلعوش م العصر الوسيط، و بالتالي ما دخلوش العصر الحديث، إلاّ بعد ما اتحررو، هم الجوز، م اللغتين المتقدسين: السنسكريتية و اللاتينية، ع التوالي، و اتحوِّلو، لاستخدام اللغات الشعبية الدارجة، زي الهندية والكشميرية و الكنْدية و التاميلية إلخ في آسيا، و الألمانية و الفرنسية و الانجليزية إلخ في أوروبا. و دا اللي البروفيسور بتسميه على امتداد كتابها و في طياته:Vernacularization، و بطبيعة الحال، رأت، في المقابل، إن عجز منطقتنا عن دخول العصر الحديث، راجع لعدم قدرتها ع التحرر من قداسة اللغة العربية(=الفصحى).

(41) نظير الاحتقار دا نبص نلاقي اللي جاي:

في يوم 21أمشير/ فبراير 1952 البنغاليين نظمو مظاهرة ضخمة في العاصمة "دكا" للمطالبة باعتماد لغتهم الأم/ القومية(=العامية) يعني البنغالية لغة رسمية جنب اللغة الأوردية(=الفصحى) اللي السلطات العسكرية في

"كراتشي" وقتها كانت مُصرة تحتفظ بها لغة رسمية وحيدة للبلاد. و سقط ضحايا بالميات برصاص البوليس في ديك الوقت اليوم في المظاهرة. و الضحايا دول هم اللي بشرو بفجر الاستقلال عن باكستان بعد التاريخ دا بـ 19 سنة. و بطبيعة الحال البنغاليين خلّدو ذكرى ضحاياهم في نصب بيحجو له في نفس اليوم من كل سنة. و دا اليوم اللي الأمم المتحدة خصصته للإحتفال باليوم العالمي للغات.

خلاصـــة

من كل ما أسلفنا نخلص إلى ما يلى:

الأمر فى مصر ليس أمر أمية وتعليم ولا أمر جهل وعلم كما تذهب غناوي "المتعلمين المصريين" وخصوصاً كبارهم أى مثقفوهم وأكاديميوهم ومتخصصوهم الذين لا يملُّون ولا يكلِّون ليل مساء فى المطالبة بمحو هذه الأمية لصالح ذلك التعليم، وهو ما يهبط فيها لو بلغ نهاية الشوط – إلى حد إقتلاع الثقافة المصرية القومية أى فرض الإبادة الثقافية على شعب مصر على نحو ما يسعى إليه الأجانب الغربيون منهم والشرقيون على حد سواء، في إطار استراتيجية مرسومة بعناية لا ينقصها الذكاء و يتفانى في سبيل تنفيذها ـ و يا اللعجب! ـ "المتعلمون المصريون" دون استثناء واحد ـ في حدود علمنا ـ من أي عرق أو ديانة أو مذهب، و سواء أكان يعيش داخل مصر أو خارجها. وإنما الأمر أمر ثقافة قومية زراعية راقية مضطهدة "بفتح الهاء" تعانى من ضغط ثقافة أجنبية رعوية متخلفة مضطهدة "بكسر الهاء". وتتبدى الثقافة الأولى فى لغة تحليلية أى أرقى من الوجهة اللغوية التاريخية واللغوية الوصفية. بينما تتكشف الثانية خلال لغة تركيبية أى أدنى من نفس الوجهة وبنفس المعيار. وتتأسس الثقافة الأولى فى الاتصال والاستمرار بينما تحيا الثقافة الثانية وتزدهر بالانفصال والانقطاع.

وبذلك نكون قد قفزنا قفزة واسعة. ولكن نحو عقل شعبنا المصرى ووجدانه فى وقت واحد، أليس كذلك؟

ولننصت قبيل الختام إلى هذا الموال المصرى الجنوبى مجهول المؤلف:

ياقايد النار عليّ.

وارمى الحطب يا يهودى.

خلى الصبايا تدلّى.

ويبان ضى العقودى.

وأن زغرطولى لأغنى.

وأفرح قليب الحزينة.

أنا عارف اللى دغنى.

بدوى وراكب هجينه.

وليسمح قارئنا الكريم أن نصوغ فى خاتمة الخواتيم دعوتنا فى بيان نظنه بياناً حضارياً ثقافياً على هذا النحو:

نلاحظ أن:

- المصريين استمروا يعتمدون على الزراعة لعدة آلاف من السنين وبالتالى فهم مستقرون أى متحضرون. أما الساميون و خصوصاً العرب منهم، فظلوا يعتمدون على الرعى منذ ظهورهم على مسرح الشرق الأوسط القديم. و بناء عليه فهم بدو رحل أى أقل حضارة.

- المصريين شمسيون أى انتهوا إلى تقديس الشمس وابتدعوا التوقيت الشمسى الذى تبنته عنهم الشعوب المجاورة فى غرب آسيا وجنوب أوروبا. أما العرب الساميون فظلوا عند تقديس القمر -الأب، واعتمدوا التوقيت القمرى واتخذوا الهلال شعاراً لدياناتهم، و قدموا بكاريهم قرابين لإلاه القمر.

- المصرية بناء على ذلك، وبصفة رئيسية مرحلة حضارية ثقافية أرقى من "العروبة" التى تحمل طابع الساميين القدماء فى مرحلتهم القبلية قبل -القومية، تماماً مثلما تصطبغ الصهيونية بصفتها قومية منعكسة بخصائصهم فى مرحلتهم القبلية - بعد القومية.

- مصر أخذت تصبح منذ القرن الأول من عصرنا المعروف(=ق.م.) جسماً بلا رأس، والأولى جسماً يحمل رأساً أجنبية متخلفة هى الرأس السامية، وهو الأمر الذى ازداد إيغالاً وتعمقاً منذ أواسط القرن السابع م. ع. م.(= الميلادي) والثقافة السائدة فى مصر حالياً تحمل طابعاً رئيسياً هو طابع أجنبى وليس طابعاً طبقياً كما يزعم البعض، فضلاً عن أنها تعاند مجرى التاريخ الإنسانى عندما تسعى إلى قسره على العودة إلى الوراء، أى أن يصبح المتحضرون أقل حضارة، وبعبارة أخرى تنتصر الثقافة السائدة فى مصر فى الوقت الحاضر ومثلما فعلت فى الماضى لسنن البداوة على أعراف الحضارة.

ونقدر أن:

-تاريخ مصر المدون الذى يبدأ على الأقرب منذ سنة 3200 ق.م (لوح/ صادود نارمر) يقوم على الاستمرار لا الانقطاع والاتصال دون الانفصال.

- المصريين لن يقيموا مصريتهم إلا إزاء "العروبة" كما حددناها سابقاً، تلك التي تحاول جاهدة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً أن تسلب و تنهب و تدمر وتزوِّر المصرية بصفة هذه المصرية عقلاً متعدداً ووجداناً مرهفاً وروحاً عاشقة للحياة وضميراً حياً يسعده أنُ يعطى وأنُ يبهج وأنُ يضمِّد وأنُ يواسى. ولإقامة المصريين لمصريتهم ضرورة مزدوجة: أن يزدهروا وأن تزدهر الشعوب المتاخمة لهم، عوضاً عن أن يتخلَّفوا مع المتخلِّفين ويسير الجميع فى طريق الإندثار. و يستطيع المراقب النزيه أن يرصد أن فرض اللغة العربية المسماة بـ "الفصحى" في مصر، ضمن فرض مجمل الثقافة العربية-السامية، أدى إلى بث الدونية القومية، في عقل و وجدان المصريين المعاصرين، أي الانتصار للأجانب، إلى حد التعصب للآخر، و هو الأمر الذي يأخذ شكل الانتصار و التعصب ضد الذات، مما أسفر و لسوف يُسفر لمدد طويلة قادمة عن حرمان المصريين من بناء دولة عظمى اقليمية على الأقل، كانوا ليستحقونها بالاحتمال لو تحرَّروا من دونيَّتهم أمام المتخلفين أنفسهم، وأبرز مظاهر تخلفهم تتمثل في حفاظهم على/ و تمسكهم بلغتهم "الفصحى" التي لا تزال تعمل بموجب حالات الإعراب الثلاثة (الرفع و النصب و الجر)التي كنت تعمل بها اللغة الأكادية(السامية) قبل أكثر من أربعة آلاف سنة، في حين أن قواعد التطور أسقطت هذه الحالات الثلاث حتى من ألسنة من يُسمون أنفسهم عرباً اليوم.

- الأوروبيين المحدثين ارتكزوا فى مغادرتهم لظلمات العصر الوسيط وفى استشراف المستقبل الوضاء على ماضيهم أى على الحضارة اليونانية -الرومانية. ونرى فى ضوء ذلك أن نرتكز نحن أيضاً، إذا كان لنا أن نغادر ذلك العصر الوسيط الذى لا نزال غارقين فى قاعه السحيق على ماضينا، أى على الحضارة المصرية -الكوشية، وبكلمة واحدة حضارة وادى النيل، و في قلبها اللغات الهيروغليفية و الديموتيكية و القبطية. ومعنى القول أن ندرس هذه اللغات فى مراحل تعليمنا الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعة ، بما فى ذلك ما يسمى بالمعاهد الأزهرية وتلك الأكليركية على حد سواء. على أن يتم تدريس هذه اللغات القديمة بـ "اللغة المصري الحديثة" - "اللمح" - إلى جانب كافة العلوم والأداب والفنون بطبيعة الحال، مع إفساح صدرنا للتعددية اللغوية التي تثري ثقافتنا، أعني تدريس اللغة النوبية فى جنوب مصر لأبنائها وكذلك اللغة السيوية فى شمال غرب البلاد للسيويين، وذلك على سبيل المثال لا الحصر. ولاستخدام التوقيت المصرى المشهور بالقبطى عوضاً عن التوقيتين الأجنبيين الهجرى والجريجورى أى العربى - السامى والأوروبى، ولوضع أبجدية جديدة نكتب بها "لغتنا المصري الحديثة" .

ونستهدف أن:

- نسهم فى تحرير كافة القوميات والجماعات القومية فى منطقتنا كالمصريين والنوبيين والسيويين والبجاويين والأكراد، بل واليمنيين والحجازيين أنفسهم من وطأة "العروبة" تماماً مثلما نأمل فى تجاوز الإسرائيليين لساميتهم أى نقل الجميع إلى مرحلة والأولى مراحل أرقى. وهذه مقدمة لا غنى عنها لتقدم المنطقة تحت رايات الحق والخير والجمال، فالأرقى أكثر غيرية أى أكثر إنسانية والمتخلِّف أشد ظلماً وقهراً واستبداداً وبعبارة أخرى أبعد عن الإنسانية، ونسترشد فى ذلك بتجارب كافة الشعوب التى نفضت عن كاهلها الثقافات الأجنبية الخانقة لثقافتها القومية كالفلنديين إزاء الثقافة السويدية، وتلك التى أزاحت عن عقلها وعن روحها الثقافة الأجنبية المتخلفة كالأسبان إزاء الثقافة العربية وتلك التى تمسكت بثقافتها القومية كالهنود إزاء المغول، وتلك التى تطور ثقافتها الموروثة كمعظم شعوب الكرة الأرضية.

ختام

صادفت الآراء التي انتهيت إليها في هذا الكتاب بعد إعمالي للمنهج العلمي واستقصائي للمعلومات الموثقة في مصادرها الأولى في لغاتها الأصلية، سواء أكانت قديمة أو حديثة، قدر ما أتاحه لي الدهر، مصيرين رئيسيين اثنين: الصمت أو الانتحالPlagiarism.

و لسوف أبدأ بردي على نموذج للصمت عن إسم الحر الفقير، و هو ردٌ نشرته تحت عنوان "حول القرابة بين الهيروغليفية و "العامية"(نُشرت في العدد التالي مباشرة من المجلة التي سيرد ذكرها في إطار الرد)

قرأت بإمعان المقابلة التي أجرتها مجلتكم الموقرة "أخبار الأدب" في عدده الأخير الصادر يوم 24أغسطس/ مسرى 2003مع الدكتور "محمد بدوي" و خلال المقابلة جاء ما يلي:

(س: في تقديرك هل لحظات الضعف هذه هي التي تجعل كثيرين يُنادون إما بعزلة مصر أو بالعودة إلى الفرعونية و الكتابة بالعامية لأنها إبنة الهيروغليفية؟

ج: ...الثقافات لا تُخذ بقرار من مثقف و لا بقرار حتى من حاكم، فهي تبطِّن حياة الناس وتنظِّمها و تصوغ أحلامهم و رؤاهم و بالتالي الدعوة إلى الفرعونية، و هي شكل من أشكال القول بالمركزية، و ثانياً هي شكل من أشكال العبث حتى في التفكير و أخطاء علمية. هناك إدعاء بأن العامية هي إبنة الهيروغليفية و هذا ليس صحيحاً على الإطلاق، و ليس هناك شئ متعالٍ على التاريخ اسمه مصر الفرعونية القديمة، حتى مصر الفرعونية لها تكوين تاريخي معقد وطويل...ص 6)

{أود أن أبدأ تعليقي هنا بشرطٍ منهجي قد نغفر لهذا المحرر أو ذاك أن يغفل عنه، لسبب أو لآخر، لكنه يتعذر أن نتجاوز عن هذا الإغفال عندما يقع من أستاذٍ جامعي مثل الدكتور "محمد بدوي"، و أقصد بذلك الشرط ضرورة أن يضع النص المنقود بين قوسين و أن ينسبه لصاحبه قبل أن يعرض له سواء بالتأييد أو بالتفنيد. و معنى القول ألاّ يسمح لنفسه بصياغة ما يُريد نقده، حتى لا يقوده وعيه أو لا وعيه إلى صوغه بصورة تيسِّر عليه عمله كناقد له، خصوصاً و أن الشخص الذي قال باتصال "العامية"، ـ كما يدعوها الأكاديميون المصريون، سيراً على نهج أكاديميين والأولى خبراء أنجلو- أمريكيين ـ باللغة المصرية القديمة، ليس مجهولاً، و لن يُضيف ذكر اسمه أو

ذكر كتابه إلى شهرته كثيراً، خاصة و أنه لم يسع إليها يوماً، ربما لعلمه "أن شهرة الباحث في عصره إنما يرفع سؤالاً جوهرياً حول قيمته"، كما قال يوماً "كيركجيرد". و مع ذلك يعرف كثيرون أن أول من قال بذلك الاتصال على هذا النحو: أي علاقة البنوة بين اللغة المنطوقة في مصر في الوقت الحاضر و بين المصرية القديمة، أو الهيروغليفية إذا فضَّل أي "أكاديمي" هذا المُصطلح، هو الحر الفقير، و لا أبالغ إن قلت انه الوحيد الذي قال بذلك بين المصريين و الأجانب على حدٍ سواء. ولقد صاغها في دراسة نشرتها له مجلة "القاهرة" عدد 163 يونيو/ بؤونة 1996 و أعاد نشرها في مطلع السنة الحالية في الطبعة الجديدة لكتابه "حاضر الثقافة في مصر".

و أعود فألخص فرضيتي على هذا النحو:

"اللغة المنطوقة في مصر أي لغة الحديث اليومي هي امتداد طبيعي للغة المصرية القديمة بمراحلها الثلاث الرئيسية: الهيروغليفية و الديموتيكية و القبطية، و بهذه الصفة يجوز أن ندعوها "اللغة المصري الحديثة" أي المرحلة الرابعة في تطور لسان المصريين. و هذه اللغة "اللمح" مستقلة على المستوى النحوي و الصرفي و الصوتي و في أحيانٍ كثيرة الدلالي عن سائر اللغات السامية وخصوصاً العربية و العبرية، و إن لم تكن منفصلة كلغة حامية أي أفريقية عن هذه اللغات، وخصوصاً في الجانب الدلالي أي استعارة المفردات و تحوير معانيها" ص 180 من "حاضر الثقافة في مصر".

و هكذا يتضح أن الأمر كان أمر نتيجة صاغها الحر الفقير على هيئة فرضية بعد مقارنة لغوية جادة بين ظواهر نحوية و صرفية و صوتية و دلالية تشترك في معرفتها "اللغة المصري الحديثة" مع اللغة المصرية القديمة في هذه المرحلة أو تلك من مراحل تطورها. و هي المقارنة التي لم نكن لنستطيع الإبحار في أوقيانوسها أو عقدها لو لم نتملك أدواتها، و خصوصاً ما يتعلق منها بالإلمام باللغات القديمة. و هي المقارنة مرة أخرى التي لم يشأ أن يعرض لها د.بدوي لا بخير أو شر، و لم يجد في جُعبته سوى وصفها بأنها "إدعاء" ثم عاد كي ينعتها بأن "هذا ليس صحيحاً على الإطلاق". و هنا يكون د.بدوي قد تصور أن "وصف" سيادته و"نعته" هذين يشكلان حجتين دامغتين في نفي الفرضية التي تقول بالامتداد الطبيعي بين القديم و الحديث في لسان المصريين!

و تلك فرضية يجوز لهذا الباحث أو هذا الناقد أن يقبلها أو يرفضها مثلما فعل الناقد والباحث "أمجد ريان" في قراءته لديوان "يوميات مدينة مكسورة الجناح" للشاعر "سمير عبد الباقي" ص 172 إذ قال:

"...في مرحلة تشهد تحول اللغة العربية الفصحى و خروجها التدريجي عن أنماطها البلاغية التقليدية للدرجة التي تجعل باحثاً هو "بيومي قنديل" يرى أن اللغة المنطوقة في مصر اليوم هي امتداد طبيعي للغة المصرية القديمة بمراحلها الثلاث الرئيسية: الهيروغليفية و الديموتيكية والقبطية، أي أننا نعيش الآن في المرحلة الرابعة في تطور لسان المصريين... ونحن لا نريد أن نصل إلى وصل إليه ب.ق...."

و هكذا مارس السيد "أمجد ريان" حقه في الرفض لكنه لم يتوسع في رفضه إلى حد صوغ ما يرفض بطريقة تسهِّل عليه مهمته.

و لضيق الوقت أعود كي أقول أن "اللغة المصري الحديثة" ورثت عن جدتها الكبرى أي الهيروغليفية سمة لغوية غاية في الأهمية في مجال النحويات، ألا و هي "التحليلية" بمعنى استبدالها لنهايات حالات الأسماء(الإعراب) case endings بـ "ترتيب الكلمات":word-order في الجملة و الأدق المنطوقutterance في سبيل تحديد وظيفة الكلمة من فاعل و مفعول و مضاف إلخ في جملتها أو منطوقها. و نعرف من كتاب "اللغة المصرية القديمة" للبروفيسور "أنطونيو لوبرينو" ـ جامعة كاليفورنيا ـ ص 51 أن اللغة المصرية القديمة تخلَّت عن "التركيبية" أي نظام تغيير النهايات الإعرابية أي إضافة نهايات معينة إلى الكلمة لتحديد وظيفتها في جملتها "***فيما قبل التاريخ***"، و هي الحالات التي لا تزال اللغة العربية الكلاسيكية أو "الفصحى"، كما يُسميها مدرسو أقسام اللغة العربية في جامعات مصر و آخرون عديدون بل و كذلك اليونانية الحديثة والألمانية بواقع ثلاث للأولى و أربعٍ للثانية.

و غني عن الذكر أن خط التطور اللغوي يتجه إلى التخلي عن هذه النهايات، فلقد كانت خمس نهايات في اليونانية القديمة و ست في اللاتينية و ثمانٍ في جدتهم الكبرى السنسكريتية.

و معنى القول أن لغة المصريين كانت منذ خمسة آلاف سنة على الأقل و لا تزال أكثر تطوراً من اللغات اليونانية الحديثة و الألمانية و كذلك العربية الكلاسيكية التي يريد خبراء و لا أقول علماء

أنجلو-أمريكيين أن يفرضوها و الأولى أن يستمروا في فرضها على عقل المصريين المعاصرين ويسير في كعوبهم "أكاديميونا الأعزاء"

و غني عن الذكر مرة أخرى أن معظم اللغات الحية تتجه إلى أن تُصبح لغاتٍ تحليلية، و قد سارت لغات عديدة أشواطاً طويلة في هذا السبيل، و أخص بالذكر هنا اللغات الفيتنامية والصينية و الانجليزية و الدانمركية و السويدية و العبرية ...إلخ

أما ربط انبثاق تصوُّر جديد للأمور بمراحل الضعف التي توفر مناخاً للدعوة إلى "العزلة والعودة إلى الفرعونية و الكتابة بالعامية"، فهذا مستوى من التنظير العالي مما أعجز عن مجاراته أو حتى فهمه.}

لكن القرار الأساسي كان ـ و ليس في طوعي أن أغفر لنفسي التحلي بالتواضع الكاذب أو التردد في أن أقول بالفم المليان ـ سوء الفهم. و يبدو أن الأمر انطوى، منذ البدء على تراكب أعقد من قدرات "المتعلمين المصريين"، بمن فيهم أكاديميوهم، أي أولئك الذين يتلقون/ يرضعون تعليماً يضعه الأجانب المغرضون، أي "الغربيون المستعمرون" على الاستيعاب. و يكفي أن يرنو المرء إلى الساحة الثقافية كي يجد قادة الفكر في مصر في الوقت الحاضر يضمون شخصيات من أمثال "م.أ.العالم" الذي ألحقه البلاط العسكري الحاكم في مصر في سلك الخدم و الحشم في ستينات القرن العشرين و "ن.ح.أبو زيد" الذي ارتأى أن يكتب عن "الشافعي" دون أن يفقه إلى المعلومات الأولية عن "قاضي الشريعة"، و مع ذلك يرمي "نسرين تسليمة" بالجهل بمبادئ و مقاصد الشريعة في مؤتمر دولي انعقد في برلين خلال منفاه نصف الاختياري و د. "ز.النجار" الذي توظفه مؤسسة "الأهرام" الناشطة مع مثيلاتها من مؤسسات ـ و إن استقلت ببراعة فائقة و تخطيط محكم و إغراءات تكاد تستعصي على المقاومة ـ في سبيل تزييف وعي الجماعة المصرية أي إخضاع أبنائها لذلك البلاط العسكري الحاكم، إلى جانب كتائب الوعظ و التفسير و الإفتاء سواء من "*دكاترة الجامعات المصرية*" و على رأسها "جامعة" الأزهر أو أولئك الذين انتدبوا أنفسهم بأنفسهم لتلك المهام "العظام"، حتى يستشعر التشاؤم.

و لعل الأمر راجع في جانب منه على الأقل، إلى أنني أبدو بدعوتي هذه و قد انتدبت نفسي للنطق بلسان من لا يملكون لساناً: "الأميين" أو فلول المصريين القدماء، و بعبارة أخرى أولئك "المنعاصين" ببقايا أصداء تراث قومي عظيم، يُؤكد لنا "علماء" ـ و القوسان بهدف التحفظ ـ

غربيون أنه صار بائداً، لا يملك لنفسه مكاناً أجدر من المتاحف! أضف إلى ذلك أنني أجد نفسي مضطراً في حالات ليست قليلة إلى النطق بلغة أصفها وصفاً علمياً موضوعياً منزهاً عن الغرض متعففاً عن الهوى، بأنها "أجنبية" أي "اللغة العربية" التي تنتمي إلى الفرع السامي من العائلة الحامية-السامية أمام "المتعلمين المصريين" أي أنصاف المصريين و بالتحديد: المصريين-الساميين كي أطلب منهم أن يعترفوا بها يُشبه المستحيل: أولئك "الأميون" أو "الجهلاء" ـ كما دعاهم الشيخ الدكتور "طه حسين" نفسه ـ أرقى منهم، و بالتحديد أكثر علماً و أرهف وجداناً منهم. و معنى القول أنني كنت أقدم أوراق اعتمادي سفيراً لـ "منبوذين" في بلاط "براهمة"، و بقليلٍ من التجاوز سفيراً لعبيد عند سادتهم. و لم أكن أعوِّل في قبول هذه الأوراق إلاّ على نزاهة نفر، مهما كان محدوداً، من أولئك "البراهمة"، تلك النزاهة، بل و تلك الشجاعة التي تستطيع إيقاظ ضمائرهم و شحذ عقلانيتهم إلى حد الاعتراف بأن هؤلاء "المنبوذين"، ليسوا أقل منهم، بل و على العكس، أفضل منهم. و دع عنك المصالح المستقرة من أزمنة طويلة التي أضافت بعداً آخر إلى تراكب الأمر، وألقت بعراقيل إضافية في طريق مثل ذلك الاعتراف الذي لا أزال أراه ضرورياً لإنقاذ المصريين، بمن فيهم "المتعلمون المصريون" أنفسهم من الانقراض بصفتهم هذه أي بصفتهم مصريين.

***

في "جمعية القاهرة للغويين" Cairo Linguistic Society و في الجمعة الأخيرة من شهر برمودة/ إبريل سنة 2002، إن لم تخونني الذاكرة، صال المحاضر الرئيسي د. أ. منصور أستاذ علم الجراحة في إحدى جامعات الوجه البحري و جال مطالباً بتدريس الطب في جامعات مصر باللغة القومية أي باللغة العربية "الفصحى"، مثلما تفعل إيطاليا و فرنسا و إسرائيل...إلخ، إذ تُدرس الطب بلغاتها القومية. و عقب المحاضرة مباشرة طرحت سؤالاً هو:

ـ ماهي اللغة القومية؟

و لم انتظر جواباً، إذ مضيت نظراً لأن معظم جمهور الجمعية إن لم نقل كله، من الدكاترة المتخصصين في "اللغويات"، إلى تحديدها بالتفريق بينها و بين اللغة القومية استناداً إلى مقولة الاستيعاب/ التعلم،مما يقول به "اللغويات السيكلوجي"pycholinguistics، و طلبت من السادة الحضور باعتبارهم متخصصين في اللغويات أن يقدموا اعتراضاً واحداً على ما قلت. و لم

يطل صمت الدكاترة الحاضرين طويلاً إذ انبرى أحدهم ليقدم نفسه بأنه د."م.حسن عبد العزيز"-لغوي و يقول بعد أن تأملني في صمت تام لمدة نصف دقيقة:

ـ الكلام دا ينطبق على كل اللغات، فيما عدا اللغة العربية "الفصحى".

و لما سألت سيادته عن السبب/ الأسباب وراء ذلك. أجاب "اللغوي":

ـ ع شان اللغة العربية هي لغة "القرءان".

حقيقة الأمر أن المرء يجد نفسه مضطراً في كثير من الأحيان إلى أن يُكرر ما سبق أن قاله مرة بعد أخرى، نظراً لأن "الأكاديميين المصريين" لا يملكون الوقت الذي يمكِّنهم من متابعة ما يدور في الساحة الثقافية لبلادهم من حوارات و نقاشات و سجالات، حتى تلك التي تتصل بتخصصاتهم فهم مطمئنون إلى أن الحكمة مخلوقة من أجلهم دون سواهم.

و بطبيعة الحال، لم يسمعوا أن "دونالد ريدفورد" عالم المصريات الذائع الصيت و رئيس قسم الدراسات الشرقية بجامعة "تورونتو" في كندا، و أحد الذين تتخذهم الموسوعة البريطانية مرجعاً لها في مجال المصريات (طبعة 1988)حاز نزاهة عالية و ضميراً حياً جعلاه يقرر ذات يوم بأن:

"السعي وراء المعرفة، خلال انتهاج منهج علمي أكاديمي يقوم على التعليل المنطقي، إنما يعتمد على الفطرة السليمة (=حاسة التمييز) التي يحوزها كل البشر، و ينطوي على قدرٍ من البساطة أكثر مما يظُن معظم الناس، و بالتالي، فالسبيل إليه مفتوح أمام الجميع. وإذا كان المحترفون يُؤدون، بصفة عامة، عملهم في هذا المجال أو ذاك بصورة أفضل من غيرهم، فإن ذلك ليس راجعاً إلاَّ إلى أنهم يكونون قد قضوا وقتاً أطول في المران. لكن ذلك لا يمنع أن يتفتق ذهن الهاوي المنزه عن الهوى عن حلٍ بارعٍ لمشكلة عويصة بدرجة عالية نصادفها هنا أو هناك."(مقدمة "ريد فورد" لكتابه "أخناتون: الفرعون المارق".)

قلت أكثر من مرة و أعود مضطراً قد أقول أن قداسة أي نص في أي لغة لا يستطيع أن يمد قداسته إلى هذه اللغة أياً كانت. حقاً "التوراة" مقدسة عند المؤمنين بها، من بني إسرائيل، و لكن كتاب "*مكان بين الأمم*" لمؤلفه "بنيامين نتانياهو" لا يحمل أي قدر من القداسة عندهم لمجرد كتابته بنفس اللغة التي كُتبت بها "التوراة" أي العبرية. و نفس الأمر يصدق بحذافيره ـ و لم لا ـ على الضفة الأخرى. فـ "القرءان" مقدس كنص، و لكن قداسته تأبى الامتداد كي تشمل كتابات "مسليمة" أو "سجاح" أو "أبو لهب" (و أرجو ألاَّ يُصححني أحد و يقول: "أبي لهب") أو

كتابات أي من السيدين الصحفيين "أنيس منصور" و "محمود السعدني"، لمجرد كتابتها بنفس لغة "القرءان"، أي اللغة العربية، سواء أكانت "فصحى" أو غير ذلك.

و بطبيعة الحال لم أتمكن من التعبير يوم ذاك عن أي من مثل هذه الأفكار أمام "جمعية القاهرة للغويين" التي أستطيع أن أرصد بطهان و أمان أنها تخلط بين العلم (اللغويات)Linguistics والسياسةPolitics، و ذلك بعد أن أفصحت الدكتورة "م.دوس" التي ترأست الجلسة، عن خشيتها في اللحظة التي كنت قد بدأت فيه الرد على سيادته من تحول الجلسة إلى مناقشة ثنائية بيني و بين سيادة "اللغوي"، و بالتالي تكون سيادتها قد حرمت فكرة محورية تتصل بجوهر محاضرة السيد المحاضر من التبلور. و تلك إحدى أهم الآليات التي يلجأ إليها أي رئيس لأي جلسة في الحجر على ما لا يعجبه أو لا يُعجبها من آراء، تعز على التفنيد.

و في وقت لاحق حدثتني د. "م. دوس"، على انفراد فقالت:

ـ هات لي موافقة من خمسين في المية من شعب مصر على استخدام "العامية" و انا أسلم معاك بالعشرة، علي مشروعك!!!

و قد لبشني العجب و الاستعجاب لحظتها، فلم أستطع النطق بما كان يجب علي أن أقوله، وهو باختصار:

ـ المجددين كل المجددين ما بيطرحوش آراؤهم لا على برلمانات بلادهم و لا على "العوام" في استفتاءات عامة.

و في نفس الجمعية خاطبني معيد، أي مشروع أستاذ جامعي، بإحدى كليات اللغة العربية، وكان حليق الذقن مذهَّب النضارة، من أنفه:

ـ إنت عايزنا نكتب باللغة اللي بيتكلموها في الأسواق؟

فأجبته بكل أدب:

ـ أيوا.

و هنا أدار وجهه إلى الناحية الأخرى باستعلاء و تأفف و "خد بعضه" و مشى.

أما الأستاذ الدكتور المحاضر فلقد أشرع في القاعة بعد محاضرته كتاباً من إصدار سلسلة "عالم المعرفة" الكويتية بعنوان "الجنوم" و هو يقول بحماس متفجر، يليق بزعيم سياسي، لا أستاذٍ جامعي مشيراً إلى العنوان:

ـ أهه! نقدر نترجم أي كتاب يصدر بأي لغة إلى لغتنا العربية "الفصحى"!

و هنا توجهت بالسؤال إلى السادة الحاضرين الذين كانوا وقوفاً يستعدون للرحيل:

ـ هل إنتو موافقين سيادته على إن عنوان الكتاب اللي في إيده دا متترجم؟

و هنا لزموا الصمت البليغ. فقلت:

ـ فيه فرق بين الـ translation&transliteration

و انتظرت أن يوافقني أو يشكرني أو يستفهم مني أحد منهم. لكنهم خيبوا ظني جميعاً. وهنا وجدت أنني أشبه بشخص "غير مرغوب في وجوده".

و لكن السؤال الذي ألح على رأسي في طريقي إلى بيتي كان:

ـ لماذا يُنكر "أكاديميون-مصريون" على هذا النحو حقيقة علمية لا لبس فيها و لا مراء، و لا تستعصي حتى على منال بعض "العوام"، و بالتحديد لماذا يصر أولئك على عدم الافتراق و لو سِنَّة واحدة، عن مقولات الثقافة السائدة؟

و هل غاية البحث العلمي أن يُعيد الباحث صياغة الأفكار البالية في لغة جديدة تتخللها مصطلحات حديثة مثل الفونيم و المورفيم و السنتاجم؟

كيف يتأتى للمرء أن يُفسِّر هذا الموقف "الأكاديمي"؟

هل يهبط نوع التعليم الذي يتلقونه سواء في جامعات مصر أو جامعات الغرب إلى هذه الدرجة من "غسيل المخ"؟ أم هل هو خوف الذي شبع قبل قليل، إن فكَّر أو وافق على أفكار الذين يُفكِّرون، من عودة شبح الجوع أي الفصل في نهاية المطاف، من وظيفته، كي يُطبق على خناقه؟ أم أن الأمر أمر توظيف قشور العلم الذي تلقنوه في سبيل خدمة أهدافٍ غير معلنة لا تستطيع الصمود أمام أي نقدٍ علمي موضوعي جاد؟

حقيقة الأمر لا أدري و لا أعرف طريقاً إلى من يدري.

***

لزم "المتعلمون المصريون" الصمت، كما قلت في مقدمة الطبعة السابقة أي الثالثة للكتاب. ولكنهم نشطوا في نفس الوقت، و منذ الطبعة الأولى للكتاب في سنة 1990، في انتحاله. و كان نشاطهم أوسع من قدراتي على متابعة كافة المطبوعات في مصر و خارجها. وتباينت الأساليب التي ابتكرها السادة المنتحلون في هذا الصدد.

مستشار سابق و كاتب مرموق نقل عني في مجلة "العربي" الكويتية عدد 463 يونيو/ بؤونة1997 تعريف لفظ الجلالة: "الله" على هذا النحو:

"و هو اللفظ العربي المقابل لألفاظ أخرى في مختلف اللغات، تفيد معنى الإله".

لكن سيادته، عوضاً عن الإشارة إلى المصدر الذي "نقل" عنه عبارته "الخلابة" التي زيَّن بها مقاله قوَّسها، أي وضعها بين قوسين على النحو المذكور للتو، أي أن سيادة القاضي الفاضل نزع العبارة، التي جاءت نتيجة حتمية لبحث طويل من جانبي ظهر في كتابٍ منشور، كي ينسبها لنفسه، مع الاحتفاظ بطاقة صغيرة حقاً، هي "التقويس" لكنها تكفي - في ظنه - للقفز منها إذا ما راجعه أحد.

و لم يكن هذا الأسلوب هو الأبرع في أساليب الانتحال. فلقد لجأ السيد "ع.جمال الدين" إلى تدبيج مقال طويل، في مطبوعة "ماستر" غير دورية، حازت شهرة واسعة. لكن المقال ليس سوى انتحال سافر للأفكار الأساسية التي وردت في الطبعة السابقة للكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم في مجال اللغويات، ثم و لكي يفلت من المؤاخذة، وضع قائمة قصيرة بعدة مراجع في نهاية "مقاله" شملت الكتاب المعتدى عليه بالانتحال. و قد نجح سيادته فيما خطط له ببراعة أعلى تفوقاً. فلقد نسب محرر مطبوعة "نداء" التي تصدر عن قصر ثقافة "طنطا" إلى سيادته أي سيادة "ع.جمال الدين" نتائج البحوث التي شقي الحر الفقير في القيام بها. و عندما راجعته و أثبت له بأدلة واضحة أن تلك النتائج ليست للسيد المنتحل، بل للحر الفقير، لم يجد محرر المطبوعة بداً من نشر تصحيح في العدد التالي مباشرة من المطبوعة تحت عنوان "تنويه" جاء فيه ما يلي:

"في عدد "نداء" رقم 4 تم عمل متابعة للعدد الأخير من مجلة "مصرية" و منها دراسة بعنوان "بعض ملامح تطور اللغة المصرية لعبد العزيز جمال الدين ذكر فيها إثباتات لغوية تدلل على خصوصية اللغة المصرية الحديثة منها قولها الولد دا بدلاً من "هذا الولد" و "البنت دي" بدلاً من "هذه البنت" و "الولاد دول" " للمثنى و الجمع بدلاً من "هؤلاء الأولاد" ولم يُحدد مصادره بدقة. و الواقع أن هذه النتائج هي للأستاذ بيومي قنديل في كتابه "حاضر الثقافة في مصر".

و نقل د. ك. فريد نتائج توصَّل إليها الحر الفقير بعد جهد دؤوب و نشرها باسمه في أكثر من مطبوعة، دون أن يُشير إلى مصدره.

لكن الانتحال الأشد إثارة للأعصاب، جاء من الأستاذ "ط.رضوان" الذي نشط بهمة استثنائية، و الحق يُقال، في ترديد فقراتٍ كاملة من الكتاب في كل ندوة أو مجلس أو مقال منشور باسمه، أحياناً بالإشارة إلى الكتاب و أحياناً كثيرة دون الإشارة إليه، حسبما يقضي الحال، حتى شاع عنه أنه "تلميذي النجيب" لكنه كان يكشف باستمرار - و هذا أمر طبيعي - عن عدم القدرة على إستيعاب ما ينتحله و بالتالي يفشل في الدفاع عنه. ففي ندوة "جذور" بحي "الزيتون" على سبيل المثال "انتحل" فكرة أساسية من الأفكار/ النتائج الواردة في الكتاب و هي: "فرعون هو الرمز القومي للمصريين عند الساميين، عرباً و عبرانيين" و فور إدلائه بها لم يُنتج بل و بما لم يستوعب، سأله ماركسي مخضرم هو د. "ف. لبيب" هذا السؤال:

- و لماذا تتخذ "الفرعون" رمزاً للمصريين و ليس الهرم الأكبر على سبيل المثال؟

لم يجد سيادته سوى أن يتلفت حوله حائراً.

و لولا وجود الأب الشرعي لهذه الفكرة، بالصدفة البحتة، في الندوة، لما وجد الماركسي المخضرم رداً على سؤاله، الذي تصوَّر أنه تعجيزي، على هذا النحو:

- المصريين ما اختاروش الفرعون رمز لهم. و الكتاب اللي الأستاذ نقل منه العبارة دي دا الوقت، من غير ما يشير لمصدرها، زي ما هي عادته، ما قال ش فيه حد سأل المصريين، لما العرب بصفة خصوصي و الساميين، بصفة عمومي اختارو لهم الرمز دا، لاجل يرمزو لهم به، و خصوصي في كتبهم المتقدسة!

و عقب الندوة نصحت الأستاذ الفاضل، ربما للمرة العشرين بألا ينطق إلاَّ بأفكاره هو الخاصة - إذا كانت عنده أفكار خاصة - حتى يستطيع الدفاع عنها أمام ناقديها. و لكن رده كان الصمت. و يبدو أنه فكَّر في أن يُعيد على سمعي جملته المزهلة التي تفتق عنها ذهنه قبل عدة سنوات:

- موش يهمَّك برده أفكارك دي تتنشر؟

لكنه تراجع لسبب أو لآخر.

و لسوف يقف القارئ الكريم في السطور التالية بنفسه على تلك المحاولة المستميتة التي بذلها د.س.بحراوي، في عرضه للكتاب في مجلة "أخبار الأدب" لانتحال أفكارٍ أساسية، هي في حقيقة الأمر نتائج لدرس طويل و استقصاءات مستفيضة تخللها بعض العناء المنتظر في مصر الحالية، و

بعضٌ آخر ليس منتظراً حتى في هـذه الــ "مـصر"، للظـاهرة اللغويـة في مـصر بعـد تملـك أدوات الإبحار في هذا المجال: الإلمـام باللغـات القديمـة و خـصوصاً المـصرية منهـا، فـضلاً عـن الإلمـام باللغويات. و لقد أحزنني أن أعرف صدفة، أن سيادته لم يكتف بما حـاول انتحالـه في مقالـه بتلـك المجلة، بل ألقى محاضرة بالإشتراك مع د."فايزة هيكل" في "جمعية القاهرة للغويين"، سـيادتها عـن خبراء اللغة المصرية القديمة و سيادته عن خبراء اللغة التي لا يزال يـسميها "عاميـة" أي "عاميـة" اللغة "الفصحى". و خلال المحاضرة نسب سيادته لنفسه ما لا أنـتج و لا شـارك في إنتاجـه، عـلى نحو ما فعل في مقاله.

و السؤال الذي يحاصرني باستمرار، في هذا الصدد هو: ألم يكن من الأجدى لسيادته و للعلـم معاً أن "يعمـل"، أي أن يُحـاول إتقـان لغـة قديمـة أو حتـى حديثـة أو يُحـاول الإلمـام بأبجـديات اللغويات كيلا تأتي كتاباته في هذا المجال شـديدة البـؤس واضـحة الـضحالة، و هـو الأمـر الـذي يُعرقل حتى انتحاله لأي أفكارٍ لامعة، إذ تبدو كل الأفكار التـي يحـاول الإسـتيلاء عليهـا و كأنهـا أرياش طاووس في جناح غراب!

على أي حال هذا حديث ثقيل على العقل و القلب معاً و لهذا فإنني أفـضل أن أتركـه قبـل أن أصل به إلى نهايته، أي قبل أن أتوقف أمام جميع أولئك "البدو" من "المتعلمـين المـصريين" و الأدق "بالمصريين-المتسييمين/ المتعربين" و على رأسهم الأكاديميون منهم، أولئك الذين لا يعملـون و لا يجدون وازعاً أخلاقياً داخلهم يثبِّط عندهم نزعة الانقضاض على عمل/ عرق الآخرين.

و في هذا الصدد لا أملك سوى أن استمهل أولئك البـدو/ قطـاع الطـرق، وقتـاً اتعَّهـد بـألا يطول كثيراً قبل أن أخرج إليهم بعملي الرئيسي "في اللغة المصريِ الحديثة" (=اللمح)، و هو العمل الذي سأسعى فيه إلى (1)الكشف عن عبقرية مـا يُـسمونه، مـرة باللهجـة و مـرة أخـرى بالعاميـةً (2)وضع أبجدية جديدة تعتمـد عـلى الأبجديـة القبطيـة، و خـصوصاً حروفهـا الـسبعة/ الثمانيـة الديموتيكية(3) التنقيب عن الصلات القوية و المطمورة في نفس الوقت، التي تربط لغتنـا الحديثـة باللغة المصرية القديمة. و حتى أنتهي من هذا العمل أرجـو مـن أولئـك البـدو/ قطـاع الطـرق أن يعكفوا على سن أسـنانهم و أنيـابهم جيـداً، فهـذا كـل يملكونـه ، في ظـل قـدراتهم المتواضـعة، إذ ينتظرهم بصدور الكتاب الذي أضعه وحدي الآن، "صيد سمين"!

و لعلها حقيقة ترقي إلى البديهيات أن كل دورة تاريخية لا تحتاج إلى أكثر من صوتٍ متميِّز واحد، يستشرف الغابات المتحركة وراء الآفاق، و هو الصوت الذي ينبغي للمفكرين الذين يحلمون بالترقي لمجتمعاتهم ـ إذا كان لهم وجود ـ أن يتلقفوه إذا كان المجال مجال فكر، و يستوعبوه و ينقدوه و يطوِّروه، و في كل ذلك لا يردمون على اسم صاحبه، كي ينسبوا، زوراً و عدواناً. لأنفسهم ما أنفق هو عمره في سبيل التوصل إليه، كما يفعل البغبغانات(=الببغوات) عندنا، ممن لا تتعدى حدود أوطانهم نطاق جلودهم ، ثم يكمنون منتظرين إنتاجاً جديداً للحر الفقيركي يواصلوا معه نهجهم البدوي في السطو و الغزو و الإغارة، و ذلك في جوق لا يشد تماسكه سوى متوسطية قدراتهhis mediocrity و لقد ألمحت إلى بعضهم، و أهملت أكثرهم.

***

إلاَّ أن الكتاب، حفَّز عدداً محدوداً يقل عن عدد أصابع اليد الواحدة من "المتعلمين المصريين" للكتابة بصورة مباشرة عنه. لكنها لم تكن كتابة مُريحة في سائر الأحوال، إذ افتقرت إلى الموضوعية و النزاهة. فقلد كتب د. "أحمد الخميسي" في مجلة "أخبار الأدب"، على سبيل المثال، يوم 22مسرا/ أغسطس 1999يقول:

{ في مقدمته لكتابه "حاضر الثقافة في مصر" يشير المؤلف إلى أن كتابه وجد مقاطعة و صمتاً حتى من الأصدقاء، لأن الكتاب "لا يحفل إلاَّ بالحقيقة المجرَّدة، دون أن يعبأ بأي مصالح أو أيدولوجيات"، و الأكثر من ذلك أن السهام التي انطلقت تطعن بيومي قنديل متهمة إياه حتى بـ "المروق عن عروبته" لأنه لام المصريين في كتابه لتخليهم عن قوميتهم المصرية ذات يوم و تبنِّيهم لقومية العرب و لأنه يعتبر "أن المصريين انفردوا باحتقار جدودهم الفراعنة أي باحتقار أنفسهم نزولاً عند إرادة أعدائهم التاريخيين". ويُحاول الكاتب، كأنما، من أجل تأسيس عقلٍ مصريٍ جديد منفتح، أن يطرح عدة قضايا يعتبرها أساسية لا يُمكن من غيرها بناء مشروعٍ حضاري مصري: أولها البحث في حقيقة و طبيعة الفتح العربي لمصر عام 641ميلادي و ما نجم عنه. و التأكيد على ارتفاع شأن الحضارة المصرية في ذلك الوقت كحضارة زراعية في مواجهة حضارة الرعي. و يرفض المؤلف أن يكون العرب في ذلك الزمن البعيد قد تحوَّلوا إلى شعب بمعنى جماعة قومية. لكنه لسبب ما يمنح هذا الحق للمصريين القدماء قائلاً أنهم "أعلوا شأن رابطة الأرض على رابطة الدم" و لا أدري من أين للمؤلف بهذا التأكيد. لكن المعروف أن ظهور القوميات و الأمم عامة جاء متأخراً

جداً، و لم يكن قدماء المصريين يُمثِّلون قومية أو أمة. و يعتبر بيومي قنديل أن تعريب مصر كان "محاولة قامت بها بريطانيا، و أسفرت عنها الادعاءات الأنجلو-أمريكية! و يرى أيضاً أن المصريين قد تخلَّوا عن لغتهم الأصلية مشيراً إلى أن العربَ كانوا الوحيدين الذين تمكَّنوا من القضاء على اللغة المصرية القديمة. لكنه يعتبر أن العامية المصرية هي اللغة المصرية الحديثة التي تُمثِّل المرحلة الرابعة في حياة اللغة المصرية القديمة! و يقول قنديل بجرأة "تقتضي أمانة العلم و نزاهة الضمير أن أقول أن السبب يكمن في أن اللغة العربية المشهورة بالفُصحى أجنبية ميِّتة، لم يتحدَّث بها المصريون في أي مرحلة من تاريخهم الوسيط أو الحديث، ناهيك عن التاريخ القديم"! بملاحظة أن كتاب بيومي قنديل كله مكتوب باللغة نفسها التي يقول أننا لم نتحدَّث بها أبداً! و في النهاية يدعونا الكاتب إلى أن نتحرر من "وطأة" العروبة!

و الحق أنني منذ وقتٍ طويل لم أصادف كتاباً كهذا يفتعل صراعاً مع قضية عروبة مصر بالتفتيش عن تفاصيل فرعونية أو لغوية تفتقد لأي أساسٍ علمي، و يدَّعي في الوقت نفسه أن مشكلته أنه لا يعبأ بأية مصالح أو أيدولوجيات منادياً بأن علينا أن نُسهم في تحرير كافة الجماعات القومية المضطهدة مثل النوبيين!

و ليسمح لي المؤلِّف و قد اتفقنا أن الخلاف في الرأي لا يُفسد للود قضية، أن أسأله لمصلحة من و لمصلحة أية أيدولوجية يعتبر الكاتب أن تجزئة مصر (بتحرير النوبة) هدفٌ نبيل؟ و لمصلحة من عزل مصر عن العرب؟ و لمصلحة مصر إهانة لغتنا العربية؟ ثمة إجابة في رأسي، لكن لساني لا يُطاوعني على النطق بها! و لقد كتبت ما كتبت فقط لكي لا يعتبر بيومي قنديل أن حصاراً قد ضُرب على كتابه لأن الأقلام لا تقوى على ما به من حقائق!}

و قد رددت على سيادته في نفس "أخبار الأدب" يوم 5 توت/ سبتمبر 1999 على هذا النحو:

{أسفت كل الأسف و حزنت كل الحزن عند قراءتي لما كتبه السيد "أ. الخميسي" في عموده الأسبوعي "ناصية" حول كتابي "حاضر الثقافة في مصر". لكن أسفي و حزني ليسا راجعين إلى أي آراء يُمكن أن يكون السيد "الخميسي" قد أفصح عنها، فالخلاف وارد و الحقائق الصلبة لا تتأسس إلاَّ خلال الحوار الحر.

لكن أسفي و حزني راجعان إلى أن السيد "الخميسي" أهمل أول أسس الكتابة الجادة و هو الموضوعية، أي التجرد من العاطفة و التنزه عن الهوى، و هو الأمر الذي أخرج عموده من مملكة الكتابة، على اتساعها و أدخله في باب الخطابة. و الخطيب، كما يعرف كثيرون، هو ذلك الشخص الذي يفتح فمه لمدة طويلة دون أن يقول شيئاً، و بالتحديد لا يقول إلاَّ ما يتوقعه منه سامعوه. وكلما زاد انطباق قوله على توقع سامعيه، زاد استحسانهم و علا تصفيقهم، سواء أكان الموضوع المطروح هو بلاغة "الكتاب المقدس"، أو إعجاز "رأس المال" أو عصمة النزعة العرقية-الدينية المسماة بالعروبة.

و بادئ ذي بدء لم أقل في حياتي، لا في كتابي المنقود و لا في أي موضع آخر من كتاباتي: "عروبتي". و يبدو أن نسبة أي شخص إلى "العروبة" - رغم أنفه - أمر لا يستحله سوى الخطباء العروبيين وحدهم. و في إطار الخطابة مضى سيادته كي ينفي عن المصريين القدماء أنهم شكَّلوا قومية أو أمة أو أن يكونوا قد رفعوا رابطة الأرض على علاقة الدم. و يتساءل: من أين للمؤلف بهذا التأكيد؟ و الحقيقة أن مصادري في هذا الصدد تمتد عبر مساحة شاسعة تبدأ من التاريخ المدوَّن و لا تنتهي بالكتب "المقدسة" ذاتها. و لعل السيد "الخميسي" يعرف أو ينبغي له، أن ذروة النضوج القومي لأي أمة تتمثَّل في بناء دولة مركزية يخضع لقانونها العام سائر السكان الذين يعيشون في الرقعة الجيو-سياسية المعنية، و في وضع لسانٍ مشترك يتفاهمون به مع بعضهم البعض الآخر. والمصريون القدماء أقاموا فيما يعرف تلاميذ المدارس الابتدائية، أول دولة/ أمة مركزية في التاريخ، امتدت من الشلالات جنوباً حتى المالح شمالاً منذ 3200 ق.ع.م. على أقل تقدير. و القرءان أشار إلى "مصر" بالاسم خمس مرات و أربعٍ و عشرين مرة بالكنية، فيما لم يُشر إلى الساميين، و سواء أكانوا عرباً أم عبرانيين إلاَّ بصفتهم أقواماً: بني اسرائيل، الأعراب، العرب ... إلخ أي دون أي بقعة جيو-سياسية، و هو ما لم يعرفوه إلاَّ في أوقاتٍ لاحقة. و لوح/ صادود "ميري-ان-بتاح" الموجود في الدور الأرضي بالمتحف المصري بميدان "الاسماعيلية"(التحرير حالياً) يذكر بني اسرائيل، لأول و آخر مرة في وثيقة تاريخية مصرية بمخصص "رجل و امرأة" أي "أقوام"، دون مخصص ⊗ الذي يعني "مدينة" أي أرض استقرار. و نعرف من قصة البحار المصري "ونامون" التي يُرجعها العلماء إلى سنة 1100 ق.ع.م. الذي قذفت الأمواج بسفينته على سواحل قبرص أن الرجل سأل الذين تحلّقوا حوله:

ـ أليس بينكم من يعرف لغة مصر؟

أما قول سيادته: "لكن المعروف أن ظهور القوميات و الأمم فجاء متأخراً جداً"، فهذا ليس سوى ترديد لأحد "الأوراد" البائسة حيث يزعم أن التاريخ لم يعرف القوميات قبل ظهور البورجوازيات، و هو "ورد" لا تزال الكنيسة الماركسية الشرقية تكرز به، رغم تجاوز العلم له منذ وقتٍ طويل. و لعله "سمير أمين" نفسه، هو الذي لاحظ أن "الأمة ظاهرة اجتماعية يُمكن أن تظهر في أي مرحلة من مراحل التاريخ".

و يقنص لي السيد "الخميسي" ما حسبه تناقضاً: "الكتاب كله مكتوب ـ و ليس ذلك كذلك ـ باللغة العربية التي يعتبر "أننا لم نتحدَّث بها أبداً". و لست أدري أي وجه للعجب أو الاستعجاب هنا. و هل يجوز لأي شخص أن يرى ترادفاً على هذا النحو بين "كتب" و "تحدَّث"، اللهم إلاَّ إذا كان داخلاً إلى رحاب سلطان النوم أو خارجاً منه.

و في نهايه عموده يسأل: لمصلحة من و لمصلحة أي أيدولوجية يعتبر الكاتب أن تجزئة مصر بتحرير النوبة؟ و لمصلحة من عزل مصر عن العرب؟ و لمصلحة من إهانة لغتنا العربية؟ و هنا تكون الخطابة قد هبطت منه إلى الفأفأة و الثأثأة و البأبأة، و هو ما لا يحتاج مني و لا من أحد رداً أي رد.

***

و كتب د. "سيد البحراوى" يوم 14 بابة/ نوفمبر 1999 في مجلة "أخبار الأدب" الأسبوعية تحت عنوان "الإستمرارية اللغوية مرة أخرى" يقول:

الكاتب و القاص بيومي قنديل واحد من أشد المتحمسين للهوية المصرية القديمة، و من ثم اللغة المصرية القديمة، و لذلك فهو من غلاة الداعين للكتابة بالعامية المصرية. و رغم أنني قد امتلكت الطبعة الأولى من كتابه "حاضر الثقافة في مصر"، فإنني لم أنتبه، بسبب العنوان، إلى أنه يُعالج القضية التي شُغلت بها من سنوات، و التي كتبت عنها عدة مقالات في هذا الباب، أقصد قضية أزمتنا اللغوية و كيف نسعى إلى حلٍ علمي لها!

الأسبوع الماضي التقيت صدفة ببيومي قنديل. شد على يديَّ مؤيداً و باعني الطبعة الجديدة من كتابه الذي استمتعت بقراءته و استفدت من الملاحق و الإضافات التي أضافها للطبعة الأولى. و رغم عدم يقيني بمعرفة بيومي بالمصرية القديمة في مراحلها المختلفة، إلاَّ أنني سعدت بتوافق

وجهة نظري مع وجهة نظره فيما يختص بالامتداد النحوي الذي يصل العامية المصرية المعاصرة بالمصرية القديمة.

و قد حاولت في مقالة سابقة أن أشرك المتخصصين في المصرية القديمة في هذه القضية، كي يقولوا لنا ما إذا كانت وجهة النظر هذه صحيحة أم لا، أو على الأقل ما مدى وجاهة طرحها والإلحاح عليها.

و حاولت أن أدلل على قوة النظرة بذكر التشابهات النحوية بين اللغتين، و خاصة في نمط الاستفهام و اسم الموصول و غيرها من الظواهر. و قد لاحظت من خلال كتاب بيومي أن هذه الظواهر جميعاً ملحوظة لديه بوضوح و إضافة إليها هناك تشابهات أخرى لاحظها هو. أود أن أذكرها هنا تعضيداً لوجهة النظر. و لعل المتخصصين ينتبهون إليها و يُبادرون بإبداء رأيهم في هذا التعضيد.

ـ تشترك العامية المصرية مع المصرية القديمة في ثبات العدد و عدم تغييره مع المعدود، فنقول: تلات بنات و تلات صبيان(و ليس ثلاثة). و تعود سابقة الاستقبال راح و ح إلى جذرٍ قبطي، وكذلك فعل المقاربة: "قام" في "قام وقع".

ـ يشير الكتاب إلى صفة "الالتصاقية" في اشتقاق الأفعال في كلٍ من القبطية و العامية ومعناها إضافة فعل مساعد إلى الأصل الذي يحمل معنى الفعل لإنتاج فعل ـ مثال: يعمل نور=نوَّر، ييجي برا=يخرج،...إلخ

و كذلك يُمكن تشكيل فعل جديد من فعلين معاً مثل:

نخر+خرب = نخرب

خرر+نبش = خربش

هرا+بدد = هربد

حف+نتف = حنتف

خطا+خرف = خطرف

قرط+ قطف = قرطف

قرط+قطم = قرطم

فل+عس = فلسع

ـ تميل العامية المصرية إلى التخلص من صيغة جمع المؤنث السالم(-ات) فتجمع "ملاية" على "ملي"...إلخ

يقول الكاتب و السر في هذا الميل كامن في الاتصال بين "اللمح"(اختصار اللغة المصري الحديثة) و اللغة القبطي.

طريقة بيومي في كتابة العامية، يقصد القبطية، و تقديري أن الأصح كتابتها (القبطيا) اللي كانت بتحط علامة مورفيم الجمع بنوعينه المتدكر و المتونت، و سيان كان في حالة التعريف و لاً *التنكير في أول الكلمة عكس العربي اللي بتحط العلامة المورفيم في آخرها*: "فاطمة/ فاطمات"

لكن أهم ما يشير إليه بيومي قنديل في كتابه هو اشتراك العامية المصرية مع المصرية القديمة في عدم الاحتياج إلى ظاهرة الإعراب أو (تشكيل أواخر الكلمات) لتمييز مواقع الكلمات في الجملة، و هو ما يعتبره المؤلف سمة يسميها باللغات التركيبية مثل اللاتينية و العربية في حين أن اللغتين الأوليتين تنتميان إلى ما يُسميه باللغات التحليلية التي لا تحتاج إلى الإعراب. و المثال الذي يضربه هو جملة" تُحب البنت الوردة"، حيث هناك حركات إعراب في حين جملة العامية: "البنت بتحب الوردة" لا يُمكن أن تتحوَّل إلى "البنت بتحب الوردة" ما لم يكن المقصود هو تغيير المعنى.

و يرى الكاتب أن هذا السبب هو الذي أدى بالعامية إلى إلغاء إعراب الأسماء و قصرها على حالة واحدة و مثاله: "الموظفين بيزوَّغو" بدلاً من: "الموظفون يزوِّغون"، و هي تُعطي نفس المعنى دون زيادة أو نقصان.

و تقديري أن هذه الإشارة تُعتبر أهم ملمح من ملامح الصلة بين المصرية القديمة و العامية المصرية لأنها تُشكِّل أساس البنية النحوية في العامية أي الميل نحو التسكين في أواخر الكلمات، وهي نفسها التي تقودنا إلى التسكين في نطقنا الفُصحى، في حين أن التسكين غير مخلٍ في العامية، فهو ملبس في الفُصحى.

و إذا كنا نتفق تماماً مع الكاتب في محاولته الجادة لإثبات الصلة بين العامية و اللغة المصرية القديمة، بمراحلها المختلفة، فإننا ندعوه إلى التريث بشأن نفي الصلة تماماً بين المصرية القديمة وبالتالي العامية الحديثة و اللغة العربية، باعتبار أن المصرية القديمة حامية في حين أن العربية سامية. و لنذكر فكرة "لويس عوض" في كتابه "مقدمه في فقه اللغة العربية"، و التي يُشير فيه إلى أن المهاجرين من القوقاز، و الذين شكَّلوا القبائل العربية، حينما وصلوا إلى الجزيرة العربية وجدوا

سكاناً من بقايا الهكسوس الذين كانوا قد غزوا مصر ثم طردهم منها المصريون و تعقبوهم فحملوا معظم بقايا اللغة المصرية، و ربما كان هناك بعض المصريين الذين توطّنوا في الجزيرة نفسها. و هذه قصة تحتاج إلى المزيد من البحث و التمحيص.

و قد رددت على سيادته في العدد التالي مباشرة من نفس "أخبار الأدب" على هذا النحو:

لن أنتظر فتوى من الخبراء!!

سمعت من أحد الأصدقاء عما كتبه أ. د. سيد البحراوى عن كتابى والأدق عن الطبعة الجديدة من "حاضر الثقافة فى مصر" فى دوريتكم الموقرة "أخبار الأدب" فابتهجت ولكن ابتهاجى انطفأ بمجرد قراءتى له. وكان السبب فى ابتهاجى أننى ظننت أن أكاديمياً مصرياً قد امتلك درجة من الجرأة الخاصة والضمير اليقظ مكنته من الخروج عن اللحن الذى وضعته بريطانيا فى أربعينات هذا القرن وأعادت الولايات المتحدة توزيعه فى الخمسينات كى يردده جوق سعيد يضم "المتعلمين المصريين" وعلى رأسهم أكاديميوهم بطبيعة الحال: مصر عربية منذ بدء الخليقة والمصريون مع فراعنتهم وآلهتهم وجبالهم وسهولهم عرب أقحاح. وحسبت أن ذلك الأكاديمى النادر بدأ ينصت للحن آخر إلا أن الظنون نادراً ما تتفق مع واقع الأمر.

ولسوف أوجز ملاحظاتى على ما سطره سيادته على هذا النحو:

1- يقول سيادته "وحاولت" أن أدلل على قوة النظرة (التى تقول بالامتداد النحوى الذى يصل العامية المعاصرة بالمصرية القديمة) بذكر التشابهات النحوية بين اللغتين وخاصة فى نمط الاستفهام واسم الصلة وغيرها من الظواهر وقد لاحظت من خلال كتاب "بيومى" أن هذه الظواهر جميعاً ملحوظة لديه بوضوح وإضافة إليها هناك تشابهات أخرى لاحظها هو.. "ومعنى القول أن سيادته لاحظ بقدرته الأكاديمية وحدها، وقبل قراءته لكتابى المذكور تشابهات بين اللغتين "العامية" و"المصرية القديمة". وهكذا فإن سيادته لم يسأل نفسه هذا السؤال: كيف يلاحظ أى "أكاديمى" مهما أوتى من قدرات خاصة ، تشابهات بين لغتين يتكلم أحداهما أى "العامية" فى حياته اليومية مثلما يتكلمها سائر المصريين ، ويجهل الأخرى "المصرية القديمة" تمام الجهل؟ وهو جهل يشترك فيه مع سائر "المتعلمين المصريين"، أى أن سيادته ليس مسؤولاً عنه لكنه بكل تأكيد مسؤولٌ عن استمراره على هذا النحو الذى يطلب معه فتوى من "المتخصصين"

حول مدى صحة ذلك الامتداد النحوى بين اللغتين. ثم ألا يلاحظ سيادته أنه لم يذكر سوى التشابهات "الملحوظة" على حد تعبيره لدى الحر الفقير ولم يجد سواها لتعضيد وجهة النظر التى تقول بذلك الامتداد النحوى؟ أليس الأقرب إلى المنطق أن يكون سيادته قد قرأ الطبعة الأولى، ولم يشأ أن يقر بذلك حتى يفسح مجالاً لاكتشافه وجود تشابهات "بين اللغتين" تماما مثلما قال أنه "امتلك" هذه الطبعة ولم يرد ان يقول أن الحر الفقير أهداها إليه مثلما أهداها إلى آخرين عديدين؟ ولكن السؤال الأهم هنا: لماذا استقر رأى سيادته على الوقوف عند ما أسماه بـ" التشابهات " التى يستطيع أى شخص، كما هو واضح، أن يكشفها سواء أكان يعرف أو لا يعرف اللغة المصرية القديمة ؟ وألا ينطوى هذا العمل على نقل غير دقيق عن كتابى محل النقد أو التقديم أى تشويه لا تسوغه أى تقاليد تحترم المنهج العلمي؟ فالأمر عندى ليس أمر "تشابهات" بل أمر فرضية كنت أول من صاغها ، بين المصريين والأجانب على حد سواء على النحو التالى: "تعد اللغة المصرية الحديثة، حسب وصفى الخاص لها، بمثابة المرحلة الرابعة فى تطور لغة المصريين بعد الهيروغليفية ، والديموتكية والقبطية وهذه أقلام أى طرق كتابة نعم ولكنها أيضاً مراحل فى رحلة التطور كذلك.

2- لست أدرى ما الذى حال دون سيادته وذكر الحقيقة عن اللقاء العابر بيننا فى ورشة عمل الزيتون؟ حقا شددت على يده ولكننى بادرته أيضا قائلاً: أنا باحييك على مقالاتك فى اللغة فى "أخبار الأدب" وكان أن رد بالحرف الواحد: ما هو دا تأثير كتابك.

وعندئذ قلت لسيادته: طيب ما بتشيرش ليه ولو مرة واحدة للمصدر بتاعك. وكان أن رد على هذا الرد: ما هو أنا بادور ع الطبعة الجديدة ع شان أعمل دا. اما قول سياته اننى بعته كتابى فالأدق أن بعض الأصدقاء المقربين يقومون بذلك نيابة عنى ربما لحماسهم للكتاب. ولم يحدث بالمرة أن حملت كتابى إلى "الزيتون" أو أى حى آخر كى أبيعه لأحد أو أعرضه على أحد، وذلك لصفة لا أدرى ما إذا كانت عيباً أم ميزة وهى الخجل. وأرجو ألاَّ يضطرنى سيادته إلى تسمية شهودى على ما دار بيننا فى ندوة الزيتون تلك.

3- يقول سيادته "ورغم عدم يقينى بمعرفة بيومى" بالمصرية القديمة فى مراحلها المختلفة. ولست أدرى كيف يحق لمن لا يعرف لغة ما أن يحكم أى حكم على مدى معرفة أى شخص آخر بهذه اللغة ذاتها؟ وأما كان عليه أن يسعى نحو معرفة تلك اللغة القديمة التى قصَّرت ولا تزال تُقصِّر مؤسسات التعليم فى مصر فى تدريسها للتلاميذ المصريين أى أن يبذل محاولة دؤوبة نحو

استكمال نقص أساسى فى القاعدة المعرفية لسيادته، وهو النقص الذى لا أذيع سرا أننى استشعرته، بخزى شديد، وبذلت جهداً جاداً فى سبيل تجاوزه بالتحاقى بمعهد الدراسات القبطية حيث درست الهيروغليفية والقبطية وتابعت دراستى فيه لليونانية القديمة لمدة ثلاث سنوات متصلة ولا أزال استزيد حصيلتى كل يوم فى هذه اللغات. وبطبيعة الحال لا أعد نفسى متخصصاً فى أيٍ منها، لكننى أعرف منها ما يكفى كى أتأكد من صحة استشهاداتى بهاعلى مستوى النحويات والصرفيات والصوتيات ، دون حاجة منى إلى انتظار فتاوى "الخبراء" أيا كان مستواهم العقلى أو الخلقى. ولكننى حرصت فى نفس الوقت، على عدم اتقان أى حرفة أو مهنة أو حتى لغة أو علم، أى أننى لم أشأ أن "أفنى" فى أى صفة أيا كانت. ولعل هذا بعينه هو ما نسى أ. د. سيد البحراوى أن يفعله . فلقد "فنى" فى صفة "متخصص فى اللغة العربية" حتى حال بينه هذا "الفناء" وبين فهم وصفى لفعل "قام" فى كتابى المذكور بأنه فعل مساعد.، وبادر سيادته إلى وصفه بفعل من أفعال المقاربة تلك التى يعرفها نحو اللغة العربية، ولعله كان يقصد بذلك أن يجود بعمل نبيل من ذلك النوع الذى يقوم به، معنا، المصححون الأجلاء الذين يملأون حياتنا وإذ أشكر لسيادته نبل مقصده فأننى أود أن انهى إليه أن الفعل المساعد هو ذلك الفعل الذى يفقد دلالته الأصلية جملة وتفصيلاً كى يقوم بوظيفة دلالية جديدة عليه تماماً مثل الفعل الهيروغليفى الذى يعنى "قام" الذى فقد عند مرحلة معينة دلالته على معنى القيام وأخذ يظهر دون مخصصه المعروف فى الكتابة الهيروغليفية وهو قدمان كى يبدأ فى "تعزيز" أى فعل آخر. ومعنى القول أن هذا الفعل كان يؤدى هذه الوظيفة فى المصرية القديمة مثلما يؤديها فى المصرية الحديثة حسب وصفى لها مثال: باكلمة "قام" ماشى من قدامى! وبطبيعة الحال لا يزال فى وسع هذا الفعل أن يقوم بأداء دلالته الأصلية ولكن فى جملة مستقلة، تماماً مثلما يساعدنا فعل have فى اللغة الإنجليزية فى تكوين الزمن التام وعندئذ يفقد كل صلة له بمعنى الملكية أى معناه الأصلى، مثال:

I have just arrived.

ولكنه لا يرفض العودة إلى أداء هذا المعنى متى أردنا، مثال:

I have 2 daughters

وإذا شاء أ. د. بحراوى أن يسأل "خبيراً" فى الموضوع فإننى أعود كى أحيله إلى عالم المصريات "سير ألان جاردنر" الذى يجد عنوانه فى كتابى المذكور وليس معنى ذلك أننى نسبت أفكار

شخص آخر إلى شخصى، مثلما يفعل أكاديميون عندنا دون أن تحمر لهم وجوه. فلقد عرفت منه، أثناء دراستى للهيروغليفية، معلومة محددة: الوظيفة الجديدة للفعل الذى يعنى "قام" فى المصرية القديمة ولكننى اتحمل المسؤولية كاملة فى رصد استمرارها أو امتدادها فى لغتنا المعاصرة. أما أفعال المقاربة فى اللغة العربية تلك التى تشمل "كاد" ، و "أوشك"، و "كرب" إلخ"، فأمرها مختلف تمام الاختلاف حيث أنها لم تفقد معناها الأصلى فى أى لحظة حتى تاريخه كى تقوم بأداء معنى والأولى وظيفة جديدة عليها.

4- يقول سيادته: //لنتذكر هنا فقط فكرة لويس عوض فى كتابه "مقدمة فى فقه اللغة العربية" والتى تشير إلى أن المهاجرين من القوقاز الذين شكلوا القبائل العربية..// . ولست أدرى كيف تجاهل نقدى لكتاب المفكر الكبير فى فصل مستقل من كتابى المذكور وفى سائر الأحوال أعود كى أقول وبإيجاز شديد هذه المرة: أيا كان مستوى الرجل فى أى مجال آخر فإنه لم يستطع، على ما ساقه من معلومات غزيرة مستفيضة، أن يهز ما استقر عليه علماء الساميات حول أصل العرب أو أصول اللغة العربية. فجنوب شبه الجزيرة العربية – وليس جبال القوقاز – هو المستودع الأصلى الذى خرج منه الساميون وانطلقت موجات هجرتهم وراء سهمين اتجه أحدهما شمالاً نحو العراق الحديث والآخر غرباً نحو بلاد الأحباش. أما اللغة العربية فهى إحدى اللغات التى تندرج فى الفرع السامى من العائلة اللغوية المعروفة باسم الحامية – السامية وليست بحال من الأحوال إحدى اللغات الهندو – أوروبية كما حاول أ. د. لويس عوض أن يقول. ولعل أ. د. البحراوى يذكر أننى دللت خلال كتابى على اشتراك الرائد الجليل مع سائر الذين اكتفوا "بتعليمهم المصرى" فى عدم "إلمامهم" ودع عنك معرفة، لغة جدودهم وما أسسه د. لويس عوض على قوله المرسل فى هذا الشأن غير صحيح لا جملة و لا تفصيلاً.

5- أعرف مثلما يعرف كثيرون أن أ. د. بحراوى يتميز بل ويمتاز بالبساطة ولذلك فإننى لا أملك إلا أن أشكره على تبسُّطه معى خلال مقاله عن كتابى. فالتبسط عند البسطاء مرحلة عالية من المعزة، وذلك بالإشارة إلى اسمى الأول مجرداً دون كلفة أكثر من مرة على هذا النحو : (بمعرفة بيومى، طريقة بيومى، كتاب بيومى) وهو الأمر الذى يذكرنى بجلسات المصاطب فى قرى محافظتنا – هو وأنا – المنوفية العريقة، لكننى لا أستطيع أن أعده بمبادلته نفس الدرجة من هذا التبسط الريفى الجميل فى حديث علمى رزين.

و خلال إعدادي للطبعة الرابعة الحالية ارتأيت أنني كنت قد تجاوزت عما لم يكن يحق لي أن أتجاوز عنه من أخطاء وقع فيها السيد الأكاديمي. و لسوف أصنفها تحت ثلاثة عناوين، ضارباً نموذجاً واحداً لا غير على كل عنوان:

الركـاكة:

كتب سيادته:

/ و قد لاحظت من خلال كتاب بيومي أن هذه الظواهر جميعاً ملحوظة لديه بوضوح وإضافة إليها هناك تشابهات أخرى لاحظها هو. /

و كان الأفصح أي الأوضح و الأكثر اقتصاداً، أن يصيغ هذه الجملة على هذا النحو:

/ و قد لاحظت خلال كتاب (...) أنه رصد هذه الظواهر جميعاً بوضوح، و أضاف إليها تشابهاتٍ أخرى انفرد هو بملاحظتها. /

هشاشة القاعدة المعرفية:

كتب سيادته:

/ ...ظاهرة الاعراب(تشكيل أواخر الكلمات) لتمييز مواقع الكلمات.../

و أول مافي الأمر أن الاعراب ليس مجرد تشكيل أواخر الكلمات، فضلاً عن أن الإعراب لا يهدف إلى "تمييز مواقع الكلمات" بل لتحديد وظائف الكلمات في الجملة/ المنطوق. و الاعراب يعني، و كما أوضحت في كتابي المنقود، إدخال تغيير ما قد يكون الإضافة و هو ما يُعبرّ عنه أكاديميونا و بعض العوام بتشكيل أواخر الكلمات. و لكنه يشمل أيضاً الحذف، و هو ما يحدث للأسماء في حالة الإضافة على سبيل المثال من "ناشرون" إلى "ناشرو الكتب"، في حالة الرفع.

فقدان الحس التاريخي:

كتب سيادته عن فكرة "لويس عوض":

{و التي يُشير فيها إلى أن المهاجرين من القوقاز، و الذين شكّلوا القبائل العربية، حينما وصلوا إلى الجزيرة العربية وجدوا سكاناً من بقايا الهكسوس الذين كانوا قد غزوا مصر ثم طردهم منها المصريون و تعقبوهم فحملوا معظم بقايا اللغة المصرية،...}

و على هذا لم يفطن د. "سيد بحراوي" إلى أن أستاذنا "لويس عوض" كان يعني، و لا يُمكن إلاَّ أن يعني، بحديثه عن هجرة قوقازية إلى جزيرة العرب، إنما حدثت، إذا كانت قد حدثت، فيما قبل التاريخ، أي قبل عشرات و ربما مئات الألوف من السنين. أما الهكسوس الذين غزوا مصر في القرن السادس عشر، فينتمون إلى العصور التاريخية أي قبل نحو ثلاثة آلاف و نصف و حسب من السنين. و معنى القول أن هناك "استحالة عقلية" في أن يجد "القوقاز" بقايا هكسوس محملين ببقايا اللغة المصرية، و إنما العكس هو الذي يُمكن أن يكون صحيحاً، أي أن يجد الهكسوس قوقازاً أو بقايا قوقاز. و معنى القول أن سيادة "الأكاديمي" ارتكب هنا ما يُسمى بـ "المفارقة التاريخية"Anacronism أي تسبيق واقعة تاريخية لاحقة على واقعة تاريخية أخرى سابقة عليها في الحدوث تأريخياً، كأن نقول أن الرحال "ابن بطوطة" كان يستقل *الطائرة* في رحلاته!

أما الاكتشاف الذي انفرد به السيد الأكاديمي، فيتمثَّل في توصله، دون عونٍ من أحد ، إلى ضرورة كتابة كلمة "القبطية" على هذا النحو "القبطيا". و هذا انفراد استقل به السيد. و هو انفراد فريد و وحيد و عبقري و الحق يُقال، لا أملك سوى تهنئة سيادته عليه قبل أن أغض الطرف عنه.

***

في الفصل الأول توصَّلت إلى أننا نستطيع أن نقول أن الديانات الثلاثة(=الثلاث) الموسوية (=اليهودية) و المسيحية و المحمدية(=الإسلام) ليست سوى ديانة واحدة أطلقت عليه إسم "الديانة الإبراهيمية" التي انشعبت إلى ثلاث شُعب في أوقاتٍ لاحقة، حمل أحكامها إلى أتباعها ثلاثة رُسل/ أنبياء خلال ثلاثة كتُب مقدسة هي العهد القديم(=التوراة) و العهد الجديد (=الإنجيل) و العهد الأخير (=القرءان). و معنى القول أنني "سبَّقت" أي أن الحر الفقير كان أول من أدرج الديانات الثلاث في سياق أدق من السياقات السائدة التي تركز على مناطق الاختلاف دون مناطق الاتفاق، مع أنها الأعرض و الأعمق و الأشمل، و هذه سياقات تؤدي إلى اعتبارها ثلاث ديانات بدلاً من حقيقتها الأصدق كثلاث شُعب لديانة واحدة.

و بذلك أكون قد لزمت الصمت بشأن العهد الأول بعد الأخير: "الأقدس" كتاب "البهائية"، مع احترامي الكامل لحق البهائيين في اعتناق ما يشاؤون.

***

و في الفصل الثاني انتهيت إلى أن "موسى" عليه السلام يقف في الديانة الإبراهيمية بشعبها الثلاثة كرمزٍ قومي للعبرانيين-الساميين، مثلما يقف "فرعون" عليه الحرب في هذه الديانة كرمز قومي للمصريين-الأفارقة. و انتهى الصراع بينهما إلى خروج "موسى" عليه السلام منتصراً، و هو الأمر الذي أعقبه دخول البشرية في ظلمات العصور الوسيطة.

و كانت هذه النتيجة التي انتهيت إليها جديدة تماماً، هي الأخرى في هذا المجال. لم يتوصل إليها أحد من قبل سواء أكان مصرياً أو أجنبياً.

و في الفصل الثالث خلُصت إلى أن لفظ الجلالة "الله" هو الاسم العربي للإله الواحد(الأحد). و أوضحت أن هذا اللفظ العربي يوازي اللفظ الإيراني "خدا". و الإيرانيون يترجمون البسملة على هذا النحو: "بنام *خدا* بخشاونده مهربان" أي "بسم اللاه الرحمان الرحيم". و نعرف من بيانات جماعات المعارضة التي فر أعضاؤها بجلدهم من حكم "الملالي" كي يعيشوا في المنفى في الخارج، أن رجال "الحرس الثوري"، كانوا يصرخون في ضحاياهم خلال عمليات التعذيب، كلما ذكّروهم بوجود الحي الذي لا تأخذه "سنة و لا نوم" في السماء: "خدا نايم"!

و كانت هذه النتيجة التي خلصت إليها جديدة تماماً، هي الأخرى، لم يخلص إليها أحد سواي سواء في الشرق أو الغرب.

و في الفصل الرابع رصدت أن مصر بدأت تدفع الجزية بشكلٍ منتظم لأوّل مرة للغزاة الأسيويين: الفرس، في سنة 525ق.ع.م. عقب الهزيمة التي حاقت بها تحت قيادة الفرعون الشامخ الأنف الذي أبى إلاّ مواصلة القتال بعد أن أطلق الفرس سراحه، حتى وقع في الأسر مرة أخرى، وصلبوه، في أرجح الروايات. لكن هذه الهزيمة لم تكن سوى هزيمة عسكرية. إذ ظلت الثقافة القومية للمصريين حية قادرة على المقاومة إلى أن وفدت الشعبة الثانية ثم الثالثة من الديانة الإبراهيمية أو ديانة الساميين.

و في الفصل الخامس طرحت هذا السؤال الذي يُطرح لأول مرة، حسب معلوماتي: هل جاء العرب خلال النصف الثاني من القرن السابع من العصر المعروف، كي ينشروا دعوة دينية حنيفية تخاطب العالمين أم جاؤوا أيضاً لنفس الغرض الذي جاء من أجله قبلهم، الفرس و الأشوريون والرومان، و جاء من أجله بعدهم الأتراك العثمانيون و غيرهم؟ و حاولت تقديم إجابتي التي أتحمَّل مسؤوليتها وحدي بطبيعة الحال، على السؤال.

و في الفصل السادس توقفت أمام هذا السؤال: هل كان للزراعة أن تنهزم أمام الرعي أو هل كان للحضارة في عبارة أخرى أن تندحر أمام البداوة؟ و قلت في هذا الصدد أن المصريين تجرَّعوا قدر الهزيمة حتى النخاع، أي حتى فقدان الثقة في ذواتهم، و احتقار جدودهم أي أنفسهم. و لكن قطاعاً من هؤلاء المصريين كان هناك. و أقصد بكل وضوح "الأميين المصريين" أولئك الذين حالت أميتهم لمدد طويلة دون "التلوث" بالثقافة العربية-السامية، و هو الأمر الذي ضمن استمرارهم في الحفاظ على قدرٍ يزيد أو يقل من الإتصال بحضارتهم المصرية القديمة، التي تُعد واحدة من أعظم الحضارات، إن لم نقل الأعظم، في الشرق الأوسط القديم. و ضربت مثلاً على ذلك القدر من الاتصال بتلك الحضارة بالتوقيت المصري القديم، الذي يُسمى بالسنة الزراعية. ويبدأ بشهر "توت" و ينتهي بـ "مسرا". و يحفظه الأميون المصريون دون متعلميهم عن ظهر قلب في أرياف مصر بما في ذلك الريف النوبي في جنوب وادي النيل.

و في الفصل السابع عرضت لموقف طائفتين من كبار "المتعلمين المصريين" أقصد الأثريين واللغويين، و بالتحديد مدرسي الآثار المصرية القديمة و مدرسي اللغويات في جامعات مصر. وهو نفس موقف سائر "المتعلمين المصريين" أي القيادة الثقافية المفترضة للأمة المصرية أمام الغزو العربي الذي لا يزال مستمراً لمصر، و هو الموقف الذي يقوم على إنهاء وجود المصريين كأبناء قومية مستقلة، أي وضع حدٍ لمقاومتهم للفناء الثقافي، الذي لا يسبق الفناء المادي إلا بخطوة أو خطوتين.

و في الفصل الثامن تناولت مقالين أو دراستين، إحداهما لأستاذ دكتور غير متخصص في اللغويات بل في الفلسفة و الأخرى لأستاذٍ دكتور متخصص في هذا العلم الحديث النشأة، إذ جاءت ولاته، إذا شئنا الدقة، في أوائل القرن العشرين و حسب، ما دمنا لا نخلط بينه و بين علومٍ أخرى شبيهة. و لكن الدكتورين الأكاديميين انتهيا إلى نتيجة واحدة تجاه الموضوع الذي طرحاه، حول ما يترآى من "عامية" و "فُصحى". و كان هذا طبيعياً بل الأمر الوحيد الطبيعي طالما لم "يفكرا" في الموضوع تفكيراً موضوعياً يُنحي العواطف جانباً، بل رددا أفكاراً صحيحة و الأدق يعتقدان في صحتها و لا يستطيع أي منهما إلاَّ أن يؤمن بها "إيمان العجائز" طالما كانت تلك هي آراء الثقافة السائدة.

و كنت قد نشرت هذا الفصل لأول مرة، في مجلة "مصرية" ـ ماستر ـ في العدد رقم 8 الصادر في كياك/ ديسمبر 1985

و في الفصل التاسع ركَّزت على نقد عدد من المصلحين الكبار للأبجدية العربية النبطية الأصل في سبيل الدعوة إلى:

1- استخدام النسق الأبجدي القبطي، و خصوصاً حروفه الديموتيكية السبعة في الكتابة.

2- رسم لغتنا بطريقة مورفومية-صوتية قدر المستطاع، حتى نجعل فهم القارئ لما يقرأ أقرب منالاً.

و لكنني كنت أقصد، على العكس، من سائر المصلحين بلغتنا، "اللغة المصري الحديثة" (اللمح)، الموصومة بـ "العامية" من جانب الخبراء الأمريكيين، و أتباعهم من "الأكاديميين المصريين".

و كان هذا الفصل قد ظهر لأول مرة كدراسة مستقلة في مجلة "مصرية" التي سبقت الإشارة إليها، العدد رقم 9 الصادر في بابة/ أكتوبر 1986.

و في الفصل العاشر عُدت كي أتناول باستفاضة أكبر موضوع العلاقة بين "اللمح" التي أعتبرها المرحلة الرابعة في تطوُّر لسان المصريين و بين اللغة العربية التي دأب المستشرقون في أوقاتٍ سابقة على الإشارة إليها باسم اللغة العربية الكلاسيكية. و أكدت مرة أخرى على الصلة القوية التي تربط لغة المصريين في الوقت الحاضر بلغة جدودهم الأقباط و جدودهم الأبعد من المصريين القدماء، و بعبارة أخرى أسست لإمكانية تحويل درس اللغة المصري الحديثة(اللمح) التي يُطلقون عليها اسم "العامية" من دوائر أقسام اللغة العربية الكلاسيكية أو "الفُصحى" في كليات الآداب في الجامعات لـ "عدم الاختصاص". و كان هذا البحث قد طلبته مني مجلة "القاهرة" و نشرته في عددها رقم 163 بؤونة/ يونيو 1996. و لقد عاب النشر في هذه الدورية نفس ما عابه في مجلة "أدب و نقد": الافتقار إلى الحروف القبطية و العلامات الهيروغليفية لكتابة الجمل و الكلمات التي كانت محل استشهادٍ من جانبي للتدليل على وجهة نظري تجاه الموضوع.

و في الحادي عشر عرضت بتوسُّع أكبر لما تسميه الثقافة السائدة بالعامية و ما تسميه بالفصحى.

و في الثاني عشر تناولت كتاباً قدَّم له أكاديمي هو "جغرافية التوراة في جزيرة الفراعنة".

و في الفصل الثالث عشر وقفت أمام تهمة يرددها المتعربون و العروبيون في مصر في حقنا نحن المصريين-المصريين الذين تقلَّصنا إلى "جالية" محدودة، و هذه التهمة هي "الشوفينية". و هذا

الفصل عبارة عن ورقة العمل التي قدمتها في "ندوة الاستقلال الوطني" التي انعقدت لمدة ثلاثة أيام من 23يوليو/ أبيب 1997 إلى 25 منه، و نظَّمها "مركز المحروسة" في قاعة "التوفيق" بالضاهر. و قد حملت الورقة نفس العنوان الذي ظهرت به في هذا الكتاب. و قد أقمت أدلة قوية، فيما أظن، على أن المصريين-الساميين أي "المصريين-المتعلمين" يعانون، عوضاً عن "الشوفينية" من "الدونية القومية".

و في الفصل الرابع عشر حاولت أن أفنِّد بأدلة جديدة التهم الثلاثة التي توجهها الثقافة السائدة إلى ما أدعوه بـ "اللغة المصري الحديثة" (اللمح): كونها "لهجة" من لهجات اللغة العربي "الفصحى" و كونها "عامية" لتلك اللغة الوافدة إلى مصر و وادي النيل من غرب آسيا. أما التهمة الثالثة فهي كونها "ممزقة" لوحدة المنطقة التي أطلقت عليها قائدة الاستعمار القديم اسم "العالم العربي". و استندت في تفنيد هذه التهمة الثالثة على شهادتين إحداهما من المشرق العربي و الأخرى من مغربه. و كلتا الشهادتين تؤكدان أن لسان المصريين هو اللسان المفهوم الوحيد، دون حاجة لأن "يتعلمه" أحد، في هذه المنطقة التي تُعد، عوضاً عن عروبتها "بحيرة مصرية"، و أن من يسميهم الآخرون ببعض الازدراء "عرباً" و يقبلون تسميتهم بهذا الاسم نفسه بكل الاعتزاز، لا يستطيعون أن يتفاهموا ـ لذهول "المتعلمين-المصريين" بكل تأكيد ـ إلاَّ بـ "اللمح". و هذا الفصل هو نص المحاضرة التي دعتني "الجمعية المصرية للتنوير"، خلال عصرها الذهبي في مقرها بمصر الجديدة يوم 28 أمشير/ فبراير 1988.

و في الفصل الخامس عشر رصدت ملامح المأساة التي تواجهها المرحلة الثالثة، حسب توصيفي في تطور لسان المصريين، و أقصد اللغة القبطية. و هي مأساة مضلعة الأبعاد. فالبعض يقشعر لسماع اسمها، و البعض الآخر يرفع ديانته الأجنبية عليها، و من ثم يُحاول توظيفها لخدمة أغراض هذه الديانة، مثل مشروع الاتحاد بين الكنيستين الأرثوذوكسيتين المصرية و اليونانية، و هو المشروع، مرة أخرى، الذي لم ينجح إلاَّ في اهدار القيم الصوتية الجديدة التي أسندها جدودنا المصريون/ الأقباط للحروف اليونانية عند كتابتهم للغة القبطية بتلك الأبجدية. و الفصل عبارة عن نص الدراسة التي نشرتها ـ مبتورة مشوشة من جراء تدخلات مصحح أصولي جهول ـ مجلة "أحوال مصرية" الفصلية في عددها الثامن من سنتها الثانية أي في ربيع سنة 2000.

و في الفصل السادس عشر نقَّبت تحت تعابير مصرية معاصرة كي أكتشف الأصول الكامنة وراءها، ليس في الثقافة العربية-السامية كما تجري "أهازيج" الثقافة السائدة، بل في مرحلة أو أخرى من اللغة المصرية القديمة بصفة خاصة و الثقافة المصرية القديمة بصفة عامة. و الفصل هو، نص الورقة التي ألقيتها و الأدق ألقيت ملخَّصاً لها أمام المؤتمر العلمي السنوي لكلية دار العلوم- جامعة المنيا، و هو المؤتمر الذي انعقد في الفترة من 20-22نوفمبر/ هاتور سنة 2000، و الورقة مكتوبة، كما هو واضح بـ "اللمح"، و لعل هذا هو السبب في عدم ظهورها ضمن وثائق المؤتمر التي نشرها منظموه في وقت لاحق من انعقاده.

و إلى هذه الطبعة، و هي الرابعة، أضفت فصلين جديدين هما:

السابع عشر: (عن الفرق/ الفروق بين "اللمح" و "اللعق")

و لم يُسعفني لا الوقت و لا المساحة إلا بالوقوف أمام فرق واحد، و إن كنت أراه جوهرياً بين اللغتين العربية القديمة (اللعق) و المصرية الحديثة (اللمح). و يتمثَّل هذا الفرق في انتماء الأولى إلى ما يُسميه العلماء باللغات التركيبية و انضواء الثانية أي (اللمح) إلى ما يُعرف باللغات التحليلية.

والثامن عشر: (اللغة المصري الحديثة هي اللغة القومية للمصريين)

و هو عبارة عن نص المحاضرة التي تدخل، كما يستطيع قارئ حصيف أن يرى في نطاق اللغويات السيكولوجي. و في هذه المحاضرة أقمت أدلة أراها قوية على أن اللغة القومية للمصريين المعاصرين هي "اللمح" التي ترميها الثقافة السائدة، التي يرسم الخبراء الأمريكيون في الوقت الحاضر أسسها و فروعها على حدٍ سواء، بأنها "عامية" لـ "فُصحى" و يقصدون بتلك "الفصحى" المزعومة "اللغة العربية القديمة"، أي تلك اللغة التي لم تعُد لغة قومية/ لغة أم لأحد في المنطقة التي يُصر الخبراء الأمريكيون على أنها تتحدث ما يسمونه بـ "الفصحى".

وأرجو أن يتفهم قارئي الكريم، و يغفر لي أن أكتب كتاباً مثل هذا الكتاب، و الأدق أكتب معظمه باللغة العربية "الفصحى"، دون لغتنا "اللمح". كما أتعشَّم أن يغفر لي ـ قارئي الكريم أيضاً ـ بعض التكرار لأفكاري الأساسية، و هو التكرار الناجم عن طبيعة كتابة هذه الفصول، مرة مستقلة و عدة مراتٍ قصد النشر في دوريات أو إلقائها كأوراق عمل أو محاضرات.

و في ختام الختام أثبت نص المقال الذي كتبه المستشرق السويدي المعروف "إنجفار ريدبيرج" عن كتابي بصفة خاصة و وضع الثقافة في مصر و المنطقة بصفة عامة:

The Arab world constitutes a linguistic and mainly also a religious unity. Common are also a lingering underdevelopment (the one that is measured in statistics) and important political attitudes. But it now consists of twenty-two entrenched states with different kinds of regime and interests, at least as they are perceived by the ruling elites and then as a possible manifestation of *realpolitik* But under the surface a deeper sense of separate identity is discernable here and there.

Some countries in the area had a long national history with highly developed civilization a long time before the Arab and Islamic conquests of the 7^{th} century. This is chiefly the case with Egypt which returned as a great power even in Islamic times, for example under Salah al-din al-Ayyubi during the Crusades, the Mamluks in the later Middle Ages and Muhammed Ali at the beginning of the the 19^{th} century. After the Second World War Egypt tried for some decades to gather the Arab world under its leadership.

But the efforts to draw Egypt into pan-Arab projects have not been successful, nor are they liable to be so in the future. Nasser's failed politics during the 50^{th} and 60^{th} have changed the the mood and given a new push to supporters of a separate Egyptian identity. This has also come about in reaction to the inflow of oil money from the Arabian pensinsula since the 70^{th}.Public life in Egypt has been profoundly influenced by one-sided subsidizing of conservative religiosity and forces that are hostile to an open, modern society. Quite a lot of Egyptians have been thoroughly upset by this "second occupation" by the culturally inferior Arabia. Many have remained focused at immediate political concerns, but a minority with a greater interest in language and identity has reached for more radical conclusions.

A particularly radical conception has been elaborated by the writer and journalist Bayoumi Qandil in his book "*Hadir al-thaqafa fi Misr*"(The Present State of Egyptian Culture),that was published in Cairo in 2003(still only available in Arabic).The title alludes to the important polemical book, written by the doyen of modern Arab literature Taha Hussein in 1938, "*The Future of Egyptian Culture*".There T. Hussien, who also was an outstanding expert on Islamic history and literature, pleads for Egypt's belonging to Mediterranean civilization or at least its duty to strive in that direction.

Qandil follows a similar ideological line and argues in favour of Egypt's affirmation of its own unique national personality. Egypt possesses since time 'immemorial a sedentary, agricultural civilization, which in all respects is superior to that of Arabia's barren, nomadic pastoralism. But due to its wealth and geographical openness it has for nearly three thousand years been an easy prey of conquerors, which have not only dominated and exploited it but also, with surprising success, undermined its national culture.The decline started with the Persian conquest in the 6th century BC with its blow to many Pharaonic institutions. It increased with the Greek and Roman rule after Alexander the Great and still more with the Arab conquest of the the 7th century AD. Qandil and his cultural nationalists mean that Egypt has been a body without a head for over two thousand years. It has had a ruling class with a very low religious and intellectual self-esteem, so outsiders have easily imposed their culture and finally even their language upon it. According to this view the Arabization and Islamization of Egypt was a tragedy and is to a great extent responsible for its underdevelopment.

But a national, oral culture has to a surprising degree survived under the surface during the Arab era, carried by the illiterate masses of the countryside. They abandoned rather soon –about one thousand years ago- Coptic, which represented the latest stage of the language of Pharaonic Egypt. But it was in favour of a spoken Arabic that has taken over several characteristics of the Coptic substratum. Sufism has played the role of an important spiritual defence against different kinds of indoctrination. It remains in our days a bulwark against the coercion and terror of Wahhabism and on the other side against the missionary activities of Anglo-Saxon Protestantism.

Qandil's most important proposition is that Egypt again starts using the Coptic, which concides with the Greek one but added seven letters from Demotic (for sounds not found in Greek).The Egyptian language could then separate itself gradually from Arabic by assuming Coptic words and importing more Western words.This linguistic phonemenon is not unknown in our days. Since the independence of India Hindi has ever more dissociated itself from the Indian –Muslem language traditionally spoken in Northern India, Hidustani, and taken over elements from Sanskrit. In former Yugoslavia a separation process is now going between Serbian,Croatian and Bosnian.

Despite the energy and eloquency of Qandil and his friends their Coptic proposal remains hard to carry out, not only practically, but also because there are still few Egyptians, even among the Copts, that are willing to make it their own. Arabic is too deeply entrenched and the spoken Arabic in Egypt doesn't differ so much from the written one. These facts, as well as the resistence against a more general identity shift, were brought home in the sharp criticism of several Egyptian intellectuals against an earlier edition of Qandil's book, which he includes at the end of the new book together with his own answers.

Qandil doesn't spare his contempt for these "educated" Egyptians. According to him they are educated in a wrong way, because they, like their predecessors during Egypt's long history, try to impose a "foreign written language". As long as this goes on, the Egyptians can remain "illiterate" as far as he is concerned.

It should be added that the cultural movement of which he is a mouthpiece, which is close to a political party founded a few years ago,*Misr al-Umm*,"Mother Egypt" , is not an expression of some Coptic deparatism. Like most of his comrade-in-arms he has a Mulim background. Their interest in Coptic is combined with a considerable disillusionment at the Copts: they have not taken an interest in or cared for their language, which lies dormant and only serves as a liturgical language of the Coptic Orthodox church. In the 19^{th} and 20^{th} centuries many Greek and Arabic words filtered in without encountering resistence. In modern times mostly Western linguists have been actively occupied with the Coptic language.

Bayoumi Qandil is himself a writer of fiction having produced short stories and poems as well as essays. He finds his motifs in the Nile delta, from which he originates and with which he has remained in contact in the life and struggle of peasants for a tolerable existence. Like most writers he uses the dialect – or the Modern Egyptian Language as he calls it – in the speech parts. A collections of his short stories ,*Amuna tikhawi aljan*, ("Amona is allied with the djinns") is however wholly written in this language, although in Arabic writing(script). He has still not dared to use the Coptic alphabet in longer texts.

He is not alone in viewing Egypt in a very long perspective.like quite a few people he wants to reawaken the strong interest in Pharaonic times that characterized Egypt between the two World Wars. In the year when Egypt

got its formal independence,1922,the archeologists Carter and Carnarvon discovered Tutanchamon's magnificent grave in the Valley of the Kings. This reminder of Egypt's great past was taken up by the nationalist movement and became an important ingredient in the national consciousness of that period.

No less person than Naguib Mahfouz started his writing in the 1930s with three historical novels in a Pharaonic setting, although some events there could be seen as commentaries to the actual national struggle. Mahfouz has always been primarily an Egyptian patriot with scant interest in panarabism.

To sum up we presently find two contradictory tendencies in Egypt and some other Arab countries(like Morroco and Algeria with their many Berbers):On one side we have the forces of globalization, which culturally and linguistically cannot but favour the common written language, which is used in all serious contexts, even in speech when religion, politics and literarure is discussed. On the other side identity-consious persons search for roots with a view of a new national renaissance within a more limited framework affirming popular culture, specially that of the countryside. The first tendency can seem to have the upper hand, but factors like consciousness and identity are unpredictable and can certainly not be dismissed for a long time.

ح يسعدني أسمع أي صدى و كل صدى لأي قرّاي كريم:

Bayoumiq@yahoo.com

بيومي قنديل

*ليسانس آداب. قسم اللغة الانجليزية و آدابها. جامعة القاهرة 1964.

* عضو نقابة الصحفيين.

*عضو اتحاد الكتاب.

*عضو جمعية القاهرة للغويين.

*عضو جمعية الآثار القبطية.

بعض الأعمال المؤلفة:

- "ضم القمح ليلاً". مجموعة قصص قصيرة. الهيئة العامة للكتاب.
- "أمونة تخاوي الجان". مجموعة قصص قصيرة. دار نشر خاصة.
- "عصفور الجنة". مسرحية للأطفال. عُرضت على المسرح القومي للأطفال.
- "الترجمة فن" دراسة. نشر خاص.

* "دفاع عن تراثنا القبطي". دار "ميريت" 2007

أهم الأعمال المترجمة:

* "المايم و البانتومايم". تأليف: "توماس ليبهارت". الهيئة العامة للكتاب.
* "أخناتون: الفرعون المارق" تأليف: "دونالد ريدفورد. دار آفاق للنشر والتوزيع.
* "قصة خروج بني إسرائيل من مصر في الميزان". (تحت الطبع)

- "مصر و كنعان و اسرائيل في العصور القديمة" تأليف: دونالد ريدفورد. المجلس الأعلى للثقافة. 2004
- الصوفيون. تأليف: إدريس شاه. المجلس الأعلى للثقافة. 2005
- "جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية". تحرير: ثيو هرمانز. المجلس :لأعلى للثقافة. 2005

بالإضافة إلى عشرات القصص و المقالات و عروض الكتب و المحاضرات و القصائد المنشورة و المذاعة و اللقاءات التليفزيونية داخل مصر و خارجها.